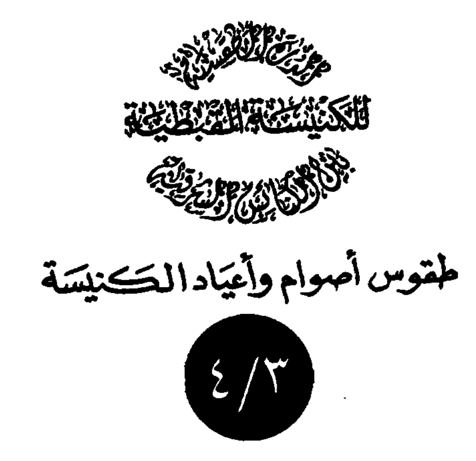


طقوس أصوام وأعياد الكنيسة

٣/ ٤

الميلاد البتولي والظهور الإلهي

التاريخ الطقسي / طقوس الصلوات



الميلاد البتولي والظهور الإلهي

التاريخ الطقسي / طقوس الصلوات

الكتاب: الميلاد البتولي والظُّهور الإلهي

The Virgin Birth and The Divine Manifestation

الكاتب: الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

(راهب من الكنيسة القبطيَّة)

المطبـــعة : مطابع النوبار . ١٣ شارع ١٣ مدينة العبور

الطَّبـــعة : الأولي، يناير ٢٠١١ م

التَّرقيم الدَّولي : 2 - 8651 - 17 -977

رقم الإيداع بدار الكتب : ٧٢٧١ / ٢٠١٠

ثمن النُّسخة ١٧ جنيهاً



قداسة البابا شنودة الثالث
بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

المحتويات

البَاب الثَّاني: عيد الميلاد المجيد

البَاب الثَّالث: برامون وعيد الغطاس المجيد

البَاب الرَّابع: لقَّان عيد الغطاس المجيد

الملاحق



مقدِّمة عامة

في هذا الكتاب الذي بين يديك قارئي العزيز، يدور حديثنا التَّاريخي واللِّيتورجي في آن معاً، عن عيد الميلاد المجيد، وعيد الإبيفانيا أي الظُّهور الإلهي المجيد، وذلك في تقليد الكنيسة القبطيَّة. مع إطلالة على الكنائس الشَّرقيَّة الأُخرى، وذلك ضمن البنود الأساسيَّة التَّالية:

- برامون الميلاد وتاريخه الطَّقسي.
- عيد الميلاد البتولي، في الكنيسة القبطيَّة والكنائس الشَّرقيَّة الأُخرى.
- الأيام التي تلي عيد الميلاد.
- برامون وعيد الظُّهور الإلهي المجيد.
- قُدَّاس لقَّان الماء في الكنيسة القبطيَّة، والكنائس الشَّرقيَّة الأُخرى.

ولقد كان عيد الظُّهور الإلهي، هو المناسبة التي تحتفل فيها الكنيسة بميلاد السيِّد المسيح له المجد، وعماده في نهر الأردن بيد يوحنا المعمدان، وذلك قبل أن ينفصل العيدَين عن بعضهما.

ولقد جمع الكتاب بين دفَّتيه، جانباً وافراً - فيما يتَّصل بالميلاد البتولي والظُّهور الإلهي المجيدَين - من الثَّلاثة محاور التي أشرتُ إليها غير مرَّة في مقدِّمة الكتاب الأوَّل لكلٍّ من السِّلسلتين الأولى والثَّانية من السَّلاسل الأربع التي تضمُّها مجموعة كُتُب "الدُّرَّة الطَّقسيَّة"، وهي المحاور التي التزمتُ بها منذ البداية، وبنعمة الرَّب إلى النِّهاية.

إنَّ عيد الإبيفانيا، هو أقدم عيد عرفته الكنيسة المسيحيَّة، بعد عيدَي

القيامة والعنصرة. وهو العيد الذي عرفته كنيسة مصر أولاً، ومنها انتشر في كلِّ أرجاء الشَّرق المسيحي، ثمَّ الغرب أيضاً. ومن ثمَّ، فتجد في هذا الكتاب شرحاً للتَّاريخ الطَّقسي لعيد الإبيفانيا، ثمَّ شرحاً لطقوس صلواته.

إنَّ عيدَي الميلاد والإبيفانيا هما عيدا البهجة والسُّرور. ومن بين علامات هذا الفَّرح العظيم، طفلاً مُضجعاً في مذود! ومِن هذا الاتضاع المذهل، والإخلاء العجيب، بدأت بُشرى إشراقة العهد الجديد، في أعظم خبر بلغ المسكونة والسَّاكنين فيها، منذ أن كانت وإلى انقضاء الأيام، وهو أنَّ الرَّب صار إنساناً، وحلَّ بيننا، بل وفينا!

ويلخِّص البابا أثناسيوس الرَّسولي غاية التَّجسد الإلهي بقوله:

[... وأمَّا الآن، وقد صار الكلمة إنساناً، وقد اقتنى لنفسه خاصة، أمورَ الجسد، لم تعُد هذه ماسكةً في الجسد، بسبب الكلمة الذي صار فيه، بل صارت تُستأصل بواسطته، والبشر لا يعودون فيما بعد خطاةً ومائتين بحسب أوجاعهم الخاصة، ولكنَّهم يقومون بقوَّة اللُّوغوس، ويبقون إلى الأبد غير مائتين، وعديمي الفساد] (ضد الأريوسيِّين ٣:٣٣).

ومن علامات هذه البهجة أيضاً، أنَّ الرُّوح القُدُس قد نزل على الابن في الأردن من أجلي ومن أجلك. فالرَّب لم يكن محتاجاً أن ينزل الرُّوح القُدُس ويحل عليه، لأنه هو والرُّوح القُدُس والآب واحد، فالرُّوح القُدُس الذي نأخذه نحن بالموهبة، هو في المسيح وحده بالطَّبيعة، ومنذ الأزل. لأنَّ الرُّوح القُدُس هو روح المسيح. وينفي القدِّيس أثناسيوس الرَّسولي عن الابن احتمال قبوله للرُّوح القُدُس وهو في مياه الأردن ليعتمد. ولكن الرُّوح القُدُس حلَّ على الجسد بملء اللاَّهوت لكي نأخذ نحن من هذا الملء

إذا اتَّحدنا بذاك الجسد. فالابن عندما تقبَّل الرُّوح القُدُس، نكــون نحــن الذين تقبَّلنا به الرُّوح. وعندما ننال شركة الرُّوح، تكون لنا محبَّــة الآب، ونعمة الابن الوحيد.

يقول البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م):

[إنَّ حلول الرُّوح القُدُس عليه في الأردن، كــان حلــولاً للرُّوح علينا نحن، بسبب أنَّه كان لابساً جسدنا نحن. فلم يكن ذلك من أجل ارتقاء الكلمة ذاته، بل بالحري من أجل تقديسنا نحن، حتى نشترك في مسحته، ويُقال عنَّا: «أمَّا تعلمون أنكــم هيكل الله، وروح الله ساكن فيكم؟» (١كورنثوس ٣:١٦). فلما اغتسل الرَّب في الأردن بصفته إنساناً، كُنَّا نحن المغتسلين فيــه وبواسطته. ولمَّا قَبِل الرُّوح القُدُس، كنَّا نحــن الــذين نقبلــه بواسطته] (ضد الأريوسيِّين ١:٤٦، ٤٧).

راجياً إلى الرَّب الإله أن يبارك هذا الجهد المتواضــع، ويجعــل منــه تذكاراً لفرح خلاص ثمين، سبق أن بشَّرنا به ملاكٌ من السَّماء، حين قال: «ها أنا أبشِّركم بفرح عظيم يكون لجميع الشَّعب، أنه وُلد لكم اليَوم في مدينة داود مخلِّص هو المسيح الرَّب» (لوقا ٢:١٠).

وليملأ الرَّب كنيستنا القبطيَّة الحبيبة، بملء الفرح والحبور، بحضــوره الحي فيها، ببركة شفاعة أُمِّ الخلاص مريم، العذراء كلَّ حين. وصــلوات آبائنا الرُّسل المكرَّمين، وصفوف الشُّهداء والأبرار والصدِّيقين. وصــلوات أبينا الطُّوباوي المكرَّم قداسة البابا شنوده الثَّالث، بابا الإسكندريَّة وبطريرك الكرازة المرقسيَّة، وآبائي الأجلاء المطارنة والأساقفة والقمامصة والقسوس، وإخوتي الشَّمامسة الأحباء، وكلّ طغمة العلمانيِّين المبارَكين.

ولإله كلِّ نعمة، الذي دعانا إلى مجده الأبدي في ابنه المسيح يسوع، المجد والسُّلطان إلى أبد الآبدين آمين.



بيان بالمخطوطات والمطبوعات المستخدمة في هذه الدِّراسة

قد اعتمدتُ على المخطوطات والمطبوعات الآتي بيانها هنـا بصـفة أساسيَّة، إلى جانب ما ورد من مراجع في نهاية الكتاب. وهي:

◆ مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) المحفـوظ بمكتبـة الـدَّار البطريركيَّة بالقاهرة، والذي يعود تاريخ نساخته إلى سنة ١٩١٠م[١].
وسأرمزُ له باسم "**مخطوط البطريركيَّة بالقاهرة (١١٧ طقـس) لسنة ١٩١٠م**"

إلى جانب المخطوطات التَّالية[٢]:

◆ مخطوط ترتيب البيعة المحفوظ بمكتبة البطريركيَّة بالقاهرة وتـاريخ نساخته هو سنة ١١٦٠ش/ ١٤٤٤م.
وسأرمزُ له باسم "**مخطوط البطريركيَّة بالقاهرة (٧٣ طقس) لسنة ١٤٤٤م**".

◆ مخطوط ترتيب البيعة المحفوظ بمكتبة دير البرامـوس، وتـاريخ نساخته هو سنة ١٢٣٠ش/ ١٥١٤م.
وسأرمزُ له باسم "**مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م**".

◆ مخطوط ترتيب البيعة المحفوظ بمكتبة دير الأنبـا أنطونيـوس، وتاريخ نساخته هو سنة ١٣٧٧ش/ ١٦٦١م.

١- لديَّ صورة طبق الأصل منه.
٢- مخطوطات ترتيب البيعة الآتي بيانها في المتن هي بدون أرقام، وما يُـذكر عنـها مأخوذ من كتاب: الأنبا صموئيل أسقف شبين القناطر وتوابعها، ترتيـب البيعـة عـن مخطوطات البطريركيَّة بمصر والإسكندريَّة ومخطوطات الأديرة والكنـائس، الجـزء الثـاني، القاهرة، ٢٠٠٠م.

وسأرمزُ له باسم "**مخطوط الأنبا أنطونيوس لسنة ١٦٦١م**".

◆ مخطوط ترتيب البيعة المحفوظ بمكتبة دير السِّريان، وتاريخ نساخته هو سنة ١٤١٤ش/ ١٦٩٨م.
وسأرمزُ له باسم "**مخطوط السِّريان لسنة ١٦٩٨م**".

◆ مخطوط ترتيب البيعة المحفوظ أيضاً بمكتبة دير السِّريان، وتاريخ نساخته هو سنة ١٤٣٥ش/ ١٧١٩م.
وسأرمزُ له باسم "**مخطوط السِّريان لسنة ١٧١٩م**".

◆ مخطوط ترتيب البيعة المحفوظ بمكتبة البطريركيَّة بالإسكندريَّة، وتاريخ نساخته هو سنة ١٤٣٢ش/ ١٧١٦م[٣].
وسأرمزُ له باسم "**مخطوط البطريركيَّة بالإسكندريَّة لسنة ١٧١٦م**".

كما سأعتمد أيضاً على:

◆ "مخطوط رقم (٣ قبطي) بمكتبة فيينَّا (النِّمسا)"، وهو مخطوط أبصلموديَّة قبطي عربي، كان وقفاً على دير القدِّيس أنبا مقار ببريَّة شيهيت. ورقاته الأولى والأخيرة ضائعة، وبه إهداء في ثنايا ورقاته الدَّاخليَّة من أسقف قبطي هو الأنبا إيساك أسقف طمبدا (مركز مغاغة) إلى ولده الشمَّاس. والإهداء مؤرخ بتاريخ سنة ١٤٨٦م. أي أنَّ المخطوط يعود حتماً إلى ما قبل هذا التَّاريخ.
وسأرمزُ له باسم "**مخطوط فيينَّا**".

إلى جانب كُتُب الصَّلوات الكنسيَّة المطبوعة الآتية:

٣- هذا المخطوط مهمٌّ للغاية، لأنه يورد طقوس ونصوص الصَّلوات كما كانت تُمارس في كنائس مصر القديمة، وهو ما أشار إليه المخطوط نفسه.

◆ ''كتاب الأبصلموديَّة المقدَّسة السَّنويَّة''، طبع بأمر نيافة السيِّد الجليل، أنبا يؤانس مطران البحيرة والمنوفيَّة، ووكيل الكرازة المرقسيَّة بإسكندريَّة، كُلِّي الشَّرَف، في عهد غبطة الأنبا كيرلُّس الخامس، المائة والثَّاني عشر، بابا وبطريرك المدينة العظمى الإسكندريَّة، وسائر الكرازة المرقسيَّة، الكُلِّي القداسة. بإشراف، القس مينا البرموسي، وكيل بطركخانة إسكندريَّة، سنة ١٦٢٤ للشُّهداء، وسنة ١٩٠٨ ميلاديَّة.

وسأرمزُ إليها باسم: ''**أبصلموديَّة القس مينا البراموسي**''.

◆ ''كتاب الأبصلموديَّة السَّنويَّة المقدَّسة''، طُبعت بأمر قداسة البابا كيرلُّس الخامس، وتصحَّحت على نسخته، ونسخة صاحب النِّيافة الأنبا إسآك مطران البهنسا وبني سويف. طبعت في سنة ١٦٢٤ للشُّهداء، (سنة ١٩٠٨ للميلاد)، بمطبعة عين شمس بمصر. على نفقة أقلاديوس بك لبيب.

وسأرمزُ إليها باسم: ''**أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب**''.

◆ ''كتاب الأبصلموديَّة السَّنويَّة المقدَّسة''، بإذن وترخيص قداسة البابا يوساب الثَّاني، وطَرس البَرَكَة الصَّادر منه لرئيس جمعيَّة نهضة الكنائس المركزيَّة بالقاهرة، وأعضائها[٤]، في ٢٧ أمشير سنة ١٦٦٤ ش/ سنة ١٩٤٨م. على نفقة جمعيَّة نهضة الكنائس القبطيَّة الأرثوذكسيَّة بالقاهرة.

وسأرمزُ إليها باسم: ''**أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨**''.

٤ـ نقرأ فيه: ''... وأصدرنا إليكم طَرس البَرَكَة هذا، لمباشرة طبع هذا الكتاب النَّافع، على أن تضيفوا إليه التَّسابيح والألحان غير الموجودة في الطَّبعتين السَّابقتَين، **وطبقاً للنُّسخة الموجودة بالدَّار البطريركيَّة**''.

وأرجو منك قارئي العزيز أن تتذكَّر هذه التَّوصية من قداسة البابا يوساب الثَّاني للجمعيَّة، فيما تتابع قراءة مادة هذا الكتاب الذي بين يديك.

◆ "كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات الواطس والآدام لبرامون وعيدَي الميلاد والغطاس"، طُبع بأمر نيافة أنبا يؤانس مطران الإسكندريَّة والبحيرة والمنوفيَّة ووكيل الكرازة المرقسيَّة، وفي عهد البابا كيرلُّس الخامس. وقد طبعه القُمُّص باخوم البراموسي وكيل بطريركيَّة الإسكندريَّة، والشَّماس عريان فرج مدرِّس اللُّغة القبطيَّة بالمدارس المرقسيَّة بالإسكندريَّة، سنة ١٩٢٠م.

وقد طُبع الكتاب مرَّة ثانية سنة ١٩٥٧م. واهتم بطبعه نيافة الأنبا أثناسيوس مطران كرسي بني سويف والبهنسا، وقائم مقام البطريرك.

وسأرمزُ إليه باسم: "**كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس**".

◆ "كتاب اللقَّان والسَّجدة"، طبع بأمر صاحب النِّيافة الأب الأقدس الأنبا يؤانس مطران الإسكندريَّة والبحيرة والمنوفية، ووكيل الكرازة المرقسيَّة الكُل الاحترام. وذلك في عهد رب الخصائص القدسية، الجالس على السدة المرقسيَّة، الأنبا كيرلُّس الخامس، بابا وبطريرك الكرازة المرقسيَّة والثَّاني عشر بعد المائة. عني بطبعه وتنقيحه، القُمُّص باخوم البرموسي وكيل بطريركيَّة الإسكندريَّة، والشَّمَّاس عريان فرج مدرس اللُّغة القبطيَّة بالمدارس المرقسيَّة بإسكندرية، سنة ١٦٣٧ش/ ١٩٢١م.

وسأرمزُ إليه باسم "**كتاب اللقَّان السَّجدة**".

البَاب الأوَّل

صوم وبرامون الميلاد

الفَصل الأوَّل

صوم الميلاد من الوجهة التَّاريخيَّة

تمهيد

[١]صوم الميلاد بوضعه الرَّاهن، رتَّبه في الكنيسة القبطيَّة البابا الإسكندري خريستوذولوس (١٠٤٧- ١٠٧٧م) الـ ٦٦ من باباوات الكرازة المرقسيَّة، في القرن الحادي عشر. حيث ذكر في قوانينه أنَّ بداية صوم الميلاد تكون بدءًا من عيد مار مينا (١٥ هاتور/ ٢٤ نوفمبر) إلى يوم (٢٧ كيهك/ ٥ يناير)، وذلك باستثناء يوم (٢٨ كيهك/ ٦ يناير) الذي هو برامون العيد، إذ له طقسه الخاص به. فتكون المدَّة التي قرَّرها البابا خريستوذولوس (عبد المسيح) لصوم الميلاد هي ستَّة أسابيع كاملة أي (٤٢ يوماً).

وإن عُدنا للوراء قليلاً أي في زمن الأنبا ساويرس بن المقفَّع (حوالي ٩١٥-١٠٠٠م)، أي في القرن العاشر الميلادي، نجد أنه يشير إلى صوم يسبق عيد الميلاد، ولكنَّه لا يحدِّده بوضوح. ففي كتابه "مصباح العقل" يقول: "... فأمَّا سائر الأيام التي تُصام، فهي صيام الرُّسل، **والصِّيام في مدخل الميلاد** ... الخ". فهل كان يعني بالصَّوم الذي في مدخل الميلاد أنه برامون الميلاد الذي يسبق العيد مباشرة، وهو صوم البرامون المعروف في الكنيسة منذ أن عُرف عيد الميلاد؟ أم يعني به صوماً للميلاد كان معروفاً في وقته؟

إذاً فصوم الميلاد لمدَّة ٤٣ يوماً (ستَّة أسابيع + يوم البرامون)، وبطقسه

١- هذا الفَصل هو تلخيصٌ لما ورد عنه تفصيلاً في كتاب "صوم الميلاد وتسابيح آحاد شهر كيهك". وقد أوردتُ خلاصته هنا نظراً لأهميَّته من وجهة تاريخ الطَّقس.

الذي هو عليه الآن، معروفٌ في الكنيسة القبطيَّة على الأقل منذ زمن البابا خريستوذولوس في القرن الحادي عشر.

أمَّا في الغرب المسيحي، فلقد عُرف صوم الميلاد(٢) أولاً كفترة توبة تمتد ستَّة أسابيع قبل العيد، وكان أوَّل من مارسها هو غريغوريوس أُسقُف تورس Tours في النِّصف الأخير من القرن الخامس الميلادي. ثم ورد ذكر هذه السِّتة أسابيع في مجمع عُقد في بلاد الغال القديمة (فرنسا الحاليَّة) في القرن السَّادس الميلادي، وكان يُصام في هذه الفترة أيام الاثنين والأربعاء والجمعة فقط.

ومن جهة أُخرى، نجد في مناطق بعيدة عن فرنسا - كما في أسبانيا وشمال غرب إيطاليا وجنوبها - أنه كانت تُمارس خمسة أسابيع صوم فقط استعداداً لعيد الميلاد. وهذا يمثّل تطوُّراً للستَّة أسابيع السَّابقة للعيد. ثم اختُصرت هذه الخمسة أسابيع في طقس روما إلى أربعة أسابيع فقط، وأصبحت هذه الأسابيع الأربعة هي القاعدة الثَّابتة، كفترة تمهيد وتهيئة تسبق عيد الميلاد(٣).

ومن الغرب - وبالذَّات من فرنسا وإيطاليا وأسبانيا - انتقل صوم الميلاد إلى الشَّرق، حيث عرفه الرُّوم والسِّريان والأرمن وغيرهم.

فماذا كان الحال عند الأقباط قبل أن يعرفوا صوم السِّتة أسابيع؟ هذا

٢- يُسمَّى في الغرب Advent من الكلمة اللاتينيَّة Adventus والتي تعني مجيء أو وصول أي "مجيء السيِّد المسيح إلينا على الأرض".

3- Cf. J.G. Davis, A Dictionary of Liturgy and Worship, SCM Press LTD, 1972, p. 12. ; F.L. Cross & E.A. Livingstone, The Oxford Dictionary of The Christian Church (ODCC), 2nd edition, 1988, p. 19.

ما يكشف عنه العالم الطَّقسي ابن كبر (+ ١٣٢٤م) في الباب الثَّامن عشر من موسوعته الطقسيَّة: "مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة" حيث يقول: "إنَّ أهل الصَّعيد كانوا يصومون **صوم الميلاد من أوَّل كيهك**"[٤]. إلاَّ أنه يعود فيقول في موضع آخر من نفس الباب الثَّامن عشر: "... وكذلك صوم الميلاد الذي أوَّله الخامس عشر من شهر هاتور ... الخ". وهو في هذه العبارة الأخيرة يتحدَّث عن طقس مصر، أي طقس الوجه البحري.

وصوم شهر كيهك قبل حلول عيد الميلاد، نجده أيضاً عند يوحنا بن سباع (القرن الثَّالث عشر). إذاً فمنذ ما قبل القرن الحادي عشر، كان الأقباط يصومون شهر كيهك، وهي الإشارة التي نلمحها بوضوح في مدَّونات القرن الرَّابع عشر.

ومن جهة أُخرى، نعرف منذ أيام بن العسَّال (القرن الثَّالث عشر) أنَّ صوم الميلاد ذي السِّتة أسابيع، قد صار صوماً مستقراً في الكنيسة. فيقول في كتابه "المجموع الصَّفوي": "ومن الأصوام ما جرى مجرى الأربعاء والجُمعة، وهو الصَّوم المتقدِّم للميلاد، وأوَّله نصف هاتور، وفصحه يوم الميلاد"[٥].

ومن الشَّواهد السَّابقة، نخلُص إلى القول: إنَّ صوم الميلاد، لم يستقر دفعة واحدة في الكنيسة القبطيَّة في مصر والوجه البحري من جهة، وفي الصَّعيد من جهة أُخرى، وذلك منذ أن تقرَّر في القرن الحادي عشر في زمن البابا خريستوذولوس. لأنَّ بعض أهل الصَّعيد كانوا لازالوا يصومون شهر كيهك بحسب ما يذكر ابن كبر، وابن سباع. **أي أنَّ صوم الميلاد**

٤- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، البَاب الثامن عشر.
٥- القمُّص صليب سوريال، دراسات في كتاب المجموع الصفوي لابن العسال، القاهرة، مايو ١٩٩٢م، الباب الخامس عشر، ص ١٦٦

قبل زمن البابا خريستوذولوس (١٠٤٧-١٠٧٧م) كـان يبـدأ في أوَّل شهر كيهك، وهو التَّقليد الذي حافظ عليه أهل الصَّعيد لفترة طويلة، حتى بعد أن تقرَّر الصَّوم في القرن الحادي عشر بستَّة أسابيع.

ولقد حاول البابا غُبريال الثَّامن في سنة ١٦٠٢م، أن يعود إلى التَّقليد القديم في صوم الميلاد، أي أن يبدأ الصَّوم في شهر كيهك، ولكن محاولته لم تجد تجاوباً.

وما أودُّ أن أشير إليه، هو أنه برغم ندرة ما لدينا من وثائق تاريخيَّة أو مخطوطات عن تاريخ صوم الميلاد في الكنيسة القبطيَّة، إلاَّ أنه يتَّضح لنا من الإشارات المتفرِّقة التي أوردُتها سابقاً، أنَّ صوم شهر كيهك كصوم يسبق عيد الميلاد، هو صوم عرفته كنيسة مصر قبل زمن البابا خريستوذولُوس. أمَّا هذا الأخير، فهو أوَّل من رتَّب بأن تكون مدَّة صوم الميلاد هي ستَّة أسابيع، بالإضافة إلى يوم البرامون، أي بإضافة ثلاثة عشر يوماً على صوم، كان مستقراً ومعروفاً في أيامه.

وإن كان الأنبا ساويرس ابن المقفَّع (حوالي ٩١٥-١٠٠٠م) يشير إلى صوم في مدخل الميلاد، كعادة مستقرَّة في زمانه، فمن الطَّبيعي أن يعود زمن صوم الميلاد إلى ما قبل القرن العاشر على أقل تقدير، إن لم يكن قبل ذلك التَّاريخ بكثير.

هذا من جهة أيام صوم الميلاد، أمَّا من جهة تعليل سبب صوم الميلاد، فلقد فسَّر آباء الكنيسة اليونانيَّة - والصَّوم عندهم ٤٠ يوماً - هذا الصَّوم بأنه مماثلة موسى الذي لمَّا صام، اقتبل كلمة الله - أي الوصايا العشر - في لوحي العهد، ونحن بصومنا نقبل كلمة الله الحي، ليس مكتوباً في ألـواح

حجريَّة، بل متجسِّداً ومولوداً من البتول. ونظراً لأهميَّة هذا الحدث الجليل الذي يُحتفل بتذكاره في آخر هذا الصَّوم، رتَّبت الكنيسة صوماً يتقدَّمه لتهيئة النَّفس[٦].

ولمَّا كان صوم الميلاد في الكنيسة القبطيَّة ٤٣ يوماً (ستة أسابيع + يوم البرامون) فقد نقل البعض تفسير الكنيسة اليونانيَّة لصوم الأربعين يوماً التي للميلاد، وأضافوا تعليلاً للثَّلاثة أيام الباقية، فجعلوا منها تذكاراً لثلاثة أيام الصَّوم التي سبقت نقل جبل المقطَّم، وهي المعجزة التي حدثت في القرن العاشر الميلادي. في حين أنَّ البابا خريستوذولُوس (١٠٤٧-١٠٧٧م) لم يُشر إلى ذلك التَّفسير، ولو إشارة من بعيد.

ولكن الواضح لنا، أنَّ البابا خريستوذولوس جعل صوم الميلاد ستَّة أسابيع (٤٢ يوماً) قبل يوم البرامون[٧]، كعودة إلى الطَّقس القديم الذي عرفه الغرب منذ القرن السَّادس كما سبق القول. ولكنَّه برغم ذلك، لم يستطع أن يغيِّر من طقس الكنيسة اللِّيتورجي ليوائم هذا التَّعديل الذي طرأ. فظلَّ طقس الكنيسة وحتى اليَوم، حارساً لتقليد قديم يسبق زمن البابا خريستوذولوس الـ ٦٦. وعلى مدى هذه القرون العشرة، وحتى يومنا هذا ظلَّ هذا الازدواج قائماً بين طقس قديم راسخ كالجبل، يمهِّد للاحتفال بعيد الميلاد بأربعة آحاد سابقة على العيد، أي آحاد شهر كيهك، وبين إضافة لاحقة عليه لم تزحزح القديم عن موضعه. فالشعب في الكنيسة القبطيَّة، هو راعي الطُّقوس وحارسها الأوَّل، وهي السِّمة التي بسببها يلتجئ الباحثون والدَّارسون إلى الكنيسة القبطيَّة، ليتحسَّسوا فيها أقدم الطُّقوس وأعرقها.

٦- القُمُّص يوحنا سلامه، مرجع سابق، ص ٣٨٥، ٣٨٦

٧- سأشرح بالتَّفصيل تاريخ يوم البرامون، ومعناه، فيما بعد.

ويبدأ صوم الميلاد في الكنيسة القبطيَّة في ١٦ هاتور/ ٢٥ نوفمبر، بينما يبتدئ في الكنيسة البيزنطيَّة في ١٥ نوفمبر، حيث زمن صوم الميلاد فيها هو أربعين يوماً كما ذكرتُ من قبل. وتتَّفق معظم الكنائس الشرقيَّة ـ وهي الكنائس التي تتبع التَّقويم الغريغوري المعدَّل ـ على أنّ انتهاء صوم الميلاد، يكون في اليَّوم الرابع والعشرين من ديسمبر، عدا الأرمن الأرثوذكس، إذ ينتهي الصَّوم عندهم يوم ٥ يناير، بعد فترة صوم هي ستَّة أيام فقط.

أمَّا الكنيسة القبطيَّة فينتهي الصَّوم فيها يوم ٦ يناير، ويتبعها في ذلك الكنيسة الإثيوبيَّة، والكنيسة الإريتريَّة.

وكانت الكنيسة السِّريانيَّة الأنطاكيَّة تصوم صوم الميلاد قديماً بدءاً من نصف تشرين الثَّاني (نوفمبر) إلى الخامس والعشرين من كانون الأوَّل (ديسمبر)، أي أربعين يوماً. ولكن منذ قرون خلت جعلت مدَّته في بلاد ما بين النَّهرين أربعة وعشرين يوماً، مبدأها اليَّوم الأوَّل من كانون الأوَّل. وحالياً، فإنَّ مدَّة هذا الصَّوم عند كلِّ السِّريان الأرثوذكس، هي عشرة أيام فقط.

ويبدأ المؤمنون في الكنيسة البيزنطيَّة في ١٥ من تشرين الثَّاني (نوفمبر) بصومٍ يدوم أربعين يوماً، على نحو الصَّوم الأربعيني الذي يسبق عيد الفصح. ولقد قصَّرت كنيسة الرُّوم الملكيِّين هذه المدَّة، لتبدأها في العاشر من كانون الأوَّل (ديسمبر)، فأصبحت مدَّة الصَّوم خمسة عشر يوماً فقط. أمَّا الآن فيصومون يوماً واحداً[٨].

٨- حياتنا الليتورجيَّة، السَّنة السابعة، لبنان، ١٩٩٦-١٩٩٧م، ص ٧٧٥

ويصوم الآشوريون (النَّساطرة) أربعة وعشرين يوماً. أمَّا الكلــدان[٩] فيصومون حالياً يوماً واحداً. ويصوم الموارنة اثني عشر يوماً، ابتداءً مــن الثَّالث عشر من شهر كانون الأوَّل (ديسمبر)[١٠].



٩- وهم الآشوريُّون الذين يتبعون كنيسة روما.
١٠- حياتنا اللِّيتورجيَّة، السَّنة السَّابعة، لبنان، ١٩٩٦-١٩٩٧م، ص ٧٥٣

الفَصل الثّاني

تاريخ برامون الميلاد

تعريف كلمة "بَرامون " أو "بارامون[١]"

"برامون" تعريب لكلمة يونانيَّة، أصل الفعل لها هـــو παραμένω (بَرامينو) بمعنى: "ثبت – مكث – لبث – استمرَّ– داوم"، وهـــو فعـــل تعرفه أسفار الكتاب المقدَّس بعهديه القديم والجديد[٢].

والكلمة اليونانيَّة παράμονος (بَرامونوس) تأتي كصفة للأشخاص أو الأشياء، أو كوصف لظرف من الظُّروف circumstances ، لتفيد معنى "مستمر – ثابت – مثابر".

أمَّا الكلمة اليونانيَّة ἡ παραμονή (بَراموني) فهي اسم noun وتفيد واحداً من المعاني التَّالية:

- أمرٌ بالاستمرار في الخدمة (لاسيَّما للعبيد).
- الثَّبات والمداومة.
- السَّهَر والتَّرقُّب (لاسيَّما عشيَّة الأعياد Eve of festival).
- الحفظ keeping[٣].

وجاءت الكلمة في اللُّغة العربيَّة "برامون" تحمل تفسيرات كثيرة، تدور كلُّها حول واحد من هذه المعاني الأساسيَّة السَّابقة.

١– كلمة "بَرامون" تعرفها أيضاً الكنائس البيزنطيَّة والسِّريانيَّة الغربيَّة (الأنطاكيَّة) والسِّريانيَّة الشَّرقيَّة (الآشوريَّة)، وكذلك كنيسة روما، والكنيسة الأنجليكانيَّة.

٢– انظر: أمثال ١٢:٧؛ دانيال ١١:١٧؛ ١ كورنثوس ١٦:٦؛ فـــيلبي ١:٢٥؛ عـــبرانيين ٧:٢٣؛ يعقوب ١:٢٥ .

3- Liddle and Scott, *op. cit.*, p. 1318.

ففُسِّرت الكلمة على أنها تعني:

- المداومة والاستمرار في السَّهَر استعداداً للعيد.
- زيادة الاستمرار والمداومة.
- انتظار العيد.
- استعداد فوق العادة.
- حفظ اليَوم الواحد.

ومن هذه التَّفسيرات السَّابقة، تتَّضح محاولة المفسِّرين والشُّرَّاح لتطويع الكلمة، لتشير إلى معنى "**الاستمرار في حفظ يوم الاستعداد السَّابق للعيد**". ولكن يظل التَّساؤل يدور حول المقصود بتعبير "الاستمرار أو المداومة"، استمرار ماذا؟ أو مداومة ماذا؟ هنا يكمُن شرح الكلمة، والذي يتعذَّر الولوج إليه مباشرة، قبل أن أتحدَّث عن التَّاريخ الطَّقسي للبرامون.

وقبل أن أتحدَّث عن التَّاريخ الطَّقسي للبرامون، أودُّ هنا أن أشير إلى بقيَّة التَّفسيرات التي ظهرت للكلمة (برامون) في العصور الوسطى.

فقد ظهر في القرن الثَّالث عشر تفسيراً لمعنى "البرامون" على أنه يعني: "**خلاف العادة**". وكان أوَّل من استخدم هذا التَّعبير هو يوحنا بن سباع في كتابه "الجوهرة النَّفيسة في علوم الكنيسة"؛ فيقول في الباب الـ ٩٩ من كتابه: "والعلَّة في ذلك، أنَّ العادة الجارية، أن يُصام صوم الميلاد إلى التَّاسعة من النَّهار. فلمَّا كان خاتمة الصَّوم إلى المساء، صار خلافاً للعادة، لأجل ذلك سُمِّي باراموني".

ترى إذاً، أنَّ تفسير الكلمة في القرون الوُسطى، لم يكن معتمداً على محاولة فهم معناها في لغتها الأصليَّة، أو محقِّقاً لمعنى الكلمة بحسب

أصولها القديمة، بقدر ما كان تفسيراً لما هو حادث بالفعل من ممارسة طقسيَّة لصوم برامون الميلاد في ذلك الوقت، والذي يعقب صوم الميلاد نفسه، وذلك لإيضاح الفرق بين طقسي الصَّوم في كلٍّ منهما[٤].

إلاَّ أنَّ هذا التَّفسير نفسه يكون مُخلاً، إذا حاولنا تطبيقه على طقس صوم برامون الغطاس مثلاً. إذ ليس هناك صومٌ آخر يسبقه، لكي يمكن تطبيق هذا التَّفسير عليه. ومعروفٌ أنَّ برامون الغطاس قد عُرف أولاً في كنيسة مصر[٥] قبل أن يُعرف فيها برامون الميلاد[٦].

ومن الطَّريف هنا أن أشير إلى تفسير آخر للكلمة "برامون" ورد عند القس شمس الرِّئاسة أبو البركات بن كبر (+ ١٣٢٤م) فيذكر أنه يعني "**الوقفة!**"؛ فيقول في كتابه "مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة" وفي الباب التَّاسع عشر منه:
"... ويتقدَّمه (أي يوم عيد الميلاد) يوم الباراموني، وقيل معنى

٤- من المعروف أنَّ برامون الميلاد سابق من الوجهة التَّاريخيَّة لصوم الميلاد بنحو أكثر من ستمائة سنة. ولمَّا استقرَّ صوم الميلاد في الكنيسة القبطيَّة منذ سنة ١٠٣٩م حاوياً ستَّة أسابيع (٤٢ يوماً) صوم، أُضيف إليه صوم يوم البرامون فصار مجموع أيام الصَّوم التي تسبق عيد الميلاد ٤٣ يوماً.

٥- وجديرٌ بالذِّكر أنَّ كنيسة الإسكندريَّة هي أوَّل كنيسة بين كنائس المسكونة عيَّدت واحتفلت بعيد عماد الرَّب في نهر الأردن بدءًا من القرن الثَّاني الميلادي.

٦- في الثَّلاثة قرون الأولى للميلاد، وقبل أن يُعرف عيد الميلاد كعيد مستقلٍ بذاته، كان يُراعي يوم ٥ يناير من كلِّ سنة، كيوم استعداد بصوم وسهر، ترقُّباً للاحتفال بعيد الغطاس، أو عيد الظُّهور الإلهي في يوم ٦ يناير، والذي كان يُحتفل فيه أيضاً بميلاد السيِّد المسيح.

وبظهور عيد الميلاد في القرن الثَّالث الميلادي، انفصل عن عيد الغطاس، فصار لكلِّ عيد منهما، يوم صوم يسبقه، استعداداً له.

اسمه الوقفة. يُصام فيه إلى العشى كأيَّام الأربعين المقدَّسة...''[٧].

وهو بالطَّبع تعبير غير صائب، تأثَّر بمفاهيم غير مسيحيَّة، ظهرت في ديانات أُخرى.

وبعد هذه التَّعريفات المتنوِّعة يبقى أمامنا تساؤلات تراود أذهاننا هي: كيف نشأ البرامون؟ وما هو تاريخه؟ وكيف تطوَّر حتى صار إلى ما هو عليه اليَوم؟

هذا ما سأعرضُ له في السُّطور القادمة.

الأصل التَّاريخي للبرامون

لكي نتتبَّع التَّاريخ الطَّقسي للبرامون، ينبغي لنا أن نعود إلى عيد القيامة وليس عيد الميلاد أو الغطاس، لكي نقدر أن نمسك بالجذور الأولى التي صاحبت هذا العيد كأقدم عيد عرفته الكنيسة المسيحيَّة.

وبادئ ذي بدء، يلزم أن نفرِّق تفريقاً واضحاً بين تعبيرين قديمين ظهرا في الكنيسة، مصاحبَين لنشأتها المبكِّرة، لطالما كان الخلط بينهما مدعاة للتَّخبُّط:

التَّعبير الأوَّل: يوم الاستعداد Parasceve

وهو في اليونانيَّة παρασκευή (بَراسكيفي) وهو نفس الاسم القديم الذي أعطاه اليهود لأيام ''الجُمعة'' من كلِّ أسبوع، وهو يعني حرفياً: ''اليَوم السَّابق – The day preceding ''، أي اليَوم السَّابق

٧- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، البَاب ١٩

للسَّبت. ولذلك فإنَّ يوم الجُمعة كان يُدعى أيضاً "يوم ما قبل السَّبت" προσάββατον والذي يعني فعلياً "الاستعداد" للسَّبت. وهكذا أصبح تعبير "الاستعداد" هو الاسم المصاحب للتَّعبير اليوناني προσάββατον (بروساباتون)[٨]. ومن ثمَّ صار تعبير Parasceve يعني "يوم الاستعداد". ولقد استُخدم هذا التَّعبير أيضاً ليطبَّق على اليَوم السَّابق لبعض الأعياد الكُبرى اليهوديَّة مثل عيد الفصح Passover .

وتُسجِّل الأناجيل الأربعة[٩] أنَّ الصَّلب قد حدث في "يوم الاستعداد" Parasceve . ولقد انتقل هذا المصطلح - ذو الأصل اليهودي والكتابي في آن معاً - إلى الكنيسة المسيحيَّة، ليُسمَّى به يوم الجُمعة العظيمة[١٠].

التَّعبير الثَّاني: السَّهَر اللَّيلي Vigil

والسَّهَر اللَّيلي يُدعى في اللاتينيَّة Vigili وفي الإنجليزيَّة The Vigil وفي الفرنسيَّة Les vigiles . وهو السَّهَر الذي يسبق عيد القيامة ليبدأ من صلاة الغروب في اليَوم السَّابق للعيد إلى آخر ساعات اللَّيل عند صياح الدِّيك الأوَّل، أي قبل ظهور نور الفجر، حيث يُختم هذا السَّهَر اللَّيلي بقُدَّاس العيد، والتَّناول من الأسرار المقدَّسة.

هذا السَّهَر اللَّيلي، هو ذو أصول مسيحيَّة بحتة، لا تعرفها الخدمة العامة في المجمع اليهودي.

8- ODCC., 2nd edition, p. 1119.

٩- متى ٢٧:٦٢، مرقس ١٥:٤٢، لوقا ٢٣:٥٤، يوحنا ١٩:١٤، ٣١، ٤٢.

١٠- سأضطرّ إلى التَّوقُّف هنا عند هذا الحد. والتفصيلات الأوفر عن ذلك، فستكون عند حديثنا عن أسبوع الفصح المقدَّس، وعيد القيامة إن شاء الرَّب وعشنا.

لقد كان هذا السَّهَر اللَّيلي أمراً شائعاً وعادياً في القرون الأولى للمسيحيَّة، فقد ذكره بليني الصَّغير في خطابه إلى تراجان في مطلع القرن الثَّاني الميلادي (١١١- ١١٣م)، ووُصف أيضاً في مذكّرات السَّائحة الأسبانيَّة "إيجيريا" في القرن الرَّابع الميلادي.

أمَّا سبب انتشار هذا السَّهَر اللَّيلي في الكنيسة منذ القرون الأولى للمسيحيَّة، فهو لاعتقاد عام فيها، أنَّ مجيء الرَّب سيكون في نصف اللَّيل. لذلك فقد حُفظ هذا السَّهَر اللَّيلي Vigil خصوصاً في ليلة عيد القيامة، كما يشهد بذلك العلاَّمة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م)[١١]، وكذلك أيضاً في ليلة عيد العنصرة، ثم امتد فيما بعد ليغطّي ليالي الآحاد وأعياد الشُّهداء.

إذاً هناك فرقٌ واضحٌ لدينا الآن بين تعبير "الاستعداد للعيد" وتعبير "السَّهَر اللَّيلي الذي يسبق العيد".

والآن، إن كانت كرامة السَّبت قد انتقلت إلى الأحد بفعل قيامة يسوع من بين الأموات، وإن كان يوم الجُمعة العظيمة في الكنيسة المسيحيَّة قد احتفظ باسمه كيوم استعداد Parasceve للسَّبت العظيم المقدَّس، فقد صار من اللاَّزم أن يكون هذا السَّبت عينه هو "استمرار الاستعداد" παραμονή (براموني) لعيد القيامة ويوم الرَّب. من هنا نشأ في الكنيسة تعبير جديد هو "**دوام الاستعداد للعيد**"، تمييزاً لتعبير أكثر قدماً منه هو "**الاستعداد للعيد**".

فيكون معنى "البرامون" إذاً هو "استمرار ومداومة (الاستعداد)".

وبناءً على ذلك، يكون التَّفسير الأوَّل لمعنى "البرامون" والذي

11- *Ad uxor.*, ii.4

سبق ذكره وهو: "المداومة والاستمرار في السَّهَر استعداداً للعيد"، هو أقرب التَّفسيرات إلى معنى الكلمة في اليونانيَّة، ولكنَّه تفسير قد خلط بين تعبير "الاستعداد للعيد" Parasceve وتعبير "السَّهَر استعداداً للعيد" Vigil . فكلٌّ من هذين التَّعبيرين - كما سبق أن أشرتُ - مستقلٌّ تماماً عن الآخر.

وفي حين أخذ تعبير "الاستعداد للعيد" Parasceve يقل استخدامه رويداً رويداً في ممارسة الكنيسة المسيحيَّة، ظلَّ تعبيرا "استمرار الاستعداد" παραμονή و"السَّهَر اللَّيلي استعداداً للعيد" Vigil ينموان معاً، ويتَّسع استخدامهما في الكنيسة المسيحيَّة.

وهكذا أصبح تعبير "البرامون" هو التَّعبير المسيحي الذي حلَّ محل التَّعبير اليهودي القديم Parasceve (بَراسكيف) ليشير إلى "الاستعداد" الذي يسبق العيد، حيث انتقل هذا المفهوم إلى بعض الأعياد الكُبرى الأُخرى، لاسيَّما عيدَي الغطاس والميلاد. فاحتفظ التَّقليد القبطي بعيدَين يسبقهما "برامون"، وهما عيدا الميلاد والغطاس، وهو ما تعرفه أيضاً الكنيسة السِّريانيَّة أيضاً. أمَّا الكنيسة البيزنطيَّة، فقد احتفظ التَّقليد فيها بأربعة بَرامونات تسبق أعياد الفصح والعنصرة والميلاد والظُّهور الإلهي.

ولقد عبر تعبيرا "السَّهَر اللَّيلي"، و"برامون العيد"، مراحل تطوُّر متعدِّدة تباينت فيما بينها أحياناً في كلٍّ من الشَّرق والغرب المسيحيَّين، وهو ما سأُقدِّمُ شرحاً له في السُّطور القادمة.

مراحل تطوُّر السَّهَر اللَّيلي Vigil استعداداً للعيد

عُرف السَّهَر اللَّيلي الذي يسبق ليلة العيد في الشَّرق أولاً، ولاسيَّما ليلة عيد القيامة، ومنه انتقل إلى الغرب. وبينما احتفظ الشَّرق بهذا السَّهَر اللَّيلي قريباً من أصوله الأولى حتى اليَوم، إلاَّ أنه قد تلاشى في الغرب نهائياً.

ففي الشَّرق: امتد السَّهَر اللَّيلي من عشية اليَوم السَّابق للعيد وحتى إلى فجر يوم العيد نفسه، حيث يُحتفل بإقامة الإفخارستيَّا والتَّناول من الأسرار المقدَّسة. ثم بعد حين، ضُغطت ساعات السَّهَر الفعلي لكنَّها ظلَّت محتفظة بوقت البداية والنِّهاية ثابتَين، لتشمل بداية السَّهَر في الغروب، تعقبها فترة راحة طويلة نوعاً، حيث تأخَّر زمن بداية السَّهَر نفسه ليكون قبل منتصف اللَّيل بقليل. ثم انحصر السَّهَر اللَّيلي مرَّة أُخرى، لينتهي بعد منتصف اللَّيل تقريباً في عموم كنائس الشَّرق، باستثناء بعض كنائس الأديرة والمُدُن التي ظلَّت تراعي دوام السَّهَر حتى قرب فجر يوم العيد، بحسب الطَّقس القديم.

أمَّا في الغرب: فما هما إلاَّ قرنَين أو ثلاثة، حتى تقلَّص هذا السَّهَر اللَّيلي، لكي يشتمل فقط على بداية اللَّيل وآخره. ففي بداية اللَّيل تُصلَّى صلاة الغروب، أو يُرفع بخور الغروب Vespers ، ويُحتفل في آخر اللَّيل بإقامة الإفخارستيَّا.

وابتداءً من القرن الرَّابع أو الخامس للميلاد، انحصر هذا السَّهَر في السَّاعات التي تسبق حلول اللَّيل مباشرة، أي غروب اليَوم السَّابق للعيد.

وتعرف الكنيسة الأنجليكانيَّة ستَّة عشر عيداً، يسبق كلّ منها سهر ليلي Vigil ، كمجرَّد طقس قديم لا يُمارس فعلياً اليَوم. أمَّا كنيسة روما، فقد

ألغت السَّهَر اللَّيلي لجميع الأعياد لديها باستثناء عيد القيامة، اعتباراً من سنة ١٩٦٩م، وحلَّ محل هذا السَّهَر اللَّيلي قُدَّاس يُقام في المساء في اليَوم السَّابق مباشرة لأعياد الميلاد والعنصرة وصعود جسد السيِّدة العذراء، وعيد ميلاد القدِّيس يوحنا المعمدان وعيد استشهاد القدِّيسَين بطرس وبولس.

مراحل تطوُّر "البرامون" كطقس استعداد للعيد

اقترن عيد الغطاس في مصر، بيوم استعداد (برامون) يتقدَّمه. ومعروفٌ أنَّ كنيسة مصر، هي أوَّل كنيسة في المسكونة تحتفل بعيد الغطاس. ومنها عُرف هذا العيد في كلِّ العالم المسيحي. ومن ثمَّ، فالبرامون معروفٌ في مصر، وبالتَّالي في الشَّرق المسيحي، منذ البداية.

أمَّا أقدم إشارة موثَّقة عن ذلك، فتأتينا من القانون الأوَّل للبابا ثاؤفيلس البطريرك الإسكندري الـ ٢٣ (٣٨٤- ٤١٢م)، حيث يقول: "قد يقع عيد الغطاس أحياناً بحيث يتَّفق أن يكون يوم الرَّب هو يوم الاستعداد له (البرامون)، فلنتصرَّف بحكمة، وبما يليق باليومَين، فنأكل يوم الأحد شيئاً من الأثمار (الثَّمر) حتى لا نقع في بدعة عدم تكريم يوم الرَّب، ولكن لا نهمل الصَّوم كلَّ الإهمال، فنمتنع عن أكل أيِّ شيء بعد ذلك حتى صلاة المساء، أي السَّاعة الثَّالثة بعد الظُّهر"[١٢].

من هذا القانون تتَّضح لنا الملامح الأولى للبرامون والتي تنحصر في:

١- برامون العيد هو لمدَّة يوم واحد فقط يسبق العيد، أياً كان وقوعه ضمن أحد أيام الأسبوع.

٢- صوم يوم البرامون كان إلى السَّاعة التَّاسعة من النَّهار (الثَّالثة

١٢- أرشيمندريت حنانيا كساب، مجموعة الشرع الكنسي، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٩١١

بعد الظُّهر بالتَّوقيت الإفرنجي).

٣- لم يكن يعقب صوم البرامون قُدَّاس البرامون، بل يُختم بصلاة السَّاعة التَّاسعة من النَّهار.

وفي حين قد عُرف البرامون مبكِّراً في الشَّرق، إلاَّ أنه لم ينتشر في الغرب إلاَّ في غضون القرن الثَّامن الميلادي(١٣).

وسُرعان ما حدث تطوُّر ليتورجي لحق بطقس البرامون في الغرب، وهو ما انتقل تأثيره مع الوقت إلى الشَّرق أيضاً. ومن أهم هذه التَّأثيرات، القُدَّاس الذي لحق بنهاية صوم البرامون. ذلك لأنه لما أُلغي السَّهَر اللَّيلي لكثير من الأعياد في الغرب، فقد شاعت منذ القرن الثَّامن للميلاد عادة "استباق السَّهَر اللَّيلي" The custom of anticipating the Vigils وانحصر ذلك في البداية في فترة ما بعد ظهر اليَوم السَّابق للعيد مباشرة. ورويداً رويداً انتقل الصَّوم والصَّلوات والقُدَّاس الذي كان يعقب السَّهَر اللَّيلي نفسه إلى الصَّباح (صباح اليَوم السَّابق للعيد) مع حلول القرن الرَّابع عشر. ومن ذلك الوقت دُعي كلُّ ذلك اليَوم في الغرب بتعبير "profestom"، وهو الاصطلاح الطَّقسي لليَّوم السَّابق للعيد في الغرب والذي يقابل اصطلاح "البرامون" في الشَّرق. وهكذا ابتعد مفهوم البرامون كيوم استعداد للعيد بصوم إلى المساء، ليعني قُدَّاساً يُقام في وضح النَّهار(١٤).

13- ODCC., 2nd edition, p. 1440.

١٤- لقد عدَّلت الكنيسة الغربيَّة في مصطلحاتها الطَّقسيَّة لتواكب التَّطوُّر الذي حدث في الطَّقس. فما كان يُسمَّى "خدمة السَّهَر اللَّيلي" Les Vigiles صار يُعرف بتسمية أُخرى هي Matines ، وهي الخدمة التي تحوي فيها صلاة اللَّيل nuit ، وصلاة السَّحَر matin ، وضمناً أيضاً صلاة عشيَّة veille . فالسَّهَر vigilé الذي يعني

من هذا ترى قارئي العزيز كيف ينطبق هذا التَّطوُّر الطَّقسي - الذي لحق الشَّرق أيضاً - على قُدَّاس سبت الفرح. فهذا السَّبت الكبير، وهو السَّبت الوحيد الذي يُصام فيه انقطاعياً إلى الغروب، صار يُقام فيه القُدَّاس في الصَّباح، وليس في الغروب، فحدث تداخل بين ضرورة صوم هذا اليَوم إلى الغروب، وبين التَّناول من الأسرار المقدَّسة في الصَّباح والذي هو في الحقيقة نهاية كلّ صوم، وليس بدايته.

واستقرَّ براموناً عيدي الميلاد والغطاس في الكنيسة القبطيَّة منذ أن عُرفا فيما لا يتعدى القرن الثَّالث الميلادي حتى يومنا هذا، بعد تطوُّرات طقسيَّة لحقتهما.

ومن القرن العاشر الميلادي، تأتينا إشارة عابرة وردت عن الأنبا ساويرس بن المقفع[١٥] عن "**صيام في مدخل الميلاد**". فهل تعني برامون الميلاد، أم صوم الميلاد؟

وتأتينا من القرن الثَّالث عشر أيضاً، إشارة عن مفهوم البرامون كصوم يسبق العيد، وذلك عند ابن سباع في كتابه "الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة"، فيقول في معرض حديثه عن سبب صوم يومي الأربعاء والجمعة: "... ولم يرخِّص الآباء بفطر هذين اليَومَين مطلقاً ... لسبب آخر وهو أنه في هذين اليَومَين يكون إمَّا الميلاد وإمَّا الظُّهور

لغوياً "الوقت الذي ينقضي في السَّهَر"، أصبح يعني في أيامنا الحاليَّة، اليَوم الذي يسبق العيد، وظل يحمل أيضاً نفس الاسم vigil . فأضحت الكنيسة اللاتينيَّة تستخدم كلمة Matines مكان كلمة vigiles .

Cf. Fernand Cabrol (Le premiér dom) & R.P. dom Henri Leclercq, Dictionnaire d'Archéologie chrétienne et de liturgie (DACL), Tome 10, Paris, 1925, p. 2677.

١٥- كتاب مصباح العقل، للأنبا ساويرس بن المقفع، تحقيق وتقديم الأب سمير خليل، ص ٧٩

الإلهي أي الغطاس، فجعلوا يوماً منهما صياماً قبل حضور العيد (برامون)، وذلك لمعنيَين، أحدهما أن يصير للعيد بهجة في النَّفس لأجل الفطر بعد الصَّوم، وثانيهما لتعويض أحد اليَومين إذا جاء العيد في أحدهما، حتى لا يقع تفريطٌ في صوم هذين اليَومين بالمرَّة"[١٦].

وإن تغاضينا الآن عن المبدأ الذي يتحدَّث عنه بن سباع فيما يختص بـ "التَّعويض في الصَّوم"، فما يهمُّنا هو التَّركيز على مفهوم أنَّ البرامون يعني في العصور الوُسطى، صوماً يسبق العيد.

ولقد أحصى كتاب "المجموع الصَّفوي" برامونَي الميلاد والغطاس كأصوام مستقرَّة في الكنيسة في زمانه (القرن الثَّالث عشر) فيقول: "... وصوم اليَوم الذي الميلاد غده، واليَوم الذي الغطاس غده ...".

وينقل ابن كبر (+ ١٣٢٤م) من المجموع الصَّفوي فيقول عن الصَّوم وترتيبه: "... والفرض على جميع النَّصارى هو صوم الأربعين ... ثم جُمعة الصَّلب ... ثم الأربعاء والجُمعة من كلِّ أسبوع من غير أيام الخمسين وعيدي الميلاد والغطاس إذا اتفقا فيهما، ويُصامان إلى التَّاسعة على ما شُرح. والأصوام الزَّائدة على ذلك المستقرَّة في البيعة القبطيَّة، منها ما يجري مجرى الصَّوم الكبير في التَّأكيد، وهي جُمعة هرقل التي صارت مقدِّمة للصَّوم الكبير ... وصوم أهل نينوى ثلاثة أيام، وصوم اليَوم الذي الميلاد غده، واليَوم الذي الغطاس غده. ومنها ما هو دون ذلك وأُجري مجرى الأربعاء والجُمعة، وهو الصَّوم المتقدِّم للميلاد ... الخ"[١٧].

وهذا هو ما سبق أن ذكرتُه في قول ابن سباع "يجب أن يكون

١٦- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، باب ٣٢، ص ٥٦
١٧- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٨

للعيد براموني، وهو صوم يوم واحد قبله إلى المساء. وشرح البراموني، خلاف العادة. والعلَّة في ذلك، أنَّ العادة الجارية أن يُصام الميلاد إلى التَّاسعة من النَّهار، فلمَّا كان خاتمة الصَّوم إلى المساء، صار خلاف العادة/ لأجل ذلك سُمِّي براموني"[١٨].

ويتَّضح هنا أنَّ طقس صوم البرامون، هو نفسه طقس الصَّوم الكبير، كما يقول ابن كبر. ولكن هذا الكلام يحتاج إلى تحديد، إذ يعني بقوله إنَّ طقس البرامون هو طقس الصَّوم الكبير، أي من جهة فترة الانقطاع عن الأكل ونوع الطَّعام، ليس إلاَّ.

ومن المستقر في الكنيسة الآن، أنه إذا وقع اليَوم السَّابق لعيد الميلاد أو الغطاس يوم سبت أو أحد، وهما يومان من الأسبوع لا يجوز الصَّوم الانقطاعي فيهما، فيكون يوم البرامون هو يوم الجُمعة السَّابق لهما مباشرة. ونتيجة لذلك التَّطوُّر الذي طرأ على طقس البرامون، ابتعد يوم البرامون عن كونه اليَوم السَّابق مباشرة للعيد. لأنه حتى في هذا الوضع الأخير، لا نقول أيام البرامون، لأنَّ البرامون هو ليوم واحد فقط. وأوَّل إشارة ترد إلينا عن هذا التَّرتيب الجديد لطقس البرامون، نقرأها في قوانين البابا خريستوذولوس في القرن العاشر، وهو نفس ما يذكره ابن كبر (الباب ١٩)، فيقول: "... وإن اتفق الميلاد يوم الأحد، نُقل الباراموني من السَّبت الذي قبله إلى يوم الجُمعة الذي يتقدَّمه، ليُصام فيه. إذ ليس يجوز صيام يوم السَّبت إلاَّ سبتاً واحداً، وهو الذي يليه يوم أحد القيامة".

ولكن ما هو طقس البرامون ليتورجياً، أي طقس البرامون في القُدَّاس الذي أصبح يعقب الصوم؟ هذا ما أعرضُ له في الفصل التَّالي.

١٨- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، الباب ٩٩

الفَصل الثَّالث

الطَّقس القبطي لصلوات برامون الميلاد

حول فصول قراءات برامون الميلاد

وهي قراءات ٢٨ كيهك[1]، وهو أيضاً يوم تذكار استشـــهاد مائـــة وخمسين رَجُلاً، وأربعة وعشرين امرأة في مدينة إسنا.

مزمور إنجيل عشيَّة: «من صهيون حُسن بهاء جماله، الله أتى جهاراً. وهناك الطَّريق حيث أريه خلاص الله. هلليلويا» (٤٩:٢، ١٨).

مزمور إنجيل باكر: «الله ظاهر في اليهوديَّة، وعظيم هو اسمه في إسرائيل، صار موضعه بسلام، ومسكنه في صهيون. هلليلويا» (٧٥:١).

مزمور إنجيل القُدَّاس: «معك الرِّئاسة في يوم قوَّتك، في بهاء القدِّيسين، من البطن قبل كوكب الصُّبح ولدتُك. هلليلويا» (١٠٩:٣، ٤).

أمَّا **إنجيل عشيَّة**، فيسرد نسب ميلاد المسيح من إبراهيم بحســـب الجسد، كما أورده القدِّيس متى البشير (متى ١:١- ١٧).

و**إنجيل باكر** هو تكملة نفس الإصحاح السَّابق من بشارة القدِّيس متى، وهو ظهور الملاك ليوسف الرَّجل البار، لكي يعرِّفـــه أنَّ الـــذي ستلده العذراء، هو من الرُّوح القُدُس (متى ١:١٨- ٢٥).

أمَّا فصل **إنجيل القُدَّاس**، فهو بشارة الملاك للرُّعاة، وذهابهم إلى بيت لحم

١- وذلك حين يكون العيد يوم ٢٩ كيهك، أمَّا إن وقع عيد الميلاد في ٢٨ كيهك، فتكون قراءات البرامون هي ٢٨ كيهك، وقراءات العيد واليَوم التَّــالي (أي: ٢٨، ٢٩ كيهك) له هي ٢٩ كيهك.

ورؤيتهم المولود الإلهي موضوعاً في مذود، مع مريم ويوسف (لوقا ٢:١- ٢٠).

وهنا ينبغي ألاّ نغفل الإشارة إلى أنّ فصل إنجيل قُدَّاس البرامون يكون دائماً هو أحداث العيد نفسه، وقد سبق أن شرحتُ سبب ذلك.

أمَّا فصول القراءات، فهي تدور كلُّها حول هذا الموضوع: **فالبولس** (غلاطية ٣:١٥- ٤:١٨) يورد دُرَّة رسالة غلاطية كلِّها: «... ولكن لَّما جاء ملء الزَّمان، أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة، مولوداً تحت النَّاموس، ليفتدي الذين تحت النَّاموس لننال التَّبني. ثم بما أنكم أبناء، أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم، صارخاً يا أبا الآب. إذاً لستَ بعد عبداً بل ابناً. وإن كنت ابناً، فوارث لله بالمسيح».

هنا تكمل فرحتي وفرحتك بالعيد. فلسنا نفرح لميلاد غيرنا بل لميلادنا. فرحتُنا بعيد الميلاد، هي فرحتُنا بميلادنا نحن، ميلادك وميلادي. فماذا يفرحني بميلاد المسيح، إن لم يكن ميلاده سبباً لميلادي؟ فرحتي بعيد ميلاد المسيح تكمُن في أني قد صرتُ بميلاده ابناً لله، ووارثاً به لكلِّ ما لله. هل تصدِّق؟ إنه قول الإنجيل نفسه. لا تتقبَّل العطيَّة بعقلك بل بإيمانك، لأنه عندما تفوق العطيَّة قُدرة عقولنا على الاستيعاب، لا يبقى من سند لنا لكي نقبلها، سوى الإيمان بالعاطي.

وإن كنتَ لم تعُد بعدُ تصدِّق، فاسمع قول **الكاثوليكون** (١ يوحنا ٤:١- ١٤): «... الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم كي نحيا به، في هذا هي المحبَّة، ليس أننا نحن أحببنا الله، بل هو أحبنا وأرسل ابنه فداءً لخطايانا» فشكراً لله.

أمَّا فصل **الإبركسيس** (أعمال ١٣:١٣- ٢٥)، وهو خطاب بولس

الرَّسول في مجمع أنطاكية بيسيديَّة، مبتدئاً من اختيار شعب إسرائيل، ومنتهياً إلى داود، بقوله: «من نسل هذا حسب الوعد أقام الله مخلِّصاً لإسرائيل، يسوع، إذ سبق يوحنا فكرز قبل مجيئه بقوله: من تظنُّون إني أنا، لستُ أنا إيَّاه، لكن هوذا يأتي بعدي الذي لستُ مستحقاً أن أحلّ حذاء قدميه».

فطوبى لعيوننا، لأنها تنظر ما اشتهي الأنبياء أن ينظروا و لم ينظروا. تنظر يسوع قائماً على المذبح كلَّ حين. وطوبى لآذاننا، لأنها تسمع كلَّ يوم رسالة الإنجيل، التي اشتهى الأنبياء أن يسمعوها و لم يسمعوا. نعم فقد صرنا نسمع صوت ابن الله، والسَّامعون حتماً يحيون.

الطَّقس الكيهكي هو طقس برامون الميلاد

من المعروف بحسب التَّقليد الشَّرقي القديم، وقوانين الكنيسة الشَّرقيَّة أيضاً، أنَّ الصَّوم لا يوافقه إقامة القُدَّاس الإلهي، لأنَّ الصَّوم فترة توبة وتذلُّل، بينما القُدَّاس الإلهي هو وقتٌ للفَّرح والتَّسبيح[٢].

وكما رأينا في الفصل السَّابق، فإنَّ البرامون في أصوله الأولى كما قرأناها عند البابا ثاؤفيلس (٣٨٤- ٤١٢م) البطريرك الـ ٢٣ من بطاركة الكنيسة القبطيَّة هو فترة صوم، تُختم بصلاة السَّاعة التي ينتهي عندها الصَّوم، أي السَّاعة التَّاسعة. ثم أصبح البرامون يُصام بعد ذلك إلى الغروب كطقس الصَّوم المقدَّس الكبير.

ورأينا في الفصل السَّابق أيضاً، أنَّ القُدَّاس الإلهي الذي لحق بصوم البرامون، قد ظهر أوَّل ما ظهر في الغرب في غضون القرن الثَّامن

٢- انظر القوانين أرقام (٤٩، ٥١، ٥٢) من قوانين مجمع اللاذقيَّة (٣٤١-٣٨١م).

للميلاد، ولم يكن ذلك إلاّ لاستبدال قُدَّاس العيد الذي كان يلـزم أن يعقب فترة السَّهَر اللَّيلي، بقُدَّاس يُقام في غروب اليَوم السَّابق للعيـد، حيث انسحب طقس قُدَّاس العيد، ليصبح هو طقس قُدَّاس اليوم السَّابق للعيد، والذي كان في البداية يُقام في الغروب، ثم انتقل بالتَّـدريج إلى أوَّل اليَوم، حتى صار يُقام في بداية نهار اليَوم السَّابق للعيد.

من هنا تتبيَّن لنا الخيوط الأولى التي تسرَّب بها طقس إقامة القُدَّاس في نهاية فترة صوم البرامون في الشَّرق. وهي فترة يصعب علينا حـتى الآن حصرها بدقَّة. ولكن كلّ ما نعرفه، أنَّ طقس قُدَّاس البرامون، قد مرَّ بمراحل متعدِّدة، حتى صار إلى ما هو عليه الآن.

وقبل أن أشيرُ إلى الطَّقس الحالي لصلوات رفع البُخور في عشـيَّة وباكر وقُدَّاس البرامون، أُوردُ هنا نصَّ ما ذكره العالم الطَّقسي القس شمس الرِّئاسة أبو البركات (+ ١٣٢٤م) وهو قس كنيسة السيِّدة العذراء المعلَّقة، بحصن بابليون بمصر القديمة، وكانت مقراً للبطريركيَّة في ذلك الوقت، فيقول عن برامون الميلاد:

"... فأمَّا الميلاد المجيد، فإنه كما قيل كان ليلاً آخر اليَوم الخامس والعشرين من كانون الموافق للثَّامن والعشرين من كيهك ... ويتقدَّمه يوم البارامونى، وقيل معنى اسمه الوقفة، يُصام فيه إلى العشى كأيام الأربعين المقدَّسة، ولا يؤكل فيه شيء من اللُّحوم ولا الزُّهومات.

وإن اتفق الميلاد يوم الأحد، نُقل البارامونى من السَّبت الذي قبله إلى يوم الجُمعة الذي يتقدَّمه، ليُصام فيه. إذ ليس يجوز صـيام يـوم السَّبت إلاَّ سبتاً واحداً، وهو الذي يليه يوم أحد القيامة ...

فأمَّا الألحان التي تُقال يوم الجُمعة (أي جمعة برامون الميلاد) فقومٌ

يرون أن يكون ألحان شهر كيهك، وقومٌ يجرون على ألحان الأربعين المقدَّسة. والأوَّل أنسب وأشبه.

ويُصلَّى ليلة السَّبت صلاة مكان صلاة ليلة العيد بألحان العادة، ويُقرأ فيها من الإنجيل فصل من النِّسبة من بشارة متى. وتُعمل الأبصلمُديَّة باللَّحن الكيهكي.

فأما ألحان يوم السَّبت الذي بينهما، فباكراً ألحان العادة في صلاته وقُداسه، وعشياً لحن الفرح كباكر وكذلك في الأبصلمُديَّة...''(٣).

وبخصوص ما ذكره ابن كبر أعرضُ للأمور التَّالية:

الأمر الأوَّل: لم يكن قد استقرَّ بعد في عموم الكنائس القبطيَّة حتى القرن الرَّابع عشر، الطَّقس الذي يلزم أن يُتمَّم به قُدَّاس برامون الميلاد، فبينما تتمِّمه بعض الكنائس باللَّحن الكيهكي، تتمِّمه بعضها الآخر بطقس الصَّوم الكبير.

ولكن ظلَّ طقس البرامون في معظم الكنائس، هو الطَّقس الكيهكي، حتى إلى أوائل القرن العشرين، حيث يذكر ''مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م'' وتحت عنوان: ''اليَوم الثَّامن والعشرون من شهر كيهك. برامون الميلاد المجيد'' ما يلي: ''ترتيب صلاة عشيَّة نظير ترتيب حدود كيهك''. وأيضاً: ''وصلاة نصف اللَّيل ترتيبها كعاد كيهك ...''. وأيضاً: ''ويُكمَّل القُدَّاس كجاري العادة ووقت تناول السَّرائر المقدَّسة بعد الليلويا بلحن كيهك تقال ... الخ''.

وهو نفس ما يذكره ''مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م''، حيث يذكر

٣- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، البَاب ١٩

عن ترتيب حدود شهر كيهك وأيامه ما يلي:
"يتغيَّر فيه اللَّحن السَّنوي، ويُستعمل فيه لحنه المعروف به إلى آخر قُدَّاس البرامون"(٤).

فواضح إذاً، أنَّ طقس برامون الميلاد كان يتم باللَّحن الكيهكي حتى إلى وقت قريب.

الأمر الثَّاني: إن وقع عيد الميلاد يوم الأحد، فينتقل البرامون من السَّبت الذي قبله، إلى يوم الجُمعة الذي يسبقه ليُصام فيه. أمَّا طقس يوم السَّبت فيكون كالتَّالي:

- يُصلى رفع بخور عشيَّة السَّبت – أي يوم الجُمعة مساءً – باللَّحن السَّنوي والذي يدعوه ابن كبر "ألحان العادة". ولكن تظل تسبحة عشيَّة باللَّحن الكيهكي.
- يُصلَّى رفع بخور باكر السَّبت باللَّحن السَّنوي.
- يُصلَّى قُدَّاس السَّبت باكراً باللَّحن السَّنوي أيضاً.

أي أنَّ القِّس أبو البركات ابن كبر، يجعل طقس يوم البرامون هو الطَّقس الكيهكي، ولكن إن وقع يوم السَّبت كفاصل بين يوم البرامون ويوم العيد، فيُصلى يوم السَّبت بالطَّقس السَّنوي، إلاَّ أنَّ تسبحة العشيَّة ليوم السَّبت هذا تظل باللَّحن الكيهكي.

الأمر الثَّالث: أنَّ يوم البرامون البديل (أي يوم الجُمعة) لم يكن هناك ما يمنع من إقامة رفع بخور عشيَّة في نهايته، أي في مسائه.

أمَّا اليَوم، فإنَّ الطَّقس السَّنوي هو طقس قُدَّاس البرامون حتى إن

٤- الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ٦٢

كان البرامون لثلاثة أيام، إن وقع العيد يوم الاثنين، حيث يظل الطَّقس باللَّحن السَّنوي أيام الجُمعة والسَّبت والأحد، وتُعاد في هذه الأيام نفس فصول القراءات الخاصة ببرامون الميلاد. وغالباً لا يُقام قُدَّاس صباح السَّبت، باستثناء بعض الكنائس. أمَّا في مساء الجُمعة، فلا تُقام صلاة عشيَّة حتى ولو كان هناك قُدَّاس في اليَوم التَّالي (السَّبت).

وليس لطقس البرامون ما يميِّزه عن الأيام العاديَّة (السَّنويَّة) - في كتاب "خدمة الشمَّاس والألحان" - سوى بعض مردَّات بسيطة. وكان للمعلِّم ميخائيل جرجس كبير مرتِّلي الكاتدرائية المرقسيَّة، مع عضويَّة بعض شمامسة جمعيَّة نهضة الكنائس القبطيَّة الأرثوذكسيَّة، فضلٌ في بعضٍ من هذه الإضافات في الطَّبعة الثَّانية للكتاب، بمعرفة الجمعيَّة المذكورة، والتي تمَّت في سنة ١٩٥١م. فماذا تقول مخطوطات ترتيب البيعة التي لدينا عن طقوس صلوات برامون الميلاد؟ هذا ما تشرحه لنا السُّطور القادمة.

تسبحة عشيَّة برامون الميلاد

تُصلَّى تسبحة عشيَّة برامون الميلاد حالياً بالطَّقس السَّنوي، أمَّا "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" فيذكر أنها تُصلَّى باللَّحن الكيهكي، أي كترتيب حدود شهر كيهك.

ولم يذكر المخطوط الإبصاليَّة التي تُقال في تسبحة عشيَّة، لسبب أنه ذكر للتَّو أنَّ عشيَّة برامون الميلاد تُصلَّى كترتيب حدود شهر كيهك. ومن ثمَّ، لم يُشر أيضاً إلى طرح يُقال في عشيَّة برامون الميلاد. إلاَّ أنه يذكر مراراً "الطُّروحات" التي تُقال في المناسبات والأعياد الكنسيَّة، ممَّا يعني أنها عنصرٌ ليتورجيٌ قديمٌ، سابقٌ على إبصاليَّات المناسبات الكنسيَّة.

أمَّا الإبصاليَّة المختصَّة بعشيَّة برامون الميلاد، فتُقال من "كتاب

الطُّروحات والإبصاليّات للميلاد والغطاس" (٥).

ويلاحظ الدَّارس المدقِّق، أنَّ الإبصاليَّة التي تُقال في تسبحة عشيَّة برامون الميلاد – قبل الثّيؤطوكيَّة – تُختار من بين السَّبع إبصاليَّات المختصَّة ببرامون الميلاد، والمرتَّبة على أيام الأسبوع السَّبعة. أمَّا الطَّرح الذي يُقال – قبل ختام الثّيؤطوكيَّات – فيأتي عنوانه محدَّداً تماماً، وهو: "طرح واطس يُقال في عشيَّة برامون الميلاد"، وأيضاً: "وله أيضاً طرح آدام"، أي "طرح آدام لعشيَّة برامون الميلاد"(٦). وهذا يؤكِّد لنا أن هذين الطَّرحين المذكورين موضوعان خصِّيصاً لتسبحة عشيَّة البرامون، وأنَّ هذا الطَّرح الذي يُقال في تسبحة العشيَّة – سواء واطس أو آدام – هو أقدم من الإبصاليَّة التي تقال فيها. أقولُ ذلك لكي أنبِّه إلى أهميَّة الاعتناء بهذه الطُّروحات، لأنها تحمل من المعاني، أعمقها، ومن الطَّقس، أقدمه. مع ملاحظة أنَّ الطَّرح لا يُقرأ مجرَّد قراءة عاديَّة، بل يُقال بلحن بديع، ويسبقه "لحن مقدِّمة الطَّرح" سواءٌ بالنَّغمة الواطس أو الآدام.

طرح واطس يقال في تسبحة عشيَّة برامون الميلاد

والرّبع الأوَّل منه هو:

Ⲁⲙⲱⲓⲛⲓ ⲛⲓⲙⲉⲧⲓⲱⲧ ⲧⲏⲣⲟⲩ: ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲓⲉⲑⲛⲟⲥ: ⲛ̀ⲧⲉⲛⲟⲩⲱϣⲧ ⲙ̀Ⲡⲭ̅ⲥ̅ Ⲓⲏ̅ⲥ̅ ⲡⲉⲛⲟ̅ⲥ̅: ⲡⲓⲙⲟⲛⲟⲅⲉⲛⲏⲥ ⲛ̀ⲛⲟⲩϯ.

٥– يورد الكتاب المذكور، الطرح أولاً ثمّ الإبصاليَّة. في حين أنَّ الإبصاليَّة تأتي في سياق الصَّلوات اللِّيتورجيَّة سابقة على الطَّرح دائماً. وهو ما يعني لنا – كما ذكرتُ غير مرَّة – أنَّ الطَّرح هو العنصر اللِّيتورجي الأقدم من الإبصاليَّة. وقد أورد هذا الكتاب سبع إبصاليَّات لبرامون الميلاد، تُقال على ثيؤطوكيَّات أيام الأسبوع من الاثنين إلى الأحد، أي بحسب وقوع يوم البرامون في أيٍ منها، بالإضافة إلى ثمانية طروحات (أربعة واطس وأربعة آدام).

٦– أمَّا باقي الطروحات الأُخرى، فتقال في تسبحة نصف اللَّيل لبرامون الميلاد.

وفيما يلي نصُّ الطَّرح والذي يحوي مرداً متكرِّراً هو: ”المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة“[٧].

”تعالوا يا كلَّ الشُّعوب، والقبائل، لكي نسجد للمسيح يسوع ربِّنا، الإله الوحيد الجنس. الذي قدَّسه أبوه، وأرسله إلى العالم، لكي يخلِّصه، بحلوله فيه. لأنه كصالح ومحب البَّشر، تحنَّن وطلب الخروف الذي ضلَّ. ارحمنا كعظيم رحمتك.

فلنسبِّحه قائلين: المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السَّلام، وفي النَّاس المسرَّة.

بيت لحم مدينة الملك داود، تفتخر بتهليل، لأنها حملت جسد الذي على الشَّاروبيم. الكائن الذي لم يزل، الخالق وحده، قاطع أربطة الخطيئة، لُفَّ بالخرق البالية.

فلنسبِّحه قائلين: المجد لله في الأعالي ...

غُبريال الملاك، قد بشَّر العذراء، ومن بعد السَّلام، قوَّى عزيمتها، قائلاً: لا تخافي يا مريم، لقد وجدت نعمة أمام الرَّب، وستلدين ابناً، ويُدعى اسمه يسوع.

فلنسبِّحه قائلين: المجد لله في الأعالي ...

اجتمعوا اليَوم أيها الشُّعوب، أبناء الكنيسة، وعيِّدوا بتهليل، عيد الملك المسيح. أسرعوا يا كلَّ الذين ينتظرون الرَّب، أقيموا شعائر عيد الميلاد، باستبشار عظيم. يا لهذا التَّدبير العجيب، النَّافع لجنسنا، نزل الله إلينا، مكتسياً حُلَّة التَّواضع. وحلَّ في بطن العذراء، في آخر الأيام، فلنسجُد لمخلِّصنا، المولود من الآب.

٧- هذا المرد يُثبت قِدم هذا الطَّرح، وتوافُقه تماماً مع باقي العناصر اللِّيتورجيَّة لبرامون الميلاد، وهو ما سيرد شرحه بعد قليل.

فلنسبِّحه قائلين: المجد لله في الأعالي ...

فرحٌ لا ينطق به، قد عمَّ كلّ المسكونة، لأجل ميلاد السيِّد المسيح، بالجسد من العذراء. أمَّا المجوس، فهداهم النَّجم إلى السيِّد المسيح، وإذ رأوه، سجدوا له. وقدَّموا له هداياهم كملك. فآمن كلُّ الأمم، واعتمدوا باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس، ومجَّدوا مخلِّصنا، واعترفوا بخطاياهم.
له المجد دائماً إلى الأبد آمين".

طرح آدام يُقال في عشيَّة برامون الميلاد

الرُّبع الأوَّل منه هو:

Ϩⲏⲡⲡⲉ ⲓⲥ ⲡⲓⲥⲓⲟⲩ : ⲉ̀ⲧⲁϥϣⲁⲓ ⲥⲁⲡⲉⲓⲉⲃⲧ ⲁϥⲟⲩⲱⲛϩϥ : ⲉ̀ⲛⲓⲙⲁⲅⲟⲥ : ⲁϥϭⲓⲙⲱⲓⲧ ϧⲁϫⲱⲟⲩ.

وفيما يلي نصُّ هذا الطَّرح الآدام والذي يشرح كيف صار المجوس مبشِّرين بالمسيح الذي رأوه.

"ها هوذا النَّجم الذي ظهر في المشرق للمجوس، أرشدهم حتى وصل بهم إلى موضع الصَّبي. فلمَّا رأوه، سجدوا له، وأتوا إلى بيت لحم، فأبصروا الطِّفل مع مريم أُمِّه، وفتحوا أوعيتهم، وقدَّموا له قرابين، **وآمنوا به، فغفر لهم خطاياهم**. وأُوحي إليهم في حُلم، ألاَّ يرجعوا إلى هيرودس، بل يذهبوا من طريق أُخرى إلى كورهم، والنَّجم صحبتهم. فاستحقّوا أن يروا المسيح يسوع ابن الله، وآمنوا به. **وصار المجوس مبشِّرين بالإنجيل في كلِّ تلك الكورة، يبشِّرون الكُّل، إنَّا قد أبصرنا المسيح**، وُلد في بيت لحم، مدينة الملك داود. رأينا الملائكة والرُّعاة يسجدون بخشوع، ويسبِّحون متهلِّلين قائلين: المجد لله في الأعالي ... **ولهذا نشهد أنَّ الله أتى إلى العالم لكي يخلِّصنا**. له المجد دائماً إلى الأبد آمين".

ترتيب صلاة رفع بخور عشيَّة وباكر برامون الميلاد

يُصلّى رفع بخور عشيَّة برامون الميلاد كالعادة. وإن كان رفع البُخور يُصلَى حالياً باللّحن السَّنوي، إلاّ أنّ "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" يذكر أنّ "ترتيب صلاة عشيَّة (البرامون) نظير ترتيب حدود كيهك".

أرباع النَّاقوس في عشيَّة وباكر برامون الميلاد

تُقال أرباع النَّاقوس كالعادة، ويُقال رُبعٌ يختص ببرامون الميلاد بدايته: ⲱ ⲛⲓⲛⲁⲕϩⲓ ⲛ̀ⲛⲟⲩϯ.. أي: "يا للطَّلَقات الإلهيَّة المتعجَّب منها التي لوالدة الإله مريم العذراء كلّ حين". وهو الرُّبع الأوَّل من القطعة الخامسة من ثيؤطوكيَّة الخميس.

وتشرح أرباع القطعة الخامسة من ثيؤطوكيَّة الخميس، جانباً من عقيدة الكنيسة القبطيَّة، بل والكنيسة الجامعة، في موضوع التَّجسُّد الإلهي، فتقول: "هذه (أي العذراء) التي اجتمع فيها بتوليَّة بلا دنس، وميلاد حقيقي. لأنه لم يسبق الميلاد زواج، و لم يحل الميلاد بتوليتها، لأنّ الذي وُلد من إله بغير ألم من الآب، وُلد أيضاً بحسب الجسد بغير ألم من العذراء ..."[٨].

و لم يذكر "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" شيئاً عن أرباع للنَّاقوس، تختص ببرامون الميلاد.

٨- يقول العالم برسيفال معقباً على قانون ٧٩ لمجمع ترولو سنة ٦٩٢م، "إنّ الكنيسة الجامعة، ما برحت منذ أقدم العصور تعلّم تعليماً واحداً، وهو أنّ حبل العذراء وولادها يسوع، حدثا بدون زرع بشري، وبدون نفاس، وآلام الولادة. وآباء الكنيسة الشَّرقيَّة إجمالاً، كانت آراؤهم طبق ما ورد في هذا القانون".

حنانيا كسَّاب، مجموعة الشَّرع الكنسي، مرجع سابق، ص ٥٩٦، ٥٩٧

وهو ما لم يذكره أيضاً كلٌّ من "أبصلموديَّة القس مينا البراموسي"، و"أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب". وكان أوَّل ذكر لأرباع للنَّاقوس في برامون الميلاد، في "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨".

ذُكصولوجيَّة برامون الميلاد في عشيَّة وباكر

بدايتها: Ⲁⲓⲛⲁⲩ ⲉϯⲕⲧⲏⲥⲓⲥ ⲧⲏⲣⲥ ⲙⲫⲟⲟⲩ.. وهي عشرة أرباع، نوردها هنا كاملة:

(١) اليَوم رأيتُ كلَّ الخليقة مضيئة بلمعان عظيم من أجل الظُّهور الإلهي الذي أُعلن لنا.

(٢) لأنَّ غير المتجسِّد تجسَّد، ولدته العذراء مثل كلِّ أحد إلهاً وإنساناً.

(٣) بيتُ لحم مدينة داود، تفتخر بتهليل، لأنها حملت جسدياً الذي على الشَّاروبيم.

(٤) الكائن الذي كان، والمبدع وحده، القاطع رباط الخطيئة، لُفَّ بخرق.

(٥) مريم العذراء ويوسف وسالومي، تعجَّبوا جداً ممَّا رأوه.

(٦) العساكر السَّماويَّة تسبِّح على الأرض، منشدة بهذا التَّسبيح المقدَّس، صارخة قائلة:

(٧) المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة، لأنه أتى وخلَّصنا.

(٨) الرُّعاة الذين في الحقل، أتوا وسجدوا له. ونحن أيضاً نسجد له، ونشهد له.

(٩) إنه أتى إلى العالم، ووُلد من العذراء، وخلَّص جنسنا من إبليس الشِّرير.

(١٠) نسبِّحه ونمجِّده ونزيده علواً، كصالح ومحب البشر. ارحمنا كعظيم رحمتك.

ولم يشر "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" إلى هذه الذُّكصولوجيَّة السَّابق ذكرها. كما لم تذكرها "أبصلموديَّة القس مينا البراموسي"، ولا "أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب". وأوَّل ذكر لها كان في "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨".

مردا الإنجيل في عشيَّة وباكر برامون الميلاد

يذكر كتاب "خدمة الشمَّاس والألحان" أنَّ مرد إنجيل برامون الميلاد هو الرُّبع الخامس من هذه الذُّكصولوجيَّة "مريم العذراء ... الخ". ومن ثمَّ صار هذا المرد يُقال بعد إنجيل عشيَّة وباكر والقُدَّاس.

أمَّا مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) فيذكر ثلاثة مردَّات لفصول أناجيل عشيَّة وباكر وقُدَّاس برامون الميلاد.

مرد إنجيل عشيَّة برامون الميلاد

يقول "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م": ما يلي:

"وبعد تفسير الإنجيل عربياً يرد هكذا: ~Ⲱ ⲛⲓⲛⲁⲕϩⲓ ⲛ̀ⲛⲟⲩ؛ .. " وهو الرُّبع الذي سبق ذكره في أرباع النَّاقوس[٩].

مرد إنجيل باكر برامون الميلاد

يقول نفس المخطوط المذكور: "... وكذلك صلاة باكر إلى نهاية

٩- وهو ما يتَّفق عليه كلُّ مخطوطات ترتيب البيعة قيد الدِّراسة، أمَّا "مخطوط السُّريان لسنة ١٧١٩م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م"، فيضيفان ربعاً آخر هو: **"هذا الذي أخذ جسداً منها بغير تغيير، كإنسان يُدعى اسمه عمانوئيل"**.

تفسير الإنجيل عربياً يُرد هكذا"(١٠):

Ϫⲉ ⲉⲥⲉ̀ⲙⲓⲥⲓ ⲛ̀ⲟⲩϣⲏⲣⲓ : ⲉⲩⲉ̀ⲙⲟⲩϯ ⲉ̀ⲡⲉϥⲣⲁⲛ ϫⲉ Ⲉⲙⲙⲁⲛⲟⲩⲏⲗ : ⲉ̀ⲧⲉ ⲫⲁⲓ ⲡⲉ ϣⲁⲩⲟⲩⲁϩⲙⲉϥ : ϫⲉ Ⲫϯ ⲛⲉⲙⲁⲛ.	لأنها ستلد ابناً يُدعى اسمه عمانوئيل، الـــذي تفسيره الله معنا.

ويستطرد المخطوط، فيقول:

"ويُكمَّل (رفع بخور باكر) كالعادة. ووقت تقبيل الإنجيل والصَّليب، يُقرأ القانون الذي قرئ في عشيَّة. ويتبـــاركون وينصـــرفون بســـلام، ثمَّ يحضرون وقت التَّاسعة، ويبتدئون بصلاة الغروب والنَّوم، وبعدها يبتدئون بالقُدَّاس كالعادة ...".

قانون ختام الصَّلوات في بخور عشيَّة وباكر برامون الميلاد

يقول "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالـــدَّار البطريركيَّـــة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" ما يلي: "وتكمل صلاة عشيَّة كالعادة إلى آخرها يُقرأ هذا القانون عشيَّة وباكر وهو(١١):

Ⲙⲁⲧⲑⲉⲟⲥ ⲡⲓⲁ̀ⲡⲟⲥⲧⲟⲗⲟⲥ : Ⲗⲟⲩⲕⲁⲥ ⲡⲓⲉⲩⲁⲅⲅⲉⲗⲓⲥⲧⲏⲥ : ⲉⲩⲱϣ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϧⲉⲛ ⲛⲟⲩⲅⲣⲁⲫⲟⲛ : ⲉⲑⲃⲉ ⲡ̀ϫⲓⲛⲙⲓⲥⲓ ⲙ̀ⲙⲟⲛⲟⲅⲉⲛⲏⲥ : ⲓ̅ⲥ̅	متى الرَّسول، ولوقـــا الإنجيلـــي، أوضـــحا في كتاباهما، عـــن مـــيلاد الوحيد يسوع المســـيح،

١٠- وهو ما يذكره أيضاً "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالـــدَّار البطريركيَّـــة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط السِّريان لسنة ١٦٩٨م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

١١- وهو ما يذكره أيضاً "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالـــدَّار البطريركيَّـــة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط السِّريان لسنة ١٦٩٨م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

Ⲭ̅ⲩ̅ Ⲧⲟⲛ ⲩ̀ⲟⲛ ⲉⲕ ⲧⲏⲥ ⲏ̀ⲙⲱⲛ ⲇⲉⲥⲡⲓⲛⲏⲥ : ⲧⲏⲥ ⲑⲉⲟ̀ⲧⲟⲕⲟⲩ Ⲙⲁⲣⲓⲁ̀[12].	الابن من سيِّدتنا العذراء مريم.
Ⲇⲟⲝⲁ...	المجد ...
Ⲁ ⲛⲓⲙⲁⲛⲉ̀ⲥⲱⲟⲩⲛ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲓⲉ̀ⲥⲱⲟⲩ : ⲟⲩⲟⲛϩϥ ⲉ̀ⲣⲱⲟⲩ : ⲛ̀ϫⲉ ⲡⲓⲁⲅⲅⲉⲗⲟⲥ Ⲅⲁⲃⲣⲓⲏⲗ ⲡⲓϥⲁⲓϣⲉⲛⲛⲟⲩϥⲓ : ϧⲉⲛ ⲡⲓⲉ̀ϫⲱⲣϩ ⲁϥϩⲓⲱⲓϣ ⲛⲱⲟⲩ : ϫⲉ ⲁⲩⲙⲓⲥⲓ ⲛⲱⲧⲉⲛ ⲙ̀ⲫⲟⲟⲩ : ⲛ̀ⲟⲩⲥⲱⲣ ⲉ̀ⲧⲉ Ⲡⲭ̅ⲥ̅ Ⲡⲟ̅ⲥ̅ : ϧⲉⲛ ⲉ̀ⲑⲃⲁⲕⲓ ⲛ̀Ⲇⲁⲩⲓⲇ.	رعاة الأغنام ظهر لهم غبريال الملاك المبشِّر، في اللَّيل وبشَّرهم قائلاً: وُلد لكم اليَوم مخلِّص هو المسيح الرَّب في مدينة داود.
Ⲕⲉⲛⲩⲛ..	الآن ...
Ⲣⲱⲟⲩ ⲛ̀ⲛⲓⲁⲣⲭⲏⲁⲅⲅⲉⲗⲟⲥ : ⲛⲉⲙ ⲛⲓⲧⲁⲝⲓⲥ ⲛ̀ⲛⲟ̀ⲏⲣⲟⲛ : ⲛⲉⲙ ⲛⲓⲕⲉ ⲭ̀ⲣⲏⲥⲧⲓⲁⲛⲟⲥ : ⲉⲩϩⲱⲥ ⲉ̀ Ⲡⲭ̅ⲥ̅ Ⲕ̅ⲛ̅ : ⲫⲏⲉⲧⲁⲥⲙⲁⲥϥ ⲛ̀ϫⲉ ϯⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲥ : ϧⲉⲛ Ⲃⲏⲑⲗⲉⲉⲙ ⲉⲙⲡⲟⲩⲗⲉⲙⲱⲛ : ⲉ̀ⲧⲉⲡ̀ⲕⲁϩⲓ ⲛ̀ⲉⲫⲣⲁⲑⲁ.	أفواه رؤساء الملائكة، والطَّغمات العقليَّة، والمسيحيُّون يسبِّحون المسيح الرَّب الذي ولدته العذراء في بيت لحم.
Ⲕⲉⲛⲩⲛ..	الآن
Ⲕ̀ⲥⲙⲁⲣⲱⲟⲩⲧ ϧⲉⲛ ⲛⲁ ⲛⲓⲫⲏⲟⲩⲓ̀ :	مبارَكٌ أنت في

١٢- هذه الجملة الأخيرة جاءت باليونانيَّة بحروف قبطيَّة، وأصلها في اليونانيَّة هو:
τὸν υἱὸν ἐκ τῆς ἡμῶν δεσποίνης τῆς θεοτοκοῦ Μαριά.

ϫⲉ ⲟⲩⲱ̀ⲟⲩ ϧⲉⲛ ⲛⲏⲉⲧϭⲟⲥⲓ ⲙ̀Ⲫϯ: ⲛⲉⲙ ⲟⲩϩⲓⲣⲏⲛⲏ ϩⲓϫⲉⲛ ⲡⲓⲕⲁϩⲓ: ⲛⲉⲙ ⲟⲩϯⲙⲁϯ ϧⲉⲛ ⲛⲓⲣⲱⲙⲓ: ⲉⲑⲃⲉ ⲫⲁⲓ ⲧⲉⲛⲟⲩⲱϣⲧ ⲙ̀Ⲫϯ: ⲫⲏⲉ̀ⲧⲁⲥⲙⲁⲥϥ ⲛ̀ϫⲉ ϯⲙⲁⲥⲛⲟⲩϯ: ⲫⲏⲉ̀ⲧⲁⲩ̀ϫⲫⲟϥ ⲉⲑⲃⲉ ⲡⲉⲛⲥⲱϯ.	السَّمائيين، المجــد لله في الأعالي، وعلــى الأرض السَّلام، وفي النَّاس المسرَّة. لأجل هــذا نســجد لله الذي ولدته والدة الإلـــه، الذي وُلد لأجل خلاصنا.
Ⲕⲉ ⲛⲩⲛ..	الآن ...

تسبحة نصف اللَّيل لبرامون الميلاد

يقول "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالـــدَّار البطريركيَّـــة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" ما يلي:

"وصلاة نصف اللَّيل ترتيبها كعادة كيهك[١٣]. لكن في تذاكيَّـــة النَّهار قبل اللُّبش يطرح الطَّرح المختص بالثَّامن والعشـــرين، ويفســـر عربياً. وعندما ينتهي القارئ إلى كلِّ مكان يكون فيه (القول) 'المجد لله في العُلا' يجاوبه سائر الشَّعب قائلين: 'المجد لله في العُلا وعلـــى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة لأنه أتى وخلَّصنا لأننا نحن شعبه'. ثمَّ تكمل الصَّلاة كالعادة"[١٤].

وهنا يتَّضح أنَّ "مخطوط ترتيب البيعة رقـــم (١١٧ طقـــس) بالـــدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" لا يذكر أيَّ إبصاليَّات تختص ببرامون الميلاد، ولكنَّه يعرف طرحَين - واطس وآدام - يتكرَّر فيهما المرد "المجد لله في الأعالي ..."، في تسبحة نصف اللَّيل لبرامون الميلاد.

١٣- وهو نفس ما يذكره "مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م".
١٤- هو نفس ما يذكره "مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م" بالنَّص.

إبصاليَّات برامون الميلاد

يورد "كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس" سبع إبصاليَّات تختص ببرامون الميلاد، تُقال على ثيؤطوكيَّات أيام الأسبوع من الاثنين إلى الأحد، أي بحسب وقوع يوم البرامون في أيٍّ منها.

وهذه الإبصاليَّات السَّبع لبرامون الميلاد، من تأليف مؤلِّف واحد هو نيقوديموس(١٥)، ويُذكر اسمه في نهاية إبصاليَّات الاثنين والأربعاء والسَّبت لبرامون الميلاد. وأسلوب الإبصاليَّات لا يرقى إلى أسلوب الثِّيؤطوكيَّات التي تحمل أعماقاً لاهوتيَّة، ودراية كافية بالأسفار المقدَّسة، لحدث التَّجسُّد الإلهي العجيب.

ولقد أوردتْ هذه الإبصاليَّات جانباً من نصوص النُّبوَّات عن ميلاد السيِّد المسيح. ففي كلِّ الإبصاليَّات السَّبع، وردت ثلاث نبوَّات عن ميلاد يسوع من العهد القديم.

فحيث تشير الإبصاليَّات ست مرَّات إلى نُبوَّات لداود النَّبي، لا تذكر سوى نُبوَّة واحدة له. وأشارت إلى إشعياء النَّبي أربع مرَّات، ولكنَّها ذكرت نبوَّتين له. وكذلك ثلاث مرَّات لحزقيال النَّبي، مع نُبوَّة واحدة له، بالإضافة إلى مرَّة واحدة لكلٍّ من الأنبياء: ميخا وإرميا وموسى، مع إشارة عامة أربع مرَّات للأنبياء مجتمعين معاً.

وأُوردُ في السُّطور التَّالية، ما ذكرته إبصاليَّات البرامون في ذلك:

فما ذكرته الإبصاليَّات عن داود النَّبي ونُبوَّاته هو:

١٥ـ نعرف من مخطوط رقم (٣٢ قبطي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، أنَّ نيقوديموس كتب سيرة الأنبا رويس الذي تنيَّح سنة ١٤٢١م. وتاريخ نساخة المخطوط هو سنة ١٥٠٩م. فيكون نيقوديموس قد عاش تقريباً في النِّصف الثَّاني من القرن الخامس عشر.

- داود المرتِّل، يفرح ويتهلّل في عيد الرَّب، الحمل عمانوئيل.
- تنبأ داود المرتِّل بميلاد المسيح الذّاتي.
- شهد داود المرتِّل عن المسيح ملك المجد، فقال: «إنك أنت هو ابني وأنا اليَوم ولدتك».
- أيا داود المرتِّل، تعالى في وسطنا، لنسبِّح من صار وسيطاً لنا عند أبيه الصَّالح.
- يخبرنا داود الملك من أجل ملك المجد قائلاً: «أنت ابني وأنا اليَوم ولدتك».

أمَّا عن إشعياء النَّبي الإنجيلي، ونُبوَّاته عن ميلاد المخلِّص، فتورد الإبصاليَّات ما يلي على سبيل الحصر:

- نطق إشعياء بصوت التَّهليل، وُلد لنا ولدٌ هو عمانوئيل.
- يقول إشعياء بتهليل عن ميلاد يسوع المسيح الحمل عمانوئيل من مريم النَّقيَّة.
- يقول إشعياء بصوت عظيم هكذا: «وُلد لنا غلام وأُعطينا ابناً»[١٦].
- إشعياء البار قال هوذا العذراء — الفتاة - تلد مخلِّص العالم المولود في بيت لحم[١٧].

ومن النُّبوَّات التي ذكرها الإبصاليَّات أيضاً:

- حزقيال وإرميا قد أخبرانا بميلاد المسيَّا.
- يا حزقيال تعالى في وسطنا، لتخبرنا علانية عن ميلاد مخلِّصنا.
- قال حزقيال أيضاً: «رأيتُ باباً مختوماً بخاتم عجيب، دخله ابن القدُّوس».

١٦- إشعياء ٩:٦

١٧- إشعياء ٧:١٤

وعن نبوة ميخا تقول الإبصاليَّات:

- وقد قال ميخاؤس أيضاً: «وأنت يا بيت لحم يهوذا، أرض أفراثا، لست الصُّغرى في أورشليم، منك يخرج المدبِّر الذي يرعى شعبي إسرائيل الحقيقي».

وعن نبوة إرميا تقول:

- وأيضاً إرميا تكلَّم، «ها هوذا قد ظهر على الأرض واشترك مع النَّاس، ابن العلي».

أمَّا ما ذكرَته عن موسى، فقد جاء في قولها:

- وقد رأى موسى رئيس الأنبياء لاهوت يسوع المسيح! مثال العلَّيقة والنَّار ملؤها.

وعن الأنبياء عموماً يقول المؤلّف في إبصاليَّاته:

- الأنبياء يفرحون مع الصدِّيقين، من أجل ميلاد مخلِّص العالم.
- وُلد من مريم كقول الأنبياء، وأنعم علينا بالحريَّة لأنه هو السيِّد.
- هلِّلوا اليَوم أيها الأنبياء والأبرار والصدِّيقون من أجل ميلاد السيِّد يسوع المسيح الخالق.
- ها الأبرار يفرحون مع الصدِّيقين، لأنَّ السيِّد المسيح خلَّصهم كصالح.

ويكرِّر المؤلِّف نفس المعاني تقريباً في إبصاليَّاته، إلى جانب الأسلوب الذي يميِّز المؤلِّف نيقوديموس، والذي ربما يلقي بعض الضَّوء على الفترة التي عاش فيها، وهي القرن الخامس عشر. وذلك مثل قوله:

- احرسنا أيها المسيح من كلِّ الشُّرور ومن التَّجارب ومن كلِّ الخطايا.
- يا ابن الله، هب لنا أن ننظر أورشليم، ومدينة صهيون، ومدينة بيت لحم.

- نجّنا من الشياطين يا ابن سيّدتي.
- يا ابن الله، احفظ شعبك من خوف التّجارب.
- الأنفس نيّحها في الفردوس، من أجل الملكة والدة الإله.
- ارع شعبك، واحفظه من التّجارب.
- نسألك أيها المسيح، نجنا من الغلاء والحروب، ومن الأشرار أيضاً، والأفكار الشيطانيَّة.
- كلّ الأنفس أعطها برودة الفردوس.
- يا مخلّص العالم كلّه، خلّصنا وارحمنا، وأنقذنا من جميع ضيقاتنا، وأعطنا خلاصك.
- اسمعنا يا ملكنا المسيح، وخلّصنا من الضّيقات، وارحمنا أيها الصّالح من يوم الدّينونة.
- يا ابن الله، احفظنا من فخاخ الشياطين، وارفع غضبك عنّا يا ملك الدّهور.
- ارفع شأن المسيحيّين، وخلّصهم من الخوف.
- نيّح كلّ نفوس الأرثوذكسيّين، من أجل العذراء مريم.
- يا من وُلد من العذراء في بيت لحم يهوذا، اغفر لنا نحن شعبك.
- يا ابن الله تحنّن علينا، وارفع غضبك عنّا أيها المسيح ملك الدّهور.
- يا حامل خطايا العالم، خلّصنا من أيدي المضاد، ومن ضيقاتنا يا ابن الله.
- كلّ أنفس الأرثوذكسيّين نيّحها مع الصدّيقين، أيها الحمل أعتقها.
- لك العزّة والتّمجيد. بدّد أعداء الكنيسة.
- أنفس آبائنا، أعطها نياحاً مع إبراهيم العظيم، واسحق ويعقوب.
- يا من وُلد من العذراء، وصُلب بالجسد، نجّنا من التّجارب.

ويذكر السّير استيفن جاربي في مجلّة "الجمعيَّة الملكيَّة لدراسة

الأدبيَّات''، النَّشرة الثَّالثة، العدد ٣٣، سنة ١٩٠٥م، في مقالة بعنوان: ''الآداب الوطنيَّة لمصر المسيحيَّة''، فيقول: ''... وممَّا يؤسَف له، أنَّ نيقوديموس الذي وضع خمسين أو ستِّين أنشودة (إبصاليَّة)، لا يستحق الثَّناء كمؤلِّف أشعار. فمعاني مؤلَّفاته بسيطة، ويكرِّر اسمه دائماً''[١٨].

أليس من الأوفق دمج هذه الإبصاليَّات، ليُختار أفضل المعاني فيها؟ فتكفي إبصاليَّة واطس واحدة جيِّدة غنيَّة بالمعنى، وأُخرى آدام، لتصبحا هما إبصاليَّتا برامون الميلاد. هذا إن كنَّا لا نريد أن نستبدل هذا ''القديم''، بآخر جديد، والكنيسة القبطيَّة لم تعدم موهوبين فيها في كلِّ أجيالها.

أمَّا كتاب ''مشتهي النُّفوس في ترتيب الطُّقوس''، والذي طُبع سنة ١٩٨٦م، وهو لرابطة مرتِّلي كنائس القاهرة، فقد أورد ترتيباً حديثاً، حين وزَّع هذه الإبصاليَّات السَّبع، على الأربعة هوسات والمجمع وثيؤطوكيَّة اليَوم، لتُقال كلُّها في تسبحة نصف اللَّيل لبرامون الميلاد[١٩]. ولعلَّه شيءٌ يُثقل كاهل المصلِّين دون فائدة مرجوَّة منه. فإبصاليَّات برامون الميلاد موضوعة في الأصل على ثيؤطوكيَّات الأيام، لتُقال واحدة منها في تسبحة عشيَّة البرامون، وأُخرى في تسبحة نصف اللَّيل، على الثِّيؤطوكيَّة، بحسب وقوع يوم البرامون في واحد من أيام الأسبوع.

أمَّا التَّرتيب الذي أورده كتاب ''مشتهي النُّفوس'' فهو ما لم يذكره كتاب الإبصاليَّات نفسه، لا في طبعته الأولى سنة ١٩٢٠م، ولا في طبعته الثَّانية سنة ١٩٥٧م. ولم يرد له أيُّ ذكر أيضاً في ''مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م''.

١٨- مجلة معهد الدراسات القبطية، ص ١١٩، ١٢٠

١٩- ربما اقتداء بالتَّرتيب الذي أوردته ''أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨'' من قبل.

لقد أُتخم الطَّقس بحشو، كاد أن يطغى على الأصل الذي بات شاحباً من ثقل ما حُمِّل به. فهل من منقذ يرفع عن كاهل طقوسنا أنقاض الدُّهور، لتعود إلى بساطتها وعمقها الأوَّل؟

كيف تكون إبصاليَّة على الهوس أو طرحٌ عليه، لا يخدم موضوع الهوس؟ وكيف تُسمَّى إبصاليَّة على الهوس، وهي في معانيها بعيدة عمَّا يدور حوله الهوس من معانٍ؟

لقد بَطُل اليَوم في كثير من الكنائس القبطيَّة، ترتيل هذه السَّبع إبصاليَّات في تسبحة نصف اللَّيل لبرامون الميلاد. ويُكتفى بإبصاليَّة واحدة منها بحسب يوم وقوع البرامون، سواءٌ كان يوماً واحداً أو أكثر.

طروحات برامون الميلاد

يورد "كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس"، ثمانية طروحات تختص ببرامون الميلاد:

- طرحان — واطس وآدام — يقالا في عشيَّة البرامون، وسبق ذكرهما.
- طرحان — واطس وآدام — على الثِّيؤطوكيَّة في تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر.
- أربعة طروحات على الأربعة هوسات.

أمَّا الطَّرحان الواطس والآدام المختصَّان بتسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر، فيردان في الكتاب المذكور تحت عنوان: "طرح واطس يُقال على التَّذاكيَّة إن كانت واطس لبرامون الميلاد"، وعنوان: "طرح آدام يُقال على التَّذاكيَّة إذا كانت آدام في برامون الميلاد".

والطَّرح الواطس المذكور هنا، هو الطَّرح الذي يذكره "مخطوط

ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م''، حيث يذكر المخطوط: ''عندما ينتهي القارئ إلى كلّ مكان يكون فيه 'المجد لله في العُلا' يجاوبه سائر الشَّعب قائلين: '**المجد لله في العُلا وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة، لأنه أتى وخلَّصنا، لأننا نحن شعبه**' ''. وهذا المرد الذي يكشفه المخطوط، يرد بنصِّه في الطَّرح الواطس الذي يورده ''كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس''.

وأظنُّ أنَّ الطَّرح الآدام لتسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر لبرامون الميلاد، قد نسق على نفس منوال الطَّرح الواطس، ولكن بمرد هو: ''**المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة**''، ولكن بدون التَّكملة المبدعة: ''**لأنه أتى وخلَّصنا لأننا نحن شعبه**''. فماذا يمنع من ترديد المرد كاملاً؟ ولكن يظل الطَّرح الواطس لبرامون الميلاد هو الأكثر حبكاً.

طرح واطس لتسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر لبرامون الميلاد

الرُّبع الأوَّل منه هو:

Ⲟⲩⲣⲁϣⲓ ⲛ̀ⲁⲧϣ̀ⲥⲁϫⲓ ⲙ̀ⲙⲟϥ: ⲁϥϣⲱⲡⲓ ϧⲉⲛ ϯⲟⲓⲕⲟⲩⲙⲉⲛⲏ: ϫⲉ ⲁⲩⲙⲓⲥⲓ ⲙ̀ⲡⲉⲛⲥⲱⲧⲏⲣ: ϧⲉⲛ Ⲃⲏⲑⲗⲉⲉⲙ ⲛ̀ⲧⲉ ϯⲓⲟⲩⲇⲉ̀ⲁ.

النَّص:

''فرحٌ لا يوصف، شمل المسكونة، لأنه قد وُلد المخلِّص في بيت لحم يهوذا. لقد فاضت البريَّة فرحاً، ورتَّلت الملائكة، وهلَّل الرُّعاة بالولادة البتوليَّة. من أجل هذا، تُرتِّل الطُّغمات العلويَّة بتهليل وتقول:

المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة، لأنه قد أتى وخلَّصنا لأننا نحن شعبه[٢٠].

٢٠- وضع ''كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس'' عبارة: ''المجد لله

قد ظهر ملاك الرَّب للرُّعاةَ وبشَّرهم بالسُّرور قائلاً: قد وُلد لكم اليَوم مخلِّص. من أجل هذا نرتِّل ونقول:

المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة، لأنه قد أتى وخلَّصنا لأننا نحن شعبه.

فخاف الرُّعاة من أجل النُّور الذي طلع عليهم، وخاطب بعضهم بعضاً قائلين: ما هو هذا السِّر؟ إنَّ الأجناد السَّمائيَّة تُرتِّل على الأرض، ويسبِّحون خالقهم الذي تأنَّس لأجلنا. ومن أجل هذا نُرتِّل ونقول:

المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة، لأنه قد أتى وخلَّصنا لأننا نحن شعبه.

فأجاب الملاك الرُّعاة أن لا تخافوا من أجل ما أعلمكم به الرَّب، لأنه سرٌّ مكتومٌ من قبل كلِّ الدُّهور، ظهر لكم الآن في بيت لحم، مدينة داود. من أجل هذا نُرتِّل قائلين:

المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة، لأنه قد أتى وخلَّصنا لأننا نحن شعبه.

حينئذ قال الرُّعاة بعضهم لبعض، لنمض إلى بيت لحم كقول الملاك، لننظر الكلام الذي أعلمنا به الرَّب، ونصير أَوَّل المنذرين بمجيئه. من أجل هذا نرتِّل قائلين:

المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة، لأنه قد أتى وخلَّصنا لأننا نحن شعبه.

فأجاب الملاك وقال للرُّعاة: امضوا إلى بيت لحم، وهذه علامة لكم،

في الأعالي ... وفي النَّاس المسرة'' بين قوسين ( )، تاركاً باقي هذا المرد خارج هذين القوسين، أي عبارة ''لأنه أتى وخلصنا فنحن شعبه''، والتي هي باقي المرد.

أنكم تجدون طفلاً ملفوفاً وموضوعاً في مذود. وهو ربُّ القوَّات الــذي تأنَّس. لأجل هذا نُرتِّل قائلين:

المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة، لأنه قد أتى وخلَّصنا لأننا نحن شعبه.

فجدَّ الرُّعاة إلى بيت لحم، الموضع الذي قال عنه الأنبياء، إنَّ المســيح يولد فيه. فوجدوا مريم ويوسف والطِّفل موضوعاً في مذود، لأنه لم يكن لهما موضع حيث نزلا. من أجل ذلك نُرتِّل قائلين:

المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة، لأنه قد أتى وخلَّصنا لأننا نحن شعبه.

ونظر الرُّعاة جميع الأجناد السَّمائيَّة يسبِّحون مع الملائكة قائلين:

المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة، لأنه قد أتى وخلَّصنا لأننا نحن شعبه.

ورجع الرُّعاة إلى بيوتهم بفرح عظيم، يسبِّحون ويمجِّدون الله علــى كلِّ ما رأوا. وكانوا يشهدون للجموع قائلين: قد وُلد المسيح في بيت لحم يهوذا، وقد رأينا رؤيا العَين، فخررنا له ساجدين، وآمنَّا أنه هو المخلِّص. له المجد مع أبيه الصَّالح، والرُّوح القُدُس إلى الأبد، آمين".

طرح آدام لتسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر لبرامون الميلاد

الرُّبع الأوَّل منه هو:

Ⲁⲙⲱⲓⲛⲓ ⲧⲏⲣⲟⲩ ⲙ̀ⲫⲟⲟⲩ ⁝ ⲛⲓⲗⲁⲟⲥ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡ̀ⲕⲁϩⲓ ⲁ̀ⲡⲓⲑⲉⲱ̀ⲣⲓⲛ ⁝ ⲙ̀ⲡⲁⲓⲙⲩⲥⲧⲏⲣⲓⲟⲛ.

النَّص:

"تعالوا كلُّكم اليَوم يا شعب الأرض، لتتأمَّلوا هذا السِّر. لأنه قد وُلد

لنا إله من العذراء بغير زرع بشر حتى خلّصنا. فلنسبِّحه مع الملائكة قـــائلين: **المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السّلام وفي النّاس المسرَّة.**

بيت لحم يهوذا تُسر وتفرح، لأنه قد أشرق منها شمس البِّر، الذي هو يسوع المسيح الكلمة المتجسِّد. ولدته مريم، وهي عذراء. فلنسبِّحه مـــع الملائكة قائلين: **المجد لله في الأعالي ...**

سائر الكُتُب المكتوبة التي تقدَّمت الأنبياء، وأنبأت بمجئ المسيح. وقد تمَّ ما قيل اليَوم في بيت لحم مدينة داود، التي وُلد فيها المسيح. فلنسبِّحه مع الملائكة قائلين: **المجد لله في الأعالي ...**

يصرخ داود النَّبي قائلاً: حُسن بهائه من صهيون، يأتي الله ظاهراً، أعني ربّ القوَّات، بصوت القرن. فلنسبِّحه مع الملائكة قائلين: **المجد لله في الأعالي ...**

صدر أمرٌ من الملك، أن يُكتتب كلُّ المسكونة، وليمضي كلُّهم واحداً واحداً إلى بيت لحم ليكتب اسمه، واسم أبيه. فلنسبِّحه مع الملائكة قائلين: **المجد لله في الأعالي ...**

بالحقيقة قام يوسف البار، هو ومريم العذراء الطَّاهرة، ومضيا إلى بيت لحم، ليكتُبا اسميهما، وكانت العذراء حُبلى بالمخلِّص. فلنسبِّحه مع الملائكة قائلين: **المجد لله في الأعالي ...**

فكتب يوسف الصدِّيق سراً عجيباً، عندما كتبـــوا يوســـف ومـــريم خطيبته ويسوع ابنه. فلنسبحه مع الملائكة قائلين: **المجد لله في الأعالي ...**

اجتمعوا كلُّكم اليَوم وانظروا هذا العجب العظيم المعجب، وهـــو أنه كتب اسمه واسم العذراء ويسوع ابنه قبل ميلاده. فلنســـبِّحه مـــع الملائكة قائلين: **المجد لله في الأعالي ...**

قد ظهر لنا السِّر كحسب الوقت الذي ذكره الملاك لما خاطب يوسف قائلاً: خُذ خطيبتك إليك، فإنَّ الذي تلده يُدعى يسوع. فلنسبِّحه مع الملائكة قائلين: **المجد لله في الأعالي** ...

فلمَّا كملت الأيام أن تلد العذراء المخلِّص، ولدت ابنها بكر الآب المولود قبل كلِّ الدُّهور، وأرقدته في معلف البهائم. فلنسبِّحه مع الملائكة قائلين: **المجد لله في الأعالي** ...".

أمَّا الأربعة طروحات التي تُقال على الهوسات الأربعة، فكلُّها تدور حول الميلاد البتولي، وليس حول موضوعات الهوسات. ولا ينبغي أن نغفل أنَّ الطَّرح يعني تفسير، فكيف يكون طرح على الهوس لا يفسِّر الهوس؟ وعلى كلٍّ، لم يُشر "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" إليها.

قُدَّاس برامون الميلاد

يذكر "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" أنَّ قُدَّاس برامون الميلاد يبتدئ السَّاعة الثَّالثة بعد الظُّهر بالتَّوقيت الإفرنجي، فيقول:

"ثمَّ يحضرون وقت التَّاسعة، ويبتدئون بصلاة الغروب والنَّوم. **وبعدها يبتدئون بالقُدَّاس** كالعادة ...".

ولاحظ هنا دقَّة التَّعبير، أنَّ صلاتي الغروب والنَّوم كصلوات سواعي، لا تُعتبر بداية للقُدَّاس. بل سابقة عليه، ومهيِّئة له فحسب. وهو نفس ما يذكره ابن كبر (+ ١٣٢٤م) بقوله: "والذي تتداوله البيعة القبطيَّة، أن لا يكون القُدَّاس إلاَّ تلو صلاة. والأحسن أن تكون الصَّلاة التي تتقدَّمه برفع

بخور، هذا إذا كان فصح. وأمَّا إذا كانت أيام الأربعين والأربعاء والجمعة والأصوام الأُخرى، فيكون عقب صلاة السَّاعة التي تتقدَّمه، أعني التَّاسعة بالأجبية والقطع. والرُّهبان يُصلُّون قبله صلاتَي الغروب والنَّوم".

مرد الإبركسيس في قُدَّاس برامون الميلاد

سبق أن ذكرتُ غير مرَّة أنَّ مخطوطاتنا القديمة لا تشير إلى أيٍّ مردَّات للإبركسيس تُقال في المناسبات والأعياد الكنسيَّة، لأنَّ مرد الإبركسيس الثَّابت دائماً على مدار السَّنة الليتورجيَّة هو مرد: Ϣⲁⲣⲉ Ⲫϯ (شارى إفنوتي)، والذي صار قاصراً اليوم على قُدَّاسات أيام الصَّوم المقدَّس الكبير.

أمَّا مرد الإبركسيس الذي أورده كتاب "خدمة الشمَّاس والألحان" فهو نفس الرُّبع الذي قيل في أرباع النَّاقوس من قبل.

طقس قراءة إنجيل قُدَّاس برامون الميلاد

يورد "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" طقس قراءة إنجيل قُدَّاس برامون الميلاد، فيقول:

"... يبتدئون القُدَّاس كالعادة إلى قراءة الإنجيل قبطياً. وعندما ينتهي القارئ إلى قوله Ϫⲉ ⲟⲩⲱⲟⲩ ϧⲉⲛ ⲛⲏⲉⲧϭⲟⲥⲓ أي: 'المجد لله في الأعالي ...'(٢١) يقرأ جميع الإكليروس(٢٢) معه تسبحة الملائكة إلى عند Ⲉⲕⲉⲛⲁⲩ ⲉⲣⲟⲓ أي: 'وتراني' يُكمَّل الإنجيل قبطياً. ثمَّ يُفسَّر (عربياً) ...".

أي أنه عند قول قارئ الإنجيل المقدَّس: "المجد لله في الأعالي وعلى

٢١- ما بين القوسين ( ) لم يرد في المخطوط.
٢٢- وردت هذه الكلمة في "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م": "**الشعب**".

الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة"، يُرتِّل جميع الإكليروس معـــه تســبحة الملائكة بالكامل: "فلنسبِّح مع الملائكة قائلين: المجـــد لله في الأعـــالي ... بالغداة أقف أمامك وتراني"، ومعروف أنَّ هذه التَّسبحة هي من وضـــع البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م).

فلماذا أغفلنا هذا الطَّقس البديع أثناء قراءة الإنجيل المُقدَّس في قُـــدَّاس برامون الميلاد؟ فحتى وإن كنَّا قد تغاضينا الآن عن قراءة الإنجيل المقـــدَّس بالقبطيَّة، واكتفينا بقراءته بالعربيَّة، فلماذا توقَّف هذا الطَّقس المـــدوَّن في مخطوطاتنا التي لم تتجاوز المائة عام؟ إنَّ السَّبب الوحيد – كما أرى – هو أنَّ كتاب "خدمة الشمَّاس والألحان" لم يذكر ذلك!

مرد إنجيل قُدَّاس برامون الميلاد

في حين يذكر كتاب "خدمة الشمَّاس والألحان" مرداً للإنجيل تحت عنوان: "مرد إنجيل برامون الميلاد" وهو: "مـــريم العـــذراء ويوســـف وسالومي تعجَّبوا جداً ممَّا رأوه"، فإن "مخطوط ترتيب البيعة رقـــم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" يورد المرد التَّالي مختصـــاً بإنجيل قُدَّاس البرامون[٢٣]، وهو:

بهذا نفرح ونرتِّل مع الملائكة المقدَّسين بتهليل قـــائلين: المجـــد لله في الأعالي.	Ϧⲉⲛ ⲛⲁⲓ ⲧⲉⲛⲣⲁϣⲓ ⲧⲉⲛⲉⲣⲯⲁⲗⲓⲛ: ⲛⲉⲙ ⲛⲓⲁⲅⲅⲉⲗⲟⲥ ⲉⲑⲩ: ϧⲉⲛ ⲟⲩⲑⲉⲗⲏⲗ ⲉⲛϫⲱ ⳿ⲙⲙⲟⲥ: ϫⲉ ⲟⲩ⳿ⲱⲟⲩ ϧⲉⲛ ⲛⲏⲉⲧϭⲟⲥⲓ Ⲫϯ.

٢٣- ويتَّفق معه "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط السِّريان لســـنة ١٦٩٨م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

وعلى الأرض السَّلام، وفي النَّاس المسرَّة، لأنــه سُرَّ بك ذاك الذي لــه المجد إلى الأبد.	Ⲛⲉⲙ ⲟⲩϩⲓⲣⲏⲛⲏ ϩⲓϫⲉⲛ ⲡⲓⲕⲁϩⲓ ⁘ ⲛⲉⲙ ⲟⲩϯⲙⲁϯ ϧⲉⲛ ⲛⲓⲣⲱⲙⲓ ⁘ ϫⲉ ⲁϥϯⲙⲁϯ ⲅⲁⲣ ⲛ̀ϧⲏⲧ ⁘ ⲛ̀ϫⲉ ⲫⲏⲉ̀ⲧⲉ ⲫⲱϥ ⲡⲉ ⲡⲓⲱ̀ⲟⲩ ϣⲁⲉ̀ⲛⲉϩ.

ولاحظ هنا قارئي العزيز، مقدار الحبك الطَّقسي لمرد إنجيل قُــدَّاس برامون الميلاد، مع ما صاحبه من طقس ترديد تسبحة الملائكة أثناء ترتيل الإنجيل المقدَّس، ليتَّضح تماماً وبكلِّ تأكيد، شدَّة انطباق مرد الإنجيل على موضوع الإنجيل نفسه، حيث يصبح المرد بمثابة تسليط ضوء باهر علـى المحور الأساسي الذي يدور حوله فصل الإنجيل المُقدَّس.

فالمحور الرَّئيسي هنا، هو ما أعلنه الميلاد البتولي، ومـا ابتغـاه الـرَّب بتجسُّده مجداً لله في العُلا، وسلاماً على الأرض، وبهجة وحبوراً لكل النَّاس، وليس تعجُّب مريم العذراء ويوسف وسالومي فحسب.

أسبَسموس آدام لبرامون الميلاد

يورد "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالـدَّار البطريركيَّـة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" أسبَسموس آدام لبرامون الميلاد بالقبطيَّة فقط(٢٤) تحت عنوان: "الإبروسفارين بالنَّاقوس". وهو نفس الأسبَسموس الـذي يذكره كتاب "خدمة الشمَّاس والألحان"(٢٥). أمَّا كلماته فهي:

"كلُّ الأنفس تفرح وترتِّل مع الملائكة مسـبِّحين الملـك المسـيح. صارخين قائلين: المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة".

٢٤- كلُّ نصوص الصَّلوات اللِّيتورجيَّة في هذا المخطوط بالقبطيَّة فقط.

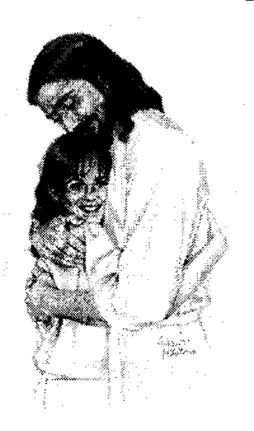
٢٥- وهو ما يذكره أيضاً: مخطوط البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م، مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م، مخطوط السِّريان لسنة ١٦٩٨م، ومخطوط سيرباي لسنة ١٨٦٨م.

ولنلاحظ هنا مجدَّداً، أنَّ الأسبَسموس يدور هو الآخر حول تسبحة الملائكة، وهو المحور الأساسي لصلوات برامون الميلاد.

وكالعادة لا يورد "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" أي أسبَسموسات واطس، وهو ما أغفله كتاب "خدمة الشمَّاس والألحان" أيضاً.

ختام صلوات قُدَّاس برامون الميلاد

يقول "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" ما يلي: "ويُكمَّل القُدَّاس كجاري العادة. ووقت تناول السَّرائر المقدَّسة، بعد الليلويا بلحن كيهك، تُقال ⲱ ϯⲧⲓⲙⲏ ⲛ̀ⲧⲉ ϯϫⲓⲛⲉⲣⲃⲟⲕⲓ.. (أي: يا لكرامة الحَبَل ...). ويقولون أيضاً الطَّرح الواطس. إلى آخر التَّسريح ينصرفون بسلام من الرَّب آمين"[٢٦].



٢٦- وهو نفس ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م".

البَاب الثّاني

عيد الميلاد المجيد

الفَصل الأوَّل

عيد الميلاد المجيد من الوجهة التَّاريخيَّة

ملاكٌ واحدٌ بشَّر بالحبل بكَ
يارب، أما في الفرح بميلادك
فقد حملت البُشرى جمهور من
الملائكة. فمباركة هي بُشراك
في يومك.
(مار أفرآم السرياني)

تمهيد

هل يسكن الله حقاً مع الإنسان على الأرض[1]؟ سؤال قديم أجاب عنه إنجيل الفرح والخلاص بقوله: «عظيمٌ هو سرُّ التَّقوى، الله ظهر في الجسد»[2]. وتجيب عنه الكنيسة كلَّ يوم في القُدَّاس الإلهي: "تجسَّد وتأنَّس وعلَّمنا طرق الخلاص"، وأيضاً "ووضع لنا هذا السِّر العظيم الذي للتَّقوى".

يقول القدِّيس كيرلس الكبير (٤١٢-٤٤٤م):

[إنَّ الذي له الميلاد الأزلي لا يستحي أن ينسب له أيضاً الميلاد الزَّمني، حتى إنَّ ذاك الذي كان إلهاً، ومولوداً من الله قبل كلِّ الدهور، يُقال عنه أنه وُلد أيضاً اليوم، لكي يقبلنا الآب نحن أيضاً فيه بالتَّبني] (تفسير يوحنا ٣٩:٧).

ويقول مار أفرآم السِّرياني (٣٠٦-٣٧٣م):

[من مثلك يارب. أنت الكبير الذي صرت حقيراً، دائم

١- ٢أيام ١٨:٦
٢- ١تي ١٦:٣

اليقظة الذي نام. النَّقيُّ الذي اعتمد، الحيُّ الذي مات. الملكُ الذي قبل المذلّة ليؤمّن المجد للجميع. طوبى لمجدك. يليق الاعتراف بربوبيّتك. يليق بالسّمائيّين أن يسجدوا لتأنُّسك. يتعجب السّمائيُّون أن يروك كم صرت حقيراً، وكم صار الأرضيُّون في مجدٍ].

عظيم بالحقيقة سرُّ التّقوي، الله ظهر في الجسد. فالكائن في حضن أبيه منذ الأزل، صار إنساناً مثلي ومثلك بلا خطيئة. فرأيناه بعيوننا، ولمسته أيدينا. وتكلّم معنا، وسمعناه بآذاننا. يا لعجب الميلاد الإلهي.

في كلّ عيد للميلاد، تنحصر المشاعر في المذود برائحته وفقره، وفي المولود الإلهي باتّضاعه وطُهره، وفي هيرودس الملك باضطرابه وسخطه، وفي العذراء الطّاهرة بهدوئها وصمتها، وفي أورشليم بصخبها وضجيجها، وفي الأرض بغفلتها وسُباتها، وفي السّماء بنشوتها وتهليلها، وفي الملائكة بظهوراتهم وفرحتهم، وفي الرُّعاة البسطاء بسهرهم وبشراهم، وفي المجوس الحُكماء بهداياهم ورموزها، وفي النّجم العجيب بضيائه وهديه، وفي بيت لحم بوليدها وربِّها، وفي النّفس بفرحتها ودهشتها.

فسلامٌ لبيت لحم، بيتُ الخُبز، التي وُلد فيها خُبز الحياة، الذي نزل لنا من السّماء، ليهب الحياة للعالم.

عيد ميلاد المسيح هو عيد ميلادي، لأنَّ البُشرى التي جاءتنا من السّماء هي: ”وُلد **لكم**“. فالمولود الإلهي مولود لي ولأجلي. لأجل هذا أنا أفرح بعيد الميلاد لأنه هو هو عيدي، عيد ميلادي الذي تحقّق لي في مسيحي. وكيف لا أفرح إذاً وقد تحقّقت نبوّة الأجيال الطّويلة: ”يولد لنا

ولد، ونُعطى ابناً". وها قد صار خالق البشريَّة وليــدها، وأصــبح إلــه الإنسان ابنه.

عيد الميلاد هو ميلاد كلِّ الأعياد. وكلُّ الأعياد من مخازن هذا العيد تأخذ بهاءها. لأنَّ الرَّب أخذ لنفسه جسداً كجسدنا، قابلاً للموت مثلنا. ولأنه الوحيد الذي لا يقوى عليه الفساد والموت، جاء ليعتقني من فســاد الموت. فصار موت الرَّب من أجلي هو غاية تجسِّده، لتصبح قيامته مــن الموت هي غاية موته، حتى يبيد بالموت سُلطان الموت بقيامته. فصــارت قيامتنا نحن كلُّنا معه هي غاية قيامته. وكما تجسَّد المسيح ومات وعــاش، تكون لنا الحياة الأبديَّة نحن المؤمنين بمن أتى لخلاصنا. إذاً فعيد الميلاد هــو رأس خلاصنا.

إنَّ الأعياد المسيحيَّة السَّيديَّة، أي المرتبطة بشخص الــرَّب يســوع المسيح، هي في أصولها الأولى - وكما وضعتها الكنيسة المقدَّسة - ليست بأيِّ حال من الأحوال تذكارات تاريخيَّة لحدث وقع في الزَّمــان تكــرِّره الكنيسة كلَّ سنة، لتتذكَّر بصيغة الماضي أحداثاً أكملها المسيح بيننا علــى الأرض. لأنَّ كلَّ أفعال المسيح الخلاصيَّة والتي من أجلها أتى إلينا علــى الأرض بدءاً من ميلاده وانتهاءً إلى صعوده وجلوسه عن يمين الآب، هــي أفعال حدثت في الزَّمن، لكنَّها لا تخضع له. هي أفعال ظلَّت في فكر الآب منذ الأزل وقبل أن يخلق الإنسان، وأكملها بابنه في الزَّمان لتدوم فينا إلى الأبد بعمل روحه القدُّوس في الكنيسة.

وملء الزَّمان الذي أكمل فيه المسيح خلاصنا، هو اكتمال الخــلاص ونهايته، لكي تكون أفعال المسيح الخلاصيَّة نقطة بداية جديــدة لزمــان الخلاص الذي لن يزول، والذي بدأ بتجسُّد المسيح، تمييزاً له عن زمان ما

قبل الخلاص، زمان الرُّموز والنُّبوَّات والإشارات والاستعدادات والتَّطهيرات ترقُّباً لاكتمال الزَّمان أي ملئه، عندما يُكمِّل الآب مشيئته التي قصدها في نفسه منذ الدُّهور في خلاصنا الذي أكمله لنا في ابنه.

ولكن الكنيسة في تكرارها المتواتر للاحتفال بالعيد كلّ سنة تبغي أن تركِّز الضَّوء جلياً على حدث أو فعل من أفعال الخلاص لتُبرز منها الجانب اللاَّهوتي الخلاصي الذي نلناه كنصيب مذخَّر لنا في الكنيسة، وتجليه بممارسات وطقوس مختلفة لتأصِّله في حياة المؤمنين كفعل إيماني دائم لا تحصره فترة زمنيَّة بعينها، ولا تحدّه مناسبة دون غيرها. لا بمعنى أنَّ المسيح يولد مرَّة ثانية، أو يُصلب مرَّة ثانية، لكن بمعنى أنَّ ميلاده الذي تمَّ في الزَّمان هو ميلادٌ حاضرٌ دائماً أبداً في الكنيسة. هذا هو معنى ما نقوله في قانون الإيمان: "... مولود ..."، أي ديمومة الميلاد، وإلاَّ فماذا تعني الإفخارستيَّا التي نرفعها كلَّ يوم على المذبح؟ وكذلك فإنَّ صليبه الذي صُلب عليه، فعله دائم إلى الأبد، وإلاَّ فما معنى قول الكنيسة كلّ يوم "خذوا اشربوا هذا هو دمي الذي يُسفك عنكم وعن كثيرين، يُعطى لمغفرة الخطايا. هذا اصنعوه لذكرى"؟

لذلك فاحتفال المسيحيِّين بالعيد - أيِّ عيد - هو احتفال كياني، احتفال بفعل يختص بكيانهم، ومرتبط بخلاصهم. فعلٌ خلاصي تمَّ فيهم ومن أجلهم. فميلاد المسيح هو هو نفسه ميلادهم. ومعموديَّة المسيح هي هي نفسها معموديَّتهم، وصليبه هو هو بعينه صليبهم وخلاصهم، وقيامته هي بذاتها قيامتهم، وصعوده وجلوسه عن يمين الآب، هو بعينه رفعتهم ومجدهم ونصيبهم الذي صار لهم عند الآب. فأيُّ فرحة إذاً تكون بالعيد؟ وهل تستطيع غير الكنيسة أن تمنح هذا الفرح؟ هذا هو الفارق الهائل بين فرح العيد في المسيح، وفرح أيِّ عيد آخر بعيداً عن المسيح. هذا الفارق الهائل هو الفرق

بين الحياة والموت، بين السَّماء والأرض، بين النَّجاة والهلاك.

السَّنة التي وُلد فيها المسيح

إنَّ ميلاد ربِّنا وإلهنا ومخلِّصنا يسوع المسيح بالجسد، حدث سنة ٥٥٠٨ للخليقة، أي منذ آدم، وذلك حسب التَّاريخ الذي تتمسَّك به الكنيسة الشَّرقيَّة. أمَّا بحسب رواية يوسابيوس القيصري في كتابه "تاريخ الكنيسة"، فقد وُلد المخلِّص في السَّنة الثَّانية والأربعين من حُكم أوغسطس[٣]، وفي السَّنة الثَّامنة والعشرين بعد إخضاعه لمصر وموت أنطونيوس وكليوباترا، اللَّذين انتهت بموتهما أُسرة البطالسة في مصر[٤].

وبحسب رواية ديونيسيوس أكسيجوس[٥] Dionysius Exigus فقد وُلد وُلد السيِّد المسيح سنة ٧٥٣ لبناء مدينة روما، وكان هيرودس الكبير ملكاً حينئذ على اليهوديَّة، وقد تملَّك على اليهوديَّة من قِبَل قياصرة روما، مستعبداً شعب اليهود مدَّة ٣٣ سنة[٦]. وكان هيرودس أوَّل حاكم من دم

٣- حَكَمَ أغسطس قيصر ٥٧ سنة، منها ١٤ سنة باسم أوكتافيوس، ثم حدثت موقعة أكتيوم البحريَّة، وبموت أنطونيوس، صار هو إمبراطور روما باسم أغسطس. وبعد ثمانية وعشرين سنة من انتصاره، وُلد المسيح، واستمرَّ حُكمه بعد ميلاد المسيح لمدَّة ١٤ سنة.

٤- تاريخ الكنيسة ليوسابيوس، ١:٥:٢

٥- هو رئيس دير في روما، عاش في النِّصف الأوَّل من القرن السَّادس الميلادي (٥٠٠- ٥٥٠م)، ويُعرف القليل جداً عن حياته، واشتهر بما نُسب إليه من وضع التَّقويم المسيحي، أي التَّقويم الميلادي كما نعرفه اليَوم. وله مجموعة قوانين كنسيَّة. ووضع لكنيسة روما دورة جديدة لتحديد عيد الفصح. وترجم كثيراً من المؤلَّفات اليونانيَّة إلى اللاتينيَّة.

Cf. ODCC, 2nd edition, p. 407.

٦- تملَّك سنة ٣٧ ق.م، ومات سنة ٤ ب.م.

أجنبي، فهو من أب عسقلاني(٧)، وأم أدوميَّة(٨). حيث حُرم سبط يهوذا من كلِّ الوظائف والحقوق، ونُزعت منه كلُّ رئاسة وسُلطة، بعد حُكم استمرَّ من أيام موسى إلى يوحنا هيركانوس الذي كان آخر سلالة رؤساء الكهنة الشَّرعيِّين. وفي هذه الظُّروف وُلد ماسيًّا المنتظر فتمَّت نبوَّة يعقوب أب الآباء التي تنبأ بها سنة ١٨٠٧ ق.م قائلاً: «لا يزول المدبِّر من يهوذا، ولا الرَّئيس من فخديه، حتى يأتي الذي له الكُل، وإيَّاه تنتظر الأمم» (تكوين ٤٩: ١٠).

لقد كان يوسابيوس المؤرِّخ دقيقاً في تحديده للسَّنة التي وُلد فيها المسيح له المجد، إذ حدَّد أنها السَّنة الثَّامنة والعشرون من حُكم أغسطس قيصر بعد إخضاعه لمصر وموت أنطونيوس وكليوباترا(٩). ومعروف أنَّ هذا الانتصار الذي أحرزه أغسطس قيصر على أنطونيوس وكليوباترا، كان في موقعة أكتيوم البحريَّة، التي حدثت سنة ٣١ قبل الميلاد، ممَّا يعني أنَّ ميلاد المسيح كان في سنة ٤ قبل الميلاد.

أمَّا ديونيسيوس إكسيجوس Dionysius Exigus فلم يكن مصيباً عندما حدَّد تاريخ ميلاد الرَّب سنة ٧٥٣ لبناء مدينة روما، إذ جاءت حساباته

٧- أي من أهالي عسقلان، أو أشقلون، وهي إحدى مُدُن الفلسطينيِّين الخمس. وتقع على البحر المتوسِّط بين غزة ويافا، وقد جمَّلها هيرودس رغم أنها لم تكن تابعة له، وبعد موته، صارت مقراً لأخته سالوما.

٨- الأدوميُّون هم سلالة عيسو، وسكنوا شبه جزيرة سيناء جنوب البحر الميت، وكانت "بترا" أقوى مُدُنهم. وكانوا أعداء لليهود بصفة دائمة. أخضعهم يوحنا هيركانوس خضوعاً نهائياً، واضطَّرهم أن يختتنوا ويقبلوا النَّاموسِ اليهودي، وذلك بحسب رواية يوسيفوس في كتابه "الآثار" ١٣:٩:١.

٩- يتَّفق هذا مع ما ذكره العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠- ٢١٥م) الذي قال: إنَّ السيِّد المسيح وُلد بعد غزو مصر بثمانية وعشرين سنة.

متأخِّرة أربعة أعوام على الأقل. لأنَّ يوسيفوس يذكر أنَّ هيرودس الكبير مات قبل سنة ٧٥٤ لتأسيس مدينة روما. والمرجَّح أنه مات في إبريل سنة ٧٥٠ لتأسيس المدينة المذكورة[١٠]، ولابد أن يكون ميلاد المسيح قد حدث قبل موت هيرودس - طبقاً لرواية الإنجيل المقدَّس - ممَّا يعني أنَّ المسيح ربما يكون قد وُلد سنة ٧٥١ لبناء مدينة روما أي سنة ٣ قبل الميلاد تقريباً، وهذا هو أحد الآراء في حساب السَّنة التي وُلد فيها يسوع.

ومن جهة أُخرى، وطبقاً لرواية القدِّيس لوقا البشير الذي تتبَّع كلَّ شيء من الأوَّل بتدقيق، يذكر أنَّ يسوع وُلد خلال الاكتتاب الأوَّل الذي حدث، حين كان "كرينيوس" والياً على سورية. ولقد تمَّ مؤخَّراً اكتشاف نقش، أصابه بعض التَّلَف، يؤكِّد ذلك الأمر من الوجهة التَّاريخيَّة. وتشير أوراق التِّعداد المكتشفة في مصر، إلى أنَّ التِّعداد كان يجري فيها بانتظام كلَّ أربعة عشر عاماً، في الفترة ما بين سنة ٩٠ ميلاديَّة حتى سنة ٢٥٨م. كما جرى تعداد في سنة ٦٢م. ولو كان هذا التِّعداد يجري بانتظام في كلِّ أجزاء الإمبراطوريَّة، فلابد أنه قد جرى تعداد في الأعوام ٨ ق.م، ٦م، ٢٠م، ٣٤م، ٤٨م. وهناك أدلَّة على أنه قد جرى تعداد فعلاً في سنة ٢٠م. ويبدو من هذا، أنَّ يسوع قد وُلد في فترة التِّعداد الذي جرى سنة ٨ ق.م.

وبناءً على كلِّ ما سبق، يُصبح من المستحيل تعيين تاريخ محدَّد لميلاد يسوع، فلو اعتبرناه قد حدث في سنة ٧ ق.م، فلابد أن يكون مفهوماً أنَّ

١٠- تفتقر أحداث حُكم أغسطس قيصر - بصفة عامة - إلى التَّوثيق الدَّقيق، نظراً لقلَّة الوثائق التي تؤرِّخ لهذه الفترة.

فرق سنة أو أكثر بالزِّيادة والنُّقصان أمرٌ جائز[١١].

وهناك دراسة للأب هونتايم، برهن فيها أنَّ المسيح قد مات في اليَوم السَّابع من شهر نيسان (إبريل) من السَّنة الثّلاثين بعد الميلاد. أمَّا بالنِّسبة لسنة الميلاد، فقد رجَّح السَّنة الثّامنة قبل الميلاد دون التَّمكُّن من ضبط اليَوم الذي تمَّ فيه هذا الميلاد العجيب. ولكنَّه يقول: إنه قد يكون أحد الأيام الأخيرة من هذه السَّنة، أو أحد الأيام الأولى من السَّنة التَّالية لها (أي السَّنة السَّابعة قبل الميلاد)[١٢].

ويقول فريدريك و. فارار أُسقُف وستمنستر ورئيس كنيسة القصر، وزميل كُليَّة الثّالوث بكمبردج في مؤلَّفه: "حياة المسيح" (ص ٢٥): "نحن متأكّدون بما يقرب من اليقين، أنَّ الميلاد كان في صميم الشِّتاء، إمَّا في نهاية السَّنة الخامسة، أو بداية الرَّابعة قبل الميلاد. ولكن لا يمكن تعيين الشَّهر ولا اليَوم.

أمَّا أنَّ الموضع كان مغارة، فهو تقليدٌ قديمٌ جداً. ففي سنة ١٥٠م أيام القدِّيس يوستينوس الشَّهيد (١٠٠–١٦٥م) كانت تُزار هذه المغارة على أنها مكان الميلاد. والمرجَّح أنها نفس المغارة التي بُنيت عليها كنيسة الميلاد. ويُقال إنَّ هدريان قد نجَّسها بإقامة عبادة الإله أدونيس فيها. ولابد من ذكر أنَّ هذا التَّقليد ربما نشأ عن قول إشعياء النَّبي (١٦:٣٣) «هو في الأعالي يسكن، حصون الصُّخور ملجأه»، كما يُقال أنَّ الآية «يعطى خبزاً»، والتي تلت ذلك، إنما تشير إلى بيت لحم "بيت الخُبز" وقد شيَّدت الملكة هيلانة، كنيسة فوق هذا المكان سنة ٣٣٠م".

١١– دائرة المعارف الكتابية، الجزء الرابع، ص ٢٥٧

١٢– انظر: مجلة Katholic لسنة ١٩٠٧م، في موضوع "تاريخ ميلاد المسيح"، ص ٦، ٧

اليَوم الذي وُلد فيه المسيح

لم يكن في ذهن الكنيسة في عصورها الأولى، تحديد يوم بذاته للاحتفال بميلاد السيِّد المسيح. فالعلاَّمة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م) يعترض على الاحتفال بأعياد الميلاد، نظراً لأنها - في رأيه - عادة وثنية، فيقول:

[إن اثنين فقط في الكتاب المقدَّس احتفلا بعيدي ميلادهما: الأوَّل فرعون، وفيه قطع رأس الخبَّاز ... والثَّاني هيرودس، وفيه قطع رأس يوحنا المعمدان. فمَن عندَه تقوى رسوليَّة، لا يحتفل بيوم ميلاده، لأنه في هذا يُشبَّه بالطُّغاة والوثنيِّين](١٣).

ففي هذه العصور المبكِّرة وحتى القرن الثَّالث الميلادي، احتلَّت قيامة المسيح كلَّ فكر الكنيسة شرقاً وغرباً. إذاً، لم يكن هناك أيُّ تقليد واضح في الثَّلاثة قرون الأولى، بخصوص اليَوم الذي وُلد فيه المسيح له المجد، وبالتَّالي عدم احتفال الكنيسة بذكرى الميلاد. ولكن هذا لم يمنع اقتراح بعض الكتَّاب المسيحيِّين في القرن الثَّالث، تحديد يوم لعيد الميلاد، أو بدقَّة أكثر تحديد اليَوم الذي وُلد فيه السيِّد المسيح له المجد.

فالعلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠- ٢١٥م) يقول:

[إنَّ البعض قد أثبتوا مولد المسيح في ٢٠ مايو، والبعض الآخر في ٢٠ إبريل، والبعض الآخر في ١٧ يناير](١٤).

أمَّا هيبوليتس في القرن الثَّالث الميلادي فيتكلَّم في تعليقه عن نبوءة دانيال النَّبي، عن اليَوم الخامس والعشرين من شهر أكتوبر كيوم ميلاد المسيح. ولكن شهادته تفتقر إلى الحُجَّة العلميَّة، إذ أنَّ أكثر النُّقَّاد يقولون

13- *Comm. on Mathew* xiv,6, Kiosterman edition, p. 30.
14- ODCC., 2nd edition, p. 280, 281.

إنَّ هذا النَّص ليس له، وإنما أُدخل على كتابه بعد وفاته بزمن طويل.

أمَّا كتاب "تأريخ عيد الفصح" المجهول الهويَّة، والذي يرجع إلى سنة ٢٣٤م، فإنَّه يُحدِّد ميلاد المسيح "شمس العدل (البر)" في ٢٨ مارس.

هذه بعض الآراء التي ظهرت في القرن الثَّالث الميلادي بخصوص تحديد يوم ميلاد الرَّب.

تاريخ الاحتفال بميلاد المسيح في الشَّرق

كانت كنيسة روما هي أوَّل من عرف الاحتفال بعيد الميلاد في أوائل القرن الرَّابع الميلادي، كعيد مستقل بذاته. أمَّا في الشَّرق المسيحي، فكان الاحتفال بعيد الإبيفانيا - وهو تذكار عماد الرَّب في نهر الأردن - هو العيد الذي يحتل مكانة متميِّزة، حيث ضُمَّ إليه عيد الميلاد في القرن الرَّابع، ليكون الاحتفال بعماد الرَّب وميلاده في عيد واحد هو يوم ٦ يناير، وكان ضم العيدَين معاً، قد ظهر في سوريا أولاً.

في مصر

لقد كان الجدل بخصوص تجسُّد الأقنوم الثَّاني، والذي نشأ في القرن الرَّابع الميلادي واستمر حتى القرن السَّادس، هو الدَّافع الأساسي في الشَّرق المسيحي لتخصيص يوم محدَّد للاحتفال بميلاد السيِّد المسيح، أي تجسُّده، بدون إشراك عيد آخر معه في نفس اليَوم. وقد كانت الهرطقة الغنوسيَّة هي الدَّافع الرَّئيسي وراء ذلك، إذ كانت الغنوسيَّة تؤمن بأنَّ المسيح ظهر على الأرض فقط منذ معموديَّته، وأنه صار منذ هذه اللَّحظة الإنسان يسوع المسيح. فلقد فهمت الغنوسيَّة قول الآب عن ابنه وهو في نهر الأردن: «هذا هو ابني ...» بمعنى أنَّ الابن وُلد في تلك اللَّحظة. وهذا

التَّعليل كان بسبب أنَّ فكرة الميلاد الجسدي مكروهة عند غالبيَّة الغنوسيِّين، وغير مُستحبَّة عند المعتدلين منهم، فارتاح الغنوسيُّون إلى فكرة ميلاد المسيح في لحظة معموديَّته من يوحنا، واعتبروها بداية تجسُّده، فجسد المسيح ليس من طبيعة الأجساد الإنسانيَّة ـ على حد قولهم ـ بل هو من طبيعة سمائيَّة.

وكان الغنوسيُّون يحتفلون مع باسيليدس الهرطوقي الغنوسي بيوم العماد في ٦ يناير من كلِّ عام، كما يذكر ذلك العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠- ٢١٥م)[١٥]. فلم يكن ممكناً والحال هذه، أن تتجاهل الكنيسة قيمة وأهميَّة الاحتفال بعيد الميلاد، ودوره في تأكيد حقيقة الإله المتجسِّد المولود من العذراء مريم ومن الرُّوح القُدُس. ومن ثمَّ، صارت حتميَّة الاحتفال بعيد الميلاد بمثابة سلاح يحمي عقيدة التَّجسُّد ويصونها.

ومع ذلك، لم يكن عيد الميلاد ضمن قائمة الأعياد التي أوردها البابا أثناسيوس الرَّسولي (٢٥٦- ٣٧٣م)، حيث يذكر عيد الإبيفانيا (الظُّهور الإلهي). لأنه حتى ذلك التَّاريخ ظلَّ الاحتفال بعيد الظُّهور الإلهي في مصر والشَّرق كلِّه، هو لتذكار الميلاد والغطاس ومعجزة تحويل الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل معاً[١٦].

15- Clement of Alexandria, *Stromata,* D. 21, p. 90.

١٦- في سيرة القدِّيس أنبا أنطونيوس ما يفيد أنَّ الأنبا بولا أوَّل السُّوَّاح ترك للقدِّيس أنطونيوس عند نياحته ثوب اللِّيف الذي كان يستر به جسده، فأخذه الأنبا أنطونيوس وأهداه للبابا أثناسيوس الرَّسولي، فكان البابا يلبسه ثلاث مرَّات في السَّنة في أعياد الميلاد والغطاس والقيامة، وإذ أراد أن يُعرِّف الشَّعب مقدار قداسة صاحب الثَّوب وضعه على ميت فقام في الحال. ولعل الثَّلاثة أعياد المذكورة هي الغطاس القيامة والعنصرة، لأنه حتى زمن البابا ثاؤفيلس الـ ٢٣ (٣٨٤- ٤١٢م) يرد في

ويخبرنا يوحنا كاسيان، وقد عاش في مصر (٣٨٥- ٤٠٠م) أنّ أساقفة مصر كانوا يحتفلون بعيد ميلاد المسيح وبعيد عماده في يوم واحد، عملاً بالتّقليد القديم السّائد في الشّرق.

وهناك دليلٌ قديمٌ آخر، على أنّ الاحتفال بالعيدَين في مصر كان في يوم واحد، وهو دليلٌ يجئ من برديَّة مصريَّة كُتبت باليونانيَّة في مصر في بداية القرن الرَّابع الميلادي، وهي ورقة من كتاب طقس قديم يحتوي على صلوات طقسيَّة يُردِّدها الشّعب أثناء قراءة الأُسقُف أو القس[١٧].

وبفحص هذه البرديَّة المصريَّة، يتَّضح أنها قد استُعملت عدَّة مرَّات، لأنّ آثار أصابع الذين أمسكوا بها في القرن الرَّابع، واضحة جليَّة. وواضحٌ من النُّصوص اللّيتورجيَّة المذكورة فيها، أنّ الاحتفال كان بالميلاد والعماد معاً. وهذه البرديَّة هي الدَّليل الوحيد الذي يؤكِّد هذا الاحتفال في الكنيسة الجامعة، بل هي أقدم صلوات طقسيَّة أو أناشيد دينيَّة لعيد الميلاد في العالم على وجه الإطلاق. ومن الواضح أنّ هناك قراءات تخلَّلت التَّراتيل، وإن كان من المؤسف، أنّ النَّص الخاص بالمعموديَّة غير مكتمل.

ولعلّ من يقرأ الذُّكصولوجيَّة الثّانية لعيد الغطاس في كتاب "الأبصلموديَّة السنويَّة المقدَّسة" يجد أنّ ثنائيَّة الاحتفال بالعيدَين معاً تظهر واضحة في هذا النَّص اللّيتورجي القديم. فنقرأ: "**مباركٌ أنت يا سيِّدنا المسيح الابن الوحيد، الذي تجسَّد من العذراء واعتمد في الأردن**".

قوانينه ذكر عيد الإبيفانيا، ولم يشر إلى عيد الميلاد كعيد مستقل قائم بذاته.

17- Friste published by G. Bickell in (*Mitt. eilungen aus der Sammlung der papyrus)*, 1887, ii. p. 83- 86.

في سوريا

أمَّا في الكنيسة السِّريانيَّة فهناك صلوات قديمة وعديدة تجمع بين العيدَين بالتَّساوي، لوثوق الصِّلة بينهما. ومن بين هذه الصَّلوات: "في نيسان بشر جبرائيل، وفي كانون رأينا ميلادك، يا ولداً مجيداً من الآب، وثمرة شهيَّة من مريم، أكلت منها البرايا فنالت الحياة الأبديَّة"(١٨).

ومن بين هذه الصَّلوات أيضاً، نورد الصَّلاتَين التَّاليتَين:

- "كان للابن مبشِّران بشرا به في العُلى والعمق. كوكب النُّور هتف من فوق، ويوحنا أعلن من الأرض: هوذا حمل الله، وابنه الحي، الذي بشر به الأنبياء بالرُّوح"(١٩).

- "في شهر كانون حيث النير يُغلب، أشرق لنا من حضن البتول النُّور البهي الذي يفوق الشَّمس بهاءً. وأراد أن يعتمد من يوحنا ابن العاقر كأنه محتاج، مع كونه غافر الخطايا، وتارك الذُّنوب، فشرع يقول ليوحنا المصطفى: تشجَّع يا ابن التُّراب، وهلمَّ ضع يدك على رأسي وعمِّدني"(٢٠).

وإنه لمن أبدع المقابلات بين عيدَي الميلاد والغطاس، هو ما تردِّده الكنيسة السِّريانيَّة في صباح عيد الدِنح (الغطاس):

"في ذاك العيد الأوَّل، عرفه المشاهدون كإنسان وُلد. وفي هذا العيد الثَّاني، شُهد له علناً أنه إله.

في ذاك العيد الأوَّل، بشَّر بالحبل به رئيسُ القوَّات، وفي هذا العيد الثَّاني، أظهره يوحنا للجموع مشيراً إليه بإصبعه قائلاً: هوذا حمل الله

١٨- فنقيت (أي كتاب صلاة الفرض) أيام الآحاد والأعياد، ف٢، ص ٤٨٤
١٩- فنقيت، ف٣، ص ٤٨
٢٠- المرجع السابق، ف٣، ص ٢٦٠

حامل خطيَّة العالم.

في ذاك العيد الأوَّل، رنَّم الملائكة والرُّعاة لمولده. وفي هـذا العيـد الثَّاني، صرخ الآب من العُلى: هذا هو ابني الحبيب الذي عنه رضيت ...

في ذاك العيد الأوَّل، ظهر فوق الطِّفل كوكبٌ، كعلامة لرؤسـاء فارس. وفي هذا العيد الثَّاني، عرفه الرُّوح القُدُس الذي استقر على رأسه بهيئة حمامة"[٢١].

وممَّا سبق ذكره، نلاحظ أنَّ الكنائس في الشَّرق المسيحي، قد اتفقت على أن يكون الاحتفال بعيدَي الميلاد والغطاس معاً في يوم ٦ يناير. ولكن لماذا اختير هذا اليوم بالذَّات؟ وجدير بالذِّكر أنَّ مصر كانت من بين بلاد الشَّرق المسيحي التي تُعيِّد في هذا اليَوم بعيد الغطاس، وذلك قبل التَّعـديل الغريغوري، الذي نقل هذا العيد في مصر إلى يوم ١٩ يناير كما هو حادث اليَوم، وهو ما سأشير إليه فيما بعد.

فلماذا اُختير يوم ٦ يناير؟

يوم ٦ يناير هو للاحتفال بميلاد الرَّب وعماده

إنَّ اختيار يوم ٦ يناير، كان أساسه هو أنه في هذا الوقت يبدأ النَّهار يطول أكثر من اللَّيل، والمسيح له المجد هو النُّور الذي أشرق في الظُّلمـة. وهو التَّعليم الذي يتكرَّر في أكثر من موضع من العهد الجديد. كمـا أنَّ ملاخي النَّبي يذكر بوضوح في نبوَّته، أنَّ المسيح هو شمس البر. لذلك فقد تبنَّى المسيحيُّون الأوائل الاحتفال بيوم ٦ يناير كعيـد للنُّـور الإلهـي أو للظُّهور الإلهي، أي تجسُّد المسيح ومعموديَّته[٢٢]. فارتبط الاحتفال بعيدَي

٢١- المرجع السَّابق، ف٣، ص ٢٨٦

٢٢- مجلة النُّور، العددان ٩، ١٠ تشرين ثاني وكانون ثاني سنة ١٩٧١م.

الميلاد والغطاس للسيِّد المسيح بيوم الانقلاب الشِّتوي، ليحلّ محل أعياد وثنيَّة كان يحتفل بها العالم الوثني القديم في مثل هذا اليوم[٢٣].

ففي سنة ١٩٩٦ ق.م كان التَّقويم المصري القديم يسجِّل أنّ الانقلاب الشِّتوي يحدث في يوم ٦ يناير قبل أن يعدَّل هذا التَّقويم في سنة ٣٣١ ق.م[٢٤]. ولقد بحث العالم الألماني كارل هول K. Holl أهميَّة هذا التَّاريخ من النَّاحية الوطنيَّة في الإسكندريَّة، وخلُص إلى القول، بأنه من المحتمل أنّ العيد قد أُخذ عن عيد قديم، وهو عيد أوزوريس. ففي هذا العيد الذي كان يُقام في الإسكندريَّة في يوم ٦ يناير، كان يُحتفل فيه ببدء إطالة النَّهار وميلاد أيون Aeon وامرأته كوري Koré . وكانت الآلهة ديونيسيوس وأيون يمثِّلون الشَّمس، فهو عندهم عيد انتصار النُّور على الظُّلمة. ولقد سُمِّي هذا العيد أيضاً في روما بـ "عيد الشَّمس التي لا تُغلب – Natalis Solis Invicti".

وكان الاعتقاد في مصر القديمة، أنّ قوَّة إلهيَّة تحمل الشِّفاء، تحلُّ في مياه النِّيل في يوم ٥ يناير، أي في اللَّيلة السَّابقة ليوم ٦ يناير، وربما كان مبعث هذا الاعتقاد، هو إلقاء جسد أوزوريس في مياه النِّيل. ويذكر العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م) أنّ الغنوسيِّين كانوا يقيمون صلاة طوال اللَّيل، ليلة السَّادس من يناير، وإن كنَّا لا نعرف إن كانت هذه الصَّلوات لتقديس مياه النِّيل أم لا[٢٥].

23- J.G. Davis, A Dictionary of Liturgy and Worship, p. 134, 135.

24- J.G. Davis, A Dictionary of Liturgy and Worship, SCM Press LTD, 1972, p. 134, 135.

25- *Urspurg des Epiphanien Féstes in Ges Aufsatze*, ii, 1928, p. 123ff.

الفصل بين عيدي الميلاد والغطاس

لم ينفصل عيد الميلاد عن عيد الغطاس إلاّ بعد أن عُرف عيد الميلاد كعيد مستقل في الغرب أولاً، ومنه انتقل الاحتفال بالعيد مستقلاً عن الغطاس في الشَّرق، ولكن ببطء ملحوظ. إذاً فقد كانت البداية من الغرب المسيحي وخصوصاً في روما. ففي سنة ٢٧٤م، أدخل الإمبراطور أوريليان Aurelian (٢٧٠- ٢٧٥م) في عاصمة الإمبراطورية (روما) عيداً وثنياً للاحتفال بالشَّمس، دعاه عيد الشَّمس التي لا تُقهر Natalis Solis Invicti وكان ذلك في يوم ٢٥ ديسمبر من كلّ عام. وإكراماً للإلهة "ميترا"[٢٦] كانت مدينة روما تنظّم في هذه المناسبة المهرجانات والألعاب المختلفة بدون التَّقيُّد بأيِّ رادع أخلاقي. وظلّ هذا العيد الوثني مرعياً في العالم الوثني عشرات السِّنين. ولمّا كانت عبادة الشَّمس، وهي في أوج ازدهارها، تشكّل على أبناء الكنيسة خطراً كبيراً، كان من المناسب أن تجد الكنيسة بديلاً لذلك، ولم تر أنسب من "تعميد العيد" انطلاقاً من فكرة أنّ المسيح هو "شمس البر" طبقاً لنبوَّة ملاخي النَّبي (٤:٢).

أمَّا أوَّل ذكر لاعتبار يوم ٢٥ ديسمبر أنه يوم ميلاد المسيح، فقد جاء في التَّقويم الفيلوكالي[٢٧] Philocalian Calendar وهو التَّقويم الذي مارسته

٢٦- إلهة عُرفت في الأوساط الهنديَّة والفارسيَّة. وبعد أن دخلت عبادتها العالم الرُّوماني، احتلت المحل الرَّئيسي في أوساطه العسكريَّة، خصوصاً في القرن الثَّالث بعد الميلاد. وكان الاحتفال بطقوسها في الدَّهاليز، كما كان عُبَّادها يُقسَّمون إلى سبع مراتب أو درجات.

٢٧- نسبة إلى واضعه "فوريوس فيلوكالوس" Furius Philocalus .

Cf. Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, English Edition By F.L. Cross, London, 1958, p. 153.

وقد ظهر هذا التَّقويم في ورما سنة ٣٥٤م، وهو جدول بأسماء أساقفة روما بدءاً من القدِّيس بطرس الرَّسول إلى البابا ليبيريوس Liberius (٣٥٢- ٣٦٦م) وهو البابا الذي

كنيسة روما اعتباراً من سنة ٣٣٦ ميلاديَّة، حيث يورد هذا التَّقويم تحت يوم ٢٥ ديسمبر العنوان التَّالي: "ميلاد المسيح في بيت لحم اليهوديَّة - Natus Christus in Betleem Jude"، ولكن بصورة بسيطة إلى جانب الاحتفال بذكرى عدد من الشُّهداء.

وفي ذات اليَوم أيضاً (٢٥ ديسمبر)، كان يحتفل النَّبطيُّون العرب في بترا بمولد إلههم "دوسار" Doussares . وورد هذا اليَوم في التَّقويم

أُمر بواسطة الإمبراطور قنسطنطيوس Constantius أن يوافق على إدانة البابا أثناسيوس الرَّسولي فرفض، فأُبعد عن روما سنة ٣٥٥م. ولكن في سنة ٣٥٧م، أذعن لقسطنطيوس تحت تأثير القهر، كما يذكر البابا أثناسيوس الرَّسولي نفسه، ومعه القدِّيس جيروم. ويتَّضح إيمانه القويم من أربع رسائل له حُفظت عند القدِّيس هيلاري أُسقُف بواتيه. ورغم أنَّ اسمه لا يظهر في الجداول الحديثة لباباوات روما، إلاَّ أنَّ أحد التَّقاويم المشهورة للشُّهداء، ويُسمَّى التَّقويم الإيرونيمي Hieronymian Martyrology (نسبة إلى القدِّيس إيرونيموس) يحدِّد عيداً للبابا ليبيريوس في ٢٣ ديسمبر من كلِّ عام. وهذا التَّقويم يعتمد على شهداء يونان في العصور الأولى في آسيا الصُّغرى. وقد جُمع في إيطاليا في منتصف القرن الخامس الميلادي.

وربما سُمِّي التَّقويم الفيلوكالي نسبة إلى كلمة "فيلوكاليا" أي "محبَّة الصَّلاح". وجديرٌ بالذِّكر أنَّ أشهر مؤلَّفين حملا اسم "فيلوكاليا" هما "فيلوكاليا العلامة أوريجانوس"، وهي مختارات من كتاباته جُمعت بواسطة القدِّيسَين باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) وغريغوريوس النَّزينزي (٣٢٩-٣٨٩م) في غضون سنة ٣٥٨، أو ٣٥٩م، ولكن فُقد الأصل اليوناني لها. والمؤلَّف الثَّاني هو "فيلوكاليا مكاريوس نوتاراس Notarus ونيقوديموس" من الجبل المقدَّس (آثوس)، ونُشر للمرَّة الأولى في فينيسيا سنة ١٧٨٢م، وهو تجميعات لكتابات نُسكيَّة وسرائريَّة تقع ما بين القرنين الرَّابع والخامس عشر للميلاد. ومن بين ما تعالج من موضوعات موضوع "صلاة يسوع" وقد تُرجمت إلى اللُّغة السّلافونيَّة بواسطة بيسي فيليشكوفسكي Paissy Velichkovsky في خمسة أجزاء، ما بين سنة ١٨٧٦- ١٨٩٠م. ولقد احتل هذا الكتاب مكانة كبيرة، وتأثيراً واسعاً، في العالم اليوناني الحديث.

Cf. ODCC., 2nd edition, p. 1084, 821, 647.

الكانوبي Calendar of Canopos الذي وُضع تحت العنوان التّالي: ''مولــد الشّمس وازدياد النُّور'' Ἡλίου γενέθλια. Ἄυξει φῶς .

وفي يوم ٢٥ ديسمبر أيضاً كان إعادة تدشين هيكل أورشليم في زمن المكابيِّين الذي احتفل به في ٢٥ من الشّهر العبري ''كسلو''، وقد سُــمِّي عيد التّجديد(٢٨)، وهو العيد الذي أعلن فيه السيِّد المسيح له المجد وحدانيّته مع الآب قائلاً: «أنا والآب واحد» (يوحنا ٢٠:١٠:٣٠)(٢٩).

وهناك نظريّة ثانية في تبرير هذا التّاريخ، وهي نتاج اعتبارات رمزيّة. وهي النّظريّة التي نادى بها هيبوليتس الرُّوماني في كتابه ''تقويم الفصح''، حيث يؤكّد أنّ ميلاد يسوع المسيح قد تمّ في الخامس والعشرين من شهر كانون الأوّل (ديسمبر). ويدعِّم ذلك بحجّة فلسفة العدد، والتي مفادها أنّ المسيح يسوع، وهو أكمل الكائنات، قد عاش سنوات كاملة لا تعــرف الكسور، فوُلد يوم مولد الشّمس، أي في اليَوم الرّابع لخلق العالم، لأنه هو ''شمسُ البر''، وإذا كان بدء الخلق قد حصل في بدء الرّبيع، الموافق الثّاني والعشرين من شهر آذار (مارس)، فهذا يعني أنّ اليَوم الرّابــع، يقــع في الخامس والعشرين من شهر كانون الأوّل (ديسمبر).

وهذه الطّريقة في تفسير الأحداث كانت معروفة في القــرون الأولى، كما يشهد على ذلك المؤرِّخ البيزنطي سوزومين (أوائل القرن الخامس)(٣٠). وهو الذي يعتمد نفس الأسلوب في توقيت عيدَي الفصح والميلاد، عندما

٢٨- انظر يوحنا ٢٢:١٠

29- Anton Baumstark, *op. cit.*, p. 153.

٣٠- ترك هذا المؤرِّخ تاريخاً للكنيسة، يستعرض فيه الأحداث من سنة ٣٢٤م - سنة ٤٣٠م.

يحدِّثنا عن البدعة المونتانيَّة[٣١] التي كانت تحتفل بعيد الفصح في شهر نيسان (إبريل) وبعيد الميلاد في اليَوم السَّادس من شهر كانون الثَّاني (يناير) وذلك تجنُّباً لحدوث كسور في سني حياة المسيح على الأرض[٣٢].

ويتزعَّم بعض العلماء الألمان[٣٣] الرأي القائل بأنَّ الغرب قد بدأ الاحتفال بعيد الميلاد في ٦ يناير ثم عدَّلوه في وقت مبكِّر جداً إلى ٢٥ ديسمبر، ليحل محلَّ العيد الوثني الذي أدخله الإمبراطور أوريليان.

وتورد العظة ٢٠٢ للقدِّيس أغسطينوس[٣٤] (٣٥٤- ٤٣٠م) لوماً وتعنيفاً للهراطقة المعروفين باسم "الدُّوناتيِّين" لأنهم تركوا الاحتفال بعيد الميلاد يوم ٦ يناير وأخذوا يحتفلون به في يوم ٢٥ ديسمبر. ويحذِّر القدِّيس أغسطينوس المسيحيِّين في عظة أُخرى له[٣٥] مشيراً إليهم بألاَّ يحتفلوا بالعيد في ٢٥ ديسمبر لئلا يعبدوا الشَّمس مثل الوثنيِّين، بل بالحري ذاك الذي خلق الشَّمس.

ويتحدَّث لاون الكبير في أسف وتعنيف، عن مسيحيِّين احتفلوا بيوم الشَّمس في ٢٥ ديسمبر بدلاً من ميلاد المسيح[٣٦].

٣١- نسبة إلى مونتانوس، وهو كاهن وثني اهتدي إلى المسيحيَّة، وراح يتنبأ عن نهاية العالم. ويدعو النَّاس إلى التَّوبة. ولقد قام بنشاطه هذا في آسيا الصُّغرى، ولقد بالغ في تعليمه إلى حد ادعائه أنه هو نفسه الرُّوح القُدُس، وقد جاء لِيُكمِّل رسالة المسيح!.

٣٢- مجلَّة حياتنا اللِّيتورجيَّة، العدد ١٣، السنة الثانية، ١٩٩٠م، ص ٨٤.

٣٣- أمثال Holzmesitre، Prumm .

34- Migne, P L 38, 1033C.

35- Migne, P L 38, 1007A, 81352D.

36- Sermon xxvii, Migne P L 54, ; Sources Chrétiennes, No 22, p. 1433.

ويشرح القدِّيس أمبروسيوس في عظة له[٣٧] الفرق بين معنى العيد عند الوثنيِّين، ومعناه عند المسيحيِّين، وذلك في قوله:
[المسيح هو شمسُنا الجديد].

ممَّا يؤكِّد مجدَّداً أنَّ الكنيسة قد اختارت يوم ٢٥ ديسمبر، وهي على إدراك كامل بعلاقة هذا اليَوم بالوثنيَّة، وهي ترى في ذلك وسيلة للكرازة والتَّبشير[٣٨].

ومن روما، انتقل العيد إلى شمال أفريقيا، حيث تشهد الوثائق التَّاريخيَّة أنه كان يُحتفل به فيما بين سنة ٣٦٢ - ٣٦٣م . وفي أواخر القرن الرَّابع، تبنَّته كنائس شمال إيطاليا: ميلانو وتورينو ورافينا.

بداية ظهور عيد الميلاد كعيد مستقل في الشَّرق

بدأ الشَّرق يقلِّد كنيسة روما، ويعيِّد يوم ٢٥ ديسمبر بعيد ميلاد المسيح، كعيد مستقل. في حين صار يوم ٦ يناير مخصَّصاً للاحتفال بعيد الغطاس، أي عماد الرَّب في مياه الأردن. وفي خلال الرُّبع الأخير من القرن الرَّابع الميلادي، اتَّضح هذا الانفصال بين العيدين في مناطق القسطنطينيَّة وآسيا الصُّغرى وأنطاكية.

في القسطنطينيَّة

ففي القسطنطينيَّة، ومن عظات القدِّيس غريغوريوس النَّاطق بالإلهيَّات (٣٢٩- ٣٨٩م) يتَّضح لنا جلياً، أنه بحلول سنة ٣٨٠م كان يُحتفل بعيد الميلاد في القسطنطينيَّة كعيد مستقل بذاته، دعاه القدِّيس غريغوريوس

37- Sermon vi, Migne, P L, 614B.

٣٨- مجلَّة النُّور، مرجع سابق.

النَّزينزي (النَّاطق بالإلهيَّات) "عيد الثِّيؤفانيا"، أي عيد الظُّهور الإلهي، أو عيد الميلاد Birthday . إلاَّ أنَّ الاسم "ثيؤفانيا" قد أصبح فيما بعد اسماً مختصاً بعيد الغطاس فحسب. واحتفل القدِّيس غريغوريوس النَّزينزي بعيد الميلاد لأوَّل مرَّة في القسطنطينيَّة، في كنيسة القيامة الصَّغيرة.

في آسيا الصُّغرى

أمَّا في آسيا الصُّغرى، ومن عظة للقدِّيس غريغوريوس أُسقُف نيصص (+ ٣٩٤م) عن الإبيفانيا (عيد الظُّهور الإلهي)، نعرف أنَّ عيد الميلاد فيها قد انفصل عن عيد الغطاس كما حدث في القسطنطينيَّة[٣٩].

في أنطاكية

تكتمل الرؤية وضوحاً في أنطاكية. فالقدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) في عظة له[٤٠] يوم ٢٠ ديسمبر سنة ٣٨٦م عن يوم ميلاد المخلِّص، يطالب سامعيه بالاستعداد لعيد الميلاد بعد خمسة أيام. وهذه هي المرَّة الأولى التي يذكر فيها ذهبي الفم الاستعداد للاحتفال بالميلاد كعيد مستقل بذاته، إذ أنه في نفس هذه السَّنة وفي عيد العنصرة (أي في النِّصف الأوَّل منها) ألقى عظة ذكر فيها أنَّ عيد الإبيفانيا هو أوَّل الأعياد المسيحيَّة، لتذكار ظهور الله على الأرض. ولكن في نهاية هذه السَّنة، تغير الوضع واحتُفل بعيد الميلاد لأوَّل مرَّة.

وهكذا تبنَّت أنطاكية الاحتفال بعيد الميلاد في أيام القدِّيس يوحنا ذهبي الفم سنة ٣٨٦م بعد أن وقفت الكنيسة الأنطاكيَّة منه موقف الحذر

39- J.G. Davis, *op. cit.*, p. 170.

40- Homily, Εἰς τὴν γενέθλιον ἡμέραν του Σωτῆρος (PG xlix, CC 351- 362).

زمناً طويلاً. فصار هذا التَّاريخ هو أوضح تاريخ لبداية الاحتفال بعيد الميلاد في الشَّرق. وجدير بالذِّكر أنَّ القدِّيس أفرآم السِّرياني (٣٠٦-٣٧٣م)، وإن لم يكن يعرف الاحتفال بعيد الميلاد منفصلاً عن عيد الإبيفانيا، إلاَّ أنه ألَّف الميامر العديدة والأناشيد الجميلة في الميلاد البتولي[٤١].

ففي العظة الحادية والثَّلاثين ليوحنا ذهبي الفم، والتي كانت عن الميلاد يقول فيها:

[إنه وإن كان لم تنقض السَّنة العاشرة منذ ظهور هذا اليَوم، وصار معروفاً عندنا، فهو قد عُرف من قبل للسَّاكنين في الغرب قبل سنوات كثيرة، ونُقل إلينا. ومع ذلك تعاظم بسرعة وأتى بثمار يانعة غزيرة، بمقدار ما ترى الآن الكنائس ملآنة، تكاد تضيق بجماهير المحتشدين].

أمَّا الميامر الثَّلاثون المنسوبة للقدِّيس غريغوريوس الثِّيؤلوغوس، فالميمران الأوليان منها، هما عن الميلاد السيِّدي[٤٢].

ممَّا سبق ذكره، نخلُص إذاً إلى أنَّ عيد الميلاد البتولي كعيد مستقل بذاته، قد ظهر في الشَّرق في أواخر القرن الرَّابع الميلادي، متأخِّراً عن ظهوره في الغرب بحوالي قرن كامل من الزَّمان.

في مصر

أمَّا في مصر، فلا يوجد دليلٌ واحدٌ على أنَّ هذا الفصل بين العيدَين

٤١- طبع منها الأب يوحنا يشوع المرسل اللبناني عشرين نشيداً في كتاب، ضمَّ النَّص السِّرياني مع ترجمته العربيَّة سنة ١٩٩٤م. (انظر: مجلَّة حياتنا اللِّيتورجيَّة، دراسات، السَّنة السَّابعة، ١٩٩٦- ١٩٩٧م، لبنان، ١٩٩٧م، ص ٧٦١).

٤٢- القس أبو البركات، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٢٨٨

قد حدث قبل سنة ٤٣١م . فمن سيرة البابا ثاؤفيلس الـــ ٢٣ من باباوات الإسكندريَّة (٣٨٤- ٤١٢م) نعرف أنه وضع عدَّة قوانين كنسيَّة لم يرد فيها ذكرٌ لعيد الميلاد[٤٣]، بينما أشار فيها إلى عيد الإبيفانيا وعيد الفصح. بـــل إنَّ هذا البطريرك، وضع تقويماً للأعياد لمدَّة ٤١٨ سنة، بالإضافة إلى جدول يحتوي على الأيام التي يقع فيها عيد الفصح لمدَّة مائة سنة، ابتداءً مـــن سنة ٣٨٠م، وذلك بناءً على طلب الإمبراطور الأرثوذكسي ثيؤدوسيوس. وذلك حين اتَّضح أنَّ الفارق بين عيد الفصح في كلٍّ من مصر وروما، قد بلغ أحياناً خمسة أسابيع كاملة. ممَّا يعني أنه في خضم هذا الاهتمام بالأعياد، وتصحيح تواريخها، ووضع قوانين خاصة بها، لم يأت أيُّ ذكر لعيد الميلاد بينها.

والقدِّيس يوحنا كاسيان (٣٥٠/٣٦٠-٤٤٠/٤٥٠م) الذي زار مصـــر صُحبة صديقه جرمانوس فيما بين سنة ٣٨٠- ٤٠٠م وقضى وقتاً طـــويلاً فيها متنقِّلا بين رُهبانها، يذكر في مؤلَّفه "المحاورات" Conferences أنَّ عيد الإبيفانيا (الغطاس) في مصر، هو عيدٌ لتذكار تجسُّد الرَّب وعماده معاً[٤٤].

أمَّا أوَّل إشارة ربما تفيد استقلاليَّة عيد الميلاد في مصر، فقد وردت في العظة التي ألقاها بولس الحمصي حول عيد الميلاد سنة ٤٣٢م، في حضرة القدِّيس كيرلس الإسكندري، يوم أن زار الإسكندريَّة.

إنَّ ظهور الهرطقة النَّسطوريَّة، كان السَّبب في التَّعجيل بإدخال هـــذا الفصل بين العيدَين لتأكيد معنى الاتحاد الأقنومي في شخص ربِّنا يســـوع

٤٣- عموماً لم يرد ذكر لعيد الميلاد في الشَّرق في أيِّ قوانين كنسيَّة قبـــل قـــوانين مجمع ترولو سنة ٦٩٢م، وبالتَّحديد في القانون ٧٩ لهذا المجمع.

44- J.G. Davis, *op. cit.*, p. 170 ; Cf. also, Cassien, *Collationes* 10, 2, PL 49, 820- 821.

المسيح. وكان مجمع أفسس المسكوني الثّالث سنة ٤٣١م، وإعلانه لأُمومة العذراء، وبأنّ العذراء مريم هي والدة الإله، هو الذي ساعد على انتشار العيد لينتشر في كلّ الشّرق المسيحي. وكان أن احتلّت عقيدة ميلاد الرَّب من عذراء، مكان الصَّدارة في الاحتفال بالعيد، واحتلّ سرُّ هذا الميلاد البتولي، مركز الضَّوء في العيد كلّه، حيث انتشرت هذه العقيدة انتشاراً واضحاً، لتحتل مكاناً بارزاً في نصوص وألحان هذا العيد في الشّرق، أي "ميلاد الله من العذراء". وكتطوُّر لاحق لذلك، فقد ربطت الكنيستان البيزنطيّة والأنطاكيّة عيد الميلاد بعيد تكريم أُمومة العذراء الطّاهرة، ليُحتفل بعيد أُمومة العذراء في اليَوم التّالي لعيد الميلاد مباشرة.

ونعرف منذ البداية أيضاً، أنّ الاحتفال بعيد الميلاد كان يشمل ثلاثة أيام، تبدأ من يوم ٢٨ كيهك. فنقرأ في سيرة البابا بنيامين الأوّل (٦٢٣-٦٦٢م) الـ ٣٨ من بطاركة الكنيسة القبطيّة ما يلي: "... **وحضر يوم عيد ميلاد السيِّد المسيح في الثّامن والعشرين من كيهك**، ونحن مجتمعين في بيعة السيِّدة الطّاهرة مرتمريم أُم النُّور ... فرأيتُ رهباناً قد دخلوا إلى وسط الشَّعب ... من بريَّة القدِّيس أبو مقار ... فتقدَّم أحد الكهنة وعرَّفني بدخولهم ... فلما دنوا مني، استعلمت منهم سبب تعبهم ووصولهم، فقالوا: جئنا إليك قاصدين نسأل أُبوَّتك بمطانوة من أجل الله أن تتكلَّف مشقّة الطَّريق إلى الدَّير في الجبل المقدَّس بوادي هبيب مسكن أبونا أبو مقار الكبير، لتكرِّس البيعة الجديدة التي بُنيت له ... **فأقاموا حتى كمَّلنا العيد ذلك اليَوم وغده الذي هو تسعة وعشرين يوماً من كيهك وثالثه** ..."[٤٥].

45- Seybold, *Severus Ben El-Moqaffa, Historia Patriacharum Alexandrinorum*, 1,1, Corpus scriptorum christianorum orientalium (CSCO), Vol. 52, Scriptorum Arabici, Tomus 8, Louvain, 1962, p. 113-114.

وهو ما يؤكِّده أيضاً ما ورد في سيرة البابا خريستوذولوس (١٠٤٧-١٠٧٧م) الـ ٦٦ حيث نقرأ في سيرته ما يلي: "... وأصبح يوم الميلاد الأوَّل وهو الثَّامن والعشرين ..."(٤٦).

ويشرح يوحنا بن سباع ذلك الأمر في القرن الرَّابع عشر فيقول: "... ثم يتلوه **عيد الميلاد المجيد**، وهو يومان، الثَّامن والعشرين من كيهك، ويوم التَّاسع وعشرين. وقد شهد بذلك السِّنكساري بتعييد اليومين معاً، لأنَّ المسيح له المجد وُلد في الثَّامن والعشرين، وملا نوره المغارة فلم ينظروا إلاَّ في التَّاسع والعشرين طفلاً ملفوفاً بالخرق ... لذلك عيَّدوا له اليومَين معاً ... ويجب أن يكون له برموني، وهو صوم يوماً واحداً قبله إلى المساء ... ويكون القُدَّاس فيه (أي في العيد) سَحَراً جداً، وذلك تمجيداً للعيد ...الخ"(٤٧).

ولكن كيف أصبح الاحتفال بعيد الميلاد في مصر في يوم ٧ يناير، وعيد الغطاس في يوم ١٩ يناير؟ هذا هو ما تشرحه لنا السُّطور التَّالية.

تقول الدِّسقوليَّة: "يا إخوتنا، تحفَّظوا في أيام الأعياد التي هي أولاً عيد ميلاد الرَّب، وكمِّلوه في اليَوم الخامس والعشرين من الشَّهر التَّاسع الذي للعبرانيِّين (كسلو)، الذي هو التَّاسع والعشرين من الشَّهر الرَّابع (كيهك) الذي للمصريِّين"(٤٨).

٤٦- ساويرس بن المقفع (الأنبا) أُسقُف الأشمونين، تاريخ بطاركة الكنيسة المصريَّة المعروف بسير البيعة المقدَّسة، المجلد الثاني، الجزء الثالث. قام على نشره يسَّى عبد المسيح أمين مكتبة المتحف القبطي سابقاً، وعزيز سوريال عطيَّة أستاذ تاريخ العُصور الوُسطى بجامعة الإسكندريَّة سابقاً، وأسولد بورمستر مدرِّس أوَّل اللُّغات القديمة بجامعة الإسكندريَّة سابقاً، القاهرة ١٩٥٩م، ص ١٩٠

٤٧- يوحنا بن سباع، مرجع سابق، الباب التَّاسع والتِّسعون، ٣٠٨- ٣٢١

٤٨- دُكتور وليم سليمان، الدِّسقوليَّة، تعاليم الرُّسُل، الباب ١٨

فالأقباط في مصر كانوا ولا زالوا يعيِّدون عيد الميلاد في ٢٩ كيهك، وهو التَّقويم القبطي الذي ترتبط به كلُّ أعيادهم وحياتهم الكنسيَّة والمدنيَّة. واستمر الحال هكذا حتى بداية الرُّبع الأخير من القرن التَّاسع عشر، وبالتَّحديد في سنة ١٨٧٥م في عهد الخديوي إسماعيل، حيث توقَّف العمل بالتَّقويم القبطي الذي كان يسير جنباً إلى جنب مع التَّقويم الهجري، ليحل محلّهما التَّقويم الإفرنجي في أوَّل توت سنة ١٥٩٢ قبطيَّة، الموافق ١١ سبتمبر سنة ١٨٧٥م . والعلَّة في ذلك أنه لمَّا استدان الخديوي إسماعيل أموال الإفرنج، اضطروه إلى استعمال تاريخهم فاستعمله[٤٩].

إنَّ التَّقويم الإفرنجي، كان يُعرف أولاً باسم التَّقويم اليولياني، نسبة إلى يوليوس قيصر، الذي استعان بعالم فلكي من الإسكندريَّة اسمه "سوسيجين". وهو الذي نقل التَّقويم المصري القديم سنة ٤٦ ق.م ولكنَّه عدَّل في ترتيب الشُّهور، فجعل الفردي منها ٣١ يوماً، والزَّوجي ٣٠ يوماً، ما عدا شهر فبراير فجعله ٢٩ يوماً تُزاد إلى ٣٠ يوماً كلَّ أربع سنوات. ثم جاء أغسطس قيصر، فعدَّل هذا التَّرتيب إلى الوضع المعروف الآن، حين جعل شهر أغسطس ٣١ يوماً، وبالتَّالي صار شهر فبراير يتأرجح بين ٢٨ و ٢٩ يوماً. وعُرف هذا التَّقويم باسم "التَّقويم اليولياني".

وعندما عُقد مجمع نيقية المسكوني الأوَّل سنة ٣٢٥م، كان من بين الموضوعات المطروحة، تحديد تواريخ ثابتة للأعياد والمواسم. إذ أنه حتى هذا التَّاريخ لم يكن التَّقويم الميلادي المسيحي معروفاً[٥٠]، إذ أنَّ الإمبراطور

٤٩- سليم سليمان الفيومي، مختصر تاريخ الأُمَّة القبطيَّة، القاهرة، ١٩١٤م، ص ١٤

٥٠- هو التَّقويم الذي يتَّخذ من ميلاد السيِّد المسيح بداية له. والذي وضع التَّقويم الميلادي هو راهب من روما عاش في النِّصف الأوَّل من القرن السَّادس المسيحي (٥٠٠- ٥٥٠م) اسمه "ديونيسيوس أكسيجوس" وقد ذكرتُ ذلك من قبل.

جوستنيان (٤٨٣- ٥٦٥م) هو أوَّل من استعمل هذا التَّقويم في الدَّولة الرومانيَّة الشرقيَّة (أي في الشَّرق المسيحي).

وفي سنة ٣٢٥م وهي سنة انعقاد مجمع نيقية المسكوني الأوَّل، كان الاعتدال الرَّبيعي يقع في ٢١ مارس بعد أن كان يقع في ٢٥ مارس في التَّقويم اليولياني. فثبَّت مجمع نيقية يوم ٢١ مارس ليكون هو الاعتدال الرَّبيعي، كأوَّل تاريخ للقمر الكامل يتحدَّد به يوم عيد الفصح المسيحي.

وفي عهد البابا غريغوريوس الثَّالث عشر، وقع الاعتدال الرَّبيعي سنة ١٥٨٢م في ١١ مارس بدلاً من ٢١ مارس بفارق عشرة أيام منذ مجمع نيقية. فحتى هذا التَّاريخ، أي سنة ١٥٨٢م، كان ٢٩ كيهك يوافق ٢٥ ديسمبر. فكانت مصر حتى النِّصف الثَّاني من القرن السَّادس عشر تعيِّد لعيد الميلاد في ٢٥ ديسمبر، ولعيد الغطاس في ٦ يناير، ولكن بتاريخها القبطي وليس الإفرنجي، أي ٢٩ كيهك لعيد الميلاد، ١١ طوبة لعيد الغطاس.

وحدث في يوم ٥ أكتوبر سنة ١٥٨٢م أن اجتمع مجمع الكرادلة في روما وقرَّر أن يكون يوم ٥ أكتوبر موافقاً ليوم ١٥ أكتوبر، وذلك من أجل تصحيح الخطأ في الاعتدال الرَّبيعي. فاستيقظ النَّاس يوم ٦ أكتوبر سنة ١٥٨٢م ليجدوا أنفسهم في يوم ١٦ أكتوبر. ومنعاً لتكرار الخطأ قرَّر مجمع الكرادلة بألاَّ تكون السَّنوات التي تأتي في نهاية القرون، سنوات كبيسة إلاَّ إذا قبلت القسمة على ٤٠٠ وليس على ٤ . وهذا التَّعديل هو ما عُرف باسم "التَّعديل الغريغوري".

وفي السَّنة التَّالية مباشرة، أي سنة ١٥٨٣م، جاء عيد الميلاد عند الأقباط موافقاً ٢٩ كيهك، ولكنَّه أصبح يوافق هذه المرَّة يوم ٤ يناير

بفارق عشرة أيام، وهي المدَّة من ٢٥ ديسمبر إلى ٤ يناير، بدون أن يشعر الأقباط بأيَّة غرابة في ذلك، لأنه لم تكن لهم أيَّة علاقة حتى ذلك الوقت بالتَّقويم الإفرنجي. وكان أن أصبحت السَّنوات القرنية ١٧٠٠، ١٨٠٠، ١٩٠٠م سنوات كبيسة بحسب التَّعديل الغريغوري، لأنها لا تقبل القسمة على ٤٠٠ في حين أنها كانت معتبرة بحسب التَّقويم اليولياني بسيطة لأنها تقبل القسمة على ٤ وهكذا زاد الفرق ثلاثة أيام أُخرى، ليكون مجموع الأيام ١٣ يوماً بين التَّقويم القبطي الذي كان يسير موافقاً للتَّقويم اليولياني، وبين التَّعديل الغريغوري. فأصبح عيد الميلاد الموافق عند الأقباط ٢٩ كيهك يقع في يوم ٧ يناير بفارق ١٣ يوماً عن ٢٥ ديسمبر.

ومعنى ذلك، أنه في سنة ٢١٠٠م سيُصبح عيد الميلاد موافقاً ليوم ٨ يناير. وفي سنة ٢٢٠٠م سيُصبح موافقاً ليوم ٩ يناير. وفي سنة ٢٣٠٠م سيوافق يوم ١٠ يناير، وهكذا، طالما أنَّ التَّقويم القبطي يزيد ثلاثة أيام كلّ حوالي ٤٠٠ سنة عن التَّقويم الغريغوري المعدَّل، وهو التَّقويم الأكثر دقَّة. ولكن مع هذا كلّه، يظل عيد الميلاد عند الأقباط موافقاً ٢٩ كيهك[٥١].

وهكذا صارت أعياد الكنيسة القبطيَّة، متأخِّرة عن نظائرها في معظم الكنائس الشَّرقيَّة الأُخرى، بفارق ثلاثة عشر يوماً. فعيد الغطاس الذي يُحتفل به في ٦ يناير بحسب التَّقليد القديم، صار يُحتفل به يوم ١٩ يناير. وهكذا في باقي الأعياد الثَّابتة في الكنيسة.

٥١- بعد أن توقَّف العمل بالتَّقويم القبطي، وحلَّ محلّه التَّقويم الإفرنجي في مصر، أصبح الأقباط في مصر يعرفون أنَّ عيد الميلاد يقع دائماً في ٧ يناير، وهم في ذلك لا يحسبون حساب السَّنوات القبطيَّة الكبيسة أو البسيطة. وعلى سبيل المثال حدث في سنة ٢٠٠٠م أن وقع عيد الميلاد في ٨ يناير وليس في ٧ يناير.

وكما لاحظنا سابقاً، أنه لم يعبأ الأقباط لا بـــالتَّقويم اليوليـــاني ولا بالتَّعديل الغريغوري، حتى سنة ١٨٧٥م. أي حتى إلى الرُّبع الأخـــير مـــن القرن التَّاسع عشر. لذلك نجد أنّ كلّ المخطوطات القبطيَّـــة، ســـواءٌ في مكتبات الأديرة أو المكتبات القبطيَّة أو المكتبات والمتاحف العالميَّة، تدوِّن تاريخها بالسَّنة القبطيَّة، وأحياناً بالسَّنة الهجريَّة، ولا تعرف شيئاً عن السَّنة الإفرنجيَّة. لذلك، لم يلحظ الأقباط هذا الفارق - الذي ظلّ يتزايد مع تتابع القرون - إلاّ في الـــ ١٢٥ سنة السَّابقة فقط.

في أورشليم

وفي أورشليم، لم ينفصل العيـــدان فيهـــا إلاّ في ســـنة ٥٤٩م أي في منتصف القرن السَّادس الميلادي. فقد باءت كلُّ المحاولات الـــتي بـــذلها الأُسقُف جوفينال بالفشل، حين حاول جعل تاريخ عيد الميلاد يـــوم ٢٥ ديسمبر في كنيسة أورشليم، وذلك بعد مجمع خلقيدونية مباشرة. إذ استمرَّت كنيسة أورشليم تحتفل بعيد ميلاد المخلّص على حسب التَّاريخ القديم أي ٦ يناير، حتى إلى زمن الإمبراطور البيزنطي جوستنيان Justinian . وكـــان الاحتفال فيها بهذه الذّكرى في ذلك الوقت يتم بإقامة قُدَّاسين، الأوَّل في منتصف اللَّيل بعد السَّهَر اللَّيلي إقتداء بما تمارسه هذه الكنيســـة في عيـــد القيامة، وذلك في بازيليكا قسطنطين في بيت لحم، والثَّاني في الصَّـــباح في كاتدرائية أورشليم Martyrion ، أي كنيسة القبر المقدَّس (كنيسة القيامة)، حيث تدوم الاحتفالات بهذه المناسبة أسبوعاً كاملاً، الثَّلاثة أيام الأولى في كنيسة القيامة، وباقي الأسبوع في غيرها من الكنائس المنتشرة في المدينة[٥٢].

أمَّا أوَّل شهادة عن هذه الاحتفالات، فتأتينا من السَّائحة الأســـبانيَّة

52- H. Pêtré, Coll. *Sources Chrétiennes* N. 21, Paris, 1948, p. 202- 204.

إيجيريا (فصل ٢٥:٦– ٨). في حين يعطينا كلٌّ من كتاب القراءات الأرمني Armenian Lectionary وكتاب الطَّقس الجيورجي Georgian Kanonarion تفصيلات وافية عن نصوص الألحان التي تُقال في هذه المناسبة، وكذا الفصول الكتابيَّة التي تُقرأ فيها.

وهناك اتفاقٌ عجيب بين كنيستي أورشليم وروما بخصوص فصول القراءات. إذ تتَّفق تماماً في كلٍّ منهما في هذه المناسبة. فمثلاً تذكر السَّائحة الأسبانيَّة إيجيريا، أنه خلال الموكب المقدَّس الذي يصاحب الأُسقُف عند الفجر من بيت لحم إلى أورشليم، أنَّ الشَّعب كان يردِّد آلاف المرَّات الآيتين المذكورتَين في مزمور ١١٧ «مباركٌ الآتي باسم الرَّب»، وكذلك «الله الرَّب أضاء علينا». وهاتان الآيتان هما نفساهما اللَّتان تُردَّدان في القُدَّاس الثَّاني في كنيسة روما ضمن الثَّلاثة قدَّاسات[٥٣] التي تُصلَّى في هذه المناسبة، أي في عيد الميلاد. وهو القُدَّاس الذي يُحتفل به في كنيسة القدِّيسة أناسطاسيا. وجديرٌ بالذِّكر أنَّ هذا القُدَّاس الثَّاني من هذه القُدَّاسات الثَّلاثة، هو أحد التَّأثيرات الشَّرقيَّة على كنيسة روما، فقد استعارته كنيسة روما من كنيسة أورشليم، إذ لا وجود لنظير له في غير هذا المكان في كلِّ طقوس كنيسة روما[٥٤].

ويُقرِّر العالم اللِّيتورجي الألماني أنطون بومشتارك Anton Baumstark بكلِّ جرأة قائلاً عن عيد الميلاد: "إن كان العيد قد انتقل من روما إلى الشَّرق حيث انتشر هناك، فإنه من الشَّرق وبالتَّحديد من فلسطين،

٥٣- أوَّل شهادة تصل إلينا عن إقامة ثلاثة قُدَّاسات في كنيسة روما في عيد الميلاد، تأتينا من عظة للقدِّيس غريغوريوس الكبير.

Hom. 8, in Evangel., Lib.1, PL lxxvi, C1103.

54- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, p. 155, 156.

استعارت روما الطُّقوس الأساسيَّة المصاحبة للاحتفال به"[٥٥]. فرسالة البولس في القُدَّاس الثَّاني الذي يُقام في روما في هذه المناسبة، هي فصلٌ من رسالة القدِّيس بولس الرَّسول إلى تلميذه تيطس (تيطس ٢:١١- ١٥): «لأنه قد ظهرت نعمة الله المخلِّصة لجميع النَّاس، معلِّمة إيَّانا أن نُنكر الفجور والشَّهوات العالميَّة، ونعيش بالتعقُّل والبر في العالم الحاضر. منتظرين الرَّجاء المبارك، وظهور مجد الله العظيم، ومخلِّصنا يسوع المسيح. الذي بذل نفسه لأجلنا لكي يفدينا من كلِّ إثم، ويطهِّر لنفسه شعباً خاصاً غيوراً في أعمال حسنة ...». فهذا الفصل يبدأ بعبارة «**لأنه قد ظهرت** ...»، وهو الاصطلاح اللِّيتورجي المختص بعيد الإبيفانيا والذي يعني حرفياً "**الظُّهور**". وفي الحقيقة، فإنَّ هذا الفصل بالذَّات هو الفصل الكتابي الذي يعرفه الشَّرق المسيحي في احتفاله بالعيد في يوم ٦ يناير. ولكنَّه في روما فقط قد انتقل إلى يوم ٢٥ ديسمبر.

فكيف يمكننا أن نفسِّر هذا التَّوافق، إلاَّ أنه كان نتيجة نقل حرفي إلى كنيسة روما. أو بتعبير آخر، استعارة مباشرة من كنيسة الشَّرق، والتي كان الاحتفال فيها بعيد الميلاد لا زال غير منفصل بعد عن الاحتفال بعيد الإبيفانيا، عندما كان يُحتفل بالعيدَين معاً في الشَّرق قبل أن ينفصلا. إذاً لم يؤثر الشَّرق على جانب كبير من الاحتفال الطَّقسي بالعيد في روما في ٢٥ ديسمبر فحسب، بل وأيضاً امتد تأثيره إلى أساسيَّات الاحتفال بالعيد[٥٦].

في أرمينيا

وفي كنيسة أرمينيا، لا زالت الاحتفالات بعيد ميلاد السيِّد المسيح

55- *Ibid.*, p. 154.

56- *Ibid.*, p. 156, 157.

حتى اليَوم ضمن عيد الظُّهور الإلهي في ٦ يناير حيث تتمسَّك كنيسة أرمينيا الأرثوذكسيَّة بالتَّقليد القديم. حيث لا زالت النُّصوص اللِّيتورجيَّة الأرمينيَّة تذكر العيدَين معاً، وهي النُّصوص التي تعود إلى أواخر القرن الخامس الميلادي وأوائل السَّادس. ومعروفٌ أنَّ كنيسة أرمينيا قد تأثَّرت في تنظيم صلواتها اللِّيتورجيَّة، بكبادوكية وبيزنطة وسوريا.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ كنيسة أرمينيا، تقرأ أحد عشر نُبوَّة[٥٧] في قراءات عيد الميلاد، وليس لديها قراءات من أسفار العهد الجديد في هذا العيد[٥٨].

في قبرص

وفي قبرص، يقول لنا القدِّيس إيبيفانيوس (٣١٥-٤٠٣م) إنَّ يوم ٦ كانون الثَّاني (يناير)، هو بالتَّأكيد يوم الاحتفال بميلاد الرَّب، وهو أيضاً ذكرى أعجوبة عُرس قانا الجليل، ولكنَّه لا يأتي على أيِّ ذكر لمعموديَّة المسيح في هذا اليَوم، مع علمه بالتَّقاليد المحليَّة، التي تعتبر ذلك اليَوم ذكرى معموديَّة السيِّد المسيح.

إذاً من خلال المعطيات التَّاريخيَّة السَّابقة، نجد تقاليد مختلفة للعيد؛ ففي أورشليم ذكرى الميلاد فقط. وفي قبرص وفلسطين، ذكرى الميلاد وعُرس قانا الجليل. وفي مصر وسوريا وأرمينيا، ذكرى الميلاد والعماد.

٥٧- من أسفار التكوين، وإشعياء، والخروج، وميخا، والأمثال، ودانيال.
٥٨- حياتنا اللِّيتورجيَّة، السَّنة السَّابعة، لبنان، ١٩٩٦-١٩٩٧م، ص ٨٠٨

التَّقليد الشَّعبي الذي ارتبط بعيد الميلاد شرقاً وغرباً

عُرف يوم عيد الميلاد في الغرب المسيحي بالكلمة الإنجليزيَّة Christmass ، ويعود منشأها إلى أوائل القرن الثَّاني عشر، وبالتَّحديد سنة ١١٢٣م حينما استخدمت الكلمة في اللُّغة الإنجليزيَّة القديمة Cristes mæsse . وفي سنة ١٥٦٨م ظهرت كلمة Christmass. بمعنى Mass of Christ أي ميلاد المسيح.

أمَّا عن **شجرة الميلاد**، فقد عُرفت في ألمانيا أولاً منذ سنة ١٦٠٥م، ومنها انتقلت إلى بقيَّة دول أوروبا، ثم إلى أمريكا، ثم إلى الشَّرق. وكان ذلك بسبب تقليد شعبي يتوارثه الألمان، مؤدَّاه أنَّ حارساً من حُرَّاس الغابات، عاد إلى بيته مبكِّراً ليلة عيد الميلاد، وكان البرد قارصاً. وإذ جلس يستدفئ هو وزوجته وابنه هانز حول النَّار، وإذا بطفل صغير فقير يقرع الباب، فأدخله الحارس واستضافه في بيته طوال اللَّيل ليحميه من البرد. وفي الصَّباح، استيقظت الأُسرة على سماع أناشيد ملائكيَّة عذبة. وعند باب الدَّار، اقتطع الطِّفل الزائر – الذي لم يكن سوى مولود بيت لحم – فرعاً من شجرة تنوب[٥٩]، وغرسها في الأرض، وأخبرهم ووجهه يلمع ضياءً قائلاً: 'قد تقبَّلتُ ضيافتكم، وهذه هي هديتي لكم، شجرة تظل مورقة على مدار السَّنة كلِّها، وتُثمر في موسم الميلاد'. ثم غاب عنهم.

أمَّا **مغارة بيت لحم**، فأوَّل من عملها هو القدِّيس فرنسيس الأسيزي من إيطاليا، حيث أقامها في مدخل الكنيسة في قريته أسيزي، وبدأ عمله هذا سنة ١٢٢٤م. فمغارة بيت لحم هي تقليد شعبي نشأ في إيطاليا أولاً، ومنها انتشر في باقي البلاد المسيحيَّة.

٥٩- نوع من الشَّجر ينمو في الغابات الشَّماليَّة.

والتَّقليد الشَّعبي المتوارَث شرقاً وغرباً، هو أنَّ المسيح وُلد في مذود للبهائم (لوقا ٢:١- ٧). ولكن الأسفار المقدَّسة لم تفصح عمَّا هو أكثر من ذلك. ولكن منذ القرن الثَّالث الميلادي أو قبله بقليل، ظهرت مجموعة أناجيل أبوكريفيَّة. ومن بين هذه الأناجيل الأبوكريفيَّة[٦٠] التي ألَّفها أصحابها لإشباع فضول العامة في التَّعرُّف على أحداث طفولة المسيح، وآلامه، وحياته على الأرض بعد القيامة، إنجيل متى المزيَّف. ولا يوجد هذا الإنجيل إلاَّ في اللاتينيَّة. وفي هذا الإنجيل يُذكر لأوَّل مرَّة، كيف أنَّ الثَّور والحمار سجدا للطِّفل يسوع في المذود. وقد استغلَّ الفن المسيحي، ذلك الأمر كثيراً.

ولعلَّ مرجع ذلك التَّحديد للثَّور والحمار، هو ما قاله كلٌّ من حبقوق النَّبي وإشعياء النَّبي. فالأوَّل منهما قال: «في وسط حيوانَين تُعرف» (حبقوق ٣:٢). وقال الثَّاني: «الثَّور يعرف قانية (أي مقتنيه)، والحمار معلف (أي مذود) صاحبه» (إشعياء ١:٣). ويتَّخذ بعض المفسِّرين من هذين الحيوانَين (الثَّور والحمار) رمزاً للمؤمنين بالمسيح من الأمم واليهود.

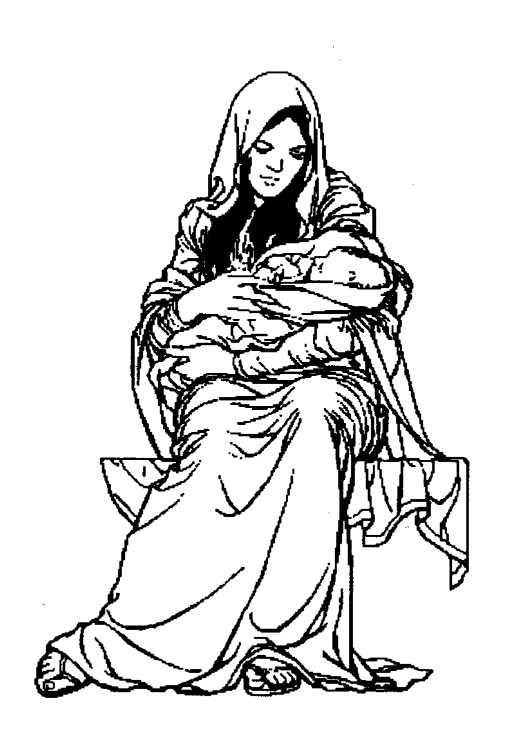
وفي الكنيسة السِّريانيَّة، طقس يُسمَّى "طقس الشُّعلة"، أو "رُتبة الشُّعلة"، ويُسمَّى بلغة الشَّعب "الميلادة"، وهو طقسٌ يشير إلى أنَّ يسوع هو نور العالم، ويذكِّر بسهر الرُّعاة على مواشيهم متحلِّقين حول النَّار.

[أنت وُلدتَ من البشريَّة جسدياً، وهي وُلدت منك روحياً.
كان كلُّ هدفك من الميلاد، أن يولد الإنسان على شبهك،
فصار ميلادك سبباً لميلادنا جميعاً. عندما تحطَّم أملُ الإنسان،

٦٠- أغلب هذه الأناجيل يقع زمن تأليفها فيما بين أواخر القرن الأوَّل وأوائل الثَّالث للميلاد.

صار ميلادك لقاطعي الرَّجاء ينبوعاً يفيض بالرَّجاء].

(مار أفرآم السِّرياني)



الفَصل الثّاني

طقوس عيد الميلاد في الكنائس المختلفة

في الكنيسة السِّريانيَّة الأنطاكيَّة

أعطت كنيسة أنطاكية السِّريانيَّة لعيد الميلاد اهتماماً واضحاً، فقدَّمت له بستَّة أسابيع، مع الصَّوم، وأتبعته بأسبوع، فأصبح زمن الميلاد فيها حاوياً سبعة أسابيع في مطلع السَّنة الطَّقسيَّة.

فيسبق عيد الميلاد السِّتة الآحاد الآتية:
- أحد بشارة زكريا.
- أحد. بشارة العذراء.
- أحد زيارة العذراء لأليصابات.
- أحد ميلاد يوحنا المعمدان.
- أحد الظُّهور ليوسف.
- أحد نسب المسيح بالجسد.

وهذه الأسابيع السِّتة تشكِّل مع إحدى تقديس البيعة وتجديدها، أوَّل مرحلة من مراحل السَّنة الطَّقسيَّة، وتكتمل فيها دورة الألحان الثَّمانية، ليعود اللَّحن الأوَّل مع الاحتفال اللِّيتورجي بعيد الميلاد[1].

وكان الاحتفال بالقُدَّاس الإلهي في عيد الميلاد يتم قُرب الفجر، ويُسمَّى "تبكيرة"، وذلك بعد سهر يمتد طول اللَّيل. أمَّا اليَوم، فقُدَّاس الميلاد يُقام في نصف اللَّيل، أو قبله بساعة أو ساعتَين. وجدير بالذِّكر أنَّ الاحتفال بالقُدَّاس الإلهي مساءً، يتم حالياً في الكنيسة السِّريانيَّة مرَّتين في

١- حياتنا اللِّيتورجيَّة، السَّنة السَّابعة، لبنان، ١٩٩٦-١٩٩٧م، ص ٧٦٢

السَّنة[٢]: ليلة عيد الميلاد، وليلة عيد القيامة. ولقد حفظ الطَّقس السِّرياني استعمال أنافورا القدِّيس يعقوب الرَّسول دون سواها، في الأعياد السَّيديَّة.

وتبدأ مراسيم قُدَّاس عيد الميلاد برُتبة الشُّعلة، أو "الميلادة" كما يسمِّيها عامة الشَّعب. وهي طقسٌ لا يعرفه سوى الكنيسة السِّريانيَّة. وهو عبارة عن صلاة مختصرة أو موسَّعة، تُنشد في مطلع القُدَّاس، أي بعد تهيئة القرابين، وقبل بداية نشيد "أيها الابن الوحيد" ودورة الإنجيل. أمَّا التَّركيز في هذه "الميلادة"، فيكون على بشارة الملاك للرُّعاة، كما وردت في إنجيل القدِّيس لوقا (٢:١- ٢٠).

فيقرأ المترئس للصَّلاة، الإنجيلَ، في وسط الخوروس وأمام صينيَّة موضوع فيها قليلٌ من القش، مرفوعة على قاعدة. وعندما يصل إلى الآية القائلة: «وظهر بغتة مع الملاك جمهورٌ كثيرٌ من الجُند السَّماوي، يسبِّحون الله ويقولون ...»، يتوقَّف عن الإنشاد، ثم يُشعل القش بشكل صليب، ويعلن نشيد الملائكة بالسِّريانيَّة: "كما يسبِّح الملائكة ورؤساء الملائكة في السَّماء، نُسبِّح نحن أيضاً دائماً وفي كلِّ حين قائلين: المجد لله في العُلى وعلى الأرض السَّلام والرَّجاء الصَّالح لبني البشر". وبينما الشَّعب والجوقة يتناوبان في متابعة النَّشيد: "نسبِّحك، نباركك، نسجد لك ..."، يدور المترئس حول النَّار ثلاث مرَّات، يسبقه شمعتان وكاهن، أو شماس يبخِّر. وفي نهاية الدَّورة الثَّالثة، يُرتِّلون نشيد لمار أفرآم السِّرياني بدايته: "إلى بيت لحم ...". وترمُز شُعلة النَّار إلى المسيح نور العالم، وإلى النُّور الذي أحاط بالرُّعاة لدى ظهور الملائكة، وأيضاً إلى نار الرُّعاة السَّاهرين على قطعاهم.

٢- يحتفل السِّريان الكاثوليك - كما مع باقي الكنائس الشَّرقيَّة الكاثوليكيَّة - بعيد الميلاد بعد ظهر يوم البرامون، طبقاً لطقس روما، حيث قد بَطُل لديها قُدَّاس المساء.

والكنيسة السِّريانيَّة غنيَّة بألحانها في هذه المناسبة المقدَّسة، تماماً كما في باقي ألحان الآحاد والأعياد الكُبرى، فيما عدا إضافة واحــدة في صــلاة المساء، حيث تُنشد ترتيلة تهليل طويلة قبل الإنجيل عوض الهلاّل العــادي، مطلعها "تسبيحاً وتهليلاً وتعظيماً ..."، ويتبعها بلحن طويل أيضاً، نداء الإنجيل "لنقف بهدوء وخوف وورع ...".

وكذلك إضافات أُخري عديدة، من بينها المداريش في صلاة اللَّيــل، وهي كلُّها لمار أفرآم السِّرياني، وهي تُرتَّل باللَّحن الأوَّل تعبيراً عن أنَّ عيد الميلاد هو بداية مرحلة طقسيَّة أو ليتورجيَّة جديدة.

وفي صلاة العيد القانونيَّة، تكون جميع الأناشيد منظومة شعراً، أمَّــا آيات الكتاب المقدَّس، فتأتي منقولة حرفياً، وذلك لسهولة الشِّعر السِّرياني، وتنوُّع أوزانه، وعدم تقيُّده بقافية. أمَّا أهم المواضيع التي تــدور حولهــا الصَّلوات، فهي: إعلان الميلاد العجيب، المقابلة بين الميلاد الأزلي والمــيلاد الزَّمني، وبين الآب ومريم، وتحقيق النُّبوَّات ...الخ.

ففي صلاة المساء يُقال هذا النَّشيد:
"يا بيت لحم، رتِّلي المجد. ويا ناصرة، سبِّحي المسيح في يوم مــيلاده من مريم البتول. إذ في الواحدة ولدته، وفي الأُخرى رتَّلت ميلاده. المجــد لمراحمه فقد أتي لخلاصنا".

وفي صلاة اللَّيل يُقال هذا النَّشيد:
"حضنان ولداك يا ربَّنا، وأُعطينا إيَّاك. وميلاداك تمَّا بأعجوبــة. فبدون علَّة، ولدك الآب بلا بداية. أمَّا ميلادك الثَّاني من مريم، فكــان بعلَّة، إذ أردت أن تخلّص البرايا، فاتخذت لك طريقاً في هــذا العــالم،

مبتدئاً انطلاقك من مريم".

"أين يجدك الباحث عنك، وأين يراك من أحبَّك. نطلبك في السَّماء في حضن والدك أم في أفراثا في مغارة بيت لحم؟ إنك حالٌّ في العُلى والعمق، خفيٌّ في حضن أبيك، وظاهرٌ في حضن أُمِّك".

"وُلد المسيح منذ الأزل، و لم يغادر حضن والده. وفي آخر الأزمان، أتى وتجسَّد من مريم البتول. هلمُّوا نركع ونسجد له".

"بألحان جميلة اهتزَّت مريم وناجته: من أعطى المقفِرة أن تحبل وتلد الواحد الكثرة، صغير هو وعظيم، كلُّه عندي، وكلُّه عند الكُل".

ومن أبدع الأناشيد التي لمار أفرآم السِّرياني:

"ألقى آدم مِنةً على المرأة (حواء)، التي خرجت منه. واليَوم ردَّت (مريم) له الجميل إذ ولدت له مخلِّصنا"(٣).

وتُرتِّل إيبارشيَّة العراق السِّريانيَّة التي تتبع الكنيسة الأنطاكيَّة "معنيث"(٤) هو:

"الذي وُلد من الآب إلهياً، وبدون ألم، هو بذاته وُلد من العذراء جسدياً، وبدون ألم أيضاً. إذ هو واحد من اثنين، أي من اللاَّهوت ومن النَّاسوت. لهذا الواحد سجد المجوس، وبواسطة قرابينهم أعلنوا بصمت أنه الإله. فقدَّموا له اللُّبان اعترافاً بألوهيَّته، والذَّهب إقراراً بمُلكه، والمرَّ إشارة إلى موت مانح الحياة، ذلك الذي من أجلنا اقتبل الآلام بإرادته، الذي وحده محب البشر".

٣- المطران أنطون بيلوني، مقال في مجلَّة حياتنا اللِّيتورجيَّة، دراسات، السَّنة السَّابعة ١٩٩٦، ١٩٩٧م، لبنان، ١٩٩٧م، ص ٧٦٦، ٧٦٧

٤- انظر للمؤلِّف كتاب: معجم المصطلحات الكنسيَّة.

وفي "مدراش" أيضاً لهذه المناسبة يقول الطَّقس السِّرياني:

"إنك في أبيك حقاً، وفي مريم بدون أيِّ شك، وعلى الرُّكبة وفي المذود الوضيع، إنك في كلِّ مكان، وأنت الخالق، وأنت في الكلِّ لأنك الجابل. أنت من الآب، وأنت في مريم، وأنت وحدك أنت، أنت هو الذي أتي وسيأتي بمجده. هلليلويا".

ويقول الطَّقس السِّرياني أيضاً على لسان المصلّي:

"إذا أنكرتُ ولادتك أكون محروماً. ومن يرتاب بميلادك، فليكن مقطوعاً. اعترف ياربي بأنك من الآب، وأؤمن بأنَّ مريم قد ولدتك. إنك من الآب ومن مريم بدون ريب أو شك، إنك واحد ويدعونك واحداً، مباركٌ الآب الذي أرسلك".

وفي "معنيث" آخر يقول:

"الوحيد من الوحيد الذي وُلد إلهياً، وبدون ألم قبل كلِّ الدُّهور، كلمة الآب، إنه وحده وُلد متجسِّداً من الأُم وحدها، ذلك الذي بميلاده لم يفض أختام بتوليَّتها، لذلك أظهر أنها والدة الإله لأنه لم يتغيَّر عندما شاء وصار إنساناً".

في الكنيسة البيزنطيَّة

يبدأ المؤمنون في الكنيسة البيزنطيَّة في ١٥ من تشرين الثَّاني (نوفمبر) بصوم يدوم أربعين يوماً[٥] على نحو الصَّوم الأربعيني المهيئ لعيد الفصح.

٥- قصَّرت كنيسة الرُّوم الملكيِّين هذه المدَّة لتبدأها في العاشر من كانون الأوَّل (ديسمبر)، فأصبحت مدَّة الصَّوم خمسة عشر يوماً فقط.

وتقيم الكنيسة في الأحد الواقع بعد العاشر من كانون الأوَّل (ديسمبر) تذكار الأجداد القدِّيسين، أجداد يسوع المسيح بحسب الجسد. ومعهم تذكار جميع آباء العهد القديم الذين لهم علاقة بالمخلِّص أو تنبأوا عنه أو كانوا صورة له، وعاشوا قبل النَّاموس وتحت الشَّريعة الموسويَّة. ويذكِّرنا هذا الأحد بالشَّوق للتَّجسُّد الإلهي، وبالإيمان الحي الذي عاشه هؤلاء الأجداد، وفيه تُرنَّم الطُّروباريَّة التَّالية[٦]:

"بالإيمان برَّرت الآباء، وبهم خطبت الكنيسة التي للأُمم. فالقدِّيسون يفتخرون بالمجد، لأنَّ زرعهم الثَّمرةُ المجيدة التي ولدتكَ بلا زرع. فبتضرُّعاتهم، أيها المسيح الإله، خلِّص نفوسنا".

أمَّا في الأحد الواقع بعد السَّابع عشر من كانون الأوَّل (ديسمبر)، وهو الأحد الذي قبل الميلاد، والذي يُدعى "أحد النِّسبة"[٧] تقيم الكنيسة تذكار جميع أبرار العهد القديم، من آدم إلى يوسف خطيب والدة الإله، وكذلك الأنبياء والنَّبيَّات، وما هذا التِّذكار إلاَّ امتدادٌ للأحد السَّابق. ومن بين الصَّلوات اللِّيتورجيَّة في هذا اليوم:

"أُفتش عنك منذ الفجر سعياً وراء رحمتك، أنت الذي بدون أن تتغيَّر، تنازلت وأخذت صورة عبد من العذراء، يا كلمة الله المحب البَّشر، أعطني السَّلام أنا السَّاقط".

أمَّا تقدمة عيد الميلاد، فتبتدئ في ٢٠ كانون الأوَّل (ديسمبر) وتدوم

٦- انظر: الأرشيمندريت نيقولا أنتيبا، مقال في مجلَّة حياتنا اللِّيتورجيَّة، دراسات، السَّنة السَّابعة ١٩٩٦، ١٩٩٧م، لبنان، ١٩٩٧م، ص ٧٧٣

٧- سُمِّي كذلك، لأنَّ إنجيل القُدَّاس في هذا اليَوم، هو عن نسب المسيح بالجسد، كما ورد في إنجيل القدِّيس متى (١:١- ٢٥). وكذلك فصل من الرِّسالة إلى العبرانيِّين عن إيمان الأجداد المشهود لهم، الذين «لم ينالوا المواعيد».

حتى ٢٤ منه، وفيها تدعو الكنيسة المؤمنين إلى الاستعداد لهـذا الحـدث العظيم. "استعدي يا بيت لحم، فقد انفتحت عدن للجميع. تـأهَّبي يـا إفراثا، فإنَّ عود الحياة قد نبت في المغارة من البتول، وبطنها ظهر فردوساً عقلياً، فيه الغرسة الإلهيَّة، التي إذا أكلنا منها، نحيا ولا نمـوت مثـل آدم. المسيح يولد ليقيم الصُّورة التي سقطت قديماً".

أمَّا اليَوم الأخير من التَّقدمة فيُدعى "بارامون" وتعني الكلمة اليونانيَّة "الدَّوام" أو "البقاء في المكان نفسه للقيام باحتفال"، ولا تُستعمل إلاَّ لليَّوم الذي يسبق عيدي الميلاد والظُّهور الإلهي. وكان المؤمنون الأتقيـاء يلبثون في الكنيسة في ختام صلاة الغروب، وأيضاً القُدَّاس الإلهـي الـذي كان يُقام مساء البارامون منتظرين بدء صلوات العيد(٨).

ويبدأ قانون عيد الميلاد بهتاف هو:

"المسيح وُلد، فمجِّدوه. المسيح نزل من السَّـموات، فاسـتقبلوه. المسيح على الأرض، فارفعوه. أيتها الأرضُ كلُّها رتِّلي للرَّب. ويا شعوب سبِّحوه بسرور، لأنه قد تمجَّد".

ومن بين ألحان العيد الكثيرة في الكنيسة البيزنطيَّة، هـذه الأوديَّـة التَّاسعة: "إنني أشاهدُ سراً عظيماً مستغرباً. فإنَّ المغارة قد أمست سمـاء، والبتول عرشاً شاروبيمياً، والمذود محلاً شريفاً، اتكأ فيه المسيح الـذي لا يسعه مكان".

وأيضاً طروباريَّة تُقال في غروب العيد:

"ماذا نقدِّم لك أيها المسيح، لأنك ظهـرت علـى الأرض إنسـاناً

٨- الأرشيمندريت نيقولا أنتيبا، مرجع سابق، ص ٧٧٥

لأجلنا؟ فكلُّ نوع من الخلائق التي أبدعتها، يقدِّم لك شكراً؛ فالملائكة، التَّسبيح. والسَّموات، الكوكب. والمجوس، الهدايا. والرُّعاة، التَّعجُّب. والأرض، المغارة. والقفر، المذود. وأمَّا نحن، فأُماً بتولاً. فيا أيها الإله الذي قبل الدُّهور، ارحمنا".

ويمتد عيد الميلاد في الكنيسة البيزنطيَّة إلى ثلاثة أيام، وتظل أيام الفرح من عيد الميلاد إلى برامون عيد الظُّهور الإلهي، وهي فترة اثني عشر يوماً، مسموحٌ فيها بكلِّ مأكول. أمَّا الأحد الذي يلي عيد ميلاد المسيح، ففيه تذكار يوسف النَّجَّار، وتُقال فيه طروباريَّة تقول كلماتها:

"يا يوسف، بشِّر داود جدّ الإله، بالعجائب الباهرة، لأنك قد رأيت بتولاً حاملاً. فمع الرُّعاة مجَّدت، ومع المجوس سجدتَ، وبالملاك أوحي إليكَ، فابتهل إلى المسيح الإله أن يخلِّص نفوسنا".

وفي يوم ٣١ كانون أوَّل (ديسمبر) يصير وداع عيد الميلاد، فيرتِّل كلّ ما للعيد، حيث يكون عيد الختان في اليوم الأوَّل من كانون ثاني (يناير).

والملفت للانتباه جداً، أنَّ التَّرتيب اللِّيتورجي للاحتفال بعيد الميلاد، وكذا عيد الغطاس، أو بتحديد أدق التَّرتيب اللِّيتورجي لعيد الغطاس، والذي نسق على نسقه فيما بعد عيد الميلاد، ما يزال حتى اليوم مماثلاً للاحتفال بعيد الفصح. وفي كُتُب "التيبيكون" القديمة في الكنيسة البيزنطيَّة، يوصفان بأنهما "فصح" أي عيد ثلاثي الأيام. والمقصود بلفظة "فصح" هنا هو السَّماح بإقامة المعموديَّة خلال الاحتفال بهما[٩].

فيضع "التِّيبيكون" صورة متوازية بين قيامة المسيح المجيدة وميلاد

٩- الأب الكسندر شيمان، بالماء والرُّوح، منشورات النور، ص ٢٢٦

المسيح بحسب الجسد. ويشدِّد على ارتباط العيدين بسرٍّ خلاصنا. فمهما اختلف الموضوع بين الميلاد والفصح، فإنَّ النِّظام الطَّقسي فيهما واحد، في بارامون الميلاد وفي الأسبوع العظيم المقدَّس. والتَّرانيم الطَّقسيَّة في عيدي الميلاد والغطاس تُعيد نفس الأفكار الواردة في ذكرى موت المسيح وقيامته. وأُوردُ هنا مثلاً لذلك:

ففي السَّاعة التَّاسعة من يوم الجمعة العظيمة:
"اليَوم عُلِّق على خشبة الذي علَّق الأرض على المياه.
إكليلٌ من شوك، وُضع على هامة ملك الملائكة.
الذي وشَّح السَّماء بالغيوم، أُلبس برفيراً كاذباً،
والذي اعتق آدم في الأردن، قبل لطمة.
عروس الكنيسة، سُمِّر بالمسامير،
وابن العذراء، طُعن بحربة.
نسجد لآلامك أيها المسيح، فأرنا قيامتك المجيدة".

وفي ليلة عيد الميلاد:
"اليَوم يولد من البتول الذي يحوي الخليقة في قبضته.
الذي لا أحد يستطيع أن يلمسه، يوضع في لفائف مثل مائت.
الرَّب الذي صنع في البدء السَّموات، يتكئ في مذود.
الذي أنزل المنَّ على شعبه في البريَّة، يرضع لبناً من صدر أُمِّه.
عروس الكنيسة، يدعو المجوس،
وابن العذراء، يقبل الهدايا.
نسجد لولادتك أيها المسيح، فأرنا ظهورك المجيد".

وثمة ملاحظة هامة في مضمون الاحتفال بالعيد في الكنيسة البيزنطيَّة، هي أنَّ الأولويَّة في الصَّلوات اللِّيتورجيَّة لعيد الميلاد تنصَّب على ابن الله

الذي صار بشراً وسكن بيننا. في حين تُعلي الكنيسة اللاّتينيَّة شأن طفل بيت لحم في صلوات هذا اليَوم. وهذا فرقٌ واضحٌ في مضمون العيد في كلا التَّقليدين الشَّرقي والغربي، لا يُستهان به.

ففي الأوديَّة الثَّالثة في السَّحَر تُصلّي الكنيسة البيزنطيَّة: "أيها المسيح، لَّما صرتَ مساوياً لنا بصورة الجُبلة التُّرابيَّة الحقيرة، وبمشاركتك في الجسد الدَّنِيء، منحتنا الطَّبيعة الإلهيَّة. وإذ صرت بشراً ولبثت إلهاً، رفعت شأننا، فقدُّوس أنت يارب".

في الكنيسة الأرمينيَّة

تحتفل الكنيسة الأرمينيَّة الأرثوذكسيَّة بعيد الميلاد وفق التَّقويم اليولياني القديم في ٦ كانون الثَّاني (يناير)، أي بفارق ١٢ يوماً عن التَّقويم الغريغوري المعدَّل. وتحتفل في اليَوم نفسه بذكرى عماد يسوع على يد يوحنا المعمدان في نهر الأردن. فيندمج التِّذكاران معاً في عيد "الظُّهور الإلهي". أمَّا البطريركيَّة الأرمينيَّة الأورشليميَّة الأرثوذكسيَّة فتحتفل بعيد الميلاد والظُّهور في ١٩ كانون الثَّاني (يناير) أي بفارق ١٣ يوماً عن التَّقويم اليولياني.

وتبدأ الاحتفالات بعيد الميلاد في عشيَّة العيد عند الغروب، بطقس إنارة القناديل وإضاءة الشُّموع في الكنيسة. وهو الطقس الذي يُعرف في الكنيسة الأرمينيَّة باسم "جراكالويتس".

تبدأ صلوات عشيَّة العيد بقراءة إنجيلَين من أناجيل الميلاد: الأوَّل هو خبر سجود الرُّعاة[١٠]، والثَّاني خبر ميلاد يسوع[١١].

١٠- لوقا ٢:٨-٢٠

ثم تُتلى نُبوَّات من العهد القديم، وهي نصوصٌ طويلة مختارة من أسفار: التَّكوين[١٢]، إشعياء[١٣]، الخروج[١٤]، ميخا[١٥]، الأمثال[١٦]، إشعياء أربع مرَّات أُخرى[١٧]، وأخيراً دانيال[١٨]. وهي عشر نُبوَّات. وكلُّها تشير إلى الوعد بالخلاص ومجيء المخلِّص، والنُّبوَّة الأخيرة هي التَّسابيح التي أنشدها الثَّلاثة فتية في أتون النَّار، فأنقذهم الرَّب وأخرجهم أحياء. ومن البديع أنَّ هذه النُّبوَّات لا تُقرأ بل تُرتَّل ترتيلاً، وتختلف نغمة التَّرتيل بين سفر وآخر.

وفي أثناء هذه القراءات الطَّويلة، توزَّع الشُّموع على القُرَّاء والكهنة والمؤمنين، وتُضاء القناديل في الكنيسة.

وهناك أيضاً خمس قراءات من سفر المزامير، من بينها المزمور الثَّاني: «الرَّب قال لي أنت ابني، وأنا اليَوم ولدتك».

وفي نهاية التَّسابيح التي أنشدها الثَّلاثة فتية في أتون النَّار، يبدأ القُدَّاس الإلهي، حيث تُفتح ستائر الهيكل الذي كان مُغلقاً خلال فترة الصَّوم السَّابق للعيد.

والطُّروباريَّات التي تُرتَّل في قُدَّاس البرامون، موجَّهة كلُّها إلى مريم

١١- متى ١:١٨-٢٥
١٢- تكوين ١:١-٣:٢٤
١٣- إشعياء ٧:١٠-١٦
١٤- الخروج ١٤:٢٤-١٥:٢١
١٥- ميخا ٥:٢-٧
١٦- الأمثال ١:١-٩
١٧- إشعياء ٩:٥-٧ ؛ ١١:١-٩ ؛ ٣٥:٣-٨ ؛ ٤٢:١-٨
١٨- دانيال ٣:١-٩١
وهذه النُّبوَّة الأخيرة تقابل الهوس الثَّالث في الكنيسة القبطيَّة.

العذراء التي ولدت الإله بالجسد. وجدير بالذِّكر أنَّ أغلب أناشيد الميلاد، تُشيد بمريم العذراء ودورها في سرِّ الخلاص، ومن بين هذه الأناشيد:

"أيتها القدِّيسة أُمُّ النُّور البهي، التي حملت في أحشائها الإله الأزلي، وولدت ابن الله ببهجة للعالم، نسألك يا أُماً قدِّيسة، أن تشفعي فينا".

"اسألي من أجلنا الإله الذي منك تجسَّد، كي يوحِّد كنيسته المقدَّسة التي أسَّسها على دعائم الرُّسُل والأنبياء، وكي يحفظها بلا عيب حتى يوم مجيئه الثَّاني، نسألك يا أُماً قدِّيسة، أن تتشفَّعي فينا".

"نسألك أيتها العذراء القدِّيسة مريم والدة الإله، يا من ظلَّلها العلي بقوَّته، وأنارها الرُّوح القُدُس بنزوله عليها. يا من حملت خالق الكائنات كلِّها، وولدته ولادة لا توصف، اشفعي لدى الذي تجسَّد منك لخلاص نفوسنا".

وفي القُدَّاس الإلهي للعيد، تُقرأ رسالة بولس الرَّسول إلى تلميذه تيطس: «... فقد ظهرت نعمة الله ينبوع الخلاص لجميع النَّاس ...» (تيطس ٢:١١- ١٥). ويُتلى الإنجيل من بشارة القدِّيس متى: «أمَّا ميلاد يسوع المسيح فكان هكذا ...» (متى ١:١٨- ٢٦).

ومن بين الأناشيد الرَّائعة التي يرتِّلها الشَّعب الأرمني في مناسبة عيد الميلاد:

"سرٌ عظيمٌ عجيبٌ ظهر اليَوم. الرُّعاة يرتِّلون مع الملائكة، ويعلنون البُشرى للملأ.

وُلد الملك الجديد في بيت لحم، سبِّحوا الربَّ يا أبناء البَّشر، لأنه تجسَّد من أجلنا.

من لا يسعه العالم، لُفَّ في الأقماط، ودون انفصال عن الآب جلس

في مغارة مقدَّسة.

السَّموات تغتبط اليَوم للبُشرى السَّارة، والخلائق بأسرها تلبس ثوب الخلاص.

اليَوم وُلد المسيح ابن الله في مغارة، ونزلت أجواق الملائكة من السَّماء إلى الأرض.

اليَوم رأي الرُّعاة شمس العدالة، فأنشدوا مع الملائكة: المجد لله في الأعالي"[١٩].

وفي نهاية القُدَّاس، يُقام تطواف داخل الكنيسة بينما يبخِّر المحتفل المؤمنين، وفي أثناء ذلك تُرتِّل الكنيسة تراتيل الميلاد. وبعد التَّطواف، يعود المحتفل إلى الهيكل، ويقرأ إنجيل الرُّعاة بحسب القدِّيس لوقا[٢٠].

وفي آخر القُدَّاس الإلهي، يبارك المحتفل جماعة المؤمنين، ثم يعلن لهم هذه البُشرى: "المسيح وُلد وظهر". فيجيبه الشَّعب: "إنها بُشرى لكم ولنا".

ويتبع عيد الميلاد ثمانية أيام تذكاريَّة. وفي ضمن هذه الأيام، هناك أربعة أعياد تُسمَّى المتقدِّمة بين الأعياد وهي:

- عيد النَّبي داود ويعقوب الرَّسول أخو الرَّب.
- عيد القدِّيس إسطفانوس أوَّل الشُّهداء.
- عيد الرَّسولَين بطرس وبولس.
- عيد ابني الرَّعد: يعقوب الرَّسول، ويوحنا الإنجيلي.

١٩- المطران بطرس مراياتي، مرجع سابق، ص ٨١٠ وما قبله.
٢٠- لوقا ٢:٨-٢٠

في كنيسة المشرق الآشوريَّة

يُعتبر عيد الميلادِ من الأعياد السَّيديَّة الكُبرى أو العُظمى، ويسبقه زمن البِّشارة، وهو الزَّمن الذي يبدأ بشهر كـانون أوَّل (ديسـمبر)، حيث تتقدَّمه أسابيع بشارة زكريا، بشارة مريم، ميلاد يوحنا، بشـارة يوسُف، ميلاد يسوع. ويعقبه تقدمة يسوع إلى الهيكل، حيث يلي بعد ذلك زمن الدِنح.

أمَّا الاحتفال بعيد الميلاد، فيحوي صلاة الرَمْش (المساء)[٢١]، ثم صلاة اللَّيل والسَّهَر والفجر، ثم القُدَّاس.

صلاة الرَمْش

وهي تبدأ ككُل الرُّتب بترتيلة "المجد لله في العُلـى وعلـى الأرض السَّلام، والرَّجاء الصَّالح لبني البشر، كلَّ حين إلى الأبد"، تُرتَّـل بعـدها "مَرْميتا"[٢٢] تضم المزمور ٧٨ «أساسـاته في الجبـال المقدَّسـة ...»، والمزمور ٨٨ «أيها الرَّب إله خلاصي ...»، ثم يُرفع البُخور. وعندما يُفتح السِّتار عن الهيكل المقدَّس، تبدأ ترتيلة[٢٣]: "لك يا سيِّد الكُل ..."، وهي إشارة إلى اندماج كنيسة الأرض بكنيسة السَّماء، وظهور القنديل في قدس

٢١- يقيم الآشوريُّون صلاة عشيَّة العيد، ويعقبها السَّهَر اللَّيلـي الـذي ينتـهي بالقُدَّاس. ولكن الكلدانيِّين وبتأثير لاتيني، يقيمون في عشيَّة العيد قُدَّاساً بسيطاً، بعـد أن بطل لديهم السَّهَر اللَّيلي. (انظر: الأب لويس ساكو، الميلاد في كنيسة المشرق، مجلَّـة حياتنا اللِّيتورجيَّة، دراسات، السَّنة السَّابعة، ص ٨٢١، وما بعدها).

٢٢- تُقسَّم المزامير في كنيسة المشرق إلى هولالا. وكلُّ هولالا تضم ثلاث مرميتا. وكلُّ مرميتا تحتوي على ثلاثة مزامير.
ولتفصيلات أوفر أنظر للمؤلِّف، كتاب: "الأجبية أي صلوات السَّواعي".

٢٣- تُسمَّى هذه التَّرتيلة "لاخومارا"، وهي تُرتَّل خمس مرَّات وليس ثلاثاً، كمـا في الأعياد الأُخرى.

الأقداس يرمز إلى المسيح نور العالم.

وبعد تراتيل أُخرى، يأتي مزمور المساء الشَّهير وهو المزمور ١٤١ «يارب إليك صرخت، فاستمع لي ... لتكن صلاتي كالبُخور قُدَّامك، وليكن رفع يدي كذبيحة مسائيَّة ...»، ثم المزمور ١٤٢ «بصوتي إلى الرَّب صرخت ...»، ثم القطع الأخيرة من المزامور الكبير ١١٨ بدءاً من القطعة «مصباح لرجلي كلامك، ونور لسبيلي ...». ولكلٍّ من هذه المزامير مرد يردِّده الشَّعب[٢٤] وهو: "المجد لك، ممجَّد ميلادك"، و"ممجَّد أنت وممجَّد ميلادك"، و"ممجَّد ميلادك يا مفرِّح الكُل"، "الشَّعب والشُّعوب يسبِّحونك".

وتراتيل أُخرى، يجيب عليها الشَّعب: "ارحمنا ياربُّ".

صلاة اللَّيل والسَّهَر والفجر

تتكوَّن صلاة اللَّيل ذات الطَّابع الرَّهباني، من مزامير محدَّدة، وصلوات يتلوها الأُسقُف أو المترئس، وتسابيح ومداريش خاصة بالمناسبة، مع المزامير. ويتكوَّن قانون الميلاد من تسبحة موسي[٢٥]، وتسبحة إشعياء[٢٦]، وتسبحة موسى الثَّانية[٢٧] مع مرد: "هلِّلوا، هلِّلوا أيها السَّاهرون بميلاد المسيح الملك".

أمَّا صلاة السَّهَر، فتتضمَّن في البداية ثلاثة مزامير مسيحانيَّة: مزمور ٢: «لماذا ارتجَّت الأمم ...»، ومزمور ٧٢: «اللَّهم هب للملك

٢٤- أصبح ترديد هذه المردَّات اليَوم من نصيب جوقة الشَّمامسة.
٢٥- خروج ١٥
٢٦- إشعياء ٤٢:١٠
٢٧- تثنية الاشتراع ٣٢

حكمك ...»، ومزمور ١١٠: «قال الرَّب لربي اجلس عن يميني ...». وتُرتَّل هذه المزامير بلحن خاص بالعيد، وبعدها تُرتَّل سلسلة من الأنتيفونات، ثم قانون (أي مزمور مع لازمة)، وبعده: ''المجد لله في العُلى ...'' الطَّويلة، وبعدها مجموعة صلوات خاصة بالعيد.

أمَّا صلاة الفجر أو الصُّبح، فهي تبدأ بصلاة النُّور ''بَرَاشيت''، فالمسيح كلمة الله هو النُّور الذي ينير العالم. ويتبع ذلك مجموعة من المزامير تُرتَّل بالتَّناوب: مزمور ١٠٠ «هلِّلوا للرَّب يا كلَّ الأرض ...»، ومزمور ٩٠ «السَّاكن في ستر العلي ...»، ومزمور ١٠٤ «باركي يا نفسي الرَّب ...»، ومزمور ١١٣ «يا عبيد الرَّب سبِّحوا ...»، وأخيراً مزمور ١١٧ «سبِّحي الرَّب يا جميع الأمم ...». ثم ترتيلة الصَّباح ''عونيثا دْصبرا''، وتسبحة الصَّباح: ''عند شروق الشَّمس أيها الرَّب أسبِّح ...''، وتسبحة النُّور لمار أفرآم السِّرياني (٣٠٦- ٣٧٣م): ''أشرق النُّور على الأبرار والفرحُ لمستقيمي القلوب ...''، وتسبحة الظُّهور لنرساي: ''قد أبهج نورُ ظهور المسيح الأرضَ والسَّماء ...''، وأخيراً نشيد الثَّلاثة فتية في أتون النَّار (دانيال ٣:٥٧- ٨٨) مع أبيات شعريَّة تُرتَّل بعد كلِّ مقطع. وأخيراً تسبحة قصيرة خاصة بالمناسبة مطلعها: ''النَّجم في العُلى يسير ...''، وفي ختامها يبدأ القُدَّاس الإلهي.

القُدَّاس الإلهي

نحو الفجر يبدأ القُدَّاس الإلهي في ''البيم''[٢٨]، فيهتف المحتفل: ''في جماعة عظيمة أحمدك''، فيجيب الشَّعب: ''وفي شعب عديد أسبِّحك''، وهي من مزمور ٣٥. ثم يُفتح ستر الهيكل مع ترتيلة ''لاخومارا''، وفي

٢٨- عن البيم، انظر للمؤلِّف، كتاب: ''معجم المصطلحات الكنسيَّة''.

أثناء القُدَّاس الإلهي، تُقرأ أربع قراءات من الكتاب المقدَّس، اثنتان من العهد القديم، والثَّالثة من الرَّسائل، والرَّابعة فصل من الإنجيل المُقدَّس.

ففي عيد الميلاد، تكون القراءتان الأوليان من إشعياء (٧:١٠- ١٦) «ها العذراء تحبل ...»، والثَّانية من ميخا (٤:١- ٣؛ ٥:٢-٥، ٨، ٩) «... وأنت يا بيت لحم أرض إفراتا ...». أمَّا القراءة الثَّالثة، فهي من الرِّسالة إلى أهل غلاطية (٣:١٥- ٤:٧) «... ولكن لمَّا جاء ملء الزَّمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة، مولوداً تحت النَّاموس ليفتدي الذين تحت النَّاموس لننال التَّبني ...». وأخيراً القراءة الرَّابعة من إنجيل القدِّيس لوقا (٢:١- ٢٠)، وهي تسرد خبر الميلاد. ويستعمل الآشوريُّون والكلدان أنافورا نسطور[٢٩]. واستعداداً للتَّناول، قُبَيل الصَّلاة الرَّبيَّة، يحتفل الآشوريُّون برُتبة "الغفران".

وجدير بالذِّكر، أنَّ النُّصوص اللِّيتورجيَّة في عيد الميلاد، تركِّز على بتوليَّة العذراء مريم، وأنها من عشيرة داود بحسب التَّقليد السِّرياني. وقد خصَّص لها الطَّقس الآشوري ثاني يوم العيد للتَّهنئة، وهو من أقدم الأعياد عندهم. ومن بين تراتيل العذراء: "المجد للآب والابن والرُّوح القُدُس، من رأى نعجة وهي تحمل شبلاً تربيه ولا تخشى؟ مريم هي النَّعجة، والمسيح شبلها، المجد لك ياربُّ، المجد لك يا ابن الله، لأنك أكرمت والدتَكَ".

ويُلاحَظ أنه لا ذكر ليوسف النَّجار في صلوات العيد. وتوضِّح صلوات العيد معاني هدايا المجوس، فالذَّهب يرمز إلى ملوكيَّة السيِّد المسيح، واللُّبان إلى ألوهيَّته، والمُر إلى دفنه. ومن بين ألحان الطَّقس، لحن يخاطب المجوس بقوله: "اذهبوا واسجدوا له خاشعين، وقولوا له أنت ملكنا ولك

٢٩- يستعمل الآشوريُّون والكلدان ثلاثة أنافورات: الأولى أنافورا الرَّسولَين أدي وماري، والثَّانية أنافورا نسطور، والثَّالثة أنافورا ثيؤدوروس أُسقُف مصيصة.

يليق الحمد".

واعتاد النَّاس في القديم في الكنيسة الآشوريَّة تهنئة بعضهم بعضاً بالعيد بعبارات: "وُلد المسيح"، "المجد لاسمه، ونطلب صلاة مريم"[٣٠].

في الكنيسة المارونيَّة

يسبق عيد الميلاد ستَّة أسابيع هي: بشارة زكريا، وبشارة العذراء، وزيارة مريم لأليصابات، وميلاد يوحنا، وأسبوع البيان ليوسف، وأسبوع النِّسبة. ويعقُب عيد الميلاد عيد الختان، وبدء العام الجديد، ودخول الطِّفل يسوع إلى الهيكل. وبذلك ينتهي زمن الميلاد.

وعلى مدى تسعة أيام قبل العيد، يجتمع المؤمنون لإقامة صلاة خاصة بالميلاد تنتهي مساء الثَّالث والعشرين من شهر كانون الأوَّل (ديسمبر)، وفي ليلة العيد نفسها يكتفون بصلاة الفرض، وطلبة الميلاد[٣١].

ويُقال إنَّ واضع هذه التُّساعيَّة، هو البطريرك يوسف إسطفان في القرن الثَّامن عشر. وتتألَّف هذه التُّساعيَّة من ترنيمة بالسِّريانيَّة أو العربيَّة، وتسع طلبات إكراماً للأشهر التِّسعة التي عاشها السيِّد المسيح في أحشاء أُمِّه العذراء، ثم صلاة الختام، وترنيمة الختام.

وفي هذه التُّساعيَّة، تُصلَّى تسع طلبات، أقتطعُ منها الطِّلبات الخامسة والسَّادسة والتَّاسعة على سبيل المثال:

٣٠- الأب لويس ساكو، الميلاد في تراث كنيسة المشرق، مجلَّة حياتنا اللِّيتورجيَّة، دراسات، السَّنة السَّابعة، مرجع سابق، ص ٨٢١ وما بعدها.

٣١- حياتنا اللِّيتورجيَّة، السَّنة السَّابعة، مرجع سابق، ص ٧٥٣

ففي الطِّلبة الخامسة: "أيها الرَّفيع المتسامي طبعاً، الذي تركت عزَّة لاهوتك، وأحببت حقارة طبعنا البشري، لتصير لنا نموذجاً بالتَّواضع والاحتقار".

وفي الطِّلبة السَّادسة: "يا كلمة الله الخارج من فم الله لتكون حياة لكلِّ إنسان ... امنحنا جوعاً شديداً إلى خُبز جسدك ودمك".

وفي الطِّلبة التَّاسعة: "مع كونك سليل الملوك ووريث داود الجليل، اكتفيت من ثروته الملوكيَّة بمغارة ومذود حقير".

وفي ختام هذه التُّساعيَّة يُرتِّلون: "نسجد ونعبُد ونُقدِّم البُخور والخضوع استعداداً لميلاد الرَّب، لكي نصبح أهلاً لتناول هذا الجسد المقدَّس الذي مكث تسعة أشهر في حشا العذراء مريم".

ويلي هذه الطِّلبات ترنيمة طويلة، تبدأ بكلمات: "أرسل الله ابنه الوحيد نوراً للأمم ...". وبعد هذا النَّشيد، يزيِّح الكاهن القُربان بحسب طقس معروف، وينتهي الزياح بنشيد جميل.

وفي ليلة عيد الميلاد، وعند نهاية صلاة منتصف اللَّيل، يبدأ المصلُّون بالسُّجود، وترنيم مقاطع من سفر المزامير ينتهي كلُّ مقطع بعبارة: "ولك المجد يا الله"، ومع هذه العبارة، يسجدون إلى الأرض، ولا زال هذا الطَّقس يُمارس في أديرة الرُّهبان، وبعض الكنائس القليلة في المُدُن.

وفي قُدَّاس عيد الميلاد تُرتِّل الكنيسة: "نسجد لك يا ابن الآب، وابن البتول، يا من بولادتك في الجسد أظهرت الله للعيان، فقرَّبت إلينا السَّاكن في الأعالي، وأزحت البرقع عن المحجوب، وأنرت معرفتنا بالذي لا

تدركه المدارك"(٣٢).

وبعد عيد الميلاد، تحتفل الكنيسة بعيد ختانة الرَّب. وتكون في بدء العام الجديد، ثم بوجوده طفلاً في الهيكل. وهنا ينتهي زمن الميلاد ليبدأ زمن الدِّنح، أي الظُّهور.

في الغرب

وفي الغرب يُحتفل بعيد الميلاد بإقامة ثلاثة قُدَّاسات: القُدَّاس الأوَّل في اللَّيلة السَّابقة ليوم العيد، والقُدَّاس الثَّاني في فجر يوم العيد، والقُدَّاس الثَّالث في نهار يوم العيد، لتمثّل هذه القُدَّاسات الثَّلاثة - بحسب رأي الكنيسة الغربيَّة - الأوجه الثَّلاثة لمعنى ميلاد السيِّد المسيح، ميلاده من الآب منذ الأزل، وميلاده من العذراء مريم، وميلاده روحياً في قلوب المؤمنين به.



٣٢- المطران يوسف ضرغام، الميلاد في تراث الكنيسة المارونيَّة، مقال في مجلَّة حياتنا اللِّيتورجيَّة، دراسات، السَّنة السابعة، مرجع سابق، ص ٧٤٩ وما بعدها.



الفَصل الثّالث

الطّقس القبطي لصلوات عشيَّة عيد الميلاد

(تسبحة العشيَّة – رفع بخور عشيَّة)

تمهيد

إذا أمعنَّا النَّظَر فيما سبق ذكره عن تاريخ عيد الميلاد في الكنيسة الجامعة، وكيف ومتى نشأ؟ ولاسيَّما تاريخه في الكنيسة القبطيَّة، لوجدنا أنَّ عيد الميلاد قد عُرف كعيد مستقل بذاته في النِّصف الأوَّل في القرن الخامس الميلادي.

ومن المرجَّح جداً أن يكون عيد الميلاد قد عُرف في كنيسة مصر في أواخر زمن البابا كيرلس الكبير عامود الدِّين (٤١٢- ٤٤٤م). وما هي إلاَّ سنوات قليلة بعد معرفة هذا العيد في مصر، حتى حدث الانقسام بين الكنائس الشرقيَّة إلى خلقيدونيَّة ولا خلقيدونيَّة، وذلك بعد مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م، فدخلت كنيسة مصر بأقباطها مرحلة من أصعب مراحلها التَّاريخيَّة، وذلك من جرَّاء الاضطهاد المرير الذي تعرَّضت له الكنيسة بسبب رفضها لقرارات هذا المجمع المذكور. وكان ذلك الاضطهاد من الأباطرة الرُّومان الذين أيَّدوا هذا المجمع، وتبنوا تنفيذ قراراته بقوَّة السِّلاح، وكذا أعوانهم الذين عُرفوا منذ ذلك التَّاريخ بالملكيِّين، أي الذين يتبعون عقيدة الملك.

ودامت أهوال أحداث التَّاريخ في هذه الحقبة نحو قرنين من الزَّمان، حتى كان الفتح العربي لمصر سنة ٦٤٢م. وبرغم هذا المناخ غير السَّلامي، فقد احتفظت الكنيسة القبطيَّة بثراء ليتورجي يُثري هذا العيد ويُزيده بهجة على بهجته. هذا الثَّراء اللِّيتورجي الذي احتفظت به مخطوطاتنا القبطيَّة المنتشرة في مكتبات ومتاحف مصر والعالم.

وهذا الفَصل من الكتاب، سينقل إليك قارئي العزيز ما حفظَته مخطوطات "ترتيب البيعة" المنتشرة في بعض كنائسنا وأديرتنا من ألحان ومردَّات وأسبَسموسات وقوانين تُثري العيد ليتورجياً.

وعن عيد الميلاد في حبريَّة البابا بنيامين (٦٢٣- ٦٦٢م) الـ ٣٨ من باباوات الإسكندريَّة، يقص القدِّيس ساويرس بن المقفع في كتابه: "سيَر الآباء البطاركة" على فم البابا بنيامين نفسه ما يحكيه لتلميذه أغاثو (أغاثون) فيقول له:

"لمَّا كنتُ في مدينتي، الإسكندريَّة، ووجدتُ زماناً بسلامة وخلاص من الاضطهاد، ومن محاربة المخالفين، وحضر يوم عيد ميلاد السيِّد المسيح في الثَّامن والعشرين من كيهك، ونحن مجتمعين في بيعة السيِّدة الطَّاهرة مرتمريم أم النُّور ... عملنا صلوات كثيرة بمحضر من جماعة الكهنة ومُقدِّمي المدينة، وجميع الشَّعب الكبار والصِّغار، لنعيِّد للسيِّدة العذراء التي ولدت الله الكلمة المتجسِّد بالحقيقة في العالم ... ونعيِّد فيه أيضاً للسيِّد المسيح الابن الوحيد الذي تجسَّد وصار إنساناً وولدته الطَّاهرة العذراء في بيت لحم يهوذا. مسيحٌ واحدٌ غير مفترق.

فرأيتُ رهباناً قد دخلوا إلى وسط الشَّعب، ومنهم كهنة من بريَّة القدِّيس أبو مقار، وعليهم سكينة ووقار، كأنهم من الملائكة. فلم يقدروا أن يَصلوا إليَّ من كثرة الشَّعب، فتقدَّم إليَّ أحد الكهنة وعرَّفني بدخولهم، فقلتُ له: 'قد رأيتهم'، وأمرته فاستدعاهم، فلمَّا دنوا مني، استعلمتُ منهم سبب تعبهم ووصولهم، فقالوا جئنا إليك قاصدين نسأل أبوَّتك بمطانوة من أجل الله أن تتكلَّف مشقَّة الطَّريق إلى الدَّير في الجبل المقدَّس بوادي هبيب، مسكن أبونا أبو مقار الكبير لتكرِّس البيعة الجديدة التي بُنيت له ... فأقاموا حتى كمَّلنا العيد ذلك اليَوم (٢٨ كيهك) وغده الذي هو تسعة وعشرين

يوماً من كيهك، وثالثه ... وقدَّمنا مسيرنا في اليوم الثَّاني من طوبة ... "[١].

هذه القصَّة البديعة تُطلعنا على ملامح عيد الميلاد في كنيسة الإسكندريَّة في القرن السَّابع الميلادي، وازدحام الكنيسة بالشَّعب ملتفِّين حول باباهم، ليحتفلوا بالعيد بتقديم **صلوات كثيرة**.

ومن هذه القصة الشيِّقة القديمة، يتَّضح لنا أيضاً نفس الطَّقس الذي لا زلنا نمارسه حتى اليوم في الكنيسة القبطيَّة، وهو أنه إذا وقع عيد الميلاد في يوم ٢٨ كيهك، فيكون يوم ٢٩ كيهك أيضاً هو يوم احتفال بالعيد، لأنه هو يوم الميلاد الفعلي، ويستمر الاحتفال بالعيد إلى اليوم الثَّاني أيضاً، وهو يوم ٣٠ كيهك. ولازال عنوان قراءات يوم ٣٠ كيهك في قطمارس الكنيسة القبطيَّة هو: "ثاني يوم عيد الميلاد المجيد"، وهي القراءات التي تُقال في هذا اليَوم حتى لو كان هو يوم الأحد[٢]. وبحسب قوانين البابا كيرلس الثَّالث (ابن لقلق) (١٢٣٥- ١٢٤٣م) نعرف أنَّ ثاني يوم الميلاد (٣٠ كيهك) يُعامل كطقس عيد الميلاد تماماً[٣].

1- Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium (CSCO), Vol. 52, Scriptores Arabici, t. 8, p. 113, 114.

٢- بسبب أنه يكون الأحد الخامس من شهر كيهك، وليست له قراءات خاصة به تناسب عيد الميلاد. إذ أنَّ قطمارس الآحاد يعالج أربعة آحاد فقط من كلِّ شهر قبطي. أمَّا الأحد الأوَّل من شهر طوبة فقراءاته هي عن ظهور رؤيا ليوسف البار لكي يأخذ الصَّبي وأُمَّه ويهرب إلى مصر. ومردَّات وألحان هذا الأحد أيضاً هي كطقس العيد نفسه. ولكن إن وقع عيد الختان في هذا الأحد الأوَّل من شهر طوبة فتُقرأ قراءات عيد الختان (٦ طوبة)، ويكون ذلك فقط حينما يقع عيد الميلاد يوم أحد.

3- O.H.E. KHS - Burmester, *The Canons of Cyril III Ibn Laklak 75th Patriarch of Alexandria* A.D. 1235- 1250, dans Bulletin de la société d'Archéologie copte (BSAC), t. 12, 1947, p. 125.

أمَّا اليَوم، فإنَّ صارت الفترة الواقعة من عيد الميلاد إلى عيد الختان، أي إلى يوم ٦

ويشير القس شمس الرِّئاسة ابن كبر (+ ١٣٢٤م) قس كنيسة العذراء المعلَّقة، إلى نفس مضمون التَّواريخ التي حوتها هذه القصَّة فيقول:

"فأما الميلاد المجيد، فإنه كما قيل كان ليلاً، آخر اليَوم الخامس والعشرون (كذا) من كانون، الموافق للثَّامن والعشرين من كيهك. فرسمت الرُّسل المؤيَّدون بروح القُدُس في القوانين المقدَّسة، أن نعيِّد في التَّاسع والعشرين من كيهك الشَّهر الرَّابع من شهور المصريين، وهو في سنة الكبيس من سني القبط يوافق الخامس والعشرون من كانون[٤]".

وتكشف قصَّة احتفال البابا بنيامين بعيد الميلاد في القرن السَّابع الميلادي، أنَّ السيِّدة العذراء القدِّيسة مريم، تحتل في طقوس صلوات عيد الميلاد مكاناً واضحاً، وذلك في قول البابا: "... لنعيِّد للسيِّدة العذراء التي ولدت الله الكلمة المتجسِّد ...".

وتحتفل الكنيسة بعيد الميلاد برفع الذَّبيحة مساءً أي بعد منتصف اللَّيل، لأنَّ ميلاد الرَّب حدث في اللَّيل بشهادة القدِّيس لوقا الإنجيلي[٥]، وهو الطَّقس الذي تعرفه كلُّ الكنائس الشَّرقيَّة.

وبحسب التَّقليد الذي استقرَّ في الكنيسة، أنه لا تُقام قُدَّاسات في اللَّيل

طوبة، فترة فرح، وتصلى بطقس الفرح. في حين أنَّ ابن كبر (+ ١٣٢٤م) يذكر عن فترة الفرح التي تعقب عيد الميلاد فيقول: "... ويستمر لحن الفرح من يومه إلى يوم العماد متتابعاً". وهو نفس ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، والذي يقول في حديثه عن اليَوم التَّاسع والعشرين من كيهك: "وطريقة الفرح مستعملة من هذه اللَّيلة إلى آخر ثالث عشر طوبه خلا برامون الغطاس بطريق السَّنوي". وسأعود إلى شرح ذلك الأمر مرَّة أُخرى.

٤- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، البَاب ١٩

٥- لوقا ٢:٨-١٠

سوى ثلاث مرَّات في السَّنة: في عيد الميلاد، وعيد الغطاس، وعيد القيامة.

أولاً: طقس تسبحة عشيَّة عيد الميلاد

موقع صلوات المزامير من طقس تسبحة عشيَّة العيد

تبدأ تسبحة عشيَّة عيد الميلاد بدون صلوات المزامير، وهذا هو الطَّقس القديم جداً الذي حفظته الكنيسة حياً حتى اليـوم، في أعيادها الثَّلاثة الكُبرى، الميلاد والغطاس والقيامة.

وفي ذلك يقول "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" ما يلي:

"التَّاسع والعشرون من شهر كيهك، ميلاد ربِّنا وإلهنا ومخلِّصنا يسوع المسيح. يبتدئ بصلاة عشيَّة كالعادة. إلى آخر المزمور الخمسين، لا تُقرأ مزامير، بل تقال الليلويا **Ⲇⲟⲝⲁⲥⲓ ⲟ̀ ⲑ̅ⲥ̅ ..** وبعدها **Ⲥ̀ⲙⲟⲩ** **ⲉ̀Ⲡⲟⲥ** وما يتلوها ..."[٦].

وما أودُّ أن أُلفت النَّظر إليه هنا، هو أنَّ عدم ترديدنا لصلوات المزامير في طقس عيد الميلاد – مع عيدي الغطاس والقيامة أيضاً – ليس بسبب أنَّ الكنيسة تودُّ أن تحصر جُلَّ اهتمامها بحدث العيد نفسه – كما تقول بعض التَّأويلات – لأننا إن قُلنا ذلك، فماذا نقول في تسبحة العيد نفسها وهي تحوي في صُلبها المزامير ١١٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠ ؟

وليس أيضاً كما يقول البعض إنَّنا لا نُصلِّي مزامير في طقـس عيـد

٦- وهو ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

الميلاد لأنها قد قيلت في قُدَّاس البرامون السَّابق للعيد. إذ أنَّ كُلَّ قُدَّاس، هو قُدَّاس قائم بذاته، وليس ثمَّة علاقة بين الحالتين.

إنَّ كُتُب طقس الكنيسة التي بين أيدينا حتى اليَوم، لم تذكر هذا. ولكنَّها تذكر أنَّ تسبحة عشيَّة العيد، تبدأ بمقدِّمة الصَّلاة العاديَّة، ولكن بدون صلوات المزامير، وذلك لسبب بسيط لا يحتاج إلى تأويل، وهو أنَّ هذا الطَّقس، هو الطَّقس القديم والأصيل، الذي درجت عليه الكنيسة منذ البداية. فدخول صلوات المزامير كطقس ديري - أي نابع من الأديرة - على طقس صلوات رفع البُخور كطقس كاتدرائي - نابع من كنائس المُدُن - هو تطوُّر طقسي أتى لاحقاً فيما بعد، حين صار أساقفة الإيبارشيَّات يُختارون من بين الرُّهبان، فنقل الآباء الأساقفة جانباً من طقسهم الدَّيري، وأدخلوه على الطَّقس الكاتدرائي أو الطَّقس الذي تمارسه كنائس المُدُن. ولكن الطَّقس القديم جداً هو أنَّ صلوات رفع بخور عشيَّة، هي طقس كاتدرائي صرف، قبل أن تلحقه إضافات ديريَّة. ومن ثمَّ، فقد ظلَّت الثَّلاثة أعياد الكُبرى - الميلاد والغطاس والقيامة — حافظة لهذا الطَّقس الكاتدرائي، السَّحيق في القدم.

وليست هذه هي الحالة الوحيدة التي تحافظ بها هذه الثَّلاثة أعياد الكُبرى على جانب وافر من الطُّقوس القديمة جداً للعيد، كما سنرى فيما بعد.

هذا هو السَّبب الذي لأجله لا نُصلِّي المزامير في هذه الأعياد الكُبرى. ثم أننا نلاحظ أنَّ عيد القيامة لا نُصلِّي فيه مزامير السَّواعي، ولا نستطيع القول إنَّ ذلك بسبب أننا صلَّينا كلَّ مزامير السَّواعي في طقس سبت الفرح، لأننا لم نصلِّ في هذا اليَوم الأخير مزامير السَّاعتين الحادية عشرة

والثَّانية عشرة والسِّتار بحسب الطَّقس، فهل هذا سبب يدعونا أن نُصلِّيها قبل بدء صلوات عيد القيامة؟

إنَّ صلوات السَّواعي، أو صلوات المزامير، حين لحقت بصلاة القُدَّاس، ظلَّت حتى اليَوم كتمهيد للقُدَّاس أو تهيئة له، أي كطقس ديري انتقل إلى كنائس المُدُن، وصار كمقدِّمة تمهيديَّة للقُدَّاس، ولكن ليس من بين عناصره اللِّيتورجيَّة الأساسيَّة. ولذلك، لم يرد ذكر صلوات السَّواعي كعنصر ليتورجي ضمن عناصر القُدَّاس الإلهي في الكُتُب الطَّقسيَّة المطبوعة، كما في كتاب الخولاجي المقدَّس مثلاً، الذي طُبع سنة ١٩٠٢م، وراجعه القُمُّص عبد المسيح المسعودي. وجديرٌ بالذِّكر هنا، أنَّ معظم حواشي هذا الخولاجي المقدَّس، منقولة بالنَّص من كتاب "التَّرتيب الطقسي" للبابا غُبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) في أوائل القرن الخامس عشر.

وعلى سبيل المثال، سبق أن ذكرتُ في قُدَّاس برامون الميلاد، أنَّ "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" يذكر عن قُدَّاس برامون الميلاد ما يلي:

"... ثمَّ يحضرون وقت التَّاسعة ويبتدئون بصلاة الغروب والنَّوم. **وبعدها يبتدئون بالقُدَّاس** كالعادة".

وهنا يظهر لنا أنَّ صلوات السَّواعي هي تمهيدٌ أو إعدادٌ أو تهيئةٌ تسبق القُدَّاس، أي تسبق تقديم الحَمَل، وليست عنصراً ليتورجياً من العناصر اللِّيتورجيَّة للقُدَّاس الإلهي. وهو نفس ما يذكره العالم الطقسي ابن كبر (+ ١٣٢٤م) في القرن الرَّابع عشر[٧].

٧- أوردت شرحاً تفصيلاً لهذا الأمر، في كتاب: "القُدَّاس الإلهي سرّ ملكوت الله".

عناصر تسبحة عشيَّة عيد الميلاد

مزمور (١١٦)

وهو لحن Ⲛⲓⲉⲑⲛⲟⲥ Ⲧⲏⲣⲟⲩ (ني إثنوس تيرو) أي: "سبِّحوا الرَّب يا جميع الأُمم، ولتباركه كافة الشُّعوب، لأنَّ رحمته قد قويت علينا، وحق الرَّب يدوم إلى الأبد هلليلويا، هلليلويا، هلليلويا. المجد للآب والابن والرُّوح القُدُس، الآن وكلّ أوان وإلى دهر الدُّهور، آمين. هلليلويا، هلليلويا، هلليلويا. المجد لإلهنا".

وهذا المزمور الـ ١١٦ تعرفه كلُّ الطُّقوس الشَّرقيَّة، وهو يلي فيها المزامير ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠ التي تُسمَّى في الكنيسة القبطيَّة الهوس الرَّابع، ولكنَّه في كنيسة مصر يتقدَّمها.

الهوس الرَّابع

وهو المزامير ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ولا تتغيَّر نغمة الهوس الرَّابع مع تغيُّر المناسبات الكنسيَّة في الأصوام والأعياد إلاَّ في تسبحة نصف اللَّيل في شهر كيهك فقط.

ويقول ابن كبر ما يلي (بنصِّه): "وأما صلاة عشية، فالاعتماد فيها كالاعتماد باكراً في رفع البخور. ومن الكهنة من يقرأ بعد الأجبية الهوس الرابع المشتمل على المزامير الثلثة ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠ وإبصالي وتاوضوكية اليوم كامله في ليالي الآحاد والأعياد. ولبشها الآخر في بقية الأيام ..." [٨].

٨- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، الباب ١٦

إبصاليَّة تسبحة عشيَّة عيد الميلاد

لا يعجب القارئ إذا عرف أنه لا توجد حتى اليَوم، ونحن في القرن الحادي والعشرين، أيُّ إشارة طقسيَّة في واحد من كُتُب الطَّقس المطبوعة، تحدِّد الإبصاليَّة التي يجب أن تُقال في تسبحة عشيَّة عيد الميلاد، باستثناء إشارة واحدة، أوردها القُمُّص عبد المسيح المسعودي البراموسي في مقدِّمة كتاب الخولاجي، الذي قام بمراجعته، وطُبع سنة ١٩٠٢م، وربَّما لم يلتفت إليها أحدٌ، فيقول:

"... وفي عيد الميلاد وعيد الغطاس اللَّذين لكلٍّ منهما هوس مخصوص كما مرَّ، وقبل هوسيهما يقال Ϧⲉⲛ ⲑⲏⲛⲟⲩ ⲉ̀ⲡϣⲱⲓ فإنهم يقولون ... سبع إبصاليَّات وعدَّة طروحات تختص به، إذ يجعلونها متفرِّقة على عشيَّة والأربعة هوسات وتذاكيَّة اليَوم الحاضر من الأسبوع. فالإبصاليَّة تُقال قبل الهوس أو غيره والطَّرح بعده".

وتخطياً لهذه الثَّغرة، فقد جرت العادة أن تُقال إحدى الإبصاليَّات السَّبع - من الاثنين إلى الأحد - التي أوردها "كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس"، وهي إبصاليَّات تُقال في تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر لعيد الميلاد[٩]، حيث تُختار منها الإبصاليَّة الموافقة لعشيَّة العيد.

أمَّا "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م"، فيقول ما يلي[١٠]:

"إن كانت الثِّيؤطوكيَّة واطس، تُقال الإبصاليَّة Ⲁ̀ Ⲫ̀ⲧ ⲥⲁϫⲓ ⲛⲉⲙ

٩- لتفصيلات أوفر، انظر الفَصل الخاص بـ "تسبحة نصف اللَّيل في عيد الميلاد" (ص ١٩٠) من هذا الكتاب.

١٠- ويتَّفق معه "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

.. Ⲙⲱⲩ̀ⲥⲏⲥ وإن كانت الثِّيؤطوكيَّة آدام فتقـال الإبصـاليَّة Ⲁ ⲫ̀ⲧ Ⲱ̀ ⲡⲉⲛⲟ̅ⲥ̅ .. ⲡⲓⲛⲁϩϯ .. واللُّبش بطريقة الفرح. ثمَّ يُطرح الطِّرح قبل (إن كانت الثِّيؤطوكيَّة واطس)[11] وإن كانت الثِّيؤطوكيَّة آدام، يُطـرح الطِّرح وسط الصَّلاة بعد رفع البُخور كالعادة ...".

إبصاليَّة واطس تقال في تسبحة عشيَّة عيد الميلاد

هذه الإبصاليَّة التي يقول عنها "مخطوط ترتيب البيعـة رقـم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" إنها تُقال في عشيَّة عيـد الميلاد، والتي بدايتها هي: .. Ⲁ ⲫ̀ⲧ ⲥⲁϫⲓ ⲛⲉⲙ Ⲙⲱⲩ̀ⲥⲏⲥ أي: "تكلَّم الله مع موسي ..."، هي الإبصاليَّة الـواطس الـتي أوردهـا "كتـاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس"، لتُقال على ثيؤطوكيَّة يـوم الخميس في تسبحة نصف اللَّيل لكلٍّ من برامون الميلاد وعيد الميلاد.

وفيما يلي نصُّها[12]:

"تكلَّم الله مع موسى في وسط العلَّيقة، والنَّار ملؤهـا، ولم تحتـرق أغصانها. أرسل الله رحمته وكلمته، الزَّهرة المثمرة، في بطنك من أجلنـا، بسرٍّ عجيب. وُلد في هذا اليَوم من ملكتنا وسيِّدتنا مريم، وتأنَّس من أجل خلاصنا وغفران آثامنا. أيا داود المرتِّل، تعال في وسطنا لنسبِّح من صـار وسيطاً لنا عند أبيه الصَّالح. قدَّموا له قرابين، بنات صور وسابا والعـرب، وملوك ترشيش. المحيي غير المتزعزع، معطي الخـيرات، ظهـر في أرض نفتاليم وتخوم زابولون. يقول إشعياء بصوت عظيم هكذا: 'وُلد لنا غـلام

١١- ما بين القوسين من عندي للتَّوضيح.
١٢- النقطة (.) في النَّص الليتورجي التَّالي هي نهاية كلِّ رُبع من أرباع الإبصاليَّة.

وأُعطينا ابن. الله الرَّحوم(١٣) القوى المتسلِّط، الذي رئاسته على منكبيه، وهو أيضاً السيِّد المطلق'. قال حزقيال أيضاً: 'رأيتُ باباً مختوماً بخاتم عجيب، دخله ابن القدُّوس. الرَّب يسوع المسيح، ولم يدخله إلاَّ هو، وخرج منه، والبتوليَّة مختومة حسناً كما هي'. كلمة الله أبينا، هيكل النَّجاة الذي للمؤمنين، الواحد في شخصه، مخلِّصنا من التَّجارب. وقد قال ميخاؤس أيضاً: وأنت يا بيت لحم يهوذا أرض إفراثا، لست بصغيرة في أورشليم. لأنه منك يخرج المدبِّر الذي يرعى شعبي إسرائيل الحقيقي. حقاً قد أظهر الملاك السِّر قائلا هكذا: 'وُلد لكم اليَوم. مخلِّص في بيت لحم الذي هو ملك المجد، امضوا سريعاً تجدونه هناك. الصَّبي في مذود، ملفوفاً بالخِّرق'، وللوقت أتوا إليه وخرُّوا له ساجدين. أميلوا إلىَّ آذانكم، واسمعوا كلام متى، من أجل ميلاد الرَّحوم الذي هو يسوع المسيح. نعم حقاً هكذا قال في إنجيله: 'ربُّنا يسوع المسيح الذي وُلد وتأنَّس حتى خلَّصنا'. حينئذ أتى ملوك المجوس من المشرق إلى أورشليم قائلين: 'أيتها المدينة المقدَّسة المكرَّمة. أين يولد ملك اليهود، لأننا رأينا نجمه ناحية المشارق'. هذا هو الذي وُلد من أجلنا، لأنه هو مخلِّص العالم، نسبِّحه ونعظِّمه مع صفوف الملائكة. أسرعوا أيها المؤمنون لنسجد ليسوع المسيح، الذي وُلد جسدياً من العذراء الطَّاهرة. يا مخلِّص العالم كلَّه، خلِّصنا وارحمنا وأنقذنا من جميع ضيقاتنا، وأعطنا خلاصك. يا ربَّنا يسوع المسيح، أعطنا النُّور الذي لا تغشاه الظُّلمة بطلبات العروسة، لك المجد معها. آمين''.

١٣- ''الرَّحوم'' مثل ''الرؤوف''، على وزن الفعول، وهي اشتقاق صحيح في اللُّغة العربيَّة، وإن كانت الكلمة لم تُستعمل عند العرب، حيث استخدموا كلمة ''الرَّحيم''.

إبصاليَّة آدام تُقال في تسبحة عشيَّة عيد الميلاد

وهي الإبصاليَّة التي ذكرها "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م"، والتي بدايتها ⲫ̀ⲫ̀+ ⲡⲓⲛⲁⲏⲧ .. أي: "الله الرَّحوم ..."، وهذه الإبصاليَّة يوردها "كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس" تحت عنوان: "أبصاليَّة آدام على ثيؤطوكيَّة يوم الأحد، تُقال في عيد الميلاد".

وفيما يلي نصُّها[١٤]:

"الله الرَّحوم، ملك الدُّهور، العظيم المتحنِّن والحقيقي. أرسل لنا كلمته إلى العروسة الحقيقيَّة، وحلَّ في بطنها من أجل خلاصنا. وُلد من العذراء في مثل هذا اليَوم، الينبوع غير الناضب، يسوع ملك المجد. يا داود تعال في وسطنا بكتاب مزاميرك إلى مدينة الله المملوءة بركة. إذ سُرَّ أن يحل فيها مخلِّصنا الذي أتقنها. كثيرة جداً هي مدائحكِ أكثر من عدد الرَّمل يا سيِّدتنا مريم. لأنه هكذا بالحقيقة أيضاً قال إشعياء النَّبي الكامل. 'هذه أعجوبة عظيمة، غلام وُلد لنا وابناً أُعطيناه، هو صاحب المشورة العظمى. يسوع المسيح المتسلِّط القوي الذي سلطانه على منكبيه'. حسناً قال أيضاً حزقيال عن المسيَّا ملك إسرائيل. 'وأيضاً رأيت باباً ناحية المشارق، مختوماً بخاتم عجيب، والله الرَّحوم لم يدخله أحد غيره'، نسبِّحه تسبيحاً كما يرضيه. أتى ملوك المجوس من المشرق وسجدوا للمسيح ذي الاسم المكرَّم. حقاً فتحوا كنوزهم وقدَّموا له قرابين ثلاثة. لباناً علامة على أُلوهيَّته، وذهباً إشارة إلى أنه ملك، ومُراً إشارة إلى موته المحيي. وهكذا ملوك العرب والرُّعاة وسابا والجزائر. حقاً قدَّموا له قرابين مقبولة وسجدوا له كرب وسيِّد. نعم يجب علينا نحن أيضاً معشر المؤمنين الأشدَّاء الشُّجعان

١٤- النقطة (.) في النَّص الليتورجي التَّالي هي نهاية كلِّ ربع من أرباع الإبصاليَّة.

باسم المسيح. أن نجتمع معاً لكي نعيِّد له بقلب طاهر ونُقدِّم له. كلَّ تمجيد وتسبيح وكرامات كما يليق بالإله بألسنة طاهرة. لأنَّ الذي وُلد من مريم هو الذي صُلب من أجل آثامنا. أسرِع أيضاً وخلِّصنا من أعدائنا يا مــن بموته احتمل آلامنا. فلتخضع كلُّ الأنفس له مع أبيك القــدُّوس، ولنقــل بفرح. أيها الرَّاعي المخلِّص حسناً، نرتِّل لك ونسبِّحك بغير فتور".

ثيؤطوكيَّة اليَوم، واللُّبش

وتُقال الثِّيؤطوكيَّة سواء كانت واطس أو آدام بنفس نغمتها الــتي لا تتغيَّر طيلة السَّنة الطَّقسيَّة، باستثناء تسبحة نصف اللَّيل في آحــاد شــهر كيهك، والتي تنتهي مع نهاية الأحد الرَّابع من هذا الشَّهر.

وغنيٌّ عن الإشارة، توافق أيُّ ثيؤطوكيَّة من ثيؤطوكيَّات الأيام، مــع عيد الميلاد بالذَّات، دون بقيَّة الأعياد الأُخرى، لأنَّ كــلَّ الثِّيؤطوكيَّــات تتحدَّث عن التَّجسُّد الإلهي. وهي من أهم العناصر اللِّيتورجيَّة التي تحــوي لاهوت الكنيسة القبطيَّة وعقيدتها، فيما يختص بهذا السِّر المقدَّس. فالكنيسة تُصلِّي عقيدتها وتُلحِّن إيمانها كلَّ يوم، فلا فرق عنــدها بــين اللاهــوت والعبادة، لأنها تتنفَّس إيمانها وتمارسه فعلياً من داخل صــلوات ليتورجيَّــة حيَّة. ولا عجب في ذلك، فهي الكنيسة التي شرحت للمسكونة إيمانــاً لا يتزعزع بسرِّ تجسُّد المسيح الإله من العذراء الدَّائمة البتوليَّة، القدِّيسة مريم، والدة الإله، ومن الرُّوح القُدُس.

وهذه الثِّيؤطوكيَّات عينها، هي إحدى العناصر الأساسيَّة في تســبحة أي عيد سيِّدي، حتى عيد القيامة أيضاً، إذ ليس هناك قطع ليتورجيَّة يوميَّة تُقال على مدار أيام الأسبوع، وتدور حول لاهوت قيامة المسيح من بــين الأموات، كما هو حادث في نصوص ليتورجيَّة تتحدَّث عــن لاهــوت

تجسُّده وتأنُّسه من العذراء.

ولبش الثِّيؤطوكيَّات الآدام، لا تتغيَّر نغمته مع الأعياد والمناسبات الكنسيَّة، على خلاف لبش الثِّيؤطوكيَّات الواطس (من الأربعاء إلى السَّبت)، إذ تتغيَّر نغمته إلى الفرح في الأعياد ضمن خمسة نغمات على مدار السَّنة الطَّقسيَّة[١٥].

مقدِّمة الطَّرح الواطس أو الآدام

مقدِّمة الطَّرح تكون إمَّا باللَّحن الواطس أو اللَّحن الآدام. ويعقب المقدِّمة الطَّرح نفسه.

الطَّرح الواطس أو الآدام

وكما سبق أن أشرتُ، فإنَّ "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" يذكر بخصوص الطَّرح ما يلي:

"ثمَّ يُطرح الطَّرح قبل .. πενος ϣ (إن كانت الثِّيؤطوكيَّة واطس)[١٦] وإن كانت الثِّيؤطوكيَّة آدام، يُطرح الطَّرح وسط الصَّلاة بعد رفع البُخور كالعادة ..."[١٧]. إلاَّ أنَّ المخطوط لم يذكر أوَّل جملة من الطَّرح الذي يقصده.

ويورد "كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس" ثمانية طروحات:

١٥- أي نغمات الفرح، والصَّوم الكبير، وكيهك، والشَّعانين، والنَّغمة السَّنوي.

١٦- ما بين القوسين ( ) من عندي للتَّوضيح.

١٧- هذه ملاحظة طقسيَّة مهمَّة، أعتقد أنها سقطت من كثير من الكنائس. ولكنَّني لستُ أعرف سبب تغيير موقع الطَّرح في الأيام الواطس، عنه في الأيام الآدام.

- أربعة طروحات على الهوسات الأربعة.
- طرحان – واطس وآدام - على ثيؤطوكيِّتي السَّبت والأحد فقط.
- طرحان – واطس وآدام – يقالا في ختام تسبحة نصف اللَّيل.

ويتَّضح لنَّا ممَّا سبق ذكره، أنَّ الطَّرح – الواطس أو الآدام - الذي يقصده "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م"، ليقال في تسبحة عشيَّة عيد الميلاد، هو المعنون في "كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس" باسم "طرح واطس يُقال على تذاكيَّة يوم السَّبت في عيد الميلاد المجيد"، أو "طرح آدام يقال على تذاكيَّة الأحد في عيد الميلاد"[١٨].

نصُّ الطَّرح الواطس في تسبحة عشيَّة عيد الميلاد

الرُّبع الأوَّل له هو:

Ⲙⲁⲣⲟⲩⲟⲩⲛⲟϥ ⲙ̀ⲫⲟⲟⲩ ⳾ ⲛ̀ⲛⲓⲭ̀ⲣⲓⲥⲧⲓⲁ̀ⲛⲟⲥ ⳾ ϫⲉ Ⲡⲭ̅ⲥ̅ Ⲫⲏⲉ̀ⲧⲁⲩⲙⲁⲥϥ⳾ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϧⲉⲛ ϯⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲥ.

النَّص:

"فليفرح اليَوم المسيحيُّون، لأنَّ المسيح وُلد من العذراء. فلنسبِّحه مع المراتب العلويَّة صارخين قائلين:

المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة.

تعال إلينا اليَوم في وسطنا أيها المبشِّر الإنجيلي متى المصطفى، لكي تُخبرنا علانية عن ميلاد الرَّب في بيت لحم، مدينة الأنبياء التي صارت مثالاً للسَّماء. قال البشير الطَّاهر: فلمَّا ولد المسيح الرَّب في بيت لحم يهوذا في

١٨- وهذا يريك احتياج كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات الذي وُضعت عناصره في غضون القرن الرَّابع عشر إلى مراجعة دقيقة من لجنة كنسيَّة مختصَّة.

أيام هيرودس الملك، وإذا مجوس وافوا من المشرق قائلين: أين هو المولــود لأننا رأينا نجمه في المشرق فوافينا لنسجد له.

فلنسبِّحه قائلين: المجد لله في الأعالي ...

فاضطرب هيرودس للوقت لظنِّه الفاسد أنَّ المولود ملك أرضي، وهو ربُّ السَّمائيِّين والأرضيِّين، وقال لهم: امضوا وابحثوا عن المولود وتعــالوا أعلموني لأمضي أنا أيضاً وأسجد له.

فلنسبِّحه قائلين: المجد لله في الأعالي ...

فلمَّا مضوا، وجدوا أمراً مُذهلاً للعقول. فقدَّموا له ثلاثة قرابين، لباناً لأنه إله الآلهة، وذهباً لأنه ملك الملوك، ومراً دلالة علــى قبولــه المــوت بالجسد، ليخلِّص آدم وذُريَّته بذلك الموت المحيي.

فلنسبِّحه قائلين: المجد لله في الأعالي ...

وأمروا في الحلم أن لا يعودوا إلى هيرودس، بل ينطلقوا من جهة أُخــرى إلى بلادهم. فمضوا وصاروا يبشِّرون قائلين: قد رأينا الإله مولوداً بالجسد.

فلنسبِّحه قائلين: المجد لله في الأعالي ...

رأينا عجباً، لأنَّ الذي يعول كلَّ البشريَّة، قد رضع اللَّبن من ثــدي فتاة عذراء. والذي ترتعد من عز هيبته ومجد لاهوته الصُّفوف السَّــمائيَّة، ظهر اليَوم مولوداً في بيت لحم يهوذا مدينة الأنبياء.

فلنسبِّحه قائلين: المجد لله في الأعالي وعلــى الأرض السَّــلام وفي النَّاس المسرَّة لأنه أتى وخلَّصنا".

نصُّ الطَّرح الآدام في تسبحة عشيَّة عيد الميلاد

الرُّبع الأوَّل منه هو:

Ⲡⲟⲩⲣⲟ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡ̀ⲱⲟⲩ ⁘ ⲁϥⲟⲩⲱⲛϩ ⲛⲁⲛ ⲙ̀ⲫⲟⲟⲩ ⁘ ϧⲉⲛ ⲕⲉⲛϥ ⲛ̀ϯⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲥ ⁘ ⲟⲩⲟϩ ⲁⲛⲛⲁⲩ ⲉ̀ⲡⲉϥⲱⲟⲩ.

النَّص:

"ظهر لنا اليَوم ملك المجد في حضن العذراء مريم ورأينا مجده. تعالوا يا أحبائي نسبِّحه ونباركه مع سائر مراتب السَّمائيِّين قائلين:

المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة.

قال سبِّحوا الرَّب تسبيحاً جديداً لأنَّ الرَّب نظر إلى انكسار شعبه، فشاء بإرادته وأرسل كلمته إلى الطَّاهرة مريم العذراء. وأشرق منها مولوداً بالجسد، وخلَّص أبانا آدم وكلَّ جنسه من يد العدو المارد. وصيَّرنا متَّحدين معه بتجسُّده الطَّاهر. نسجد له ونمجِّده ونسبِّحه بأصوات الفرح والتَّهليل قائلين:

المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة.

الله الذي طأطأ سماء السَّموات ونزل على الأرض من غير أن يفارق كرسي مجده، ظهر مولوداً بالجسد. الذي ترتعد من عظمته الأجناس العلويَّة وتخاف من جبروته الرُّتَب السَّمائيَّة ظهر الآن ملفوفاً بخرق بالية. فلنسبِّحه بأصوات الفرح والتَّهليل قائلين:

المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة.

هو الذي أنبأت به الأقوال النَّبويَّة، والمصاحف الداؤديَّة، وسائر أقوال الحكماء والفلاسفة. ها هو الآن قد ظهر لابساً جسداً. ورضع اللَّبن من ثدي السِّت الطَّاهرة العفيفة النَّقيَّة الزَّكيَّة مريم ابنة يواقيم، خطيبة الصدِّيق يوسف البار. فلنسبِّحه بأصوات الفرح والتَّهليل قائلين:

المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المسرَّة.

ماذا أقول وبماذا أنطق، وبأي لسان أستطيع أن أقول مديحاً يسيراً لهذه المكرَّمة من الصُّفوف السَّمائيَّة مريم العذراء. لأنها صارت كرسياً للجالس على الشَّاروبيم، وحجاباً احتجب داخلها الذي تمجِّده السَّارافيم. وولدته وهو من بأمره صارت أجناس السَّمائيِّين والأرضيِّين تمجِّده. فلنمجِّدها

هكذا قائلين: افرحي أيتها الكنز الشَّريف الذي ابتاعه البار يوسف، فوجد الجوهر مخفي فيه. افرحي أيتها الحقل المبارَك الذي لم يُزرع وأينع ثمرة. افرحي أيتها العلّيقة التي رآها موسى وهي مضطّرمة وأغصانها لم تحترق. افرحي يا ممتلئة نعمة الرَّب معك. مباركةٌ أنت في النِّساء، ومباركٌ هو ثمرة بطنك، لأنَّ المولود منك قدوسٌ وابن الله يُدعى. اسألي الرَّب فينا لكي ينعم لنا بغفران خطايانا. آمين الليلويا كيرياليسون".

ختام الثِّيؤطوكيَّات

أمَّا عن ختام الثيؤطوكيَّات، فإن كان بنغمة آدام، فلا تتغيَّر نغمته، فهي ثابتة طيلة السَّنة الطَّقسيَّة القبطيَّة(١٩)، وإن كان بنغمة واطس، فيُقال بنغمة الفرح، وهي واحدة ضمن خمس نغمات كما ذكرنا في اللُّبش.

ثانياً: صلوات رفع بخور عشيَّة عيد الميلاد

أرباع النَّاقوس(٢٠)

تُعدُّ أرباع النَّاقوس في الأيام السَّنويَّة عموماً، وفي الأعياد السَّيديَّة خصوصاً، من العناصر اللِّيتورجيَّة التي تعرَّضت للتَّعديل والإضافة، منذ سنة ١٩٤٨م، أي منذ منتصف القرن العشرين. ولقد حاولتُ أن أجمع كلَّ

١٩- النَّغمة الآدام لها لحن يميِّزها مع تغيُّر المناسبات الكنسيَّة فيما يختص بالإبصاليَّات فقط. أمَّا مع الذُّكصولوجيَّات الآدام، وختام الثيؤطوكيَّات الآدام، فليس هناك سوى نغمة واحدة لا تتبدَّل طيلة السَّنة الطَّقسيَّة. لا لسبب يمكن تعليله سوى أنه لم يلحق هذه العناصر الأخيرة تطوُّراً طقسياً كما لحق العناصر الأُخرى.

٢٠- يُفضَّل أن يعود القارئ العزيز إلى موضوع أرباع النَّاقوس في كتاب "صلوات رفع البُخور في عشيَّة وباكر" وذلك قبل قراءة ما سيرد ذكره هنا ليسهل عليه فهمه.

الأبصلموديَّات السنويَّة المطبوعة التي ظهرت في القرن العشرين لأتتَّبع التَّطوُّر الطَّقسي الذي طرأ على أرباع النَّاقوس بالذَّات، كأحد عناصر صلاة رفع البُخور في عشيَّة وباكر. إذ برغم أنَّ أرباع النَّاقوس ليست أحد عناصر التَّسبحة، إلاَّ أنها ترد في أحد الكُتُب الطَّقسيَّة المختصَّة بالتَّسبحة، وهو الأبصلموديَّة السَّنويَّة المقدَّسة.

وجدير بالذِّكر أنَّ مخطوطات الأبصلموديَّات السنويَّة الموجودة بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار، تخلو كلُّها من أيِّ ذكر لأرباع النَّاقوس، إذ أنها ليست من عناصر التَّسبحة كما سبق أن ذكرتُ، بل ضمن عناصر صلوات رفع البُخور، والتي يختص بها كتابا الخولاجي المقدَّس وخدمة الشمَّاس والألحان[٢١].

أما الأبصلموديَّات السَّنويَّة المقدَّسة المطبوعة التي ظهرت منذ أوائل القرن العشرين وحتى اليوم فهي:

١- أبصلموديَّة القس مينا البراموسي، سنة ١٩٠٨م.

٢- أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب، سنة ١٩٠٨م.

٣- أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس القبطيَّة الأرثوذكسيَّة المركزية، سنة ١٩٤٨م، وطبعاتها المتكرِّرة[٢٢].

٢١- سبق أن ذكرتُ غير مرَّة أنَّ أقدم ترجمة عربيَّة معروفة لكتاب خولاجي قبطي تعود إلى القرن الثَّاني عشر، ومحفوظة في المكتبة البريطانيَّة. أمَّا كتاب خدمة الشمَّاس الألحان فأقدم نص مترجم إلى العربيَّة إلى جانب القبطيَّة، يعود إلى القرن الرابع عشر.

٢٢- في خلال النِّصف الأخير من القرن العشرين أعيد طباعة هذه الأبصلموديَّة عشر مرَّات كان آخرها سنة ١٩٩٥م. وفي الطبعة الثانية لها سنة ١٩٧٥م، أضيفت إبصاليَّات الآدام والواطس لعيدي الصُّعود والعنصرة. وتوالت الطَّبعات الثالثة سنة ١٩٧٧م، ثم الرَّابعة حين أضيف لحن ⲈⲚⲈⲚ Ⲓ̅Ⲏ̅ ، وكذلك إضافة طوافات المزامير، وبدء قانون الإيمان وقدوسٌ قدوسٌ قدوسٌ ربُّ الصَّباؤت باللُّغة القبطيَّة، وفي الطَّبعة السَّادسة أضيفت إضافات أخرى.

٤- أبصلموديَّة القُمُّص عطا الله أرسانيوس المحرَّقي، سنة ١٩٦٠م.
٥- الطَّبعة الثَّانية من أبصلموديَّة أقلاديوس لبيب، سنة ١٩٨٦م[٢٣].
٦- الطَّبعة الثَّانية من أبصلموديَّة القس مينا البراموسي، سنة ٢٠٠٠م[٢٤].
٧- أبصلموديَّة مطرانية الأقباط الأرثوذكس بالجيزة، ودير الشَّهيد العظيم مار مينا العجائبي بمريوط، الطَّبعة الأولى، مارس سنة ٢٠٠٤م.

إلى جانب الطَّبعات الأُخرى الكثيرة للأبصلموديَّة، والتي تعتبر إعادة طبع أو تصوير لهذه الأبصلموديَّات السَّابق ذكرها.

وهنا تلزم الإشارة إلى أنَّ الأبصلموديَّات السَّابق ذكرها، والواردة في البنود أرقام (١)، (٢)، (٤)، (٥)[٢٥] تتَّفق فيما بينها على ما أوردته، سواء من جهة التَّنبيهات الطَّقسيَّة، أو نصوص الصَّلوات اللِّيتورجيَّة في أقسام محدَّدة من الإبصلموديَّة. أمَّا الأبصلموديَّات الواردة في البنود أرقام (٣)، (٦)، (٧) فقد تأثرت تأثراً شديداً بـ "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨"، بل نقلت عنها حرفياً.

ويلزم إيضاح الملاحظات التَّالية فيما يختص بأرباع النَّاقوس تحديداً:
(أ) تتَّفق "أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب" في طبعتيها الأولى والثَّانية مع "أبصلموديَّة القس مينا البراموسي"، مع "أبصلموديَّة القُمُّص عطا الله أرسانيوس المحرَّقي" في إيرادهم لنفس التَّنبيهات عن الأرباع التي تُقال بالنَّاقوس بعد صلاة الشُّكر في رفع بخور عشيَّة وباكر.

(ب) تتَّفق الأبصلموديَّات السَّابق ذكرها في البند (أ) على نصِّ

٢٣- وقد تحرَّرت عمَّا ورد في الطَّبعة الأولى.
٢٤- وقد تحرَّرت كثيراً عمَّا ورد في الطَّبعة الأولى.
٢٥- إلى حدٍّ ما.

أرباع النَّاقوس في كلٍّ من:

* **في الأيام السَّنويَّة**، حيث تورد كلُّها الثَّلاثة أنواع من أرباع النَّاقوس[٢٦].

* **في الأعياد**، حيث تنحصر أرباع النَّاقوس للأعياد في هذه الأبصلموديَّات المذكورة في بعض الأعياد الكنسيَّة، وليس كلّها، وهي بالتَّحديد أعياد الصَّليب، والميلاد، والغطاس، وسبت الفرح، وعيد القيامة.

(ج) أغفلت أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس في طبعاتها العشر التي امتدت منذ سنة ١٩٤٩م - سنة ١٩٩٥م، ذكر التَّنبيهات التي ذكرتها كلّ الأبصلموديَّات الأُخرى، والتي تسبق الأرباع التي تُقال بالنَّاقوس بعد صلاة الشُّكر في رفع بخور عشيَّة وباكر.

(د) غيَّرت أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس في نصٍّ وترتيب أرباع النَّاقوس تغييراً جذرياً، فحذفت ذكر الأنواع الثَّلاثة لأرباع النَّاقوس.

أمَّا عن نصِّ هذه الأرباع:

* **ففي الأيام السنويَّة**، فإنَّ النَّوع الثَّالث من أرباع النَّاقوس، والذي تعرفه كلُّ الأبصلموديَّات الأُخرى، وضعته "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨" في مقدِّمة أرباع النَّاقوس. وبينما أرباع النَّاقوس هي عشرة أرباع، مع أربعة أرباع أُخرى لختامها في كلِّ الأبصلموديَّات الأُخرى، فقد غيَّرت "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨" في نصِّ ثلاثة أرباع منها، وحذفت ختام هذه الأرباع، وأضافت أرباعاً أُخرى كثيرة فبلغت سبعة وثلاثين رُبعاً.

٢٦- عن أنواع أرباع النَّاقوس الثَّلاثة، يُرجى الرُّجوع إلى كتاب "صلوات رفع البُخور في عشيَّة وباكر"، للمؤلِّف، حيث تجد شرحاً وافياً عنها.

أمَّا عن النَّوع الثَّاني من أرباع النَّاقوس - في الأبصلموديَّات الأُخرى - فلم تورد منه "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨" سوى ٤٠% فقط، حيث أغفلت ذكر الأرباع المختصَّة بالكراسي والرَّبوبيَّات والقوَّات، والشَّاروبيم، والسَّارافيم. وبعض أسماء الشُّهداء مثل لاونديوس، وبنيكاروس، وقُزمان وإخوته وأمهم، وأنبا صرابامون الأُسقُف، وإبصادي، وغلينيكوس، وأنبا بيروه، وأتوم، ويوحنا، وسمعان، وبرباره، ويوليانه، ودميانه. فضلاً عن عدم ذكر أيٍّ من القدِّيسين بدءًا من الأنبا أنطونيوس، وانتهاء بصفوف لبَّاس الصَّليب والأبرار والصدِّيقين، وهم حوالي ٢٢ قدِّيساً بالإضافة إلى الـ ٤٩ شيخاً شيوخ شيهات. ومن ثمَّ دعت "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨" هذا النَّوع الثَّاني من أرباع النَّاقوس باسم: "مختصر أرباع النَّاقوس السَّنوي".

ومن ضمن هذا النَّوع الثَّاني من أرباع النَّاقوس والذي يأتي تحت اسم "مختصر أرباع النَّاقوس" ذكرت الأبصلموديَّة المذكورة ما يُقال في شهر كيهك، وفي الخمسين المقدَّسة. وفي النِّهاية تذكر: "ويُكمَّل إلى آخرة ..."!.

أمَّا عن النَّوع الأوَّل من أرباع النَّاقوس - كما أوردته كلُّ الأبصلموديَّات الأُخرى - فقد أغفلت "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨" ذكر هذا النَّوع الأوَّل كُليَّة. وهو أحد عشر ربعاً بالإضافة إلى رُبع الختام.

* **أما في الأعياد**، فقد ذكرت "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨" أرباع النَّاقوس التي تُقال في عيد النَّيروز، وعيدي الصَّليب، وشهر كيهك، وبرامون الميلاد، وعيد الميلاد، وعيد الختان، وبرامون

الغطاس، وعيد الغطاس، وعيد عرس قانا الجليل، وعيد دخـــول المســيح الهيكل، وعيد البِّشارة، وسبت لعازر، وأحد الشَّعانين، وخميس العهــد، وسبت الفرح، وعيد القيامة، وخميس الصُّعود، وعيد العنصــرة، وعيـــد دخول المسيح أرض مصر، وعيد التَّجلي، بالإضافة إلى ما يُقال في الصَّوم المقدَّس الكبير.

وذلك مع إضافة تعليمات داخليَّة، أي من داخل النَّص اللِّيتورجي لم ترد في الأبصلموديَّات الأُخرى المطبوعة المذكورة في البنود أرقـــام (١)، (٢)، (٤)، (٥).

(هـــ) صدرت الطَّبعة الثَّانية من ''أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب''، مزيجاً ـ في بعض صفحاتها ـ من الطَّبعة الأولى لهذه الأبصلموديَّة مع بعض ما أوردته ''أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨''، دون أيِّ إشارة إلى ذلك المزيج في هذه الطَّبعة الثَّانية.

وعلى ذلك، فإنَّ الأبصلموديَّات السنويَّة المقدَّسة التي ظلَّت تُطبع حتى اليَوم، لم تتَّفق على نصِّ هذه الأرباع التي تُقال في الأعياد، بالإضـــافة إلى تباين طقس ترتيلها في صلوات رفع بخور عشيَّة وباكر. ولكن نظراً لكثرة الطَّبعات المتتابعة التي طُبعت من ''أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لســـنة ١٩٤٨''، وغطَّت النِّصف الأخير من القرن العشرين، فقد ساد ما أوردته عن أرباع النَّاقوس، سواء من جهة نصِّ هذه الأرباع، أو من جهة طقس ترتيلها، حيث لم تقو كلُّ الأبصلموديَّات الأُخرى أن تفرض ما أوردتـــه هذه الأبصلموديَّة من نصٍّ وطقس مغايرَين.

ولستُ في ذلك أُفضِّل الواحدة على الأُخرى، لكن كان يجدر بنا أن نوِّحد كُتُبنا الطَّقسيَّة وقد عبرنا إلى القرن الحادي والعشرين. وهنا يلـــزم

القول إنّ جمعيَّة نهضة الكنائس القبطيَّة الأرثوذكسيَّة، بتولِّيها الطِّباعة المتواترة لكتابَين من أهم كُتُب الكنيسة القبطيَّة، وهما كتاب "الأبصلموديَّة السنويَّة المقدَّسة"، وكتاب "خدمة الشمَّاس والألحان"(٢٧)، قد وجَّهت جانباً أساسياً من طقس الكنيسة، وجهته التي هي عليه الآن، متغاضية – غير مرَّة – عمَّا حرصت مخطوطات ترتيب البيعة التي بين أيدينا على نساخته وتسليمه بكل دقَّة وأمانة، من جيل إلى جيل، بصبر لا يكل.

والآن عودة إلى تكملة حديثنا عن طقس أرباع النَّاقوس في عشيَّة عيد الميلاد المجيد.

تورد مخطوطات ترتيب البيعة قيد الدِّراسة، ولاسيَّما "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م"، رُبعاً من أرباع النَّاقوس يُقال في عشيَّة عيد الميلاد هو:

– **"السَّلام لبيت لحم مدينة الأنبياء التي وُلد فيها المسيح آدم الثَّاني".**

حيث يورد المخطوط المذكور عن أرباع النَّاقوس في عشيَّة عيد الميلاد أربعة أرباع وبعدها يقول: "وما يلائم كالعادة"(٢٨). وهذه الأربعة أرباع هي:

Ϯⲉⲛⲟⲩⲱϣⲧ..

Ⲭⲉⲣⲉ Ϯⲉⲕⲕⲗⲏⲥⲓⲁ..

Ⲭⲉⲣⲉ Ⲃⲏⲑⲗⲉⲉⲙ..

٢٧- هذا الكتاب، يُعدُّ الآن المرجع الأساسي في الكنائس، في توجيه طقوس الصَّلوات في المناسبات والأعياد الكنسيَّة المختلفة، إذ يسهل الرُّجوع إليه لتوفُّره. ومن ثمَّ توارت مخطوطات ترتيب البيعة، التي لم تُطبع وتُنشر لتصبح متاحة لدى الجميع.

٢٨- وهو نفس ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م". (الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ٣١-٣٤).

Ϩιτεν νιπρεσβια..

وهذا الرُّبع الذي أُضيف على أرباع النَّاقوس في عشيَّة عيد الميلاد، وهو الرُّبع الذي بدايته: Χερε Βηθλεεμ.. أي: "السَّلام لبيت لحم ... الخ" هو ربعٌ يخضع تماماً للتَّقليد الذي استقرَّ عن أرباع النَّاقوس بأنواعها الثَّلاثة في الكنيسة القبطيَّة.

وهو نفس الرُّبع الذي أوردته "أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب" في طبعتيها الأولى والثَّانية، وكذلك "أبصلموديَّة القس مينا البراموسي" في طبعتها الأولى.

وظلَّ هذا الرُّبع هو الرُّبع الوحيد من أرباع النَّاقوس لعيد الميلاد، حتى كانت سنة ١٩٤٨م حين قامت جمعيَّة نهضة الكنائس بطباعة أوَّل أبصلموديَّة سنويَّة، فأضافت ربعاً آخر من أرباع النَّاقوس وضعته قبل الرُّبع السَّابق ذكره وهو:

- **"ميلادٌ بتولي، وطلقٌ روحي، عجب ممجَّد، حسب الأخبار النَّبويَّة"**.

وهي إضافة قد خرجت عمَّا صار متَّبعاً في الكنيسة منذ عُرفت أرباع النَّاقوس فيها، إذ لم يخضع في نصِّه اللِّيتورجي لواحد من الثَّلاثة أنواع المعروفة لأرباع النَّاقوس.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، فقد أشارت "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨" قبل الرُّبعين اللَّذين وردا لها لعيد الميلاد، والسَّابق ذكرهما، إلى الملاحظة التَّالية: "تُقال أرباع Ⲧⲉⲛⲟⲩⲱϣⲧ .. (أي: نسجد ...[٢٩]) إلى آخر Ϩιτεν νοτετχη .. أي: "بصلواتهم

٢٩- هي العشرة أرباع الأولى من ذُكصولوجيَّة باكر آدام، وهذه الذُّكصولوجيَّة تُقال بكاملها بعد مزامير صلاة باكر في كلِّ أيام الأسبوع. ولكن في الأعياد السَّيديَّة

..."[٣٠]، ثم الرُّبعين ...".

وهذه الملاحظة الطَّقسيَّة التي ذكرهما الأبصلموديَّة المذكورة تختص في الحقيقة بصلوات رفع بخور باكر الأعياد السَّيديَّة[٣١]، وترتيب سَحَر سبت الفرح، ولكن ليس في رفع بخور عشيَّة الأعياد السَّيديَّة.

فنجد أنَّ "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" لم يذكر سوى أرباع النَّاقوس العادية كعادة كلِّ عشيَّة سنويَّة مع إضافة رُبع يختص بعيد الميلاد كما سبق الإشارة إلى ذلك.

ففي طقس رفع بخور عشيَّة عيد الميلاد أو عشية الأعياد السَّيديَّة عموماً، تبدأ أرباع النَّاقوس بالمقدِّمة الواطس أو الآدام لأرباع النَّاقوس[٣٢]

الكُبرى (الميلاد والغطاس والقيامة) - وهي الأعياد التي لا تُقال فيها مزامير السَّواعي كما سبق أن ذكرتُ - تنتقل هذه الذُّكصولوجيَّة إلى داخل صلوات رفع البُخور.
وهذا الرُّبع الأوَّل المذكور في المتن، نصُّه هو: "نسجد للآب والابن والروح القُدُس. السَّلام للكنيسة بيت الملائكة".
وهذه العشرة أرباع تختص بإعطاء السَّلام للكنيسة بيت الملائكة، والعذراء، وغُبريال المبشِّر، وميخائيل رئيس الملائكة، والأربعة والعشرين قسيساً، والشَّاروبيم والسَّارافيم، وجميع الطَّغمات السَّمائيَّة، ويوحنا السَّابق العظيم، والاثنى عشر رسولاً، وأبينا مرقس الإنجيلي، واسطفانوس الشَّهيد، وجرجس كوكب الصُّبح، وجميع صفوف الشُّهداء، وأنبا أنطونيوس، والثَّلاثة مقارات، وجميع صفوف لبَّاس الصَّليب، وجميع القدِّيسين الذين أرضوا الرَّب.

٣٠- نص هذا الرُّبع العاشر هو: "أيها المسيح ملكنا، بصلواتهم اصنع معنا رحمة في ملكوتك".

٣١- عن معنى هذه العبارة الأخيرة، وشرحها، يمكن الرُّجوع إلى الفصل الخامس وهو عن "الطَّقس القبطي لصلوات رفع بخور باكر عيد الميلاد".

٣٢- تبدأ أرباع النَّاقوس سواء في مقدِّمتها الآدام أو الواطس بتقديم السُّجود للآب والابن والروح القُدُس، ويعقب ذلك مباشرة ربع خاص بالعذراء القدِّيسة مريم، ففي المقدِّمة الآدام: "لنا رجاء في القدِّيسة مريم. الله يرحمنا بشفاعتها"، وفي المقدِّمة

- حسب وقوع يوم عشيَّة العيد - ويلي هذه المقدِّمة الاعتياديَّة، الرُّبع الخاص بالعيد، أو المناسبة الكنسيَّة، ثم بقيَّة الأرباع الخاصة بالسيِّدة العذراء ورؤساء الملائكة، ويوحنا المعمدان، والآباء الرُّسُل، والشُّهداء، والقدِّيسين، وقدِّيس البيعة[٣٣].

ختام أرباع النَّاقوس في الأعياد السَّيديَّة

يذكر "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" أنَّ ختام أرباع النَّاقوس في عشيَّة عيد الميلاد هو الختام العادي لها، حيث تُختم الأرباع بالرُّبع **ϨιτεΝ ΝιπρεϹΒΥΑ** "بشفاعات ..."، والذي يعقبه حتماً الرُّبع التَّالي لـه مباشـرة وهـو **ϾϴΡΕΝϨωϹ ΕΡΟΚ** "لكي نسبِّحك مع أبيك الصَّالح والرُّوح القُـدُس لأنك أتيت وخلَّصتنا ارحمنا".

وهو نفس ما تذكره "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨". حيث تشرح هذه الأبصلموديَّة، أنَّ ختام أرباع النَّاقوس في عيـدي المـيلاد والغطاس يكون بالرُّبع: **ϾϴΡΕΝϨωϹ ΕΡΟΚ** أي: "لكي نسبِّحك ...". أمَّا ختام أرباع النَّاقوس في عيد الصَّليب وعيد القيامة فيكون بالرُّبع: **ϾϴΒΕ ΦΑΙ ΤΕΝϮωΟΥ ΝΑϤ** أي: "من أجل هذا، نمجِّده صـارخين قـائلين: مباركٌ أنت ياربي يسوع لأنك صُلبت (قمت) وخلَّصتنا".

وهذا يعني - طبقاً لمخطوطات ترتيب البيعة قيد الدِّراسـة - أنَّ ختـام أرباع النَّاقوس، يكون بترتيل رُبعين أوَّلهما "بشفاعات والدة الإله، ياربُّ أنعم لنا بمغفرة خطايانا"، وثانيهما "لكي نسبِّحك مع أبيـك الصَّـالح

الواطس "السَّلام للكنيسة بيت الملائكة، السَّلام للعذراء التي ولدت مخلِّصنا".

٣٣- هذا التَّرتيب عُرف في الكنيسة مع القرن الخامس عشر أو بعده مباشرة.

والرُّوح القُدُس لأنك أتيت وخلَّصتنا''، وهو نفس ما يذكره البابا غُبريال الخامس نصاً، في كتابه ''التَّرتيب الطقسي''[٣٤].

إلاَّ أنَّ ''أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨''، قد تبنَّت طقساً آخر لختام أرباع النَّاقوس في الأعياد السَّيديَّة، فتورد رُبعاً في نهاية أرباع النَّاقوس هو:

- **''يسوع المسيح هو هو أمساً واليَوم وإلى الأبد، بأقنوم واحد نسجد له ونمجده''**[٣٥].

ويلي هذا الرُّبع، رُبع Ⲡⲟⲩⲣⲟ ⲛ̀ⲧⲉ ϯϩⲓⲣⲏⲛⲏ أي: ''يا ملك السَّلام ... الخ''، وما يليه من أرباع، وهي الأرباع التي أوردها ''أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب'' كختام للنَّوع الثَّالث من أرباع النَّاقوس في الأيام السَّنويَّة[٣٦].

أمَّا عن الرُّبع الذي يقول: ''يسوع المسيح هو هو ...''؛ فلم يكن موضعه الحتمي في ختام أرباع النَّاقوس. وكتاب ''اللقَّان والسَّجدة''، لا

٣٤- انظر أيضاً الفصل الخامس عن ''طقس رفع بخور باكر'' (ص ٢١٨) من هذا الكتاب الذي بين يديك.

٣٥- النِّصف الأوَّل من هذا الرُّبع، هو نصُّ الآية التي وردت في رسالة العبرانيِّين (٨:١٣). وهذا الرُّبع يرد ذكره في القرن الخامس عشر عند البابا غُبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م)، في كتابه ''التَّرتيب الطقسي''، عند حديثه عن طقس رفع الأكاليل من على رأس العروسَين في ليلة السُّبوع.
انظر: غبريال الخامس (الأنبا)، التَّرتيب الطَّقسي، حقَّقه ونشره الأب ألفونس عبد الله الفرنسيسكاني، ضمن مطبوعات المركز الفرنسيسكاني للدِّراسات المسيحيَّة الشَّرقيَّة، سلسلة دراسات شرقيَّة مسيحيَّة، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٣٤
وجدير بالذِّكر أنه الرُّبع الأخير من القطعة السَّابعة من ثيؤطوكيَّة الأربعاء.

٣٦- يمكن للقارئ العزيز، الرُّجوع إلى شرح أنواع أرباع النَّاقوس، وذلك في كتاب ''صلوات رفع البُخور في عشيَّة وباكر'' إن رغب في ذلك.

يورده في الختام دائماً، بل يأتي أحياناً في مقدِّمة أرباع النَّاقوس. إذاً فوضع هذا الرُّبع كختام لأرباع النَّاقوس بدأ ينتشر بين الكنائس القبطيَّة منذ سنة ١٩٤٨م، وذلك مع ظهور أوَّل طبعة من "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨".

أمَّا ختام أرباع النَّاقوس في الأعياد السَّيديَّة بأرباع "يا ملك السَّلام ... الخ". فهو في الحقيقة طقس لا يختص بالأعياد السَّيديَّة، بل بختام أرباع النَّاقوس من النَّوع الثَّالث التي تُقال في أيِّ وقت. ولكن لمَّا حذفت "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨" النَّوعين الأوليين تقريباً من أرباع النَّاقوس، ولم تُبق إلاَّ على النَّوع الثَّالث فقط، فقد نقلت هذا الختام المذكور، ليكون ختاماً لأرباع النَّاقوس في الأعياد أيضاً، ومن هنا كان التَّداخل والخلل.

خلاصة ما ذُكر عن أرباع النَّاقوس

(١) أوَّل ذكر لأرباع النَّاقوس يرد عند البابا غُبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) في كتابه "التَّرتيب الطقسي"[٣٧]، ولم يرد ذكرها عند ابن كبر (+ ١٣٢٤م) في شرحه لطقس رفع البُخور في عشيَّة وباكر[٣٨].

(٢) ختام أرباع النَّاقوس برُبع Ⲉⲑⲣⲉⲛϩⲱⲥ ⲉⲣⲟⲕ .. أي: "لكي نسبِّحك ..."، هو الختام القديم لأرباع النَّاقوس كما أشار إليه البابا غُبريال الخامس في كتابه "التَّرتيب الطقسي"[٣٩]. وكما ذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م".

٣٧- الأنبا غُبريال الخامس، التَّرتيب الطَّقسي، مرجع سابق، ص ٤، ٢٢، ٣٥، ٥١

٣٨- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، الباب ١٦

٣٩- البابا غُبريال الخامس، مرجع سابق، ص ٤، ٢٢، ٣٥، ٥١

(٣) هذا الختام التَّقليدي لأرباع النَّاقوس، والسَّابق ذكره مباشرة، يمكن أن يسبقه إمَّا الرُّبع "يسوع المسيح هو هو أمساً واليَوم وإلى الأبد ..."، أو أحد الأرباع التي تبدأ بعبارة: ϩⲓⲧⲉⲛ ⲛⲓⲡ̀ⲣⲉⲥⲃⲓⲁ أي: "بشفاعة ... ياربُّ انعم لنا بغفران خطايانا "، أو بعبارة: ϩⲓⲧⲉⲛ ⲛⲓⲉⲩⲭⲏ أي: "بصلوات ... ياربُّ انعم لنا بغفران خطايانا". وذلك لكي يستقيم المعنى، لأنَّ هذا الختام، لا يصلُح أن يكون ختاماً مع أرباع النَّاقوس التي تبدأ بكلمة Ⲭⲉⲣⲉ أي: "السَّلام ... "، وهو ما أشارت إليه "أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب"، وهو أيضاً نفس ما أشار إليه البابا غُبريال الخامس باقتضاب في كتابه "التَّرتيب الطقسي"، حين يذكر أنَّ ختام أرباع النَّاقوس يكون بالرُّبع ".. ϩⲓⲧⲉⲛ" ثم بعد ذلك يقولون "Ⲉⲑⲣⲉⲛϩⲱⲥ ⲉⲣⲟⲕ .."[٤٠].

(٤) ختام أرباع النَّاقوس بالخمسة أرباع التي بدايتها Ⲡⲟⲩⲣⲟ ⲛ̀ⲧⲉ ϯϩⲓⲣⲏⲛⲏ أي: "يا ملك السَّلام ... "، هو ختام يختص بالأيام السَّنويَّة العاديَّة، أكثر من كونه ختاماً للأعياد السَّيديَّة. ولكنَّه لا يناسب أن يكون ختاماً للثَّلاثة أعياد السَّيديَّة الكُبرى بالذَّات، على عكس ما أشارت "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨"، وذلك للأسباب التَّالية:

(أ) لم تُشر أي مصادر طقسيَّة كنسيَّة، إلى أنَّ هذا الختام يختص بالأعياد السَّيديَّة. ولم يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م". ويذكر كتاب "اللقَّان والسَّجدة" أنَّ هذه الأرباع تُقال في ختام أرباع النَّاقوس في قُدَّاسات اللقَّانات، ومعروف أنَّ لقَّان خميس العهد، ولقان عيد الرُّسُل يُصلَّيان

٤٠- نفس المرجع، ص ٤

بالطَّقس السَّنوي.

(ب) لم يُشر البابا غُبريال الخامس إلى أنَّ هذه الأرباع تأتي في ختام أرباع النَّاقوس، ولكنَّه أشار إليها في نهاية صلوات الإكليل[٤١]. أمَّا "أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب"، فقد أشارت إليها كأرباع تأتي في ختام النَّوع الثَّالث من أرباع النَّاقوس التي تُقال في أيِّ وقت.

(ج) ما يؤيِّد أنَّ هذا الختام لا يناسب الأعياد السَّيديَّة الكُبرى بالذَّات (الميلاد والغطاس والقيامة) وأنه كان واحداً من الممارسات الطَّقسيَّة التي سادت مؤخراً جداً، هو أننا حين نردِّد هذه الأرباع الخمسة كختام لأرباع النَّاقوس، نعود ونردِّدها مرَّة ثانية بعد قليل، بفارق زمني تستغرقه أوشيَّة القرابين فقط، وذلك حين نُرتِّل بعد هذه الأوشيَّة، باقي ذُكصولوجيَّة باكر آدام ونختمها بختام الثِّيؤطوكيَّات الآدام، حيث يرد في نهايتها هذه الأرباع مرَّة أُخرى.

أي أننا نردِّد هذه الأرباع الخمسة مرَّة قبل أوشيَّة القرابين، ومرَّة أُخرى بعدها. وهذا التِّكرار لا يحدث إلاَّ في الثَّلاثة أعياد السَّيديَّة الكُبرى فقط. إضافة إلى أننا نردِّد هذه الأرباع الخمسة عينها مرَّة ثالثة عند تقديم الحَمَل بعد أن سقط لحن أللي القُربان الطَّويل البديع.

لذلك فإنَّ ما أوردته "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨"، في هذا الشَّأن هو أمرٌ يحتاج عودتنا إلى ما تقول به مخطوطات ترتيب البيعة، والتي هي المصدر الأساسي والرَّئيسي لطقوس الكنيسة، والتي أوصى بها الآباء البطاركة الذين سمحوا بطباعة الكُتُب الطَّقسيَّة الكنسيَّة لكي تنسج هذه الكُتُب المطبوعة على منوالها.

---

٤١ – البابا غُبريال الخامس، مرجع سابق، ص ٣١

أوشيَّة الرَّاقدين أم أوشيَّة المرضى؟

بحسب مخطوطات ترتيب البيعة قيد الدِّراسة، أنه بعد أن تُقال أرباع النَّاقوس في رفع بخور عشيَّة، يقول الكاهن أوشيَّة الرَّاقدين أي الأموات، وبعدها يُقال تفضَّل ياربُّ أن تحفظنا في هذا اليَوم ... الخ.

فيقول "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م"، والذي تمَّت نساخته عن مخطوطات أقدم منه، بخصوص ترتيب صلوات عشيَّة عيد الميلاد المجيد، ما يلي: "... وبعد ذلك **يقول الكاهن أوشيَّة الأموات**"[٤٢].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ المخطوط المذكور يذكر أنه بعد انتهاء أوشيَّة الأموات في عشيَّة عيد الميلاد، يُقال: تفضَّل ياربُّ ...، وقدوسٌ الله ... والتي يدعوها "أجيوس"، حيث يقول ما نصُّه: "... إلى عند أجيوس تُقال الثَّلاثة عشيَّة وباكر ووقت القُدَّاس **Ȯ ⲉⲕⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲩ ..** " أي: "الذي وُلد من العذراء"[٤٣].

ويذكر "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٨ طقوس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١١م" ما يلي بخصوص ترتيب باكر سبت الفرح: "... ثمَّ يقول الكاهن أوشيَّة المرضى. إلى نهايتها يُقال **Ⲡⲓⲟⲩⲱⲓⲛⲓ ⲛ̀ⲧⲁⲫⲙⲏⲓ** بالنَّاقوس. إلى عند **Ⲁⲛⲟⲛ ϩⲱⲛ** تُقال **Ⲛⲉⲕⲛⲁⲓ ⲱ̀ ⲡⲁⲛⲟⲩϯ** . **وبعد ذلك يقول الكاهن أوشيَّة الأموات إلى نهايتها ...**".

٤٢- وهو نفس ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".
انظر: الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ٣٢، ٣٣، ٣٤

٤٣- وهو ما يذكره أيضا: "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

ويذكر أيضاً نفس المخطوط المذكور رقم (١١٨ طقوس) ترتيب ما يُقال في عشيَّة يوم أحد القيامة (أي مساء يوم عيد القيامة)، فيقول ما يلي: "... ويُرفع البُخور كالعادة، ويجلسون الأب البطريرك إن كان حاضراً، وتُقال بعد Ⲧⲉⲛⲟⲩⲱϣⲧ (تين أوأوشت. أي أرباع النَّاقوس)[٤٤] Ⲛⲓⲙ ϩⲁⲣ ϧⲉⲛ ⲛⲓⲛⲟⲩϯ (أي: من في الآلهة يشبهك يارب ...)[٤٥] ويُكمَّل كالعادة. ثمَّ **يقول الكاهن أوشيَّة الأموات**. وبعده Ⲁⲣⲓⲕⲁⲧⲁⲍⲓⲟⲓⲛ (أي: "تفضَّل يارب ...) ويُطاف بالبُخور البيعة ... الخ".

هذا من جهة ما تذكره بعض مخطوطات ترتيب البيعة. أمَّا من جهة الخولاجيَّات، والكُتُب الطَّقسيَّة المطبوعة، فيذكر كتاب الخولاجي المقدَّس الذي طُبع في سنة ١٩٠٢م، والذي راجعه القُمُّص عبد المسيح المسعودي البراموسي (١٨٤٨-١٩٣٥م)، أنه في رفع بخور عشيَّة تُقال أوشيَّة الأموات. وفي حاشية له (ص ٥٧) من نفس الخولاجي المذكور يقول: "إنَّ البعض الآن (أي أواخر القرن التَّاسع عشر) في الأيام الفرحيَّة، يقولون أوشيَّة المرضى في صلاة عشيَّة بدل أوشيَّة الأموات، ويقولونها أيضاً في صلاة باكر. ولكنَّنا لم نجد ذكر قراءتها في عشيَّة كما مرَّ في أحد الخولاجيَّات البتَّة، بل بالعكس رأينا في 'كتاب ترتيب كلِّ السَّنة'، قديم، أنَّ أوشيَّة الأموات تُقال في عشيَّة عيد الغطاس، والصُّعود، والعنصرة، فقال: "يُرفع البُخور كالعادة"، ولم يقُل تُقال أوشيَّة المرضى"[٤٦].

وهو ما نجده أيضاً في الخولاجي الذي طبعه القُمُّص عطا الله

٤٤- ما بين القوسين ( ) من عندي للتَّوضيح.

٤٥- وهي قطعة تُقال للقيامة في ختام ثيؤطوكيَّة الأحد.

٤٦- الخولاجي المقدَّس، القُدَّاسات الثَّلاثة التي للقدِّيسين باسيليوس وغريغوريوس وكيرلُّس، سنة ١٩٠٢م، ص ٤٨

أرسانيوس المحرَّقي سنة ١٩٥٩م. فيذكر في (ص ٥٦، ٥٧): أنَّ "أوشيَّة الرَّاقدين تُقال دائماً في صلاة عشيَّة حتى في الأعياد السَّيديَّة".

ويذكر "كتاب اللقَّان والسَّجدة"، أنَّه في لقَّان عيد الغطاس المجيد – وهو من الأعياد السَّيديَّة الكُبرى – تُقال أوشيَّة المتنيِّحين (ص ٣٤). وهو ما ذكرته كلُّ الكُتُب المطبوعة حتى اليَوم، نقلاً عن هذا الكتاب المذكور.

وصدرت الأبصلموديَّات السَّنويَّة المقدَّسة المطبوعة، وكان أوَّلها "أبصلموديَّة القس مينا البراموسي"، وأشارت في سبع صفحات منها في المقدِّمة إلى بعض التَّعليمات الطَّقسيَّة المختصَّة بالتَّسبحة فقط[٤٧]، دون التَّطرُّق إلى طقس رفع بخور عشيَّة أو باكر. ثمَّ "أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب"، والتي لم تُشر إلى أية تعليمات طقسيَّة في مقدِّمتها.

ثم ظهرت "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨"، وذلك بعد أن انقضت مدَّة ٤٠ سنة على ظُهور "أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب"[٤٨]، وتحوي ثلاث صفحات كاملة في بدايتها، حاوية تعليمات

٤٧- وهي تسبحة عشيَّة ونصف اللَّيل، وصلاة باكر وترتيب تسبحة برامون الميلاد وعيدي الميلاد والغطاس، وتسبحة ليلة سبت الفرح، وتسبحة ليلة عيد القيامة.

٤٨- تذكر مقدِّمة "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨"، ما يلي: "... ولمَّا كانت التَّسابيح والتَّماجيد التي وضعها آباء الكنيسة، أودعوها كتباً خطيَّة، فقد اهتم الطيِّب الذِّكر والخالد الأثر المرحوم أقلاديوس يوحنا لبيب بك (عام ١٦٠٦ش – ١٩٠٨م) بجمعها ومراجعتها على نسختي مثلَّث الرَّحمات الأنبا كيرلس الخامس والمتنيِّح الأنبا إيسآك مطران كرسي بني سويف والبهنسا حينذاك، ثم طبعها في كتاب أسماه "كتاب الأبصلموديَّة السنويَّة المقدَّسة". ولمَّا رأت الجمعيَّة أنَّ نُسَخ الطَّبعة المذكورة، فضلاً عن نفاذها، وعن عدم جودة ورقها، **ينقصها الكثير من الذُّكصولوجيَّات وأرباع النَّاقوس**، فكَّرت في إعادة طبعها، مع إكمال نقصها وتهذيب ألفاظها، وترتيب أبوابها ... وقد قيَّض الله لجنة من حضرات الشَّمامسة ...

طقسيَّة. ومن بين هذه التَّعليمات، يرد النَّص التَّالي تحت عنوان: "تسبحة عشيَّة عيدي الميلاد والغطاس":

"... وتُقال أرباع النَّاقوس بطريقة الفرح، **ثم يقول الكاهن أوشيَّة المرضى** ...". وهي أوَّل إشارة طقسيَّة عن أوشيَّة المرضى في الأعياد السَّيديَّة ترد في كُتُب الكنيسة الطَّقسيَّة المطبوعة، التي تُستخدم للصَّلاة في داخل الكنيسة، وذلك خلافاً لما ذكرته مخطوطات ترتيب البيعة قيد الدِّراسة. ثمَّ كانت الطَّبعة الثَّانية من "أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب" التي طُبعت سنة ١٩٨٦م، حين نقلت بالنَّص، هذه التَّعليمات الطَّقسيَّة من "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨"، ووضعتها في المقدِّمة.

ولقد استطاع الأستاذ يسَّى عبد المسيح (١٨٩٨-١٩٥٩م)، أن يكشف لنا عن البدايات الأولى لإحلال أوشيَّة المرضي بدلاً من أوشيَّة الرَّاقدين في عشيَّة الأعياد السَّيديَّة، حيث ذكر أنَّه وجد نسختَين لمخطوطين يشيران إلى هذا الموضوع:

المخطوط الأوَّل: يعود إلى القرن الثَّالث عشر، وهو مخطوط ترتيب أسبوع الآلام، وُجد بدير السيِّدة العذراء السِّريان، ذكر أنه تُقال أوشيَّة المرضى أو الأموات. وهنا ظهرت مرحلة التَّأرجُح بين الأوشيَّتين.

المخطوط الثَّاني: وهو من كنيسة السيِّدة العذراء بحارة زويله، يعود تاريخه إلى سنة ١٥٣٥ للشُّهداء، (١٨٢٠م)، يذكر أنَّ أوشيَّة المرضى هي التي تُقال، وليست أوشيَّة الأموات.

وكانت أوشيَّة المرضى قد شاعت بدلاً من أوشيَّة الرَّاقدين في عشيَّة

أعضاء الجمعيَّة تحت إشراف المعلم ميخائيل جرجس كبير مُرتِّلي الكنيسة المرقسيَّة الكبرى لإتمام هذا العمل.

الأعياد السَّيديَّة، بعد صدور النَّشرة الطّقسيَّة التي أصدرها قداسة البابا كيرلُس السَّادس (١٩٥٩- ١٩٧١م) والموقَّعة باسمه "كيرلُس بنعمة المسيح بابا الكرازة المرقسيَّة". فقد ورد تحت رقمي (٩، ١٠) ضمن البند الثَّاني من هذه النَّشرة الطّقسيَّة، "ملاحظات على طقوس الصَّلوات" كما يلي:

٩- تُصلَّى أوشيَّة المرضى في باكر ما عدا السَّبوت. كذلك في عشيَّة أيام الفرح، والأعياد السَّيديَّة، وفي أُمسية الآحاد الواقعة من عيد القيامة إلى الأحد الرَّابع من هاتور.

١٠- تُصلَّى أوشيَّة الرَّاقدين في عشيَّة الأيام السَّنويَّة، وباكر السَّبت، على مدار السَّنة. وفي أُمسية الآحاد الواقعة من شهر كيهك إلى القيامة.

ولقد أقرَّ المجمع المقدَّس للكنيسة القبطيَّة، في مايو سنة ١٩٩١م بأن تُعطى لأوشيَّة الرَّاقدين أولويَّة قبل أيِّ أوشيَّة أُخرى في الصَّلاة على المنتقلين، حتى في الخمسين المقدَّسة، ولا مانع من إضافة أوشيَّة المرضى إذا سمح الوقت(٤٩).

وبعد عشر سنوات، وفي جلسة المجمع المقدَّس للكنيسة القبطيَّة في مايو سنة ٢٠٠١م ورد في تقرير لجنة الطّقوس طلب قداسة البابا شنوده الثَّالث أن يتم تذكير الأحبار أعضاء المجمع المقدَّس بأنَّ قرار المجمع السَّابق صدوره بخصوص طقس أوشيَّة الرَّاقدين في أيام الخمسين، كان هو السَّماح بأن تُقال أوشيَّة الرَّاقدين في أيام الخمسين في حال وجود جُثمان المتوفَّى في حالة الصَّلاة عليه في الكنيسة. ولا مانع من أن تُقال معها أوشيَّة

٤٩- سكرتارية المجمع المقدَّس، القرارات المجمعية في عهد صاحب القداسة والغبطة البابا شنوده الثالث الـ (١١٧)، القاهرة، الطبعة الأولى، نوفمبر ١٩٩٦م. الطبعة الثانية، نوفمبر ٢٠٠١م، ص ٨٥

المرضى حسب المعتاد في أيام الخمسين. وأنَّ ذلك لا يعني التَّصريح بأوشيَّة الرَّاقدين في تلك الأيام في الظُّروف العاديَّة، لأننا في الخمسين نحتفل بقيامة السيِّد المسيح من الأموات، والأواشي دائماً تتناسب مع طقس المناسبات[٥٠].

وهكذا نجد أنَّه حتى بدايات القرن الحادي والعشرين، ظلَّ التَّساؤل قائماً عن كلٍّ من أوشيَّة الرَّاقدين وأوشيَّة المرضى، وأيهما يجب أن تُقال في أيام الفرح؟ حتى كان قرار المجمع المقدَّس السَّابق ذكره، والذي وضع نهايةً لهذا التَّنقُّل بين الأوشيَّتين.

الذُّكصولوجيَّات

بحسب التَّعليمات الطَّقسيَّة التي وردت في "أبصلموديَّة القس مينا البراموسي"، والتي هي طبق الأصل من "أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب"، يتَّضح أنَّ الذُّكصولوجيَّات تختص برفع بخور عشيَّة أو باكر، في حين أنَّ المجمع (مجمع القدِّيسين) يختص بتسبحة نصف اللَّيل.

أمَّا "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨" فقد ذكرت في التَّعليمات الطَّقسيَّة في المقدِّمة، أنه يُقال في تسبحة نصف اللَّيل في أيام الأسبوع (عدا يوم الأحد) وبعد المجمع، **ذُكصولوجيَّة العيد أو الصَّوم إذا اتفق، وما يلائم من الذُّكصولوجيَّات** ويختمها بـــ **Ϣωπι ǹϴο**[٥١] فقط. أمَّا في تسبحة نصف اللَّيل في الآحاد فيختم الذُّكصولوجيَّات

٥٠- سكرتارية المجمع المقدَّس، القرارات المجمعيَّة في عهد صاحب القدَّاسة والغبطة البابا شنوده الثالث، من سنة ١٩٧١حتى سنة ٢٠٠١م، نوفمبر ٢٠٠١م، ص ٩٤

٥١- أي: "كوني أنت ناظرة علينا في المواضع العالية التي أنت كائنة فيها، يا سيِّدتنا كلّنا والدة الإله العذراء كلَّ حين"، وهو الرُّبع الأوَّل من أربعة أرباع تمثِّل ختام الذُّكصولوجيَّات، وهي ذُكصولوجيَّة للسيِّدة العذراء.

بأرباع Ϣⲱⲡⲓ ⲛ̀ⲑⲟ ومن بعدها Ⲛⲏⲉⲧϣⲱⲛⲓ [٥٢].

ولستُ أعرف لماذا أُخذت هذه الثَّلاثة أرباع الأخيرة من ختام الثِّيؤطوكيَّات الواطس لتكون ختاماً للذُّكصولوجيَّات الواطس في الآحاد[٥٣]؟ وهو ما لم تذكره مخطوطات ترتيب البيعة قيد الدِّراسة، ولا الأبصلموديَّات المطبوعة في سنة ١٩٠٨م. وإن كان السَّبب أنَّ هذا الختام الواطس لا يُقال في الأيام الآدام، فبذلك تُقال أرباعه الثَّلاثة الأخيرة على مدار الأسبوع كلِّه، فلماذا لم نأخذ الرُّبع الذي يسبق هذه الأرباع الثَّلاثة مباشرة والذي يقول: "يا ملاك هذا اليَوم الطَّائر بهذه التَّسبحة اذكرنا أمام الرَّب ليغفر لنا خطايانا" لنردِّده على مدار الأسبوع في أيامه الآدام والواطس؟ إنها ربما كانت ممارسة محليَّة، ظهرت في مكان ما، وما أن أُشير إليها في كتاب صلوات كنسي، حتى انتشرت في كلِّ الأرجاء.

إنَّ كلَّ الأبصلموديَّات السَّنويَّة المقدَّسة **المطبوعة**، تتَّفق على أنَّ ختام الذُّكصولوجيَّات هو ذُكصولوجيَّة السيِّدة العذراء التي بدايتها Ϣⲱⲡⲓ ⲛ̀ⲑⲟ . فهي تُسمَّى في "أبصلموديَّة القس مينا البراموسي"[٥٤]:

٥٢- أي: "المرضى اشفهم، الذين رقدوا ياربُّ نيِّحهم، وإخوتنا الذين في كلِّ شدَّة ياربي أعنَّا وإيَّاهم"، وهو أحد ثلاثة أرباع هي الأرباع الأخيرة من ختام الثيؤطوكيَّات الواطس.

٥٣- في حين تشير الأبصلموديَّة المذكورة إلى أنَّ هذه الأرباع تُقال في أيام الآحاد فقط، فقد امتد ترديد هذه الأرباع الثَّلاثة في كلِّ الأيام الآدام من الأسبوع، من الأحد إلى الثُّلاثاء، وهو ما لم تشر إليه هذه الأبصلموديَّة.

٥٤- هذه الأبصلموديَّة في غاية الدِّقة والإتقان، مطبوعة طباعة فاخرة باللَّونين الأحمر والأسود، مع ذوق رفيع في الإخراج، ومن بين أوجه إتقانها أنها أوردت قانون الإيمان ومقدِّمته والثلاثة تقديسات، بالقبطيَّة، وهو ما فعلته جمعيَّة نهضة الكنائس بعد ٧٠ سنة وذلك في طبعتها الرَّابعة للأبصلموديَّة التي صدرت فيما بعد سنة ١٩٧٧م.

العذراء الختام". وفي "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨": "ختام الذُّكصولوجيَّات (للسيِّدة العذراء مريم)"(٥٥).

ذُكصولوجيَّات عيد الميلاد

وهي ثلاثة ذُكصولوجيَّات كما أوردها كُتُب الأبصلموديَّة المطبوعة بدءاً من سنة ١٩٠٨م، وهي تُقال بلحن الفرح:

الذُّكصولوجيَّة الأولى(٥٦)

- حينئذ امتلأ فمنا فرحاً، ولساننا تهليلاً، لأنَّ ربَّنا يسوع المسيح وُلد في بيت لحم.
- السَّلام لمدينة إلهنا مدينة الأحياء، مسكن الصدِّيقين التي هي أورشليم.
- السَّلام لك يا بيت لحم مدينة الأنبياء الذين تنبأوا عن ميلاد عمانوئيل.
- اليَوم أشرق لنا نحن أيضاً النُّور الحقيقي من مريم العذراء العروس النَّقيَّة.
- مريم ولدت مخلِّصنا محب البَّشر الصَّالح في بيت لحم اليهوديَّة كأقوال الأنبياء.
- إشعياء النَّبي يصرخ بصوت التَّهليل قائلاً: إنها تلد عمانوئيل مخلِّصنا الصَّالح.
- ها السَّموات تفرح والأرض تهلِّل لأنها ولدت لنا عمانوئيل نحن المسيحيِّين.
- من أجل هذا نحن أغنياء بالخيرات الكاملة، وبإيمان نرتِّل قائلين: الليلويا.
- الليلويا٤ يسوع المسيح ابن الله وُلد في بيت لحم.
- هذا الذي ينبغي له المجد مع أبيه الصَّالح والرُّوح القُدُس من الآن وإلى الأبد.

٥٥- هذا من جهة الطَّقس الحالي. لأنه حتى القرن الخامس عشر الميلادي، لم تكن هذه الذُّكصولوجيَّة محسوبة أنها ختام الذُّكصولوجيَّات الواطس. وأمَّا عن التَّاريخ اللِّيتورجي لختام الذُّكصولوجيَّات الواطس، فيمكن للقارئ العزيز الرُّجوع إلى الطَّبعة الثَّانية من كتاب "صلوات رفع البُخور في عشيَّة وباكر".

٥٦- أشار إليها مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م.

الذُّكصولوجيَّة الثَّانية[٥٧]

- الواحد من الثَّالوث المساوي للآب، لمَّا نظر إلى ذلّنا وعبوديَّتنا المرَّة.
- طأطأ سماء السَّموات، وأتى إلى بطن العذراء، وصار إنساناً مثلنا بدون الخطيئة وحدها.
- لمَّا وُلد في بيت لحم كأقوال الأنبياء، أنقذنا وخلَّصنا لأننا نحن شعبه.
- لم يزل إلهاً، أتى وصار ابن بشر، لكنَّه هو الإله الحقيقي أتى وخلَّصنا.

الذُّكصولوجيَّة الثَّالثة

- تعالوا جميعاً لنسجد لربِّنا يسوع المسيح الذي ولدته العذراء وبتوليَّتها مختومة.
- أتى المجوس وسجدوا لله في بيت لحم، أي لربِّنا يسوع المسيح الذي ولدته العذراء.
- جُند السَّماء اجتمعوا معاً مسبِّحين الله الذي ولدته العذراء في بيت لحم.
- صارخين قائلين: المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السَّلام، وفي النَّاس المسرَّة.
- وإذا مجوس قد أتوا من المشرق إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهود.
- بهاء نجمه أضاء في كورتنا، وعليه كتابات مكتوبة فأتينا لنسجد له.

٥٧- هذه الذُّكصولوجيَّة هي نصُّ القطعة الثَّامنة من ثيؤطوكيَّة الخميس. وهي بالفعل قطعة تناسب عيد الميلاد. وهي الذُّكصولوجيَّة الوحيدة التي أشار إليها "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م".
ويتَّفق معه في ذلك "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م". (الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ٣٢-٣٤).
وقد أشار المخطوط إلى ذُكصولوجيَّة أُخرى، بقوله: "وثمَّ من يقول أيضاً ϣ.. ninakϩi ǹnoⲩϯ". وهي القطعة الخامسة من ثيؤطوكيَّة الخميس، والتي بدايتها: "يا للطَّلقات الإلهيَّة العجيبة التي لوالدة الإله مريم العذراء كلَّ حين".

- إشعياء النَّبي ذو الصَّوت النَّبوي تنبأ من أجل ميلاد المسيح.
- ولمَّا جاء المجوس بحثوا عنه باجتهاد قائلين: أين هو المولود ملك اليهود.
- لمَّا سمع هيرودس خاف واضطرب وجميع أورشليم معه، ووقع عليهم خوف.
- ولذلك دعا المجوس سراً وأرسلهم إلى بيت لحم قائلاً: ستجدون الصَّبي المولود في ذلك الموضع.
- بتوليَّة غير منحلَّة، وميلاد كامل، الرُّعاة نظروا وسبَّحوا الله.
- من أجل هذا نسبِّحه ونسجد له، من أجل الذين أرضوه لكي يصنع رحمة مع نفوسنا.
- الليلويا[٤] يسوع المسيح ابن الله وُلد في بيت لحم.
- هذا الذي ينبغي له المجد مع أبيه الصَّالح والرُّوح القُدُس من الآن وإلى الأبد.

وهذه الذُّكصولوجيَّة الأخيرة هي الوحيدة بين الذُّكصولوجيَّات التي تتحدَّث عن زيارة المجوس للمولود الإلهي، وسجودهم له، فأوردت ستَّة أرباع في ذلك. وفي نفس الوقت مزجت مزجاً بديعاً بين المجوس والرُّعاة.

وفي الشَّرق المسيحي تمثِّل زيارة المجوس لمولود بيت لحم مكاناً بارزاً كحدث رئيسي من أحداث عيد الميلاد، أمَّا الغرب فقد جعل من هذه الزِّيارة المحور الرَّئيسي والوحيد التي تتمركز حوله طقوس عيد الظُّهور الإلهي (الإبيفانيا) حتى طغى هذا الحدث على أساس العيد نفسه كاحتفال بمعموديَّة الرَّب في مياه الأردن.

وتبرز الكنيسة القبطيَّة زيارة المجوس لمولود بيت لحم في ليتورجيَّة العيد في أكثر من موضع من مردَّاتها وصلواتها، ولاسيَّما فصل إنجيل القُدَّاس الذي يدور حول زيارة المجوس لبيت لحم، وسجودهم للصَّبي وتقديم هداياهم ذات الأسرار.

وسنعود للحديث عن المجوس بتفصيل أوفر عند عرضنا لطقس عيد الميلاد في القُدَّاس الإلهي.

وبعد ذُكصولوجيَّات العيد يُقال ما يوافق أيضاً من الذُّكصولوجيَّات الأُخرى، وتُختم الذُّكصولوجيَّات بذُكصولوجيَّة العذراء، والتي بدايتها: "كوني أنت ناظرة علينا في المواضع العالية التي أنت كائنة فيها، يا سيِّدتي ملكتنا كلِّنا(٥٨)، والدة الإله، العذراء كلَّ حين ...".

ترتيل مزمور إنجيل عشيَّة

يُرتَّل المزمور القبطي لإنجيل عشيَّة عيد الميلاد حالياً بلحن ⲬⲈ ⲁϥⲥⲁϫⲓ، وتعبير "بلحن ⲬⲈ ⲁϥⲥⲁϫⲓ" يعني أن المزمور يُرتَّل بنفس لحن المزمور الذي بدايته كلمة ⲬⲈ ⲁϥⲥⲁϫⲓ، وهي الكلمة الأولى من مزمور عشيَّة عيد تذكار صعود جسد السيِّدة العذراء إلى السَّماء، حيث الإستيخون الأوَّل من المزمور هو: ⲬⲈ ⲁϥⲥⲁϫⲓ ⲉⲑⲃⲏϯ ⲛ̀ϩⲁⲛ̀ϩⲃⲏⲟⲩⲓ̀ ⲉⲧⲧⲁⲓⲏⲟⲩⲧ «لأنهم تكلَّموا من أجلكِ بأعمال كريمة ...». فلحن ⲬⲈ ⲁϥⲥⲁϫⲓ يعني لحن المزمور الذي يُرتَّل به المزمور القبطي في عشيَّة الأعياد السَّيديَّة وغير السَّيديَّة أيضاً. ويمكن

٥٨- عبارة "يا سيِّدتي ملكتنا كلِّنا" ويقابلها في القبطيَّة Ⲡⲁⲟ̅ⲥ̅ ⲛ̀ⲛⲏⲃ ⲧⲏⲣⲉⲛ ϯⲑⲉⲟ̀ⲧⲟⲕⲟⲥ ترد هكذا في كلِّ الأبصلموديَّات (أبصلموديَّة أقلاديوس لبيب، أبصلموديَّة القس مينا البراموسي، أبصلموديَّة القُمُّص عطا الله أرسانيوس المحرَّقي)، باستثناء "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨" في كلِّ طبعاتها العشر حيث جعلت النَّص: "يا سيِّدتنا كلِّنا" ⲱ ⲧⲉⲛⲟ̅ⲥ̅ ⲛ̀ⲛⲏⲃ ⲧⲏⲣⲉⲛ وحذفت كلمة "ملكتنا" برغم بقائها في النَّص القبطي وهي كلمة ⲛⲏⲃ.

وكلمة ⲛⲏⲃ القبطيَّة تعني: سيِّد ـ رب ـ سلطان ـ مولى ـ ولي ـ صاحب ـ **ملك** ـ مالك ـ مخدوم ـ صاحب عائلة ـ مدير ـ مدبر. انظر: أقلاديوس يوحنا لبيب (بك)، قاموس اللُّغة القبطيَّة المصريَّة، الجزء الأوَّل، سنة ١٦١١ش (١٨٩٥م).

أن يُرتَّل به المزمور القبطي لإنجيل عشيَّة أيِّ يوم من أيام السَّنة اللِّيتورجيَّة. وهو يُستخدم أيضاً في ترتيل مزمور إنجيل قُدَّاس برامون كلٍّ من عيدَي الميلاد والغطاس.

ويذكر "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" ما يلي:

ثُمَّ يقول أوشيَّة الإنجيل، ويُطرح المزمور. وعندما يطوف بالإنجيل حول المذبح يقولون:

Ⲉϥⲉ̀ⲓ ⲉⲡⲉⲥⲏⲧ ⲙ̀ⲫⲣⲏϯ ⲛ̀ⲟⲩⲙⲟⲩⲛ ϩⲱⲟⲩ..

أي: "ينزل مثل المطر على الجزَّة، ومثل قطرات النَّدى على الأرض. معك الرِّئاسة في يوم قوَّتك في بهاء القدِّيسين. من البَّطن قبل كوكب الصُّبح أنا ولدتُك. الليلويا"(٥٩).

ويضيف "مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م" رُبعاً نصُّه هو: "الليلويا٣، يسوع المسيح ابن الله الذي وُلد في بيت لحم، كأقوال الأنبياء، اسمعنا وارحمنا الليلويا"(٦٠).

٥٩- النَّص المذكور هو من (مزمور ٦:٧١ ؛ ٣:١٠٩، ٤).
وهو ما يذكره أيضاً: "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و "مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و "مخطوط السِّريان لسنة ١٦٩٨م"، و "مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".
أمَّا "مخطوط السِّريان لسنة ١٦٩٨م"، و "مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م"، فيذكره كتطواف لإنجيل عشيَّة برامون الميلاد أيضاً.
انظر: الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ٢٥، ٣٥
وهو ما يذكره كتاب خدمة الشمَّاس والألحان تحت عنوان: "طوافات مزامير الأناجيل" في نهاية الكتاب المذكور، حيث تقلَّصت هذه الطَّوافات كثيراً هذه الأيام.
٦٠- الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ٣٥

مرد إنجيل عشيَّة عيد الميلاد

لقد صمت كتاب "خدمة الشمَّاس والألحان" في طبعاته الكثيرة عن إيراد مرد لإنجيل عشيَّة عيد الميلاد، إذ انصبَّ تركيزه على ما يُقال في قُدَّاس العيد فقط، باستثناء إيراده مرداً للإنجيل في رفع بخور باكر، نقله من الرُّبع الرَّابع من القطعة السَّابعة من ثيؤطوكيَّة يوم الأربعاء، ونصُّه:

"غير المتجسِّد تجسَّد، والكلمة تجسَّم، غير المبتدئ ابتدأ، وغير الزَّمني صار زمنياً"(٦١).

وهو من بين الأرباع الغزيرة التي تحويها ثيؤطوكيَّات الأيام والتي تناسب عيد الميلاد. والمرد السَّابق ذكره يوافق أن يكون مرداً لإنجيل عشيَّة العيد الذي يسرد سلسلة نسب السيِّد المسيح بحسب إنجيل القدِّيس لوقا (٢٣:٣- ٢٨) «ولمَّا ابتدأ يسوع أن يصير ابن ثلاثين سنة، وكان يُظن أنه ابن يوسف ابن هالي ... ابن آدم، ابن الله». وهكذا تجد أنَّ المرد مناسب تماماً لفصل الإنجيل في عشيَّة العيد.

إلاَّ أنَّ "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" يورد مرداً لإنجيل عشيَّة عيد الميلاد هو:

من أجل الذي وُلد لنا في مدينة داود، مخلِّصنا يسوع، والمسيح إلهنا(٦٢).	Ⲉⲑⲃⲉ ⲫⲏⲉ̀ⲧⲁⲩⲙⲁⲥϥ ⲛⲁⲛ: ϧⲉⲛ ⲑ̀ⲃⲁⲕⲓ ⲛ̀ⲇⲁⲇ: ⲡⲉⲛⲥⲱⲣ Ⲓⲏⲥ: ⲟⲩⲟϩ Ⲡⲭⲥ Ⲡⲟⲥ.

٦١- الرُّبع التَّالي مباشرة لهذا الرُّبع من الثِّيؤطوكيَّة يقول: "غير المدرَك لمسوه، وغير المرئي رأوه، ابن الله الحي صار بشرا بالحقيقة". انظر كيف أنَّ أرباع الثِّيؤطوكيَّات في الكنيسة القبطيَّة غنيَّة بالمعاني وعميقة التَّعبير.

٦٢- وهو ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط السِّريان لسنة ١٦٩٨م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

ويضيف "مخطوط السِّريان لسنة ١٦٩٨م": "الليلويا[٤]، يسوع المسيح ... الخ".

قانون(٦٣) ختام الصَّلوات في عشيَّة العيد

من المعروف أنَّ قانون ختام الصَّلوات حالياً في عشيَّة عيد الميلاد هو: Φⲏ ⲉ̀ⲧⲁⲩⲙⲁⲥϥ ϧⲉⲛ Ⲃⲏⲑⲗⲉⲉⲙ أي: "... ياربَّنا يسوع المسيح، الذي وُلد في بيت لحم، كالأخبار النَّبويَّة، خلِّصنا ...".

وهذا الختام أو هذا القانون السَّابق ذكره ليس من ضمن الخمسة عشر قانوناً التي يذكرها ابن كبر (+ ١٣٢٤م) حيث يذكر أنَّ القوانين المألوفة في البيعة، المعروفة عدَّها (هي) خمسة عشر قانوناً(٦٤). ومن بين هذه القوانين قانونان يشيران إلى الميلاد:

- الأوَّل يبدأ بكلمة Φⲏⲉ̀ⲧⲁⲩϫ̀ⲫⲟϥ أي: "أيها المولود".
- والثَّاني يبدأ بكلمتي Ⲡⲓϫⲓⲛⲙⲓⲥⲓ ⲁϥⲉⲣϣⲟⲣⲡ أي: "الميلاد سبق".

أمَّا "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" فيقول ما يلي:

"ويكمِّلون الصَّلاة كالعادة. إلى آخر قراءة تحليل الابن، إن اختاروا يطرحون الطَّرح الآدام. وتُختم الصَّلاة كالعادة. ويُقال القانون وهو

٦٣- "قانون" في المصطلح الطَّقسي القبطي هو ما يُقال في ختام الصَّلوات الاجتماعيَّة في الكنيسة على مدار السَّنة الطَّقسيَّة، والقانون هو ضمن طقس التَّسريح، أي طقس صرف المصلِّين من الكنيسة.

٦٤- ورد بيانها في كتاب "صلوات رفع البخور في عشيَّة وباكر".

انظر: مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، البَاب ١٦

يُستعمل عشيَّة وباكر إلى برامون الغطاس"(٦٥).

عندما وُلد ربُّنا يسوع المسيح في بيت لحم اليهوديَّة، إذا مجوس أتوا من المشرق إلى أورشليم. وسجدوا لله الذي تجسَّد وصار إنساناً، وفتحوا كنوزهم وقدَّموا له هدايا: ذهباً مختاراً كونه ملك الدُّهور، ولباناً كإله، ومُراً قدَّموه لموته.	Ⲉⲧⲁⲩⲙⲓⲥⲓ ⲙ̀ⲡⲉⲛⲟ̅ⲥ̅ Ⲓⲏ̅ⲥ̅ Ⲡⲭ̅ⲥ̅ : ϧⲉⲛ Ⲃⲏⲑⲗⲉⲉⲙ ⲛ̀ⲧⲉ ϯⲒⲟⲩⲇⲉⲁ : ⲓⲥ ϩⲁⲛⲙⲁⲅⲟⲥ ⲁⲩ̀ⲓ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ⲥⲁⲡⲉⲓⲉⲃⲧ ⲉ̀ ⲓ̀ⲗⲏⲙ : ⲁⲩⲟⲩⲱϣⲧ ⲙ̀Ⲫϯ ⲉ̀ⲧⲁϥϭⲓⲥⲁⲣⲝ ⲁϥⲉⲣⲣⲱⲙⲓ : ⲁⲩⲟⲩⲱⲛ ⲛ̀ⲛⲟⲩⲁ̀ϩⲱⲣ : ⲁⲩ̀ⲓⲛⲓ ⲛⲁϥ ⲛ̀ϩⲁⲛⲇⲱⲣⲟⲛ : ⲟⲩⲛⲟⲩⲃ ⲉϥⲥⲱⲧⲡ ϩⲱⲥ ⲟⲩⲣⲟ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲓⲉ̀ⲛⲉϩ : ⲛⲉⲙ ⲟⲩⲗⲓⲃⲁⲛⲟⲥ ϩⲱⲥ ⲛⲟⲩϯ : ⲟⲩϣⲁⲗ ⲁⲩⲉⲛϥ ⲉ̀ⲡⲉϥⲙⲟⲩ.
تعالوا يا جميع الأمم، لنسجد للذي وُلد من أجل خلاص نفوسنا(٦٦).	Ⲁⲙⲱⲓⲛⲓ ⲛⲓⲉⲑⲛⲟⲥ ⲧⲏⲣⲟⲩ : ⲙⲁⲣⲁⲛⲟⲩⲱϣⲧ ⲙ̀ⲫⲏⲉ̀ⲧⲁⲩⲙⲁⲥϥ : ⲉⲑⲃⲉ ⲫ̀ⲛⲟϩⲉⲙ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲉⲛⲯⲩⲭⲏ.
المجد ...	Ⲇⲟⲝⲁ...
بعدما وُلد ربُّنا يسوع	Ⲉⲧⲁⲩ̀ϫⲫⲟⲩ ⲙ̀ⲡⲉⲛⲟ̅ⲥ̅ Ⲓⲏ̅ⲥ̅ Ⲡⲭ̅ⲥ̅ :

٦٥- وهو ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

٦٦- هذا القانون عينه، يذكره "مخطوط فيينا رقم (٣ قبطي)" الذي يعود إلى ما قبل القرن الخامس عشر، (ورقة ١٦٦ ظهر إلى ورقة ١٦٧ ظهر). ويتَّفق معه أيضاً مخطوط رقم (٢٢١ طقس) بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار، وهو من القرن الرَّابع عشر، ويعتبر من أقدم مخطوطات الأبصلموديَّات في العالم. حيث يذكر "مخطوط فيينا رقم (٣ قبطي)" عن هذا الرُّبع تنبيهاً طقسياً يقول: "**قل كلّ رُبع هكذا**". أي أنَّ هذا الرُّبع المذكور في المتن، يتكرَّر على التَّوالي مع أرباع قانون ختام الصَّلوات.

ϧⲉⲛ ⲑⲏⲉⲑⲟⲩ ⲙ̀ⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲥ : ⲁϥⲃⲱⲗ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ⲛ̀ϯⲡ̀ⲗⲁⲛⲏ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓⲇⲓⲁ̀ⲃⲟⲗⲟⲥ : ⲡ̀ⲅⲉⲛⲟⲥ ⲛ̀ⲛⲓⲣⲱⲙⲓ ⲁϥϣⲁⲓ ⲛⲱⲟⲩ ⲛ̀ϫⲉ ⲡⲓⲟⲩⲱⲓⲛⲓ : ϩⲓⲧⲉⲛ ⲡⲓϫⲓⲛⲙⲓⲥⲓ ⲉⲑⲙⲉϩ ⲛ̀ⲱⲟⲩ : ⲉⲑⲃⲉ ⲫⲁⲓ ⲧⲉⲛϯⲱ̀ⲟⲩ ⲛⲁϥ ϧⲉⲛ ⲟⲩⲛⲁϩϯ ⲛ̀ⲁⲧⲙⲉⲧϣⲟⲃⲓ : ⲉⲛϣⲟⲩϣⲟⲩ ⲙ̀ⲙⲟⲛ ⲛⲉⲙ ⲛⲓⲙⲁⲅⲟⲥ : ⲉⲛⲑⲉⲗⲏⲗ ⲛⲉⲙ ⲛⲓⲙⲁⲛⲉ̀ⲥⲱⲟⲩ : ⲉⲛⲱϣ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ⲉⲛϫⲱ ⲙ̀ⲙⲟⲥ : ϫⲉ ⲁ̀ⲙⲱⲓⲛⲓ ⲛⲓⲉⲑⲛⲟⲥ ⲧⲏⲣⲟⲩ : ⲙⲁⲣⲉⲛⲟⲩⲱϣⲧ ⲙ̀ⲫⲏⲉ̀ⲧⲁⲩⲙⲁⲥϥ : ⲉⲑⲃⲉ ⲫ̀ⲛⲟϩⲉⲙ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲉⲛⲯⲩⲭⲏ.

المسيح من القدِّيسة العذراء، هدم خداع إبليس. وجنس البَّشر أشرق عليهم النُّور بالميلاد المملوء مجداً. من أجل هذا نمجِّده بإيمان بلا رياء، مفتخرين مع المجوس، ومهلّلين مع الرُّعاة، صارخين قائلين: تعالوا يا جميع الأمم لنسجد للذي وُلد من أجل خلاص نفوسنا.

Ⲕⲉⲛⲩⲛ..

الآن ...

Ⲟⲩⲛⲓϣϯ ⲡⲉ ⲡⲓ̀ϩⲙⲟⲧ : ⲛ̀ⲧⲉ ⲫⲏⲉ̀ⲧⲁⲩ̀ϫⲫⲟϥ ⲛⲁⲛ ⲙ̀ⲫⲟⲟⲩ : ⲛⲓⲙⲁⲛⲉ̀ⲥⲱⲟⲩ ⲛⲉⲙ ⲛⲓⲙⲁⲅⲟⲥ : ⲛⲓⲁⲅⲅⲉⲗⲟⲥ ⲁⲩⲙⲟⲩϫⲧ ⲛⲉⲙ ⲛⲓⲣⲱⲙⲓ : ⲁⲩϭⲓⲙⲱⲓⲧ ϧⲁϫⲱⲟⲩ ⲛ̀ⲛⲓⲙⲁⲅⲟⲥ : ϣⲁ ⲛ̀ⲧⲟⲩⲓ̀ ⲉ̀ Ⲃⲏⲑⲗⲉⲉⲙ : ⲁⲩϣⲁϣⲛⲓ ⲉⲡⲉⲕⲟⲩⲱⲛϩ ⲉ̀ⲃⲟⲗ : ⲛ̀ϫⲉ ⲛⲓⲃⲁⲣⲃⲁⲣⲟⲥ ⲛ̀ⲉⲑⲛⲟⲥ.

عظيمة هي نعمة الذي وُلد لنا اليَوم؛ الرُّعاة والمجوس والملائكة اختلطوا مع البَّشر، وقادوا المجوس حتى جاءوا إلى بيت لحم، وفاز الأمم بظهورك.

وهنا يضيف "مخطوط فيينا رقم (٣ قبطي)"، ما يلي:

من أجل هذا ...	ϵⲑⲃⲉ ⲫⲁⲓ ⲧⲉⲛϯⲱⲟⲩ ⲛⲁϥ ...
قائلين: تعالوا يا ...[٦٧]	ϫⲉ ⲁⲙⲱⲓⲛⲓ ⲛⲓⲉⲑⲛⲟⲥ ⲧⲏⲣⲟⲩ ...
الآن...	Ⲕⲉ ⲛⲩⲛ..

ويُكمِّل "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" بقوله: "وإن كانوا لا يعرفوها فتُقال الليلويا سنوي".

ويُعمل تمجيد في نهاية رفع بخور عشيَّة عيد الميلاد أمام أيقونة السيِّدة العذراء. وقد جرت عادة الكنيسة القبطيَّة أن يكون الاحتفال الطَّقسي بعيد أحد الشُّهداء أو القدِّيسين سواء عند رفاته المقدَّسة بالكنيسة، أو أمام أيقونته، أن يكون عقب صلاة رفع بخور عشيَّة العيد، وهذا ما يشير إليه القِّس شمس الرِّئاسة ابن كبر (+ ١٣٢٤م) بقوله[٦٨]:

"وإن كانت ليلة عيد أحدٍ من الشُّهداء والقدِّيسين وأرادوا أن يمدحوه تحت أيقونته، فإذا قال الشمَّاس **Ⲡⲣⲟⲥⲭⲱⲙⲉⲛ** [٦٩] يكمِّل الكاهن التَّحليل، ولا يُقال كيرياليصون[٧٠]، بل يبتدئ المرتِّلون بلحن ذلك اليَوم فيما يليق من التَّرتيل بذلك العيد، ويخرج الشَّعب إلى الأيقونة، ويُطرح من الدِّفناري[٧١] ما يختص بذلك التِّذكار، ثم يُقال الليلويا ترتيلاً

٦٧- وهو الرُّبع الذي يتكرَّر، والذي سبق ذكره.

٦٨- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي)، مرجع سابق، البَاب ١٦

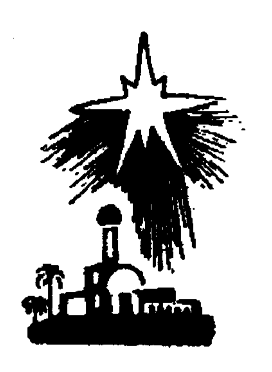
٦٩- **ⲡⲣⲟⲥⲭⲱⲙⲉⲛ** أي "ننصت"، وكان هذا المرد ضمن طقس تسريح المؤمنين أي صرفهم بعد انتهاء الصَّلوات الكنسيَّة.

٧٠- يبتدئ قانون التَّسريح أو ختام الصَّلوات الاجتماعيَّة بترتيل 'كيرياليسون' أي ياربُّ ارحم، ثلاث مرَّات.

٧١- هو كتاب يختص بإيراد سيَر شهداء الكنيسة وقدِّيسيها على مدار السَّنة اللِّيتورجيَّة، ليس بأسلوب تاريخي - فهو من اختصاص كتاب السِّنكسار - بل

وبعدها كيرياليصون والقانون والبركة''.

نعم ياربُّ؛
أتيت إلى العالم بمحبَّتك للبَّشر، وكلُّ الخليقة هلَّلت بمجيئك.
بقيت إلهاً على حالك، وصرت إنساناً كاملاً.
غير المنظور، غير المحدود، ولدته مريم وهي عذراء، هو الله بالحقيقة، تأنَّس بغير تغيير.
المجد يليق به من الآن وإلى الأبد، إذ لمَّا وُلد في بيت لحم كأخبار الأنبياء، أنقذنا وخلَّصنا لأننا نحن شعبه.
الكائن قبل الدُّهور أتي وتجسَّد منك، عتيق الأيَّام خرج من بطنك، فسلامنا إلى من قبلت غير المحوى في بطنها، وبتوليَّتها مختومة من كلِّ ناحية[٧٢].



بأسلوب تطويب وتمجيد. (انظر للمؤلِّف: كتاب: ''معجم المصطلحات الكنسيَّة''.
٧٢- بعض أرباع مختارة من الثيؤطوكيَّات.

الفَصل الرَّابع

الطَّقس القبطي لتسبحة نصف اللَّيل

في عيد الميلاد

تمهيد

لا يفوتني أن أُنوِّه هنا إلى أنَّ هذا الفَصل قد تعرَّضت فيه لدراسة طقسيَّة قبطيَّة من وجهة تحليليَّة وتاريخيَّة بحتة، وهي مع شدَّة تخصُّصها، لازمة، إذ أنَّ هدف دراستنا الطَّقسيَّة هذه - ومنذ البداية — هو البحث في أدق التَّفصيلات الطَّقسيَّة القبطيَّة بالذَّات، والتي تناولتها بعض الكُتُب الطَّقسيَّة الحديثة بالتَّعليق والشَّرح بدون الرُّجوع إلى أصولها التَّاريخيَّة اللِّيتورجيَّة، ومن ثمَّ كان لزاماً أن أُسلِّط عليها الضَّوء. ومع ذلك لم أغفل أن يجد القارئ غير المتخصِّص مادة مفيدة.

وأوَّل إشارة موثَّقة تصل إلينا عن أنَّ تسبحة نصف اللَّيل في عيد الميلاد تُصلَّى بلحن الفرح، نجدها عند ابن كبر (+ ١٣٢٤م) في الباب التَّاسع عشر من كتابه "مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة"، حيث يذكر أنَّ عشيَّة وباكر والأبصلموديَّة (أي التَّسبحة) تُصلَّى بلحن الفرح، فيقول ما نصُّه:

"... وعشياً لحن الفرح كباكر، وكذلك في الأبصمُلديَّة (الأبصلموديَّة) ...".

بدء تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر لعيد الميلاد

لم يذكر ابن كبر شيئاً عن طقس بدء تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر في عيد الميلاد. أمَّا القُمُّص عبد المسيح المسعودي البراموسي (١٨٤٨-١٩٣٥م) فقد أشار إلى ذلك الطَّقس في مقدِّمة الخولاجي المقدَّس الذي طُبع سنة ١٩٠٢م، وذلك ضمن ثلاث عشرة صفحة تنبيهات طقسيَّة نقلت عنها

كلُّ الكتب الطَّقسيَّة التي طُبعت بعد هذا التَّاريخ، مع تصرُّف أحياناً في بعض من مادهّا.

ومن هذه التَّعليمات نقرأ:

"وفي ليالي عيد الميلاد وعيد الغطاس وعيد القيامة، لا تقال مزامير صلاة نصف اللَّيل ولا باكر ولا السَّاعات التي ليس هذا وقتها".

إذا فتسبحة نصف اللَّيل في عيد الميلاد تبدأ بدون مزامير صلاة نصف اللَّيل.

ويذكر القُمُّص عبد المسيح المسعودي البراموس[١] في نفس هذه التَّعليمات الطَّقسيَّة[٢]:

"... إنه في ليالي آحاد شهر كيهك، **وفي عيد الميلاد** وعيد الغطاس وآحاد الصَّوم المقدَّس الكبير وأحد الشَّعانين والقيامة، قبل الهوس الأوَّل من التَّسبحة يُقال هوس العيد المجموع من المزامير. لأنَّ لكلّ عيد من هذه الأربعة، هوساً مخصوصاً ... ويُقال قبل الهوس المذكور الألي أي **Ⲁⲗⲗⲏⲗⲟⲩⲓⲁ** باللَّحن، ويُقال الرُّبع الأوَّل بلحنه ...".

وتحت عنوان "تسبحة برمون الميلاد والغطاس والقيامة" يقول:

"وأمَّا في برمون الميلاد الذي ليس له هوس مخصوص. وفي عيد الميلاد وعيد الغطاس اللَّذين لكلّ منهما هوس مخصوص كما مرَّ، وقبل هوسيهما يُقال Ⲧⲉⲛ ⲑⲏⲛⲟⲩ ⲉ̀ⲡ̀ϣⲱⲓ (أي: قوموا يا بني النُّور ...)".

١- عندما يرد ذكر القُمُّص عبد المسيح فقط فيما بعد، فنعني به القُمُّص عبد المسيح المسعودي البراموسي.

٢- الخولاجي المقدس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ١٠

وهي نفس التَّعليمات الطَّقسيَّة التي نقلتها "أبصلموديَّة القس مينا البراموسي"، فيقول: "... وفي عيدي الميلاد والغطاس اللَّذين لكلٍّ منهما هوس مخصوص، وقبل تلاوة هوسيهما يُقال **Τενθηνου ἐπϣωι** ".

إذاً تبدأ تسبحة نصف اللَّيل في عيد الميلاد[٣] كالآتي:

- الليلويا ... ذُكصابتري **Ἀλ.. Δοξα..**
- اجعلنا مستحقِّين ... أبانا ... **Ἀριτεν .. Χε πενιωτ..**
- فلنشكر **Ⲙⲁⲣⲉⲛϣⲉⲡϩⲙⲟⲧ..**
- قدوسٌ ... الذي وُلد ... **Ἁγιος.. ὀεκπαρθενου**
- قوموا يا بني النُّور ... **Τενθηνου ἐπϣωι**
- ارحمني يا الله ... **Ναινηι Φϯ**
- لحن أللي (اختصار كلمة الليلويا) نصف اللَّيل.
- هوس الميلاد، ويُسمَّى الهوس الكبير.

وتذكر مخطوطات ترتيب البيعة[٤] أنَّ لحن "تين ثينو" يُقال بالنَّاقوس والشُّموع موقدة بيد الكهنة والشَّمامسة. وبعد انتهاء اللَّحن تُطفأ الشُّموع وتُكمَّل باقي الأرباع دمجاً كالعادة[٥].

الهوس الكبير

وهو تسعة عشر رُبعاً. وكلُّ أرباعه هي مختارات من سفر المزامير في ترجمته القبطيَّة، وبالتَّحديد من ثلاثة عشر مزموراً منه. ويحتل المزمور (٧١)

٣- وكذلك في أيِّ عيد سيِّدي كبير، وذلك طبقاً للعناصر اللِّيتورجيَّة الآتي بيانها.

٤- مخطوط البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م، مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م، مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م.

٥- الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ٣٩، ٤١، ٤٢

وحده خمسة أرباع منها. أمّا الخمسة أرباع الأخيرة من هذا الهوس فتتكرّر في كلّ الهوسات السّتّة الكبيرة التي تسبق تسبحة نصف اللّيل في مناسبات كيهك، وعيد الميلاد، وعيد الغطاس، والصّوم الكبير، وأحد الشّعانين، وعيد القيامة.

ويورد "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدّار البطريركيّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" نصّ هذا الهوس الكبير في عيد الميلاد قبطياً وعربياً. إلاّ أنّ ما يُلفت النّظر هو أنّ المخطوط المذكور يورد بدء هذا الهوس قبطياً هكذا: **Ⲡⲟ̅ⲥ̅ Ⲡⲟ̅ⲥ̅ Ⲡⲟ̅ⲥ̅** أي: "(أيها) الرَّب الرَّب الرَّب".

وفيما يلي نصُّه:

- أيها الرَّب ربّنا، مثلُ عجب صار اسمك على الأرض كلّها. لأنه قد ارتفع عظم بهائك فوق السّموات. من أفواه الأطفال والرُّضعان هيأت سُبحاً. الليلويا[٦].

- الرَّب قال لي أنت ابني، أنا اليَوم ولدتُك. سلني فأعطيك الأمم ميراثاً لك، وسُلطانك إلى أقطار الأرض، لترعاهم بقضيب من حديد. الليلويا[٧].

- قدّموا للرَّب يا أبناء الله، قدّموا للرَّب أبناء الكباش، قدّموا للرَّب مجداً وكرامة. قدّموا للرَّب مجداً لاسمه. اسجدوا للرَّب في دار[٨] قُدسه.

٦- مزمور ٨:١، ٢

٧- مزمور٢:٥، ٦
ولم يرد في "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدّار البطريركيّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" عبارة: "لترعاهم بقضيب من حديد".

٨- "دار قُدسة" ترجمة للنّص القبطي ⲧⲉϥⲁⲩⲗⲏ ⲉ̀ⲑⲟⲩⲁⲃ ، وليس "ديار قُدسة" كما وردت في كتاب "كتاب الطُّروحات والإبصاليّات للميلاد والغطاس".

والحبيب مثل ابن ذي القرن الواحد. الليلويا(٩).

– المرُّ والميعة والسَّليخة من ثيابك(١٠). وله تسجد بنات صور بالهدايا، ويتلقَّى وجهه أغنياء شعب الأرض. الليلويا(١١).

– من مشارق الشَّمس إلى مغاربها(١٢)، من صهيون حُسن بهائه(١٣). الله يأتي جهاراً. الليلويا(١٤).

– (١٥)لك ينبغي التَّسبيح يا الله في صهيون، ولك توفى النُّذور(١٦) في أورشليم. الليلويا(١٧).

– ينزل مثل المطر على الجِزَّة، ومثل قطرات تقطر على الأرض.

٩- مزمور ٨:١، ٢، ٦ وليس مزمور ١:٢٨- ٦ كما في الكتاب المذكور.

١٠- يضيف "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م":

ⲉ̀ⲃⲟⲗϧⲉⲛ ⲛⲓⲉ̀ⲗⲉⲫⲉⲛ ⲧⲓⲛⲟⲛⲉⲧϩⲟⲣϣ ⲉ̀ⲧⲁⲩⲑⲣⲉⲕ ⲟⲩⲛⲟϥ ⲙ̀ⲙⲟⲕ ⲛ̀ϧⲏⲧⲟⲩ

أي: "من شريف العاج المثمن اللاتي أبهجتك"

١١- مزمور ١١:٤٤، ١٤ وليس مزمور ١١:٤٤-١٤ كما ورد في الكتاب المذكور.

١٢- يضيف "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" بالقبطيَّة والعربيَّة ما يلي: "يباركون اسم الرَّب، لأنَّ الرَّب عال على جميع الأمم، وعلى السَّموات تسبحته. الليلويا".

١٣- "حُسن بهائه" ⲑⲙⲉⲧⲥⲁⲓⲉ̀ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲉϥⲥⲁⲓⲉ̀ وليس "حُسن بهاء جماله" كما في الكتاب المذكور.

١٤- مزمور ١:٤٩، ٢

١٥- هذا الرُّبع يأتي في "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" هكذا: "من صهيون حُسن بهائه، الله يأتي جهاراً. لك ينبغي التَّسبيح ...".

١٦- عبارة "لك توفى النُّذور" تأتي دائماً هكذا في كُتُب الطَّقس الكنسيَّة مثل القطمارس السَّنوي، ولكنَّها في ترجمتها القبطيَّة الدَّقيقة هي: "لك يوفى النَّذر" ⲉⲩⲉ̀ϯ ⲛⲁⲕ ⲛ̀ⲟⲩⲉⲩⲭⲏ.

١٧- مزمور ١:٦٤

الليلويا(١٨).

– ملوك طرسوس والجزائر يقدِّمون له الهدايا، ملوك العرب وسبا يقرِّبون له العطايا. الليلويا(١٩).

– ويسجد له جميع ملوك الأرض. وكلُّ الأمم تتعبَّد له. الليلويا(٢٠).

– يكون اسمهم كريماً لديه(٢١). يعيش ويُعطى من ذهب العرب. الليلويا(٢٢).

– فليكن اسمه مباركاً إلى الأبد، وقبل الشَّمس يدوم اسمه. وتتبارك به جميع قبائل الأرض. وكلُّ الأمم تمجِّده. الليلويا(٢٣).

– ...(٢٤)

– معك الرِّئاسة في يوم قوَّتك، في بهاء القدِّيسين من البطن قبل

١٨– مزمور ٧١:٥

١٩– مزمور ٧١:٨

٢٠– مزمور ٧١:٩

٢١– الكتاب المطبوع يقول: **ϥⲧⲁⲓⲏⲟⲩⲧ ⲛ̀ϫⲉ ⲡⲟⲩⲣⲁⲛ ⲙ̀ⲡⲉϥⲙ̀ⲑⲟ** أي: "يكون اسمهم كريماً لديه". أمَّا "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" فيقول: **ϥⲧⲁⲓⲏⲟⲩⲧ ⲛ̀ϫⲉ ⲡⲉϥⲣⲁⲛ ⲙ̀ⲡⲟⲩⲙ̀ⲑⲟ** أي: "يكون اسمه كريماً لديهم"، وبحسب التَّرجمة الحرفية للمخطوط: "كريم هو اسمه أمامهم". ونص مخطوط ترتيب البيعة هو الأصح.

٢٢– مزمور ٧١:١٢، ١٣

٢٣– مزمور ٧١:١٦، ١٧

٢٤– يورد "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" رُبعاً بالقبطيَّة وترجمته العربيَّة، لم يرد في الكتاب المطبوع هو: "طأطأ السَّموات ونزل، والضَّباب تحت رجليه. وحُمل على الشَّاروبيم وطار، طار على أجنحة الرِّياح. جعل الظُّلمة تحجبه، وتحوط بمظلَّته. الليلويا".

كوكب الصُّبح ولدتُك. الليلويا[٢٥].

– الرَّحمة والحق التقيا، العدل والسَّلام تلاثما، الحق من الأرض أشرق والعدل من السَّماء اطَّلع. الليلويا[٢٦].

– ها قد سمعناها في إفراثا ووجدناها في موضع الغابة، فلنـــدخل إلى مساكنه ونسجد في الموضع الذي فيه قامت قدماه. الليلويا[٢٧].

– فليرفعوه في كنيسة شعبه، وليباركوه في مجلس الشُّيوخ، لأنه جعل أبوةً مثل الخراف، يبصر المستقيمون ويفرحون. الليلويا[٢٨].

– حلف الرَّب ولا يندم أنك أنت هو الكاهن إلى الأبد على طقـــس ملشيصاداق. الليلويا[٢٩].

– ليتراءف الله علينا ويباركنا، وليُظهر وجهه علينا ويرحمنا. الليلويا[٣٠].

– يارب خلِّص شعبك، بارك ميراثك، ارعهم وارفعهم إلى الأبد. الليلويا[٣١].

٢٥– مزمور ٣:١٠٩، ٤ وقد سقطت كلمة "الليلويا" في نهاية هـــذا الرُّبـــع في الكتاب المذكور.
٢٦– مزمور ٩:٨٤، ١٠
٢٧– مزمور ٤:١٣١، ٥
ولم يورد "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" هذا الرُّبع.
٢٨– مزمور ٢٣:١٠٦، ٣١
٢٩– مزمور ٥١:١٠٩
٣٠– مزمور ١:٦٦
٣١– مزمور ١٠:٢٧
ولم يورد مخطوط "ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس)" هذا الرُّبع.

- من كان حكيماً فليحفظ هذه، وليفهم مراحم الرَّب. الليلويا(٣٢).

باقي عناصر تسبحة نصف اللّيل والسَّحَر

وفيما يلي نصٌّ ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م"(٣٣)، حيث يقول بعد انتهائه من سرد نصِّ الهوس الكبير لعيد الميلاد:

"... ثمّ تقال كيرياليصون. بنيوت. إلى آخرها تقال الهوسات والتذاكيات والسبعة والأربعة بطروحاتها لحدود كيهك(٣٤). ولبش الهوس الأوَّل ϧⲉⲛ ⲟⲩϣⲱⲧ بلحن Ϭ̀ⲓⲟⲩⲱⲓⲛⲓ وكذلك لبش الهوس الثّاني مثله. وأما لبش التذاكيات الواطس الجميع فبلحن الفرح. ويقرأون إبصاليات العيد الواطس والآدام. وفي آخر لبش تذاكية نهاره (أي نهار العيد) إن كان واطس يقال ربعين من الطَّرح الواطس الذي للعيد(٣٥). وإن كان آدام يقال من الآدام(٣٦)، ويفسر عربياً. ثمَّ يقال لبش التذاكية وبعده

٣٢- مزمور ١٠٦:٣٢

٣٣- ويتفق معه تماماً "مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

٣٤- وهو ما يقوله أيضاً "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م": "وبعد ذلك تكمل صلاة نصف اللّيل السبعة والأربعة بطروحاتها على جاري عادة كيهك".

انظر: الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ٣٩

٣٥- يورد "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م" هذا الطَّرح في نصّه القبطي، وبدايته هي: "متى الإنجيلي يعرِّفنا بإعلان ميلاد المخلّص هكذا قائلاً: لما وُلد المسيح في بيت لحم يهوذا ...". ولم يرد نص هذا الطَّرح في كتاب "كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس".

انظر: الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ٤١

٣٦- هو الطَّرح الثاني في كتاب "كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس"، والذي بدايته: "ها هي جميع النُّبوَّات قد كمُلَت. السَّماء والأرض

يطرح الفعلة ويفسر. وإن كانت التذاكية واطس يقـــال .. Ⲱ ⲡⲉⲛϭⲟⲓⲥ
وإن كان آدام يقال .. Ⲛⲉⲕⲛⲁⲓ ⲱ ⲡⲁⲛⲟⲩϯ ".

وبعد انتهاء التَّسبحة لا تُصلَّى مزامير باكر، بل تُفتح أبـــواب الهيكـــل، وتوقد الشُّموع، ويكشف الكاهن رأسه وتبدأ صلوات رفع البُخور(٣٧).

بحثٌ في إبصاليَّات وطروحات تسبحة نصف اللَّيل(٣٨)

لقد ذكرَت "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنـــائس، لســـنة ١٩٤٨" في المقدِّمة الطَّقسيَّة التي أوردها في أوَّل الأبصلموديَّة(٣٩)، التَّعليمات التَّالية:

"... ثم يُقال الهوس الكبير المختص بالعيد قبطياً وعربياً. وبعده تُقال إبصاليَّات العيد السَّبع على الهوسات الأربعة السَّنوية والأحـــد والمجمـــع وثيؤطوكيَّة اليَوم، وطروحاتها وفقاً للَّيوم الذي يقع فيه العيد (كما سيتبيَّن بعد من ترتيب قراءة إبصاليَّات العيد) ...".

ووضعت نفس هذه الأبصلموديَّة في الصَّفحة التَّالية لهذه التَّنبيهـــات، جدولاً تحت عنوان: "ترتيب قراءة إبصاليَّات عيدي الميلاد والغطاس وفقاً للَّيوم الذي يقع فيه العيد"، حيث وزَّعت السَّبع إبصـــاليَّات الـــواردة في كتاب "كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس" على ســـبع أقسام من التَّسبحة هي: إبصاليَّة على كلِّ هوس من الأربعـــة هوســـات،

تبتهجان اليَوم لأنه قد ولد لنا الله الكلمة مخلِّصنا يسوع ...".

٣٧- انظر: "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م".

٣٨- يمكن للقارئ غير المتخصِّص الانتقال إلى عنوان: خلاصة التَّطوُّر الذي لحـــق بإبصاليَّات وطروحات تسبحة نصف اللَّيل لعيد الميلاد.

٣٩- نقلت "أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب" في طبعتها الثَّانية سنة ١٩٨٦م، نصَّ هذه التَّعليمات الطَّقسيَّة، في حين أنَّ الطَّبعة الأولى خالية منها، ودون إشارة إلى ذلك.

إبصاليّة على لحن[٤٠] Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲉ Ⲙⲁⲣⲓⲁ أي: لحن "السّلام لك يا مريم ..."، إبصاليّة على المجمع والذّكصولوجيّات، إبصاليّة على ثيؤطوكيّة اليَوم الذي يقع فيه عيد الميلاد أو الغطاس.

أمّا إذا وقع العيد يوم أحد، فقد نقل الجدول المذكور الإبصاليّة الـتي تُقال على لحن Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲉ Ⲙⲁⲣⲓⲁ ، لتُقال على مديح[٤١] يُقال بـاللّحن للثّلاثة فتية القدّيسين Ⲧⲉⲛⲟⲩⲉϩ ⲛ̀ⲥⲱⲕ أي: "نتبعك بكل قلوبنا"!.

فما هي قصّة هذا الجدول، ومن أين أتى؟ هذا ما أودُّ أن أوضّحه في السُّطور القادمة، لأنه طقس يُطبع لأوّل مرّة في منتصف القرن العشرين في كتاب طقسي.

ولكي نتتبّع تاريخ هذا الطّقس نحصر بحثنا فيما ورد عنه في الكُتُب التّالية:

١- كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة لابن كبر (+ **١٣٢٤م**).
٢- كتاب الخولاجي المقدّس، طبعة سنة **١٩٠٢م**[٤٢]. وطبعته الثّانية التي صدرت سنة ١٩٨٤م[٤٣].
٣- "أبصلموديّة القس مينا البراموسي" لسنة **١٩٠٨م**.
٤- "كتاب الطُّروحات والإبصاليّات للميلاد والغطاس" لسنة **١٩٢٠م**.
٥- "أبصلموديّة جمعيّة نهضة الكنائس، لسنة **١٩٤٨م**".

٤٠- وهو لحنٌ، كلماته مأخوذة من ثيؤطوكيّة يوم الأحد. وهو يُقال بعد الهـوس الأوّل في تسبحة أي يوم من أيام الأسبوع عدا يوم الأحد. ويُقال ضمن ثيؤطوكيّـة الأحد في تسبحة الأحد فقط.

٤١- هذا المديح هو جزءٌ ثابت من التّسبحة السّنويّة، يُقال قبل المجمع مباشرة.

٤٢- راجعه القمُّص عبد المسيح المسعودي البراموسي.

٤٣- أصدرها لجنة التّحرير والنّشر بمطرانيّة بني سويف والبهنسا.

٦- كتاب مشتهي النُّفوس في ترتيب الطُّقوس بحسب الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة، طُبع سنة **١٩٨٦م**[٤٤].

٧- كتاب دليل الطُّقوس الكنسيَّة على مدار السَّنة التُّوتيَّة، طُبع سنة **١٩٩٣م**[٤٥].

وتجنُّباً لتكرار أسماء الكُتُب السَّابق ذكرها، سأرمز لكلِّ كتاب بالسَّنة التي صدر فيها. وذلك في هذا الفَصل فقط. فحين أقول: في سنة ١٩٠٢م أعني بذلك الكتاب الثَّاني. وإن قلتُ: في سنة ١٩٢٠م فأقصد بذلك الكتاب الرَّابع، وهكذا. فالكُتُب التي لدينا تغطِّي السَّنوات: ١٣٢٤م، ١٩٠٢م، ١٩٠٨م، ١٩٢٠م، ١٩٤٨م، ١٩٨٦م، ١٩٩٣م.

وحديثنا الآن محصورٌ فقط في إبصاليَّات وثيؤطوكيَّات وطروحات تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر في عيد الميلاد المجيد.

ففي سنة ١٣٢٤م

أوَّل إشارة تصلنا عن أنَّ **السَّبع ثيؤطوكيَّات** كانت تُصلَّى في تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر لعيد الميلاد، نجدها عند ابن كبر حيث يقول: "... ويُقال سبع التاوضوكيئات وفصوله (أي وفصولها)"[٤٦].

فهنا إشارة عن ترتيل السَّبع ثيؤطوكيَّات، بدون ذكر إبصاليَّات. ولكن كلمة "وفصوله" الذي يذكرها ابن كبر، برغم أنها غير واضحة المعني، إلاَّ أنَّ "مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م" يوضِّح ذلك الأمر بأنها

٤٤- بواسطة رابطة مرتِّلي الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة، القاهرة.

٤٥- إعداد الآباء الرُّهبان بدير السِّريان.

٤٦- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، البَاب ١٩

تعني "الطُّروحات"، وذلك حين يشرح ترتيب السَّبع ثيؤطوكيَّات مع الأربعة هوسات في تسبحة نصف اللّيل الكيهكيَّة. حيث يذكر أنّ الثّلاثة هوسات الأولى يتبع كلّ هوس منها ثيؤطوكيَّتان، بطرحهما، أمَّا الهوس الرَّابع فيتبعه الثّيؤطوكيَّة السَّابعة. فيقول:

"... وبعد ذلك إن كان ليلة الأحد، فتؤخَّر الثّيؤطوكيَّة[٤٧] التي ليوم الأحد. وإن كان غير ليلة الأحد، فيبتدئ أولاً بعد الهوس الأوَّل يقول ثيؤطوكيَّة يوم الأحد. وأمَّا ثيؤطوكيَّة يوم الأحد ليلة الأحد، فتؤخَّر إلى الآخر.

ويقال بعد الهوس الأوَّل ثيؤطوكيَّة يوم الاثنين وبعدها يُطرح الطَّرح ويفسَّر. وبعدها تقال ثيؤطوكيَّة يوم الثُّلاثاء، ويُطرح الطَّرح ويفسَّر.

وتقال كيرياليصون Ⲉⲗⲉⲏ̀ⲥⲟⲛ ⲏ̀ⲙⲁⲥ وبعدها الهوس الثَّاني وهو Ⲟⲩⲱⲛϩ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ويُطرح الطَّرح ويفسَّر. وبعدها ثيؤطوكيَّة يوم الأربعاء ويُطرح الطَّرح ويُفسَّر. وبعدها ثيؤطوكيَّة يوم الخميس والطَّرح.

ويقال Ⲉⲗⲉⲏ̀ⲥⲟⲛ ⲏ̀ⲙⲁⲥ وبعد ذلك الهوس الثَّالث وهو Ⲕ̀ⲥⲙⲁⲣⲱⲟⲩⲧ ويُطرح الطَّرح ويفسَّر. وبعده ثيؤطوكيَّة الجُمعة والطَّرح. وبعده ثيؤطوكيَّة يوم السَّبت والطَّرح.

ويقال كيرياليصون Ⲉⲗⲉⲏ̀ⲥⲟⲛ ⲏ̀ⲙⲁⲥ وبعدها الهوس الرَّابع وهو: Ⲥ̀ⲙⲟⲩ ⲉ̀Ⲡⲟ̅ⲥ̅ Ⲉⲃⲟⲗ ويُطرح الطَّرح ويفسَّر. **وبعد ذلك تُقال الإبصاليَّة**، وبعدها ثيؤطوكيَّة يوم الأحد. ثمَّ تقال بعدها Ⲡⲉⲕⲛⲁⲓ ⲱ̀

٤٧- تأتي في نصِّ المخطوط "توضوكية"، أو "تذاكية".
انظر: الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ٦٢، ٦٣

ⲡⲁⲛⲟⲩϯ وبعدها الطَّرح وتفسيره ...".

فواضحٌ هنا أنها إبصاليَّة واحدة وسبع ثيؤطوكيَّات. أمَّا الإبصاليَّات الكثيرة التي تمَّ تأليفها في غضون القرن الرَّابع عشر، فلم تكن قد عُرفت أو بالحري شاعت بعد، وذلك حتى القرن السَّادس عشر كما نعرف من "مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م".

وفي موضع آخر من كتاب "مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة" يقول ابن كبر عن هذه الثِّيؤطوكيَّات تحت عنوان "ترتيب صلاة نصف الليل":

"... ثم بعد ذلك يُقال التاوضوكيات[٤٨] وهي معروفة عند القبط المصريِّين يتداولونها في كنائس مصر والقاهرة والوجه البحري. وأمَّا أهل الصَّعيدَين (أي الصَّعيد الأدنى والصَّعيد الأعلى) فلا يقولون بها ولا تُستعمل في بلادهم إلاَّ نادراً في البعض من كنائس الصَّعيد الأدنا (الأدنى) ... وهي تُستعمل عند الرُّهبان لقطع اللَّيل إذا طال ... أمَّا في الكنائس الجامعة للعلمانيِّين فالتَّوسُّط بهم أشبه (أفضل)، ليلا (لئلا) يعرضهم (يعترضهم) الملال (الملل)، ويلحقهم العجز والكلال (والكلل)، فلا ينتفعون بشيء من هذه الأحوال ... بحيث لا يحصُل إضجار مُمل ولا اختصار مُخل. فالإفراط أخو التَّفريط، وكلٌّ كثير مقاوم للطَّبيعة، وخير الأمور أوسطها.

٤٨- يورد كتاب "مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة" في الهامش العبارة التَّالية، وهي مكتوبة بطول الصَّفحة وليس بعرضها كما هو المتَّبع في العادة: "تاوضوكيات اشتقاقها من تاوضوكس أي والدة الإله". وحروف هذه الحاشية هي نفس حروف المتن، ممَّا يوضِّح أنها من نفس زمن المخطوط. ونقرأ في بداية هذا المخطوط وبعد عنوانه "كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لأبي البركات المعروف بابن كبر" النَّص التَّالي: "نظر في هذا الكتاب المبارك بطرس بن دياب الحلبي ترجام (مترجم) السلطان فرنساء ومعلم لسان النحوي في مدرسة السلطانية سنة ١٤٤٩ مسيحية رحمة الله عليه وعلى أهله وعلى قاري دا الخط امين".

وقد يكون المرتل محتملاً للسَّهر، فيضر بتطويله بالشَّيخ العاجز والضَّعيف ... فيتصرَّف في ذلك بحسب مصلحة الشَّعب مع حفظ النِّظام ...''[٤٩].

وفي سنة ١٩٠٢م

تحت عنوان: ''برامون الميلاد وعيد الميلاد والغطاس والقيامة'' نقرأ:
''... فإنهم يقولون لكلِّ يوم من هذه الثَّلاثة **سبع إبصاليَّات وعدَّة طروح** تختص به، إذ يجعلونها متفرِّقة على عشيَّة والأربعة الهوسات وتداكيَّة اليَوم الحاضر من الأسبوع. فالإبصاليَّة تُقال قبل الهوس أو غيره، والطَّرح بعده. وأخيراً الأمانة وما بعدها.

بل أيضاً قد ذُكر في كتاب قديم لترتيب كلِّ السَّنة ما مضمونه: إنه في عيد الميلاد (دون الغطاس والقيامة) تُقال **السَّبع التداكيَّات ذاتها**. وذلك بأن تؤخَّر تداكيَّة اليوم الحاضر إلى بعد الهوس الرَّابع. وأمَّا السِّت الأُخَر فتُقال كلُّ اثنين منها، بعد هوس من الهوسات الثَّلاثة، مبتدأ بتداكيَّة الأحد. لكن إذا كان العيد الأحد، يبتدئ بتداكيَّة الاثنين كما في ليالي آحاد كيهك[٥٠]. وعلى كلِّ حال، تُقال قبل كلِّ تداكيَّة إبصاليَّتها التي للميلاد[٥١] وبعد التداكيَّة طرح للميلاد. **إلاَّ أنَّ هذه العادة التي ذكرها ذلك الكتاب اعني قراءة السَّبع التداكيَّات كلّها في تسبحة عيد الميلاد**

٤٩- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٦

ولتفصيلات أوفر عما ذكره هذا المخطوط عن هذه الثيؤطوكيَّات، ارجع إلى كتاب: ''تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر'' للمؤلِّف.

٥٠- هذا هو ما أراد كتاب سنة ١٩٨٦م أن ينفذه فعلياً فأورد جدولاً بذلك في صفحة ٣٩، دون أن يشير إلى مصدر ذلك الجدول.

٥١- عبارة ''وعلى كل حال ... إبصاليتها التي للميلاد'' لا تعني أن الكتاب القديم لترتيب كل السَّنة المذكور في بداية الفقرة قد أشار إليها، ولكنها إضافة للشرح.

غير مستعملة في هذا الوقت، أي أواخر الجيل التَّاسع عشر للمسيح. مع أنَّ استعمالها سهل ومن أراد فليستعملها بعدُ ... فتسبحة برمون الميلاد وعيد الميلاد والغطاس والقيامة تطول قليلاً بالنِّسبة إلى تسابيح آحاد كيهك التي تطول كثيراً".

يتَّضح هنا أنَّ القُمُّص عبد المسيح ينقل لنا التَّطوُّر الذي طرأ على تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر لعيد الميلاد:

- فحتى القرن السَّادس عشر تقريبا كانت تُصلَّى السَّبع ثيؤطوكيَّات بطروحات تعقبها.

- ثمَّ ظهر بعد ذلك سبع إبصاليَّات على السَّبع ثيؤطوكيَّات، وسبع طروحات تعقب هذه الثِّيؤطوكيَّات. وهو الطَّقس الذي لم يكن مستخدماً في القرن التَّاسع عشر.

- في القرن التَّاسع عشر أصبحت تُقال سبع إبصاليَّات، ولكن ليس على الثِّيؤطوكيَّات، بل صارت أربع إبصاليَّات منها تقال على الأربعة هوسات، واثنتان في عشيَّة العيد، والأخيرة على ثيؤطوكيَّة يوم العيد.

وفي سنة ١٩٠٨م

تنقل سنة ١٩٠٨م من سنة ١٩٠٢م حرفياً، مع حذف فقرة وردت سنة ١٩٠٢م تبدأ من: "بل أيضاً قد ذُكر في كتاب قديم ... الخ".

وتحت عنوان: "تسبحة برامون الميلاد وعيدي الميلاد والغطاس" نقرأ:

"ويُقال لكلِّ يوم من هذه الثَّلاثة، **سبع إبصاليَّات وعدَّة طروحات** تختص به، إذ يجعلوها متفرِّقة على عشيَّة والأربعة هوسات والتَّذاكيَّة. فالإبصاليَّة تُقال قبل الهوس أو غيره، والطَّرح بعده، وأخيراً

الأمانة وما بعدها".

إذاً فقد استقرَّ في الكنيسة مع بداية القرن العشرين ألاّ تُقال السَّبع ثيؤطوكيَّات. ومن ثمَّ فقد تمَّ توزيع الإبصاليَّات السَّبع على تسبحة عشيَّة، والأربعة هوسات في تسبحة نصف اللّيل والسَّحَر، مع ثيؤطوكيَّة اليَوم.

وفي سنة ١٩٢٠م

يورد كتاب سنة ١٩٢٠م تَّعليمات طقسيَّة مغايرة للتي أوردها كتاب سنة ١٩٠٢م، فيورد ترتيباً جديداً لتسبحة نصف الليل في عيد الميلاد، لا ذكر فيها لإبصاليَّات تُقال على الهوسات، بل هناك سبع إبصاليَّات تُقال على ثيؤطوكيَّات أيام الأسبوع (من الاثنين إلى الأحد)[٥٢]، ويورد طروحات على الهوسات، موزعاً التَّسبحة كالآتي:

- هوس العيد.
- إبصالية آدام على ثيؤطوكيَّة يوم الاثنين.
- ثيؤطوكيَّة يوم الاثنين.
- الهوس الأوَّل.
- طرح آدام على الهوس الأوَّل.

- إبصاليَّة آدام على ثيؤطوكيَّة يوم الثلاثاء.
- ثيؤطوكيَّة يوم الثلاثاء.
- الهوس الثاني.
- طرح آدام على الهوس الثّاني.

٥٢- في الحقيقة لم يرد سوى ست إبصاليَّات فقط لعيد الميلاد، إذ ليست هناك إبصاليَّة تُقال على ثيؤطوكيَّة يوم الخميس، فاستعار الكتاب إبصاليَّة يوم الخميس من برامون الميلاد.

- إبصاليَّة واطس على ثيؤطوكيَّة الأربعاء.
- ثيؤطوكيَّة الأربعاء.
- الهوس الثالث.
- طرح واطس على الهوس الثّالث.

- إبصاليَّة واطس على ثيؤطوكيَّة الخميس.
- ثيؤطوكيَّة الخميس.
- الهوس الرابع.
- طرح آدام على الهوس الرَّابع.

- إبصاليَّة واطس على ثيؤطوكية الجمعة.
- ثيؤطوكية الجمعة.

- إبصاليَّة واطس على ثيؤطوكيَّة السَّبت.
- ثيؤطوكيَّة السَّبت.
- طرح واطس على ثيؤطوكيَّة السَّبت[٥٣].

- إبصاليَّة آدام على ثيؤطوكيَّة الأحد.
- ثيؤطوكيَّة الأحد.
- طرح آدام على ثيؤطوكيَّة الأحد.

وواضحٌ أنَّ الكتاب يورد الهوسات والثّيؤطوكيَّات بالتَّتابع: ثيؤطوكيَّة ثم هوس، وطرح على الهوس. أي أنَّ كلّ مجموعة، تتكوَّن من إبصاليَّة على الثّيؤطوكيَّة، ثمَّ الثّيؤطوكيَّة، ثم الهوس، وأخيراً الطَّرح. وهو النِّظام الـــذي اختل بعد الهوس الرَّابع، إذ تبقّت ثلاث ثيؤطوكيَّات، في حين قد كَمُـــل

٥٣- أورد الكتاب طرح واطس على ثيؤطوكيَّة السَّبت، قبل إيراده لإبصاليَّة واطس عليها. وهو نفس ما فعله مع ثيؤطوكيَّة الأحد.

عدد الأربعة هوسات. ومن ثمَّ فقد تمَّ توزيع الثَّمانية طروحات كما يلي:

- أربعة طروحات تُقال على الهوسات الأربعة.
- طرحان (واطس وآدام) على ثيؤطوكيَّتي السَّبت والأحد على التَّوالي(٥٤).
- طرحان (واطس وآدام) على ختام صلاة (تسبحة) نصف اللَّيل في عيد الميلاد المجيد(٥٥).

وفي سنة ١٩٤٨م

ظهر لأوَّل مرَّة ترتيب حديث، جبَّ كلَّ ما سبقه من تنبيهات طقسيَّة في كُتُب سابقة، تكرِّر مراراً عبارة "حسب تقليد وترتيب الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة".

فهناك سبع إبصاليَّات موزَّعة على الأربعة هوسات والمجمع وثيؤطوكيَّة اليَوم الذي يقع فيه العيد، وإبصاليَّة تتنقَّل بين لحن **Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲉ Ⲙⲁⲣⲓⲁ̀** أي:

٥٤- اختص كتاب سنة ١٩٢٠م ثيؤطوكيتي السَّبت والأحد بطرح في نهاية كلٍّ منهما، دوناً عن باقي ثيؤطوكيات أيام الأسبوع الأُخرى. وأظنُّ أنَّ طرح ثيؤطوكيَّة السَّبت، هو الطَّرح الواطس لتسبحة نصف الليل لعيد الميلاد. وطرح ثيؤطوكيَّة الأحد هو الطَّرح الآدام لتسبحة نصف اللَّيل لعيد الميلاد. ويُقال أحد هذين الطَّرحَين قبل لبش الثِّيؤطوكيَّة تبعاً لوقوع العيد في أحد الأيام الواطس أو الآدام. وذلك في واحدة من الممارسات الطَّقسيَّة التي سادت إحدى جهات مصر.

والكتاب يحتاج إلى مراجعة دقيقة في ترتيبه بواسطة المختصِّين.

٥٥- أُرجِّحُ أنَّ هذين الطَّرحَين هما الأقدم بين الطُّروحات الثَّمانية التي أوردها "كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس"، إذ يشير إليهما "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس)". وسبق أن ذكرتُ ما أورده المخطوط عن ذلك، في المتن. بالإضافة إلى إتباعهما نفس منهج طروحات العيد، في إيرادهما عبارة "المجد لله في الأعالي ... الخ"، كعبارة يُردِّدها الشَّعب بين أرباع هذين الطَّرحين.

"السَّلام لك يا مريم"، وبين مديح يُقال باللَّحن للثَّلاثة فتية القدِّيسين Ϫⲉⲛⲟⲩⲉϩ ⲛ̀ⲥⲱⲕ أي: "نتبعك بكلِّ قلوبنا ...". وطروحات تُركت بدون تنبيه واضح، أو جدول، يوضِّح كيف يمكن توزيع ثمانية طروحات على سبعة أقسام التَّسبحة التي وُزعت عليها إبصاليَّات الأيام!.

وفي سنة ١٩٨٦م

يورد الكتاب جدولاً (ص ٣٩) تحت عنوان: "توزيع قراءات الإبصاليَّات السَّبع، الخاصة بعيدي الميلاد والغطاس، على التَّذاكيَّات السَّبع حسب وقوع يوم العيد".

وفيه يتم توزيع الإبصاليَّات السَّبع على ثيؤطوكيَّات الأيام وليس على الهوسات أو المجمع ... الخ. ممَّا يُفيد أن تُقال السَّبع ثيؤطوكيَّات كاملة في تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر في عيد الميلاد.

ويوزِّع الجدول الثِّيؤطوكيَّات السَّبع - مع إبصاليَّاتها - على مدى التَّسبحة، اثنتان منها بعد كلِّ هوس من الثَّلاثة هوسات الأولى، والثِّيؤطوكيَّة السَّابعة بعد الهوس الرَّابع، طبقاً لوقوع يوم العيد. وهو ترتيب قديم أشار إليه ابن كبر (+ ١٣٢٤م) إشارة عابرة في القرن الرَّابع عشر، وأوضحه "مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م".

والأمر الذي يدعو للاستغراب، أنه في الصَّفحة السَّابقة مباشرة (ص ٣٨) لهذا الجدول، يرد جدول آخر يختص بتسبحة نصف اللَّيل في برامون الميلاد، يوزِّع الإبصاليَّات السَّبع على الأربعة هوسات، ولحن Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲉ Ⲙⲁⲣⲓⲁ̀ ، والمجمع، وثيؤطوكيَّة اليَوم.

أمَّا الطُّروحات، فلم تنل نصيباً واضحاً من هذا التَّوزيع. لأنه إن كانت

الطُّروحات تُقال على الهوسات، كما ذكر كتاب سنة ١٩٢٠م، فستختل الوحدة اللِّيتورجيَّة لهذا التَّرتيب والتي هي: هوس يعقبه ثيؤطوكيَّتان بإبصاليَّاهما. حيث سيكون الطَّرح في بداية الوحدة اللِّيتورجيَّة وليس في نهايتها كما هو متَّبع في كلّ الصَّلوات اللِّيتورجيَّة الأُخرى في الكنيسة القبطيَّة.

وفي سنة ١٩٩٣م

يورد هذا الكتاب (ص ٥٥) تنبيهات طقسيَّة تحت عنوان: "طقس تسبحة نصف اللَّيل (لعيد الميلاد المجيد)"، تقول:

"تُقال إبصاليَّات العيد السَّبع من كتاب إبصاليَّات الميلاد والغطاس (ص ٥٣)[٥٦] وفقاً لليَّوم الذي يقع فيه العيد كما هو موضَّح بالجدول الموجود في الأبصلموديَّة السَّنويَّة بعد المقدِّمة ..."[٥٧].

وهذا التَّنبيه يفيد بعدم الالتفات لعنوان الإبصاليَّة في كتاب سنة ١٩٢٠م، كإبصاليَّة تُقال على الثِّيؤطوكيَّة، وجعلها إبصاليَّة تُقال وفقاً للجدول الوارد بكتاب سنة ١٩٤٨م. وكلُّ هذه الكُتُب السَّابق ذكرها، تذكر أنها بحسب تقليد وترتيب الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة.

إنني أشفقُ على القارئ غير المتخصِّص، الذي لا يهمّه من الأمر سوى أن يدخل الكنيسة ويُصلّي ويفرح بالعيد، ويخرج مسروراً بقراءات سمعها، وعظة دخلت إلى قلبه، وشركة مباركة في القُدَّاس الإلهي، وتناوُل من

٥٦- وهو الكتاب المطبوع سنة ١٩٢٠م.

٥٧- أوَّل جدول ظهر كان في "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨".
وهذان الكتابان لا يتَّفقان على ترتيب الإبصاليَّات السَّبع، فبينما يوزِّعها الكتاب الأوَّل على السَّبع ثيؤطوكيَّات، يوزِّعها الكتاب الثَّاني على الهوسات والمجمع وغيرها، وهكذا خلط كتاب سنة ١٩٩٣م، بين الكتابين السَّابقين، فتضاربت التَّنبيهات الطَّقسيَّة.

جسد المسيح ودمه الأقدسَين. وهذا هو كلُّ ما يرجوه، بل هو غاية ما يتمنَّاه كلُّ من يبتغي فرحة روحيَّة بالعيد. ولكن معذرة، فقد سبق أن ألمحتُ في مقدِّمة هذا الفَصل أنه فصل متخصِّص في ترتيبات طقسيَّة ربما لا يستسيغها كلُّ قارئ. فلقد تعرَّض الطَّقس القبطي مؤخَّراً - في بعض أجزاء منه - لتأويلات متلاحقة، أكثر ممَّا تعرَّض له على مدى القرون السَّابقة، فكان لزاماً تسليط الضَّوء على التَّاريخ الطَّقسي لجانب من نصوص صلواتنا اللِّيتورجيَّة.

إذاً، من العرض السَّابق لستَّة كُتُب صدرت كلُّها في القرن العشرين، منذ بدايته وحتى نهايته، مع كتاب يعود إلى القرن الرَّابع عشر، ومخطوط يعود إلى القرن الخامس عشر، نتبيَّن أنَّ طقس تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر لعيد الميلاد - وبرامون الميلاد وعيد الغطاس أيضاً - قد تعرَّض لتنبيهات طقسيَّة كثيرة متشعِّبة، وأحياناً غير متوافقة معاً. وها نحن قد عبرنا إلى الألفية الثَّالثة للميلاد.

خلاصة التَّطوُّر الذي لحق بإبصاليَّات وطروحات العيد

في السُّطور القليلة القادمة سأوضِّح في بنود، مراحل هذا التَّطوُّر في تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر لعيد الميلاد كما ظهرت في كُتُب طقسيَّة مستخدمة في صلوات الكنيسة بالفعل، ولاسيَّما في غضون القرن العشرين. مع ألماحة في البند الأوَّل إلى ما ظهر في كتاب يعود إلى القرن الرَّابع عشر، و"مخطوط ترتيب البيعة" يعود إلى أوائل القرن السَّادس عشر.

١ـ (قبل ١٣٢٤م) تُقال الهوسات الأربعة، والسَّبع ثيؤطوكيَّات. وهو ما أشار إليه "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م"، مع ذكره لإبصاليَّتين واطس وآدام، وطرحين

واطس وآدام.

٢ـ (قبل القرن التَّاسع عشر) تُقال السَّبع ثيؤطوكيَّات، ويسبقها سبع إبصاليَّات، ويعقبها طروحات.

٣ـ (في غضون القرن التَّاسع عشر) بطُلَ ترتيل السَّبع ثيؤطوكيَّات، وتمَّ توزيع السَّبع إبصاليَّات على تسبحة عشيَّة العيد، وتسبحة نصف اللَّيل، حيث تُقال الإبصاليَّات على الهوسات الأربعة، وثيؤطوكيَّة يوم العيد.

٤ـ (١٩٠٨م) ترتيب جديد، عاد فيه مرَّة أُخرى، ترتيل السَّبع ثيؤطوكيَّات، ويسبقها سبع إبصاليَّات، وطروحات تُقال على الهوسات مع ثيؤطوكيتي السَّبت والأحد.

٥ـ (١٩٤٨م) ترتيب حديث، اكتفي بثيؤطوكيَّة واحدة، وظهر فيه أنَّ السَّبع إبصاليَّات تُوزَّع على الأربعة هوسات والمجمع وثيؤطوكيَّة يوم العيد، وإبصاليَّة سابعة حائرة بين لحن للعذراء، أو مديح للثَّلاثة فتية.

٦ـ (١٩٨٦م) عودة للسَّبع ثيؤطوكيَّات مع الإبصاليَّات التي تُقال عليها، ولكن في ترتيب جديد حيث يعقب الهوس ثيؤطوكيَّتان بإبصاليَّاهما.

٧ـ (١٩٩٣م) ثيؤطوكيَّة واحدة للعيد، وتوزيع للإبصاليَّات كما في البند رقم (٥).

إنَّ القس أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م) في أوائل القرن الرَّابع عشر الميلادي، قد أشفق على الشَّعب، من كثرة التَّطويل في الصَّلاة، و لم يحبِّذ أن تُقال السَّبع ثيؤطوكيَّات كلُّها في تسبحة نصف اللَّيل لعيد الميلاد. أمَّا نحن فقد أضفنا على السَّبع ثيؤطوكيَّات، سبع إبصاليَّات أُخرى، إلى جانب كثرة من الطُّروحات أيضاً. وهكذا أُتخمت تسبحة نصف اللَّيل

والسَّحَر لعيد الميلاد المجيد، فأصبحت صلاة ليتورجيَّة غير شعبيَّة، لا يشترك الشَّعب فيها، فاختصَّ بها مرتِّل الكنيسة ومن يتطوَّع لمساعدته في إنجاز هذا الكم الضَّخم، الذي أصبح يُثقل ضمير من يرغب في اختصاره.

مضمون الإبصاليَّات السَّبع لعيد الميلاد

لم يُذكر في هذه الإبصاليَّات اسم نيقوديموس، وهي ليست من تأليفه. فأسلوبها جيِّد، وهي تورد نبوَّات عن الميلاد من داود وإشعياء وميخا وإرميا[٥٨] وحزقيال ودانيال وأيوب. وورد فيها قول للبابا كيرلُّس الكبير (٤١٢-٤٤٤م) وذلك في إبصاليَّة على ثيؤطوكيَّة يوم الاثنين: "قال كيرلُّس: بعد أن ولدته كانت بتوليَّتها مختومة". وكذلك قول للقدِّيس ساويرس الأنطاكي (٤٦٥-٥٣٨م) في نفس هذه الإبصاليَّة السَّابق ذكرها، حيث تقول: "شهد ساويرس العظيم بطريرك أنطاكية هكذا: حينئذ وُلد الله من الطَّاهرة مريم، و لم يفترق لاهوته من ناسوته".

وتتحدَّث الإبصاليَّات كثيراً عن بيت لحم فتدعوها: بيت لحم يهوذا، والمدينة المقدَّسة، والبيت الرُّوحاني قرية الملك داود، وتخاطبها إبصاليَّة على ثيؤطوكيَّة الأربعاء قائلة: "السَّلام لبيت لحم سلاماً روحانياً".

وتصف الإبصاليَّات العذراء القدِّيسة مريم بأوصاف متعدِّدة، فتدعوها:
- سيِّدتي العذراء الطَّاهرة القدِّيسة. سيِّدتنا كلِّنا.
- العذراء مريم ابنة يواقيم. والدة الإله ابنة إبراهيم.
- باب المشارق المختوم بخاتم عجيب، الذي لم يدخله غير الله

٥٨- تخاطبه إبصاليَّة على ثيؤطوكيَّة الثُّلاثاء فتقول له: "يا إرميا قم تعالَ في وسطنا اليَوم، واترك آلام القلب، وافرح في هذا اليَوم".

الرَّحوم. المختومة بتوليتها.
- المركبة الشّاروبيميَّة التي حملت عتيق الأيام.
- العُلّيقة النَّفسانيَّة المملوءة ناراً، التي هي مريم ووحيدها.
- الأصل المبارك، الذي أزهر وأثمر.
- أُمُّ النُّور الحقيقي ...

أمَّا عن زمن هذه الإبصاليَّات، فليس من السَّهل تحديده، وربما تعود إلى القرن الرابع عشر للميلاد، أو قبله بقليل، لأنَّ كثيراً من إبصاليَّات شهر كيهك التي تعود إلى القرن الرَّابع عشر أو بعده بقليل، قد نهجت على نهجها.

وتُعدُّ إبصاليَّات عيد الميلاد أحد العناصر اللِّيتورجيَّة الرَّئيسيَّة في هذا العيد في الكنيسة القبطيَّة، لذلك نالت اهتماماً زائداً لكي تُقال كلُّها في يوم العيد نفسه. فصارت إبصاليَّات تُقال على كلِّ الثِّيؤطوكيَّات السَّبع. ولمَّا كان هذا الأمر متعذِّرا لطوله غير العادي، صارت تُقال على الهوسات. ثم تطوَّر أمرها لتقال على الهوسات والمجمع وأقسام أُخرى من تسبحة نصف اللّيل والسَّحَر.

ومن الملاحظ في وقتنا الحاضر، أنَّ بعضاً من الكنائس تُرتِّل إبصاليَّة واحدة منها على الثِّيؤطوكيَّة الموافقة ليوم العيد، ثمَّ تُرتِّل باقي الإبصاليَّات على مدي الأسبوع التَّالي لعيد الميلاد، إلى جانب إبصاليَّة اليَوم السَّنويَّة، وهو الأسبوع الذي أصبح يُصلَّى كلُّه بطقس الفرح في أيامنا هذه، ويُختم بعيد الختان في اليوم الثّامن للميلاد.

مضمون الطُّروحات الثّمانية لعيد الميلاد

أمَّا عن الطُّروحات، فهي تتحدَّث عن ميلاد الرَّب من عدَّة أوجه مختلفة،

وفيما يلي الرُّبع الأوَّل من كلِّ طرح، مع بعض أرباع مختارة منه:

- فالطَّرح الأوَّل:[٥٩] "كانت مريم العذراء مع يوسف في موضع الملجأ مثل الغرباء، ولدت ابنها البكر، وأضجعته في مذود للبهائم ...". ويتحدَّث الطَّرح عن سجود الرُّعاة لمخلِّصنا في المذود.

- والطَّرح الثَّاني: "ها هي جميع النُّبوات قد كَمُلَت. السَّماء والأرض تبتهجان اليَوم، لأنه قد وُلد لنا الله الكلمة مخلِّصنا يسوع ...". ويشير هذا الطَّرح إلى سجود المجوس للمولود من العذراء[٦٠].

- والطَّرح الثَّالث: "ها هوذا يوم الفرح في السَّموات وعلى الأرض ...". ويشير إلى فرح الأنبياء والعذارى والشُّهداء والخطاة وجنود الملائكة بمن أتي وخلَّصنا. ويتحدَّث أيضاً عن هيرودس الذي قلق من ميلاد المسيح، فأرسل إليه المجوس ليسجدوا له ويعودوا يخبرونه ... الخ.

- والطَّرح الرَّابع: "هلمُّوا اليَوم يا كلَّ الذين ينتظرون مجيء الله إلينا، لنمضي بفرح إلى بيت لحم، لننظره موضوعاً في مذود، لابساً جسدنا الذي عتق من الخطيئة ليتجدَّد دفعة أُخرى باتحاده به كعظيم رحمته، لكي نسبِّحه صارخين قائلين: المجد لك يا محب البَّشر، لأنك أتيت وخلَّصتنا ... من ذا الذي لا يتعجَّب إذا نظر الملائكة مختلطين مع خُطاة النَّاس يسبِّحون

٥٩- وهو طرح على الهوسِ الأوَّل، ولقد ذكرتُ غير مرَّة في كتاب "صوم الميلاد والتَّسبحة الكيهكيَّة" أنَّ طرحاً على الهوس يعني شرحاً له، ولكن كلَّ الطُّروحات والإبصاليَّات تدور حول حدث الميلاد، ممَّا يمتنع معه أن تصبح هذه الإبصاليَّات أو هذه الطُّروحات مرتبطة بالهوسات.

٦٠- هذا هو الطَّرح الآدام الوحيد الذي أشار إليه "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م".
انظر: الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ٤٠

خالقهم بصوت واحد قائلين: 'المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السّلام وفي النّاس المسرّة' ... الذي أقام السّماء بأمره، صار في بطن صبيّة عذراء، ووُلد منها. فنؤمن به بغير شك، نسجد له. له المجد دائماً الآن وكلّ أوان وإلى دهر الدّاهرين. آمين".

- والطّرح الخامس: "فليفرح اليوم المسيحيون لأن المسيح وُلد من العذراء ...". ويتحدَّث عن بيت لحم التي صارت مثالاً للسّماء. وينقل أحداث الميلاد كما يذكرها القدّيس متى في إنجيله، ويكرّر في كل فقرة منه عبارة: "المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السّلام وفي النّاس المسرّة".

- والطّرح السّادس: "ظهر لنا اليَوم ملكُ المجد في حضن العذراء مريم، ورأينا مجده ...". وفيما يلي بعضٌ من عباراته:

"... سبّحوا الرّب تسبيحاً جديداً، لأنّ الرّب نظر إلى انكسار شعبه، فشاء بإرادته وأرسل كلمته إلى الطّاهرة مريم العذراء، وأشرق منها مولوداً بالجسد ... وصيّرنا متّحدين معه بتجسُّده الطّاهر، نسجد له ونمجّده ... الله الذي طأطأ سماء السّموات ونزل على الأرض من غير أن يفارق كرسي مجده، ظهر مولوداً بالجسد ... ماذا أقول وبماذا أنطق وبأي لسان أستطيع أن أقول مديحاً يسيراً لهذه المكرّمة من الصُّفوف السّمائيّة مريم العذراء، لأنها صارت كرسياً للجالس على الشّاروبيم، وحجاباً احتجب داخلها الذي تمجّده السّارافيم ...".

- والطّرح السّابع: "وُلد لنا المسيح اليَوم بالجسد من العذراء، فلنمض نحن صاعدين إلى السّماء بطُهر ...". ويكرّر في كلّ فقرة منه عبارة "المجد لله في الأعالي ...". وهذا يُثبت قِدَم هذا الطّرح، لأنه ينهج على نفس نهج طروحات العيد التي قيلت في رفع بخور عشيّة.

- والطَّرح الثَّامن: "ظهرت أعجوبة عظيمة للرُّعاة في تلك اللَّيلة، وتكلَّم ملاك الرَّب معهم قائلاً: وُلد لكم اليَوم مخلِّص في بيت لحم ..."، والطَّرح يتحدَّث عن الرُّعاة والمجوس. ويقول: "من يقدر أن ينطق بمجد هذا الفرح العظيم الذي صار اليَوم في المسكونة ...". ومن المهم هنا الإشارة إلى أنَّ هذا الطَّرح، يورد عبارة "المجد لله في الأعالي ..." بين فقراته، أمَّا ختام المرد فهو "فلنسبحه مع الملائكة قائلين: المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السَّلام، وفي النَّاس المسرَّة، **لأنه أتى وخلَّصنا، لأننا نحن شعبه**".

وهذه ملاحظة جديرة بالاهتمام، لأنَّ العبارة الأخيرة تتوافق تماماً مع ما سبق شرحه في تسبحة عشيَّة العيد، حيث أشار "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" إلى هذا المرد عينه، كمرد قديم يصاحب قراءة الطَّرح في عيد الميلاد.

ولا يخفى أنَّ هذه الطُّروحات كانت تُرتَّل كلُّها، جملة جملة بلحن مخصوص بها، فكان الطَّرح الواحد يستغرق وقتاً كافياً، تاركاً للسَّامع فرصة للتأمُّل في عباراته ومعانيه الموافقة للعيد.

وختاماً

كلُّ تمجيد وتسبيح وشُكر، يليق بمن وُلد لنا في بيت لحم. لأنَّ الذي وُلد من مريم، هو الذي صُلب من أجل خلاصنا، وقام ليقيمنا معه، ويفتح لنا بقيامته طريقا، كرَّسه لنا بدمه، حتى إلى حضن الآب في السَّماويات.

الفَصل الخامس

الطَّقس القبطي لصلوات رفع بخور باكر
في عيد الميلاد المجيد

تمهيد

فيما يلي نصُّ ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" عن ترتيب رفع بخور باكر عيد الميلاد المجيد، مع شرح بعض العناصر اللِّيتورجيَّة. **أمَّا نصُّ ما يذكره المخطوط المذكور، فسيوضع دائماً تحت عنوان جانبي هو: "يقول مخطوط ترتيب البيعة".**

طقس صلوات رفع بخور باكر

يقول مخطوط ترتيب البيعة:

"يقولون [1] **Ελεηcon ημαc..** . إلى آخر أبانا، (يكشف الكاهن رأسه)[2] يبتدئون برفع بخور صلاة باكر. وترتيبها هكذا. يقول الكاهن الشبهموت. إلى آخرها يصعد إلى المذبح، ويرفع البُخور كالعادة. ويقول أوشيَّة بخور باكر، وهم يرتِّلون كيرياليصون (باللَّحن. وبعدها بالنَّاقوس)[3]

١- أي: "ارحمنا ...".

٢- ما بين القوسَين هو ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م".

٣- هنا وضوحٌ كامل يشرحه "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، يفيد أنَّ "كيرياليسون" التي تسبق أرباع النَّاقوس، تُقال بلحنها المعروف في رفع باكر عيد الميلاد.

أمَّا عن أرباع النَّاقوس التي يوردها المخطوط المذكور فهي:

Αμωινι μαρενογωϣτ.. Χερε †εκκληcια.. Χερε Βηθλεεμ.. Ϩιτεν νιπρεcβια..

Ⲧⲉⲛⲟⲩⲱϣⲧ .. Ⲭⲉⲣⲉ Ⲃⲏⲑⲗⲉⲉⲙ .. Ϩⲓⲧⲉⲛ ⲛⲓⲡ̀ⲣⲉⲥⲃⲩⲁ̀ .. Ϩⲓⲧⲉⲛ ⲛⲓⲡ̀ⲣⲉⲥⲃⲓⲁ̀ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲓⲥⲧⲣⲁⲧⲓⲁ̀ ⲛ̀ⲁⲅⲅⲉⲗⲓⲕⲟⲛ ⲛⲉⲙ ⲛⲓⲧⲁⲅⲙⲁ ⲛ̀ⲉⲡⲟⲩⲣⲁⲛⲓⲟⲛ ..[4]

وما يتلوها. ثمَّ يقولون [٥] Ⲉⲑⲣⲉⲛϩⲱⲥ ⲉ̀ⲣⲟⲕ .. وبعدها كيرياليصون كيرياليصون كيرياإفلوجيصون آمين الليلويا

Ⲇⲟⲝⲁ .. Ⲁⲣⲓⲧⲉⲛ .. Ⲭⲉ ⲡⲉⲛⲓⲱⲧ .. Ⲁⲙⲱⲓⲛⲓ .. Ⲛⲁⲓ ⲛⲏⲓ Ⲫϯ ..[6]

إلى آخر المزمور (الخمسين)، يقولون [٧] Ⲁⲗ ⲇⲟⲝⲁⲥⲓ ⲟ̀ⲑⲥ ⲏ̀ⲙⲱⲛ .. يقول الكاهن أوشيَّة المرضى إلى آخرها".

أرباع النَّاقوس في صلوات رفع بخور باكر العيد

يتَّضح لنا ممَّا ذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" – و"مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م" – أنَّ أرباع النَّاقوس في رفع بخور باكر عيد الميلاد، لا تختلف عنها في عشيَّة نفس العيد. ويلحقها الخمسة عناصر اللِّيتورجيَّة القديمة جداً، وهي: "المجد للآب والابن ...، الصَّلاة الربانيَّة، تعالوا نسجد ...، ارحمني يا الله كعظيم رحمتك ...،

٤– أي: "نسجد ... السَّلام لبيت لحم ... بشفاعات ... بشفاعات القوَّات الملائكيَّة، والطَّغمات السَّمائيَّة ...".

٥– أي: "لكي نُسبِّحك ...".

٦– أي: "المجد ... اجعلنا ... أبانا ... ارحمني يا الله ...". وهذه هي مقدِّمة صلاة باكر. حيث كانت صلاة باكر بمزاميرها تُقال في هذا الوقت من رفع بخور باكر. أو ربما بعد الثَّلاثة أواشي الصِّغار، التي تعقب أوشيَّة البُخور. وقد شرحتُ هذه الجزئيَّة شرحاً كاملاً في الطَّبعة الثَّانية من كتاب "صلوات رفع البُخور في عشيَّة وباكر".

٧– أي: "المجد لإلهنا ...".

الليلويا المجد لإلهنا"، والتي تبقت من صلاة باكر بعد انتقالها إلى خــارج صلوات رفع البُخور.

وجدير بالذِّكر هنا أن أشير، إلى أنَّ البنية الأساسيَّة، أو الأصول القديمــة الأولى، لأرباع النَّاقوس، في واحدة من الممارسات الطَّقسيَّة الــتي شــاعت، نجدها في أوَّل عشرة أرباع من ذُكصولوجيَّة باكر آدام، وهي الأرباع الــتي تسبق الرُّبع الذي نصُّه: "أيها النُّور الحقيقي الذي ينير لكلِّ إنســان آت إلى العالم ... Πιοτωινι ǹτα φμηι ". إذ لم تكن هذه الأربــاع العشــرة ضمن هذه الذُّكصولوجيَّة القديمة – أو بالحري هذه الإبصاليَّة القديمة جداً – والتي وضعها البابا بنيامين الأوَّل (٦٢٣– ٦٦٢م) في القرن السَّابع الميلادي.

فذُكصولوجيَّة باكر آدام تبدأ بالرُّبع الذي بدايته: "أيها النُّور الحقيقي الذي يضئ لكل إنسان آت إلى العالم ...".

وأُوردُ فيما يلي الأدلَّة التي تؤكِّد على أنَّ العشرة أرباع الأولى مــن ذُكصولوجيَّة باكر آدام هي نواة أرباع النَّاقوس في شكلها الأوَّلى، وليست من أصل الذُّكصولوجيَّة:

(أ) السِّياق العام لأرباع الذُّكصولوجيَّة ككُل. فالعشــرة أربــاع الأولى منها تبدأ بالرُّبع: "نسجد للآب والابن والرُّوح القُدُس. السَّــلام للكنيسة بيت الملائكة"، وهي نفس البداية التي تبدأ بها أربــاع النَّــاقوس الحاليَّة سواء الواطس أو الآدام مع اختلافات طفيفة للغاية.

(ب) بعد الرُّبع الأوَّل من هذه العشرة أرباع، يبدأ كلُّ رُبع بكلمة Χερε أي: "السَّلام ... "، وهي نفس البداية التي تبدأ بها أربــاع النَّاقوس في النَّوع الثَّالث منها، كما وردت في "أبصلموديَّة أقلاديوس

بك لبيب"(٨).

(ج) التَّسلسل الذي تورده هذه الأرباع العشرة(٩) هو بعينه التَّسلسل الذي تورده أرباع النَّاقوس في نوعها الثَّالث، مع إضافة بعض الأرباع الأُخرى(١٠)، ممَّا يتَّضح معه جلياً، أنَّ هذه العشرة أرباع هي نواة النَّوع الثَّالث من أرباع النَّاقوس.

(د) لازال طقس الأعياد السَّيديَّة الكُبرى يحفظ لنا هذا الطَّقس القديم، إذ أنَّ هذه الأرباع العشرة لازالت تُقال بطريقة أرباع النَّاقوس، خلافاً لباقي أرباع الذُّكصولوجيَّة التي تُقال بطريقة أُخرى. بالإضافة إلى أنَّ هذه الأرباع العشرة تُقال منفصلة عن باقي الذُّكصولوجيَّة في هذه الأعياد السَّيديَّة.

(هـ) يذكر القس شمس الرِّئاسة أبو البركات ابن كبر، أنَّ ذُكصولوجيَّة باكر آدام تبدأ بالرُّبع: "أيها النُّور الحقيقي ..."، وهو الرُّبع التَّالي مباشرة لهذه الأرباع العشرة.

٨- وكلُّ الأبصلموديَّات الأُخرى المطبوعة، باستثناء "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨".

٩- هذا التَّسلسُل هو إعطاء السَّلام للعذراء مريم، وغُبريال الذي بشَّرها، وميخائيل رئيس الملائكة، والأربعة والعشرين قسيساً، والشَّاروبيم والسَّارافيم، وجميع الطَّغمات السَّمائيَّة، ويوحنا السَّابق العظيم، والاثنى عشر رسولاً، وأبينا مرقس الإنجيلي، والشَّهيد الأوَّل إسطفانوس، ومار جرجس (الشَّهيد) كوكب الصُّبح، وجميع صفوف الشُّهداء، والأنبا أنطونيوس، والثَّلاثة مقارات، وجميع صفوف لبَّاس الصَّليب، والقدِّيسين الذين أرضوا الرَّب.

١٠- وهي الأرباع التي تعطي السَّلام للقدِّيسين مكسيموس ودوماديوس، والأنبا موسي الأسود، وإيسيذوروس القس، والأنبا بيشوي، والأنبا باخوم، وتادرس تلميذه وأولاده الرُّهبان.

(و) ليس من الطَّبيعي أن تورد هذه الأرباع العشرة أرباعاً عن العذراء والملائكة والرُّسُل والقدِّيسين، ثم تعود الذُّكصولوجيَّة نفسها مرَّة أُخرى، لتفرد قطعتين كاملتين للعذراء، وقطعة خاصة بكلٍّ من الملائكة، والرُّسُل، والشُّهداء، والقدِّيسين. ممَّا يعني أنَّ هذه الأرباع العشرة مضافة على الذُّكصولوجيَّة الآدام فيما بعد(١١).

هذا يوضِّح للقارئ العزيز أنَّ هذه الأرباع العشرة لم تكن من أصل ذُكصولوجيَّة باكر آدام. ويتَّضح لدينا مع هذه الخلفيَّة، أنَّ أقدم أرباع ناقوس عرفتها الكنيسة، هي هذه العشرة أرباع، لذلك ظلَّت هي بنفسها الأرباع التي تُقال في صلوات رفع البُخور في إحدى الممارسات الطَّقسيَّة لأرباع النَّاقوس التي عُرفت في بعض الجهات، ثمَّ انحصرت اليَوم في صلوات رفع بخور باكر الأعياد السيديَّة الكُبرى، دون رفع بخور عشيَّة لهذه الأعياد(١٢)، ومن ثمَّ أُضيف عليها فيما بعد، ما استجدَّ من أرباع للنَّاقوس تُقال في مختلف الأعياد السَّيديَّة أو المناسبات الكنسيَّة، ولكن لم تكن أرباع النَّاقوس في شكلها الأوَّلي سواء في الأعياد أو الأيام السَّنويَّة سوى هذه الأرباع العشرة.

وهذا يوضِّح لنا تماماً ما يذكره كتاب "التَّرتيب الطَّقسي" في أوائل

١١- بعد أن أصبحت هذه العشرة أرباع الأولى جزءًا ثابتاً من ذُكصولوجيَّة باكر آدام في الأعياد الكنسيَّة باستثناء الثَّلاثة أعياد الكبرى، وكذلك في الأيام السَّنويَّة، فإننا نرتِّلها قبل صلاة الشُّكر مباشرة، ثم نعود ونكرِّر ما سبق أن قلناه في هذه العشرة أرباع مرَّة أُخرى بعد صلاة الشُّكر، وذلك ضمن أرباع النَّاقوس، وهو فاصل زمني بسيط للغاية.

١٢- وذلك برغم أنَّ التَّنبيهات الطقسيَّة في كُتُب الأبصلموديَّة السَّنويَّة لازالت تذكر حتى اليَوم، أنَّ هذه الأرباع تُقال في بداية أرباع النَّاقوس دون أن تفرِّق في ذلك بين رفع بخور عشيَّة أو رفع بخور باكر.

القرن الخامس عشر، حين يذكر أرباع النَّاقوس لأوَّل مرَّة، فالبابا غُبريال الخامس لا يشير إلاَّ إلى هذه الأرباع العشرة، كأرباع للنَّاقوس دون غيرها. فمثلاً حين يتكلَّم عن ترتيب صلاة الرَّشم قبل المعموديَّة، يقول:

"... ويقول الشبهموت (أي صلاة الشُّكر) ويرفع البُخور بأوشيَّة باكر. وهم يرتِّلون كيرياليصون. وبعدها **Ⲧⲉⲛⲟⲩⲱϣⲧ** بالنَّاقوس، وبعدها **Ⲭⲉⲣⲉ ϯⲉⲕⲕⲗⲏⲥⲓⲁ..** ".

فهذه البداية لأرباع النَّاقوس هي بنفسها الرُّبع الأوَّل من هذه العشرة أرباع. ولا يمكن أن يكون البابا غُبريال الخامس يتكلَّم هنا عن بداية أرباع النَّاقوس الواطس كما نعرفها اليَوم، لأنه لم يذكر في كتابه أنَّ أرباع النَّاقوس لها أرباع تختص بالأيام الواطس، وأُخرى بالأيام الآدام، ولكنَّها عنده هي أرباع ناقوس واحدة تقال في أيِّ مناسبة وفي كلِّ وقت[١٣].

إلاَّ أننا نلاحظ أنَّ البابا غُبريال الخامس يذكر في كتابه "التَّرتيب الطَّقسي" فقرة مطوَّلة، يُفهم منها أنَّ أرباع النَّاقوس لم تكن قد احتلَّت بعد الوقت الذي تستغرقه أوشيَّة البُخور، والثَّلاث أواشي الصِّغار حول المذبح، ولكنَّها كانت تُقال بعدها، إن كان هناك متَّسع من الوقت، فيقول في ذلك ما نصُّه:

"ان كان **تم مهل**، والاكليروس يرتل **Ⲧⲉⲛⲟⲩⲱϣⲧ** **كالعادة** ... وان كان رفع البخور **والشعب سكوت من غير ترتيل** عند نزوله من

١٣- يذكر البابا غُبريال الخامس أيضاً ضمن هذه الأرباع رُبعاً واحداً ليوحنا المعمدان، ثم ختام أرباع النَّاقوس برُبعين هما: "للعذرى **Ϩⲓⲧⲉⲛ** وبعد ذلك يقولون **Ⲉⲑⲣⲉⲛϩⲱⲥ ⲉⲣⲟⲕ** ". وهو ختام أرباع النَّاقوس في أصوله القديمة، والتي كانت سبباً في ظهور النَّوع الأوَّل من أرباع النَّاقوس فيما بعد، وهي الأرباع التي تبدأ أرباعها بكلمة **Ϩⲓⲧⲉⲛ** .

المذبح، لا يعطي البُخور كما شرحنا، بل يقول أوشية الاموات. **وان كـــانوا يرتلون ⲦⲈⲚⲞⲨⲰϢⲦ** (أي أرباع النَّاقوس)، فيفعل كما شرحنا ...''(١٤).

فتعبير ''إن كان الشَّعب سكوت من غير ترتيـــل ... أو كـــانوا يرتِّلون ... '' يوضِّح لنا أنَّ أرباع النَّاقوس كانت تُقال بعـــد الأواشـــي الثَّلاثة الصِّغار حول المذبح، إن كان هناك متَّسع من الوقت.

ولكن بعد أن استقرَّت أرباع النَّاقوس في طقس صلوات رفع البُخور، وصارت تُرتَّل من كلِّ الشَّعب بعد صلاة الشُّكر مباشرة، تحوَّلت أوشـــيَّة بخور باكر ومعها الثَّلاث أواشي الصِّغار إلى أواشي تُقال ســـراً، وهكـــذا احتلَّت أرباع النَّاقوس المكان الذي كانت تُقال فيه ذُكصـــولوجيَّة بـــاكر آدام، بعد أن انتقلت هذه الأخيرة إلى ما قبل صلوات رفع البُخور في الأيام السَّنويَّة وباقي الأعياد الأُخرى. ولكن في طقس الأعياد الثَّلاثة السَّـــيديَّة الكُبرى، وحين عادت ذُكصولوجيَّة باكر آدام لتأخذ مكانهـــا في داخـــل صلوات رفع البُخور بحسب ما جرت عليه عادة بعض الكنائس منذ القرن الرَّابع عشر وما قبله، تزحزحت قليلاً إلى الوراء لتُقال بعد أرباع النَّاقوس، وأصبحت أوشيَّة المرضى التي تعقب الثَّلاث أواشي الصِّغار هي الفاصل بين أرباع النَّاقوس أي العشرة أرباع الأولى من ذُكصولوجيَّة باكر آدام، والتي تُقال قبل أوشيَّة المرضى، وباقي أرباع هذه الذُّكصولوجيَّة الآدام التي تُقال مباشرة بعد أوشيَّة المرضى، وذلك في الأعياد السَّيديَّة الكُبرى الثَّلاثة. أمَّـــا في باقي أيام السَّنة، والأعياد الكنسيَّة الأُخرى، فقد ظلَّت أرباع النَّـــاقوس في مكانها في داخل صلوات رفع البُخور، لتملأ الوقت الـــذي تســـتغرقه أوشيَّة رفع البُخور، والثَّلاث أواشي الصِّغار، التي أصبحت تُقال سراً(١٥)،

١٤- البابا غبريال الخامس، مرجع سابق، ص ٥٠

١٥- لأن أرباع النَّاقوس أصبحت تغطي الوقت الذي تستغرقه هذه الأواشي، فهذا

أمَّا ذُكصولوجيَّة باكر آدام فقد انتقلت إلى ما قبل صلوات رفع بخور باكر، لتعقب مزامير باكر.

واليوم، فإنه بعد صلاة الشُّكر، تُقال أرباع النَّاقوس باللَّحن الكبير أو ما نسميه بالطَّريقة الفرايحي، وذلك بالعشرة أرباع الأولى من ذُكصولوجيَّة باكر آدام، ثم الأرباع المختصَّة بالعيد. وجدير بالذِّكر أنَّ أرباع النَّاقوس تبدأ دائماً بكلمة "كيرياليسون" أي "ياربُّ ارحم" وهو ما أشار إليه البابا غُبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م)[١٦]، والتي كانت قبلاً تُقال بلحنها الكامل قبل بدء ترتيل أرباع النَّاقوس.

واحتفظنا اليوم بعنصُرَين ليتورجيَّين فقط، يعقبان أرباع النَّاقوس، هما المزمور الخمسون «ارحمني يا الله كعظيم رحمتك ...»، ثمَّ يُقال: Δόξα σοι ὁ Θεός ἡμῶν أي: "المجد لإلهنا"، وهي تُكتب دائماً بالقبطيَّة بنفس نطقها اليوناني **Ⲇⲟⲝⲁⲥⲓ ⲟ̀ Ⲑⲉⲟⲥ ⲏ̀ⲙⲱⲛ** . ثم تُقال أوشيَّة المرضى.

يقول مخطوط ترتيب البيعة:

"... يقول الكاهن أوشيَّة المرضى إلى آخرها. يقولون **Ⲡⲓⲟⲩⲱⲓⲛⲓ ⲛ̀ⲧⲁⲫ̀ⲙⲏⲓ** وهم يرتِّلوها بلحنها المعروف إلى آخر **Ϩⲁⲛⲁ̀ⲛϣⲟ** ويقولون **..** **Ⲡⲓⲁⲡⲟⲥⲧⲟⲗⲟⲥ** وبعد ذلك يقول الكاهن أوشيَّة القرابين كالعادة فوق المذبح إلى آخرها. يقول **.. Ⲫⲁⲓ ⲉ̀ⲧⲉ** ويطوف المذبح

هو السَّبب الذي لأجله تورد أبصلموديَّة سنة ١٩٠٢م ضمن التَّنبيهات المختصة بأرباع الناقوس: "... فالاختيار للقارئ أي بعد ترتيل أرباع البدء يقول أي نوع من الثلاثة (أي من الثلاثة أنواع التي تشملها أرباع النَّاقوس) إلى أن ينزل الكاهن من الهيكل **فيترك الباقي ويختم** ...".

١٦- البابا غبريال الخامس، مرجع سابق، ص ٤٨

بالبُخور. وينزل فيعطي البُخور للمذبح والأيقونة، ثمَّ الكهنة كالعادة، ويمسح البيعة بالبُخور، وهم يرتِّلون تسبحة الملائكة ...".

موقع ذُكصولوجيَّة باكر آدام في رفع بخور باكر العيد

إن أشد ما يلفت نظرنا في طقس صلوات رفع بخور باكر في الأعياد السَّيديَّة الكُبرى، هو دخول ذُكصولوجيَّة باكر آدام في داخل صلوات رفع البُخور، وليس قبله كما في باقي أيام السَّنة اللِّيتورجيَّة.

ففي الأيام السَّنويَّة وبعد انتهاء تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر، تُصلَّى مزامير باكر النَّهار، ثم يعقبها ذُكصولوجيَّة باكر آدام[١٧]، وبعد ذلك يبدأ رفع البُخور. أمَّا في الأعياد السَّيديَّة الكُبرى، فبعد انتهاء تسبحة نصف اللَّيل، يبدأ أولاً رفع البُخور، وبعد ذلك تأتي ذُكصولوجيَّة باكر آدام من داخل طقس رفع البُخور. فلماذا حدث ذلك؟ ولماذا تكون ذُكصولوجيَّة باكر آدام من داخل طقس رفع البُخور في الأعياد السَّيديَّة الكُبرى، وقبله في بقيَّة الأعياد الكنسيَّة وباقي الأيام السَّنويَّة؟

إنَّ ترتيب صلوات أقدم الأعياد في الكنيسة – لاسيَّما القيامة والغطاس، ومن بعدهما الميلاد – هو التَّرتيب الذي يحفظ لنا حتى اليَوم أقدم الطُّقوس في الكنيسة.

أمَّا إجابة ما سبق من تساؤل، فنجدها عند ابن كبر (+ ١٣٢٤م) في حديثه عن صلاة باكر وعشيَّة في الأيام السَّنويَّة العاديَّة، وليس ما يختص

١٧- لم تكن هناك بعد قطع لصلاة باكر كما نعرفها اليَوم في الأجبية، وعن ذلك الأمر، انظر للمؤلِّف كتاب: "الأجبية أي صلوات السَّواعي".

منها بالأعياد[١٨]، فيقول (مع تصحيح الأخطاء اللُّغويَّة):

"... أمَّا باكراً وعشيَّة، فقد رُسم فيهما رفع البُخور وبالخاصة باكراً فإنه ينبغي رفعه في كنائس الله كلّ غداة، سواء أعقب الصَّلاة قُدَّاس أو لم يعقبها. **وقوم يرون يُرفع البُخور أوَّل الصَّلاة، وقوم يرونه بعد قراءة المزامير وما يتلوها.** ولا يبتدئ الصَّلاة إلاَّ بأوشيَّة الشُّكر، ثمَّ أوشيَّة البُخور. **ويقرأ بعد المزامير المختصَّة بباكر النَّهار هذه الإبصاليَّة في لحن آدام،** فانه الأوَّل من الألحان ويختص بباكر النَّهار وأوائل الأسبوع ... وهي النُّور الحقيقي **Πιοτωινι ⲛ̀ⲧⲁ ⲫ̀ⲙⲏⲓ** وما يتلوها من قطع الملائكة والرُّسُل والقدِّيسين من ذُكصولوجيَّة الآدام. وذلك في كلّ أيام الأسبوع ..."[١٩].

ويتَّضح لنا من العبارتين اللَّتين كُتبتا بالبُنط الثَّقيل في الفقرة السَّابقة، أنه في أوائل القرن الرَّابع عشر كانت بعض الكنائس تبدأ برفع بخور باكر مباشرة، ثم تأتي صلاة المزامير في مرحلة طقسيَّة لاحقة. وبعضها الآخر كان يُصلِّي مزامير باكر أولاً، وبانتهائها تبدأ صلوات رفع البُخور. على أنه في كلا هذين التَّرتيبَين، تأتي ذُكصولوجيَّة باكر آدام تالية مباشرة لمزامير باكر النَّهار ومرتبطة بها.

والآن نتحدَّث عن التَّرتيب الأوَّل الذي كانت تمارسه بعض الكنائس في أوائل القرن الرَّابع عشر، وبالتَّالي في غضون القرن الثَّالث عشر وما قبله.

فبعد انتهاء تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر، يفتح الكاهن ستر الهيكل

١٨- ما يؤكِّد ذلك، أنه بعد أن يتحدَّث عن باكر وعشيَّة وصلاة نصف اللَّيل على مدى تسع صفحات ونصف يقول: "وأمَّا الخاص بالأعياد السَّيديَّة الكبار وغيرها فسيُذكر في مواضعه ...".

١٩- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، البَاب ١٦، ص ١٩٨ ظهر.

ويُصلِّي صلاة الشُّكر أولاً، ثمَّ يضع البُخور في المجمرة، مباركاً الآب والابن والرُّوح القُدُس، ثمَّ يُصلِّي أوشيَّة البُخور، وهي المعروفة بأوشيَّة بخور باكر، وبدايتها: ''يا الله الذي قبل إليه قرابين هابيل الصدِّيق ...''. فمباركة اسم الثَّالوث القدُّوس مع وضع البُخور في المجمرة، وترديد صلاة البُخور هو جوهر ومحور صلاة رفع[٢٠] البُخور. وكانت هذه الأوشيَّة تُقال جهراً على مسمع من كلِّ الشَّعب، ولازال مرد الشمَّاس الذي يتخلَّلها، وهو: ''صلُّوا من أجل ذبيحتنا والذين قدَّموها'' شاهداً على ذلك.

ثمَّ يعقب أوشيَّة البُخور، الثَّلاثة أواشي الصِّغار، السلامة والآباء والجماعة. وقد استقر طقسها الحالي، أنها تُقال بينما يدور الكاهن حول المذبح. ولكن في الطَّقس القبطي القديم، كان الكاهن يصليها جهراً — مع إبروسات الشَّماس المصاحبة لها - وهو واقف قبالة المذبح متَّجه شرقاً[٢١]. وليس سراً كما نفعل اليَوم[٢٢]، ويوضح البابا غُبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) جلياً ارتباط أوشيَّة البُخور بالثَّلاثة أواشي الصِّغار[٢٣].

وبعد اكتمال هذه الأواشي الثَّلاث، كانت تبدأ صلاة مزامير باكر النَّهار، ويعقبها مباشرة الإبصاليَّة الآدام: ''أيها النُّور الحقيقي الذي ينير لكلِّ إنسان آت إلى العالم ... Πιουωινι ǹτα φμηι ''.

وهنا لا ذكر لأرباع النَّاقوس، وهي الأرباع التي أصبحت تُقال اليَوم

٢٠- كلمة ''رفع'' هنا المقصود بها هو رفع البُخور من حُق البُخور، ووضعه في المجمرة، مع مباركة اسم الثَّالوث القدُّوس.

٢١- لتفصيلات أوفر، انظر الطَّبعة الثَّانية من كتاب: ''صلوات رفع البُخور في عشيَّة وباكر''.

٢٢- انظر: البابا غُبريال الخامس، مرجع سابق، ص ٤٩

٢٣- البابا غبريال الخامس، مرجع سابق، ص ٤٩

في نفس وقت رفع الكاهن للبُخور ووضعه في الشَّورية بمباركة اسم الثَّالوث، وترديد أوشيَّة البُخور والثَّلاث أواشي الصِّغار. فانشغل الشَّعب بصلوات أُخرى، أي بترتيل أرباع النَّاقوس، في نفس هذا الوقت عينه[٢٤].

إذاً فبحسب طقس بعض الكنائس في مصر في بداية القرن الرَّابع عشر يكون ترتيب بدء صلوات رفع بخور باكر هو:

- صلاة الشُّكر.
- أوشيَّة بخور باكر.
- الثَّلاثة أواشي الصِّغار.
- مزامير صلاة باكر.
- إبصاليَّة باكر آدام، بدءًا من "أيها النُّور الحقيقي الذي ينير لكلِّ إنسان آت إلى العالم ... Πιουωινι ⲛ̀ⲧⲁ ⲫ̀ⲙⲏⲓ "

فهذا التَّرتيب الأوَّل هو الذي صار محفوظاً حتى اليَوم في طقس رفع بخور باكر الأعياد السَّيديَّة الكُبرى (الميلاد والغطاس والقيامة). وهو في الحقيقة لم يكن سوى طقس صلوات رفع بخور باكر الأيام السَّنويَّة والأعياد الكنسيَّة على حد سواء. ولمَّا كانت مزامير السَّواعي لا تُصلَّى في هذه الثَّلاثة أعياد الكُبرى، فكانت إبصاليَّة باكر آدام[٢٥]، تبدأ مباشرة بعد الأواشي الثَّلاث الصِّغار. وبدءًا من "أيها النُّور الحقيقي الذي ينير لكلِّ إنسان آت إلى العالم ... Πιουωινι ⲛ̀ⲧⲁ ⲫ̀ⲙⲏⲓ "

٢٤- وأوَّل ذكر يرد عن أرباع النَّاقوس في صلوات رفع البُخور، نجده عند البابا غُبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) في كتابه "التَّرتيب الطقسي".

٢٥- اسمها القديم والصَّحيح، هو: "إبصاليَّة باكر آدام". أمَّا المقصود بتعبير "ذُكصولوجيَّة باكر آدام"، فهو الذُّكصولوجيَّات الآدام التي تعقب هذه الإبصاليَّة.

أمَّا التَّرتيب الثَّاني، الذي كانت تتَّبعه بعض الكنائس الأُخرى، في بداية القرن الرَّابع عشر، فهو أنها نقلت مزامير صلاة باكر لتُقال بعد انتهاء تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر، وبالتَّالي أعقبتها بإبصاليَّة باكر آدام بدءًا من "أيها النُّور الحقيقي الذي ينير لكلِّ إنسان آت إلى العالم ... Πιουωινι ⲛ̀ⲧⲁ ⲫ̀ⲙⲏⲓ". وبانتهائها، تبدأ صلوات رفع بخور باكر. وعلى ذلك فإنَّ التَّرتيب الثَّاني الذي اتَّبعته بعض الكنائس في أوائل القرن الرَّابع عشر هو:

- صلاة مزامير باكر.
- ذُكصولوجيَّة باكر آدام.
- صلاة الشُّكر.
- أوشيَّة رفع بخور باكر.
- الثَّلاث أواشي الصِّغار.

وهذا هو التَّرتيب الذي صار متَّبعاً في طقس صلوات رفع بخور باكر الأيام السَّنويَّة والأعياد الكنسيَّة باستثناء الثَّلاثة أعياد الكبرى.

* * *

واليوم، بانتهاء أوشيَّة المرضى تقال أرباع إبصاليَّة باكر آدام بدءًا من الرُّبع "أيها النُّور الحقيقي ...(٢٦)" إلى آخرها.

ومنذ سنة ١٩٤٨م، تمَّ تدوين ما يُعرف باسم "**السَّبع طرائق**" في "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨"، وضمن التَّعليمات الطَّقسيَّة التي وردت في مقدِّمة الكتاب، حيث يقول: إنه بدءًا من الرُّبع

٢٦- هو في الحقيقية الرُّبع الأوَّل من هذه الإبصاليَّة بعد أن يلحقها عشرة أرباع في مقدِّمتها.

Ⲡⲓⲟⲩⲱⲓⲛⲓ "أيها النُّــور الحقيقــي ..." وحــتى الرُّبــع Ϧⲉⲛ ϩⲁⲛ Ⲯⲁⲗⲙⲟⲥ "بمزامير وتسابيح وترانيم روحيَّة" - وهي ٢٢ ربعاً - تُلَّحن السَّبع طرائق ... ثم يُكمل باقي الذُّكصولوجيَّات الآدام بطريقة الفـــرح، وتُلحَّن Ϯϩⲓⲣⲏⲛⲏ Ⲡⲟⲩⲣⲟ ⲛ̀ⲧⲉ الطَّريقة السَّابعة.

أما هذه السَّبع طرائق التي ورد ذكرها فهي:

الطَّريقة الأولى: طريقة تختص بأوَّل أربعة أرباع من هذه الـــ ٢٢ ربعاً.

الطَّريقة الثَّانية: تُقال على وزن قطع التَّوزيع (التَّناول) الـــتي تخـــتص بالأيام السنويَّة وليس في الأعياد وهي قطع Ⲡⲓⲱⲓⲕ .

الطَّريقة الثَّالثة: على وزن الأسبسمس الآدام مثل لحن افرحي يا مريم.

الطَّريقة الرَّابعة: على وزن لحن لبش الهوس الثَّاني Ⲙⲁⲣⲉⲛⲟⲩⲱⲛϩ .

الطَّريقة الخامسة: على وزن لحن لبش الهوس الأوَّل Ϧⲉⲛ ⲟⲩϣⲱⲧ.

الطَّريقة السَّادسة: على وزن أرباع تُقال في طقس الإكليل، ويختص بها الرُّبعان الأخيران من الـــ ٢٢ ربعاً السَّابق ذكرها.

الطَّريقة السَّابعة: لحن Ⲡⲟⲩⲣⲟ "يا ملك السَّـــلام ...[٢٧]"، وهـــو الخمسة أرباع الأخيرة من ختام الثيؤطوكيَّات الآدام[٢٨].

أمَّا "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقـــس) بالـــدَّار البطريركيَّـــة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" فيـــذكر: "يقولـــون Ⲡⲓⲟⲩⲱⲓⲛⲓ ⲛ̀ⲧⲁⲫ̀ⲙⲏⲓ

٢٧- إن كان لحن السَّلام Ⲡⲟⲩⲣⲟ يُقال حالياً في رفع بخور باكر مرَّتين - مرَّة في نهاية أرباع النَّاقوس، ومرَّة في نهاية السَّبع طرائق - وسيُقال بعد قليل مرَّة ثالثة عنـــد تقديم الحَمَل، فهل يمكن أن نُعزي هذا التَّرتيب إلى طقس قديم في الكنيسة؟

٢٨- ممَّا يعني أنَّ ختام الثِّيؤطوكيَّات الآدام لابد أن يُقال هنا عقب ذُكصولوجيَّات باكر آدام حتى لو كان العيد يقع في الأيام الآدام (من الأحد إلى الثُّلاثاء)، أي أنَّ ختام الثِّيؤطوكيَّات الآدام يُقال مرَّتين. ولم يرد ذلك في أيِّ كتاب طقسي من قبل.

وهم يرتِّلوها بلحنها المعروف إلى آخر ϨⲁⲛⲁⲛϣⲞ ويقولون Ⲙⲓⲁⲡⲟⲥⲧⲟⲗⲟⲥ .. ". وهو نفس ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م" فيقول: "يقولون Ⲡⲓⲟⲩⲱⲓⲛⲓ ⲛ̀ⲧⲁ̀ⲫⲙⲏⲓ بلحنها المعروف بها بالنَّاقوس إلى آخرها، فيقولون Ⲛⲉⲕⲛⲁⲓ ⲱ̀ ⲡⲁⲛⲟⲩϯ إلى آخرها".

وبعد انتهاء ذُكصولوجيَّات باكر آدام، تُقال أوشيَّة القرابين.

الذُّكصولوجيَّات الواطس وحتى نهاية رفع البُخور

يقول مخطوط ترتيب البيعة:

"... وهم يرتِّلون تسبحة الملائكة، ثم بعدها بلحن الفرح Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲉ Ⲡⲓⲟⲩⲁⲓ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϧⲉⲛ ϯⲧ̀ⲣⲓⲁⲥ .. وبعدها ⲱ̀ ϯⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲥ وبعدها Ⲫϯ ⲛⲁⲓ والأمانة إلى نهايتها. يرفع الصَّليب ويقول Ⲧⲉⲛϭⲓⲥⲓ ⲙ̀ⲙⲟ ⲛⲁⲛ يجاوبوه بالنَّاقوس كيرياليصون كيرياليصون ثلاث مرَّات. ثمَّ يقول الكاهن أوشيَّة الإنجيل إلى آخرها. يطرح المزمور ويرد سنوي(٢٩). وإذا طافوا بالإنجيل يقولون(٣٠):

يا الله إلهي إليك أبكر، لأن نفسي عطشت إليك. لكي تخبر عنك نفسي، في أرض	Ⲫϯ ⲡⲁⲛⲟⲩϯ ⲁⲓⲛⲁϣⲟⲣⲡ ϨⲁⲣⲟⲔ : ϫⲉ ⲁⲥⲓ̀ⲃⲓ ⲛ̀ϧⲏⲧⲕ : ⲛ̀ϫⲉ ⲧⲁⲯⲩⲭⲏ : ⲉⲑⲣⲉⲥⲫⲓⲣⲓ ⲛⲁⲕ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ⲛ̀ϫⲉ ⲧⲁⲥⲁⲣⲝ : ϧⲉⲛ ⲟⲩⲕⲁϩⲓ

٢٩- مرد المزمور في عشيَّة وباكر سنوي بحسب المخطوط. حيث تحل أرباع الطواف بالإنجيل محل مرد المزمور المعروف لنا اليَوم. وهو نفس ما يذكره "مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

٣٠- وهو ما يذكره أيضاً: "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

موحشة، مكان غير مطروق بلا ماء.

ⲛ̀ϣⲁϥⲉ ⲛⲉⲙ ⲟⲩⲙⲁⲛ̀ⲁⲑⲙⲟϣⲓ ϩⲓⲱⲧϥ ⲛⲉⲙ ⲟⲩⲙⲁⲛ̀ⲁⲑⲙⲱⲟⲩ.

هكذا أعترف لك في القُدس، لأرى قوَّتك ومجدك. لأن رحمتك عظيمة أكثر من الأحياء.

Ⲡⲁⲓⲣⲏϯ ⲁⲓⲟⲩⲟⲛϩⲧ ⲉ̀ⲣⲟⲕ ϧⲉⲛ ⲡⲉⲑⲟⲩⲁⲃ: ⲉ̀ⲛⲁⲩ ⲉ̀ⲧⲉⲕϫⲟⲙ ⲛⲉⲙ ⲡⲉⲕⲱ̀ⲟⲩ: ϫⲉ ⲡⲉⲕⲛⲁⲓⲥⲱⲧⲡ: ⲉ̀ϩⲟⲧⲉ ϩⲁⲛϫⲓⲛⲱⲛϧ.

شفتاي تسبحانك، هكذا أسبِّحك في حياتي، أرفع يدي إلى فوق باسمك.

Ⲛⲁ̀ⲥⲫⲟⲧⲟⲩ ⲉⲩⲉ̀ⲥⲙⲟⲩ ⲉ̀ⲣⲟⲕ: ⲡⲁⲓⲣⲏϯ ϯⲛⲁ̀ⲥⲙⲟⲩ ⲉ̀ⲣⲟⲕ: ϧⲉⲛ ⲡⲁⲱⲛϧ: ϯⲛⲁϥⲁⲓⲛ̀ⲛⲁϫⲓϫ ⲉ̀ⲡϣⲱⲓ ϧⲉⲛ ⲡⲉⲕⲣⲁⲛ.

مثل شحم ودسم، تشبع نفسي. شفاه التَّهليل تبارك اسمك. كنت أذكرك على فراشي، وأتلو لك في أوقات الأسحار. الليلويا.

Ⲙ̀ⲫⲣⲏϯ ⲛ̀ⲟⲩⲱⲧ ⲛⲉⲙ ⲟⲩⲕⲉⲛⲓ ⲉⲥⲉ̀ⲥⲓ ⲛ̀ϫⲉ ⲧⲁⲯⲩⲭⲏ: ϩⲁⲛ ⲥ̀ⲫⲟⲧⲟⲩ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡ̀ⲑⲉⲗⲏⲗ ⲉⲩⲉ̀ⲥⲙⲟⲩ ⲉ̀ⲡⲉⲕⲣⲁⲛ: ⲛⲁⲓⲙⲉⲩ̀ⲓ ⲉ̀ⲣⲟⲕ ⲡⲉ ϩⲓϫⲉⲛ ⲡⲁ̀ⲫⲣⲏϣ: ⲛⲉϣ ⲁⲓⲉⲣⲙⲉⲗⲉⲧⲁⲛ ⲉ̀ⲣⲟⲕ ⲡⲉ ⲛ̀ⲛⲓⲛⲁⲩ ⲛ̀ⲧⲉ ϩⲁⲛⲁ̀ⲧⲟⲟⲩⲓ: ⲁ̅ⲗ̅.

يقول الشمَّاس Ⲥⲧⲁⲑⲏⲧⲉ ثمَّ يُقرأ الإنجيل قبطياً ويُفسر عربياً[٣١].

٣١- فصل إنجيل باكر هو من بشارة القدِّيس يوحنا الحبيب «... والكلمة صار جسداً، وحل بيننا، ورأينا مجده كمجد ابن وحيد لأبيه، مملوءاً نعمة وحقاً» (يوحنا ١:١٤- ١٧).

ويُرد بهذا[٣٢].

Ⲡⲓⲕⲟⲡⲧⲓⲕⲟⲛ	العربي
Ϫⲉ ⲡⲓⲁⲧⲥⲁⲣⲝ ⲁϥϭⲓⲥⲁⲣⲝ : ⲟⲩⲟϩ ⲡⲓⲗⲟⲅⲟⲥ ⲁϥϧ̀ⲑⲁⲓ : ⲡⲓⲁⲧⲁⲣⲭⲏ ⲁϥⲉⲣϩⲏⲧⲥ : ⲡⲓⲁⲧⲥⲛⲟⲩ ⲁϥϣⲱⲡⲓ ϧⲁⲟⲩ̀ⲭⲣⲟⲛⲟⲥ.	غير المتجسِّد تجسَّد، والكلمة تجسَّم. غير المبتدئ ابتدأ، غير الزَّمني صار زمنياً.
Ⲡⲓⲁⲧϣ̀ⲧⲁϩⲟϥ ⲁⲩⲭⲉⲙϫⲱⲙϥ : ⲡⲓⲁⲑⲛⲁⲩ ⲉ̀ⲣⲟϥ ⲥⲉⲛⲁⲩ ⲉ̀ⲣⲟϥ : ⲡ̀ϣⲏⲣⲓ ⲙ̀Ⲫϯ ⲉⲧⲟⲛϧ : ⲁϥϣⲱⲡⲓ ⲛ̀ϣⲏⲣⲓ ⲛ̀ⲣⲱⲙⲓ ϧⲉⲛ ⲟⲩⲙⲉⲑⲙⲏⲓ.	غير المدرك لمسوه، غير المنظور نظروه. ابن الله الحيي، صار ابن بشر بالحقيقة.
Ⲁⲣⲓⲡ̀ⲣⲉⲥⲃⲉⲩⲓⲛ..	اشفعي ...

وما يتلوه كالعادة، وبعد ذلك

Ϫⲉ ϥ̀ⲥⲙⲁⲣⲱⲟⲩⲧ..	مباركٌ ...

ثمَّ يكمل الكاهن الصَّلاة كالعادة. والقانون كُتب في عشيَّة. ثمَّ يختم الكاهن الصَّلاة بالبركة.

٣٢- وهو ما يذكره أيضاً: "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

الفَصل السَّادس

الطَّقس القبطي لقُدَّاس عيد الميلاد

أجراس الميلاد

عندما تدُق أجراس الميلاد، ويصدح رنينها الحُلو، قاطعاً صمت اللَّيل وسكونه، بينما تُرسل منارة الكنيسة ضوءها من علو السَّماء، لتنير بيوتاً والسَّاكنين فيها بإيمان الله، تتحوَّل كلُّ مدينة، وأيُّ مدينة على اتساعها، إزاء فرحة النَّفس بالعيد، إلى قرية بيت لحم.

فها نور المنارة التي تعلو الكنيسة، هو النَّجم الهادي إلى حيث نجد يسوع، هناك في بيته، وفي هيكله المقدَّس، ويتجاوب تهليل الملائكة مع رنين الأجراس، يزفُّون للسَّاكنين على الأرض بُشرى أعظم وأعجب خبر سمعته البشريَّة منذ أن وُجدت، أنَّ الله صار إنساناً، ووُلد بيننا من أجلنا.

ونتحسَّس خفقات قلوبنا، فإذا هي في انسحاقها وذهولها أمام البُشرى، مذودٌ قد تهيأ لميلاد يسوع. وعندما تتقاطر الجموع لتلتقي بيسوع في بيته، يكون الحَمَل على وشك أن يستقبله رئيس الكهنة أمام باب الهيكل. والآن المسيح يُقدِّم ذاته عن الكنيسة، وعن كلِّ العالم، فهو حمل الله الذي يرفع خطايا العالم كلِّه.

يوم عيد الميلاد، يوم فرح لكلِّ النُّفوس التي ترضى بمستوى المذود مسكناً لها! فهل نرضى؟ ولماذا تردَّدنا وخالق السَّماء والأرض ارتضى؟ كلُّ من لا يرضى بحقارة المذود، لا يستطيع أن يتذوَّق فرحة الميلاد. فالحَدَث الذي نحن أمامه الآن، قد أعثر أصحاب العقول النَّابهة، فأن يصبح الله إنساناً، أمرٌ يفوق عقول البَّشر. أمَّا أن يولد الله في مذود للبهائم، فهو ما

أعجزها كُليَّة عن التَّفكير. هذا هو سرُّ الميلاد، سرٌّ يغلِّفه سرٌّ، ويا لصمت العذراء الذي زاد السِّرّ سراً على سرِّه.

[عطيَّتك أعظم من مقدرة المتكلِّمين، ومع ذلك لا يمكننا أن نضغط على أنفسنا ونصمُت، فاعذر ضعفنا في تسبحتك التي نغنِّيها لك. اقبل في صلاحك هذه القطرة من التَّسبيح، أنت الذي يلزم لحمدك، محيطٌ من الغناء، نظراً لعظم عطيَّتك]

(مار أفرآم السرياني).

أمَّا عن موعد بداية قُدَّاس العيد، فيقول ابن كبر (+ ١٣٢٤م): "ويُقدَّم القُدَّاس أوَّل النِّصف الثَّاني من اللَّيل بنصٌ قانوني، ويختص به من الوهمات Πιχινιιιcι بعد الإبركسيس"[١].

ويذكر عنه يوحنا بن سباع أيضاً: "... ويكون القُدَّاس سَحَرا جدا، وذلك تمجيدا للعيد، وبسطه لفطر الصَّائم سَحَرا، لكمال فرح النَّفس والجسد معا"[٢].

أي أنَّ القُدَّاس الإلهي لعيد الميلاد، ينتهي قُرب الفجر، بشهادة كلٌ من ابن كبر، وابن سباع في القرن الثَّالث عشر أو الرَّابع عشر الميلادي.

وفي قُدَّاس عيد الميلاد، لا تُقال صلوات المزامير قبل تقديم الحَمَل، وذلك ليس بسبب العيد، بل هو الطَّقس القديم حين يكون القُدَّاس عقب رفع بخور باكر مباشرة. وهو الطَّقس الذي حفظته لنا الثَّلاثة أعياد السَّيديَّة الكُبرى فقط، وفي ذلك يقول ابن كبر (+ ١٣٢٤م) بكلِّ وضوح:

١- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، الباب ١٩

٢- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ٣١٣

"والذي تداولته البيعة القبطيَّة، أن يكون القُدَّاس تلو صلاة، والأحسن أن تكون الصَّلاة التي تتقدَّمه برفع بخور، هذا إذا كان فصحاً. وأمَّا إذا كان أيام الأربعين، والأربعاء والجُمعة، والأصوام الأُخر، فيكون عقبي صلاة السَّاعة التي تتقدَّمه، أعني التَّاسعة بالأجبية والقِطَع. والرُّهبان في أيام الأربعين المقدَّسة، يُصلُّون قبله صلاتي الغروب والنَّوم"[٣].

وعند تقديم الحَمَل الذي يصاحبه حالياً لحن السَّلام، كان يبدأ "أللِّي القُربان" بلحنه المهيب، ولكن يُقال حالياً جزءٌ بسيطٌ منه[٤]. وكم تمنيتُ أن يشترك كلُّ الشَّعب في ترتيل هذا اللَّحن، فلا يكون وقفاً على خوروس الكنيسة فحسب. جرِّبوا أن يصاحب تقديم الحَمَل لحن أللِّي القُربان البديع، وبعد ذلك احكموا. ولاسيَّما أنَّه في القديم كان هو اللَّحن الوحيد الذي يصاحب طقس تقديم الحَمَل منذ بدايته، وحتى قول الكاهن: "مجداً وإكراماً، إكراماً ومجداً للثَّالوث القدُّوس ...".

وفي الهيتنيَّات في الطَّقس الحالي، يُقال ربعٌ بعد رُبع مار مرقس الرَّسول وهو: "بصلوات الشَّيخين المبارَكين يوسف النَّجَّار والقدِّيسة سالومي، ياربُّ انعم لنا بغفران خطايانا".

٣- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، البَاب ١٧

ولاحظ هنا أنَّ صلوات المزامير في قُدَّاسات الأصوام، كتمهيد للقُدَّاس كانت بسبب أنَّ رفع بخور باكر، يتم في الصَّباح البَّاكر. أمَّا القُدَّاس نفسه، فيكون في وقت متأخِّر من النَّهار. ثم أنَّ صلوات المزامير في هذه الحالة، كانت هي ساعة الصَّلاة التي تسبق وقت القُدَّاس مباشرة، وهي إمَّا السَّاعة التَّاسعة في كنائس المُدُن، أو السَّاعتَين الحادية عشرة والثَّانية عشرة في كنائس الأديرة.

٤- هذا اللَّحن ذو اثنتي عشرة مرحلة، فهو لحن طويل شجي.

أولاً: قُدَّاس الكلمة في عيد الميلاد

نعني بقُدَّاس الكلمة، ما يُعرف أيضاً بقُدَّاس الموعوظين، وهو الاسم القديم، لهذا الجزء من اللِّيتورجيَّة. وتنحصر عناصر قُدَّاس الكلمة في:

- قراءات قُدَّاس عيد الميلاد.
- ألحان قُدَّاس عيد الميلاد.
- أوشيَّة الإنجيل.
- ترتيل المزمور وفصل الإنجيل المقدَّس.
- الأواشي الثَّلاث الكبار: السَّلامة والآباء والاجتماعات.
- قانون الإيمان.

وسنقتصر فقط على العناصر ذات السِّمات الخاصة بالعيد.

قراءات قُدَّاس عيد الميلاد[٥]

تؤكِّد قراءات عيد الميلاد، على كرامة الابن ومجده لدي أبيه «أنه أخذ كرامة ومجداً من الله الآب، إذ أقبل عليه صوت كهذا من المجد الأسنى العظيم قائلاً: هذا هو ابني حبيبي، الذي أنا به سُررت» (٢بطرس ١:١٢-١٧). وتشرح القراءات أيضاً علاقة الابن بالآب، فتقول عن الابن: إنه «بهاء مجده، ورسم أقنومه[٦]، وحامل الكُّل بكلمة قُدرته، وبه صنع تطهيراً

٥- يُراعى أنه إذا وقع عيد الميلاد في ٢٩ كيهك، كما في كافة السَّنوات البسيطة، فإن كان اليوم التَّالي للعيد (ثاني يوم العيد) هو يوم أحد (يكون بذلك هو الأحد الخامس من الشَّهر)، فتكون قراءات ذلك اليوم (الأحد) هي ٣٠ كيهك. أمَّا إن وقع العيد في يوم ٢٨ كيهك كما في السَّنوات الكبيسة، فتكون قراءات ثاني يوم العيد إذا وقع يوم أحد، هي ٢٩ كيهك، لأنها القراءات الأساسيَّة للعيد.

٦- بحسب قطمارس الكنيسة، ولكنَّها جاءت في الطَّبعة البيروتيَّة للإنجيل: "... ورسم جوهره". والنص اليوناني هو: Καί τῆς ὑποστάσεως αὑτου .

لخطايانا»، هذا هو الابن الذي يشهد له الآب قائلاً: «أنت ابني وأنا اليَوم ولدتُك» (عبرانيين ١:١- ٤:٢). وهي هي بعينها نفس الشَّهادة التي يعتز بها الابن، حيث يقول عن نفسه: «الرَّب قال لي أنت ابني، وأنا اليَوم ولـــدتُك، سلني فأعطيك الأمم ميراثك، وسُلطانك إلى أقطار الأرض» (مزمور ٢: ٥، ٦). وهذا هو ما أكمله الله لنا إذ أقام يسوع (أعمال ١٣: ٢٦- ٣٢).

أمَّا مرد الإبركسيس فهو: ''السَّلام لبيت لحم مدينة الأنبياء، التي وُلد فيها المسيح آدم الثَّاني''[٧].

ألحان قُدَّاس عيد الميلاد

يشرح لنا ''مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م''[٨]، ألحان قُدَّاس عيد الميلاد، كما اعتادها الكنيسة القبطيَّة قبل أن يلحقها أيّ ألحان روميَّة، منقولة عن الكنيسة اليونانيَّة، منذ منتصف القرن التَّاسع عشر، فيقول:

''ثمَّ يبتدئون بالقُدَّاس كالعادة. إلى أن يفسِّروا الإبركسيس، يقولون لحن الميلاد إن كان ثمَّ مهل **Ⲡⲓϫⲓⲛⲙⲓⲥⲓ** وإن كان ما ثمَّ مهـــل، فيقولـــون **Ⲟⲩⲥⲓⲟⲩ ⲁϥϣⲁⲓ** أو يقولون البرلكس **Ⲥⲉⲛⲛⲉⲑⲗⲓⲟⲛ** وبعـــد ذلـــك أجيوس ...''.

فما ذكره مخطوط ترتيب البيعة يتَّضح لنا منه أنَّ هناك ثلاثة ألحـــان تختص بعيد الميلاد:

٧- انتشر مرد الإبركسيس المذكور بعد طباعة كُتُب الصَّلوات الطَّقسيَّة، وقد ورد ذكره بدءًا من سنة ١٩٣٨م.

٨- ويتَّفق معه ''مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لســـنة ١٤٤٤م''، و''مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م''، و''مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م''.

◆ لحن Πιϫινⲙⲓⲥⲓ "الميلاد البتولي ..."

وهو اللّحن الأوّل للميلاد. وكلماته هي:
"الميلاد البتولي، والطّلقات الرُّوحانيَّة عجبٌ عجيب، كالأخبار النّبويَّة".

وهو من الألحان الطّويلة في الكنيسة القبطيَّة، التي تميِّز طقس عيد الميلاد. ويبدو أنه اندثر كلحن، ولم تبق منه سوى كلماته، والتي أصبحت تُقال على وزن لحن آخر، هي مقدِّمة لحن حلول الرُّوح القُدُس Πιⲡ̅ⲛ̅ⲁ ⲙ̀ⲡⲁⲣⲁⲕⲗⲏⲧⲟⲛ . وهو اللّحن الوحيد في عيد الميلاد الذي أشار إليه أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م) في موسوعته الطّقسيَّة[٩].

وعلى قدر الكلمات القليلة التي يحويها اللّحن، إلاَّ أنَّ عمقها العميق قد غطّى حدث التَّجسُّد الإلهي، بدءاً من نبوّات العهد القديم، حتى تحقَّق بعجب عجيب ميلاداً بتولياً في العهد الجديد.

أمَّا تعبير "الطّلقات الرُّوحانيَّة"، فهو سمة تميِّز الطّقس القبطي وألحانه في هذا العيد. وهو تعبير قديم، موجود في ثيؤطوكيَّات الأيام في تسبحة نصف اللّيل والسَّحَر السَّنويَّة.

◆ لحن Ⲟⲩⲥⲓⲟⲩ ⲁϥϣⲁⲓ "نجم أشرق ..."

وهو لحن قصير، بدليل قول "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" إنه يُقال في العيد، إن لم يكن هناك متَّسع من الوقت.

ولقد أورد كتاب خدمة الشمَّاس والألحان هذا اللّحن، ووضعه تحت

٩- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، البَاب ١٩

عنوان: ''لحن آخر''. أمَّا كلماته فهي:

- نجمٌ أشرق في المشارق، ملكٌ وُلد في بيت لحم، ومجوسٌ قدَّموا له قرابين، وخرُّوا وسجدوا له.
- (برلكس): قدَّموا له لباناً كإله، وذهباً كملك، ومُراً يدلُّ على موته المحيي.

◆ لحن Ⲅⲉⲛⲛⲉⲑⲗⲓⲟⲛ ''ميلادٌ عجيب ...''

وهو برلكس الميلاد كما يدعوه ''مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م''[١٠]، وهو لحن طويل، يشتمل على ثمانية أرباع، والرُّبعان الأوليان منه بالرُّوميَّة (اليونانيَّة). وُجد نصُّه في ثلاث مخطوطات:

المخطوطان الأوليان منها، وجدهما الدكتور أزولد بورمستر Burmester بمكتبة كنيسة السيِّدة العذراء بحارة زويله بالقاهرة[١١].

أمَّا المخطوط الثَّالث، فقد عثرت جمعيَّة نهضة الكنائس القبطيَّة الأرثوذكسيَّة المركزيَّة على نسخة خطيَّة منه[١٢].

- المخطوط الأوَّل: مؤرَّخ بتاريخ (١٤٤٩ش/ ١٧٣٣م).
- المخطوط الثَّاني: مؤرَّخ بتاريخ (١٤٩٠ش/ ١٧٧٤م).
- المخطوط الثَّالث: مؤرَّخ بتاريخ (١٥١٩ش/ ١٨٠٣م).

ووُجد اللَّحن في المخطوط الأوَّل تحت عنوان: ''برلكس الميلاد

١٠- ويتَّفق معه ''مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م''، و''مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م''، و''مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م''.

11- O.H.E. Burmester, *The Greek Kirugmata,... in the Coptic Liturgy*, p. 392.

١٢- انظر: كتاب خدمة الشماس والألحان، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م، ص ٢٠٩.

البتولي المجيد". وهو نفس العنوان تقريباً في المخطوط الثَّالث، حيث ورد فيه العنوان: "برلكس الميلاد المجيد".

والنَّص القبطي في المخطوطين الأوَّل والثَّاني متهالك جداً. ومع ذلك قام الدكتور بورمستر O.H.E. Burmester بمحاولة رد هذا النَّص القبطي إلى أصله اليوناني (في الرُّبعين الأوليين منه)، فجاءت المحاولة خاضعة للحدس أحياناً[١٣].

وأُوردُ فيما يلي نصَّ كلٍّ من الرُّبعَين الأوَّل والثَّاني من اللَّحن، في كلٍّ من المخطوطات الأوَّل والثَّالث والثَّاني على التَّرتيب، وقد أرجأتُ نصَّ المخطوط الثَّاني، لأنه كثير الأخطاء اللُّغويَّة، ويعقبه النَّص اليوناني، وهو النَّص الذي وُضع كمحاولة لإرجاع النَّص القبطي إلى أصله اليوناني.

الرُّبع الأوَّل:

المخطوط الأوَّل:

Ⲅⲉⲛⲛⲉⲑⲗⲓⲟⲛ ⲇⲉ ⲑⲁⲩⲙⲁⲥⲧⲟⲛ ⁝ ⲅⲉⲛⲛⲏⲧⲟⲛ ⲉⲟⲩⲣⲁⲕⲉⲛ ⁝ ⲟⲩⲙⲁⲩⲥⲧⲓⲥ ⲁⲣⲭⲏⲇⲉⲕⲧⲟⲛ ⁝ ⲕ̅ⲛ̅ ⲇⲉ ⲁⲛⲑⲣⲟⲡⲟⲛ.

قد رأى النَّجار ميلاداً عجيباً، ومولوداً ... رباً وإنساناً.

المخطوط الثَّالث:

Ⲅⲉⲛⲉⲑⲗⲓⲟⲛ ⲧⲉ ⲑⲁⲩⲙⲁⲥⲧⲟⲛ ⁝ ⲅⲉⲛⲛⲏⲧⲟⲛ[14] ⲉ̀ⲱⲣⲁⲕⲉⲛ ⁝ ⲙⲉⲅⲓⲥⲧⲟⲛ[15] ⲁⲣⲭⲓⲧⲉⲕⲧⲱⲛ ⁝ Ⲕⲩⲣⲓⲟⲛ ⲧⲉ ⲁⲛ̀ⲑⲣⲱⲡⲟⲛ.

قد رأى النَّجار ميلاداً عجيباً، ومولوداً عظيماً للغاية، رباً وإنساناً.

13- *Ibid.*, p. 392.

١٤- الكلمة اليونانيَّة γεννητός تعني "مولوداً" begotten .

١٥- الكلمة اليونانيَّة μέγιστος هي صيغة المبالغة من الكلمة μέγας أي "عظيم".

المخطوط الثَّاني:

ⲅⲉⲛⲛⲉⲑⲗⲓⲟⲛ ⲧⲁ ⲑⲁⲩⲙⲁⲥⲧⲟⲛ ⁘ ⲡⲉⲛⲓⲧⲟⲛ ⲁⲟⲣⲁⲧⲟⲛ ⲟⲩⲙⲛⲏⲥⲧⲟⲛ(16) **ⲁⲣⲭⲏⲧⲉⲕⲧⲟⲛ ⁘ ⲕⲉ ⲕⲉ ⲁⲛⲇⲣⲟⲡⲟⲛ.**

ميلادٌ عجيبٌ ... غير منظور، نجَّار خطيب، ربٌ وإنسانٌ(؟)!.

Γενέθλιον καὶ θαυμαστόν . γεννητὸν ἀόρατον . θαυμαστὸς ἀρχιτέκτων. Κύριος καὶ ἄνθρωπος.

ميلادٌ عجيبٌ، مولودٌ غير منظور، نجَّارٌ عجيبٌ، ربٌّ وإنسانٌ.

الرُّبع الثَّاني:

المخطوط الأوَّل:

Ⲕⲉⲟⲫⲟⲣⲟⲥ ⲛⲉⲡⲟⲩⲣⲁⲛⲓⲟⲛ ⁘ ⲅⲁⲙⲙⲁⲗⲓⲟⲛ ⲇⲉ ⲁⲛⲑⲣⲟⲛ ⁘ ⲙⲏ ⲭⲱⲣⲓⲥ ⲇⲉ ⲭⲱⲣⲓⲧⲟⲛ ⁘ ⲩⲥ ⲑⲥ ⲁⲗⲓⲑⲓⲛⲟⲛ.

حبلاً سمائياً، عُرساً بغير رَجُل، ابن الله الحقيقي غير المفترق ...

المخطوط الثَّالث:

Ⲕⲉⲟⲫⲟⲣⲟⲛ ⲉ̀ⲡⲟⲩⲣⲁ-ⲛⲓⲟⲛ ⁘ ⲅⲁⲙⲏⲗⲓⲟⲛ ⲧⲉ ⲁⲛⲁⲛⲇ̀ⲣⲟⲥ ⁘ ⲙⲏ ⲭⲱⲣⲓⲥ(17) **ⲕⲉ ⲭⲱⲣⲓⲟⲛ**(18)**⁘ Ⲩⲥ Ⲑⲥ ⲕⲉ ⲁⲗⲓⲑⲏⲛⲟⲩ.**

١٦- الكلمة القبطيَّة **ⲟⲩⲙⲛⲏⲥⲧⲟⲛ** يقابلها في اليونانيَّة كلمة μνηστός وتعني: "خاطب، متزوِّج".

١٧- الكلمة اليونانيَّة χωρὶς ظرف (يصف الفعل) وتعني: "مفترق - منفصل - مبتعد - مختلف عن ..." وقد ترجمت الكلمة μὴ χωρὶς إلى "موضعاً مخفياً"!.

١٨- الكلمة اليونانيَّة χωρίον تعني: "مكان ما - بقعة - مقاطعة - منطقة - ناحية - ضَيعة - عزبة (خاصة في الرِّيف) - مركز - موقع - مقر".

Cf. Liddle and Scott, *op. cit.*, p. 899.

والتي تُرجمت "حقلاً" في المخطوط الثَّالث. ووردت نفس الكلمة في المخطوطين

حبلاً سمائياً، عُرساً بغير رَجُل، موضعاً مخفيًّا، وحقلاً لابن الله الحقيقي.

المخطوط الثّاني:

Κεοφοροc νεπογρανιοn : γαμμαλιον κε ανΔροπογ : μι χωριc κε εχωριτον : γοc θεοc τε αλγθιενον.

حبلاً سمائياً، عُرساً بغير رَجُل، ابن الله الحقيقي غير المفترق ...

Κυοφόρος ἐπουράνιος. γαμήλιος καὶ ἄνανδρος. (?) μὴ χωρὶς δέ χωριστὸς Υἱὸς, Θεὸς ἀληθινός.

حبلٌ سمائيٌ، عُرسٌ بغير رَجُل، ابن متفرِّد (ليس مثل أبناء البَّشر)، غير مفترق (عن الآب)، إلهٌ حقيقيٌ.

وتظهر الاختلافات اللّفظيَّة في النُّصوص القبطيَّة بين المخطوطات الثّلاثة السَّابق ذكرها. وبعد دراسة للنُّصوص القبطيَّة واليونانيَّة للرُّبعين الأولين من اللّحن، وجدتُ أنَّ:

- النَّصُّ القبطي متقارب في كلٌ من المخطوطين الأوَّل والثّالث، أمَّا في المخطوط الثّاني، فبه أخطاء لغويَّة كثيرة. والنَّص القبطي الوارد في المخطوط الثّالث هو الأكثر دقّة ووضوحاً لاسيَّما في الرُّبع الأوَّل من اللّحن.

- النَّصُّ اليوناني للرُّبع الأوَّل، غير دقيق. حيث لم يرد فعل رئيسي في الجملة، في حين ترد بعض كلماته الجملة في حالة المفعول به، مثل Γενέθλιον وكان يلزم أن تكون Γενέθλιος أي "ميلادٌ"، وكذلك كلمة θαυμαστόν وكان يلزم أن تكون θαυμαστός أي "عجيبٌ"، في موقع فاعل أو اسم.

الأوَّل والثاني، ولكن بهجاء خاطئ.

- ما سبق ذكره في البند السَّابق مباشرة، ينطبق على الرُّبع القبطـي الذي أورده المخطوط الثَّاني.

- النَّص اليوناني في الرُّبع الثَّاني تكتنفه صعوبة في التَّرجمة، لأنَّ بعض كلماته جاءت من قبيل الحدس، ككلمة χωριστός أي "منفصل".

- التَّرجمة العربيَّة التي أوردناها للنُّصوص جاءت ترجمة حرفيَّة، مـع وضع ثلاث نقاط (...) بديلاً عن الكلمة التي ليس لها مقابل في القاموس اليوناني أو القبطي.

- قد وضعتُ خطاً أسفل الكلمات القبطيَّة، التي ليس لها مقابـل في قاموس اللُّغة القبطيَّة، وليس لها مقابل في اللُّغة اليونانيَّة أيضاً.

- نظراً لاختلاف التَّرجمة، يأتي اسم "النَّجار"، مـرَّة منسـوباً إلى السيِّد المسيح له المجد، وأُخرى منسوباً إلى يوسف البار، خطيب العذراء مريم.

- الكلمة القبطيَّة ⲁⲣⲭⲓⲧⲉⲕⲧⲱⲛ المأخوذة أصلاً مـن اليونانيَّـة ἀρχιτέκτων والتي تُرجمت إلى "النَّجار"، أو "الرَّئيس النَّجار"، هي ترجمة مجازيَّة، لأنَّ الكلمة تعني: "رئيس صُنَّاع، رئيس بنائين، رئـيس أي عمل، مهندس معماري، مهندس في أيِّ تخصُّص". أمَّا معناها العام فيفيد: "مشيِّد أو مؤلِّف"[١٩].

أمَّا بقية أرباع هذا اللَّحن فهي بالقبطيَّة، وترجمتها هي:
- كلُّ معلِّمي رومية، وحُكماء أنطاكية اجتمعوا كلُّهم إلى قيصـريَّة ينطقون بكرامة القدِّيسة مريم.

19- Liddle and Scott, *op. cit.*, p. 122.

- فكَّروا في حكمتهم، ونطقوا بمجد بتوليتها وصلواها وأصـــوامها، ودعوها الكُليَّة القداسة.
- كلٌّ معلِّمي الكنيسة، نظروا جمال فضائلها، وطهـــارة بتوليَّتـــها، ودعوا اسمها مريم.
- حُكماء العتيقة وطغمات الكنيسة، رتَّلو التَّسبحة والليلويا، كمـــا يليق بها إلى الانقضاء.
- صاحب القيثارة الموسيقيَّة، تكلَّم في المزمور من أجـــل الحقيقـــي، الذي أتى وخلَّصنا.
- أسجدُ تحت أقدامك يا سيِّدتنا كلِّنا والدة الإله، اطلبي إلى المسيح عنَّا ليغفر لنا خطايانا.

ولعلَّ القارئ العزيز يلاحظ الفرق الواضح في الأسلوب، بـــين أوَّل رُبعين من اللَّحن وبين بقيَّة أرباعه الأُخرى، وكذلك أيضاً في المعنى. فبينما يتحدَّث الرُّبعان الأوليان عن الميلاد البتولي نفسه، تتحدَّث بقيَّة الأرباع عن السيِّدة العذراء فقط باستثناء الرُّبع قبل الأخير في عبـــارة "الـــذي أتـــى وخلَّصنا"، وهي عبارة لا تشير بالتَّحديد إلى حدث الميلاد عينه.

وما سبق ذكره هو شرحٌ وتوضيحٌ للثَّلاثة ألحان التي أشار إليها "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م".

◆ لحن Ηπαρθενος "اليَوم البتول ..."

ومنذ منتصف القرن التَّاسع عشر، صار يتقدَّم هذه الألحان السَّـــابق

ذكرها، القطعة الرُّومي الآتية[٢٠]، وهي المعروفة بلحن **Ⲏⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲥ**، وفيما يلي نصُّها باليونانيَّة والعربيَّة:

اليَوم، البتول تلدُ الفائق الجوهر.

Ἡ παρθένος σήμερον τὸν ὑπερούσιον τίκτι.

والأرض تقرُب المغارة لغير المقتَرب إليه.

καὶ ἡ γῆ τὸ σπήλιον τῷ ἀπροσίτῳ προσάγει.

الملائكة مع الرُّعاة يمجِّدون.

ἄγγελοι μετὰ ποιμένων δοξολόγουσι.

والمجوس مع الكوكب في الطَّريق يسيرون.

μάγοι δέ μετ᾽ αστέρος ὁδοιπουροῦσι.

لأنه قد وُلد من أجلنا صبيٌّ جديد.

δι᾽ἡμᾶς γὰρ ἐγεννήθη παιδίον νέον.

الإله الذي قبل الدُّهور. ὁ πρὸ αἰώνων Θεός.

وهذا اللَّحن هو قنداق في الأوديَّة السَّادسة باللَّحن الثَّالث، يُقال في الكنيسة البيزنطيَّة في عيد الميلاد. وقد أدخله البابا كيرلُّس الرَّابع (١٨٥٤-١٨٦١م) إلى الكنيسة القبطيَّة في منتصف القرن التَّاسع عشر تقريباً.

وجديرٌ بالذِّكر، أنه في عهد البابا كيرلُّس الرَّابع (١٨٥٣-١٨٦١م)[٢١] دخل إلى الكنيسة القبطيَّة اثنا عشر لحناً، منقولاً عن الكنيسة اليونانيَّة، ولم يندمج في الطَّقس القبطي منها سوى ثلاثة ألحان فقط، وهي:

20- O.H.E. Burmester, *The Greek Kirugmata, Versicles and Responses and Hymns in the Coptic Liturgy*, Roma 1936, p. 393.

٢١- كان البابا كيرلُّس الرَّابع على علاقة صداقة وطيدة ببطريرك الرُّوم الأرثوذكس كلينيكوس.

اللّحن السّابق ذكره لعيد الميلاد، ولحنان لعيد القيامة.

أمّا هذه الألحان الاثني عشر فهي:

- لحنان لعيد الميلاد:

الأوّل: هو اللّحن السّابق ذكره، Ἡ παρθένος

الثّاني: "ميلادك أيها المسيح إلهنا Ἡ γέννησις σου".

وكلماته هي: "ميلادك أيها المسيح إلهنا، قد أطلع نور المعرفة في العالم، لأنّ السّاجدين للكواكب به تعلّموا من الكوكب السُّجود لك يا شمس البر، وأن يعرفوا أنك من مشارق العلو أتيت، يا ربُّ المجد لك".

- لحن لعيد الغطاس، بدايته: باعتمادك يا ربُّ في نهر الأردن ...(٢٢)

Ἐν Ἰορδάνῃ βαπτιζομένου σου Κύριε ...

- أربعة ألحان لعيد القيامة(٢٣) بداياتها كالآتي:

نسبّح نحن المؤمنين ونسجد للكلمة	Τὸν συνάναρχον Λόγον ...
لمّا خُتم الحجر من اليهود	Τὸν συνάναρχον Λόγον ...
لتفرح السّماويّات وتبتهج الأرضيّات	Εὐφραινέσθω τὰ οὐράνια
لقيامتك أيها المسيح المخلّص	Τὴν ἀναστασίν σου ...

- خمسة ألحان للعذراء مريم(٢٤)، الأوّل في عيد نياحتها، والثّلاثة التّالية في أعيادها، واللّحن الأخير منها يُقال في داخل اللّيتورجيّا. وفيما يلي بيان ببداية هذه الألحان الخمسة.

٢٢- سيأتي ذكره في موضعه.

٢٣- سيأتي ذكرها في موضعها.

٢٤- سيأتي ذكرها في موضعها.

Ἐν τῇ γεννήσει τὴν παρθενίαν ἐφυλαξαχ ...[25]

Βουλὴν προαιώνιον ...

Ἀνοίξω τὸ στόμα μου ...

Τοὺς σοὺς ὑμνολόγους Θεοτόκε ...

Ἀξιόν ἐστιν ὡς ἀληθῶς ...

أمَّا لحن Ἡ παρθένος الذي نحن بصدده الآن، فهو من تأليف رومانوس Romanos الملّحن الشَّهير في الكنيسة البيزنطيَّة. وهو يُعدُّ من أكبر مؤلِّفي الألحان اليونانيَّة(٢٦). ويحكي كتاب "المينايون" Menaion عن قصَّة قبوله شعراً سرِّياً في القسطنطينيَّة.

ففي ليلة عيد الميلاد، ظهرت سيِّدتنا العذراء القدِّيسة مريم لرومانوس في نومه، وأعطته ملفاً من ورق roll of paper قائلة له: "خذ هذا وكُله"، وبدا له وكأنه فعل ذلك، ثم استيقظ من نومه في نشوة روحيَّة كبيرة، ونزل إلى كنيسة كُليَّة القدَّاسة أُم الله، ليحضر قُدَّاس عيد الميلاد، وعندما كان الإنجيل المقدَّس على وشك أن يُحمل بوقار إلى الهيكل، صعد إلى الأنبل وارتجل لحناً، بدايته: "اليَوم، البتول تلد الفائق الجوهر ..."(٢٧).

٢٥- في ميلادِك حفظتِ البتولية وصنتِها...

٢٦- كُرِّم كقدِّيس في الشَّرق. أمَّا أصله فمن سوريا Syrian of Emesa ، وصار شمَّاساً في كنيسة بيروت. وفي أثناء حُكم الإمبراطور أنسطاسيوس الأوَّل، ذهب إلى القسطنطينيَّة. ولا يُعرف شيء كثير عن حياته. وله كتابات كثيرة لنصوص ألحان بيزنطيَّة جاء بعضها في شكل حوار. وهي حوالي ثمانين لحناً لازالت حيَّة، يُقال بعضها حتى الآن. وألحانه ذات مشاعر ناضرة في شكل درامي، وهي طويلة فصيحة مُتقنة مثل كثير من الأعمال الأدبيَّة الدِّينيَّة البيزنطيَّة. وتشتمل ألحانه على موضوعات متشعِّبة سواء كتابيَّة، أو كنسيَّة، تمتد لتغطِّي تقريباً كافة أعياد الكنيسة.

27- *The lives of Saints,* p. 3, 4.

وقد بلغ عدد أرباعه خمسة وعشرين رُبعاً، لا يُقال منه في الكنيسة حالياً سوى الرُّبع الأوَّل فقط. ولقد رأيتُ أن أوردُ أرباع هذا اللَّحن هنا كاملة:

"١- اليَوم، البتول تلدُ الفائق الجوهر، والأرض تقرُب المغارة لغير المقترب إليه. الملائكة مع الرُّعاة يمجِّدون، والمجوس مع الكوكب في الطَّريق يسيرون، لأنه من أجلنا وُلد صبيٌّ جديدٌ، الإله الذي قبل الدُّهور.

٢- هلمَّ ننظر بيت لحم تفتح عدناً، وقد وجدنا النَّعيم في الخفاء. هلمَّ نجني ثمار الفردوس داخل المغارة. هناك ظهر أصلٌ بغير سقي، يتفرَّع منه الغفران. هناك وُجدت بئرٌ لم تُحتقر، اشتهي داود قديماً أن يرتوي منها. هناك العذراء إذ ولدت طفلاً، أروت للحال ظمأ آدم وداود، لذلك فلنسرع إليه حيث وُلد طفلاً جديداً، الإله الذي قبل الدُّهور.

٣- أبو الأُم يصير ابناً عن رضى، مخلِّص الأطفال يضطَّجع طفلاً في مذود. تأمَلته الوالدة فهتفت: قُل لي بُنيَّ، كيف زُرعتَ وكيف نشأتَ فيَّ؟ أراك يا حشاشتي فأُذهل كيف أُرضعك، ولم أقترن بزوج؟ أشاهدك بالقُمط وبكارتي لم تفضّ. أنت حفظتها لمَّا ارتضيت أن تولد طفلاً جديداً، أنت الإله الذي قبل الدُّهور.

٤- أيها الملك الرَّفيع، مالَكَ والفقراء؟ يا صانع السَّماء لِمَ أتيتَ إلى أبناء الأرض؟ انظر ليس في القرية مكانٌ لأَمَتك، وما لي أقول مكانٌ، بل حتى ولا مغارة، لأنَّ هذه أيضاً هي لآخر غريب. سارة لما ولدت ابناً أُعطي لها ميراثٌ من الأرض فسيح، وأمَّا أنا فلا مأوى لي. لكني أسكن المغارة التي سكنتها بإرادتك طفلاً صغيراً أنت الإله الذي قبل الدُّهور.

٥- هذا ما قالته سراً، وتضرَّعت إلى عارف الخفايا. وإذ شعرَت

بالمجوس يبحثون عن الطِّفل، صرخت الفتاة للحال بهم: من أنتم؟ أمَّا هُم فأجابوا: وأنت من تكونين وقد أنجبت طفلاً كهذا؟ مَن أبوَيك؟ ومَن أمك؟ لأنك صرت أُماً، وحاضنة ابناً بغير أب. فمذ رأينا نجمه، أسرعنا معاً، لأنه ظهر طفلاً جديداً الإله الذي قبل الدُّهور.

٦- قد أوضح لنا بلعام بدقَّة معنى الكلمات التي تنبأ بها قائلاً: سوف يشرق نجمٌ. نجمٌ يزيل جميع الأقوال والعرافات. نجمٌ محل أمثال الحُكماء ألغازهم، نجمٌ هو النَّجم الوافر الضِّياء، لأنه خالق جميع النُّجوم، وقد كُتب عنه: من يعقوب يشرق طفلاً جديداً الإله الذي قبل الدُّهور.

٧- سمعت مريم هذه الأقوال الغريبة، فانحنت ساجدة للمتكوِّن في أحشائها، وهتفت باكية: بُنيَّ، ما أعظم - أجل - ما أعظم كلَّ ما صنعته إلى حقارتي. ها إنَّ المجوس ملوكُ المشارق خارجاً يبحثون عنك، وأغنياء شعبك يستعطفون وجهك طالبين أن يشاهدوكَ، إنَّ هؤلاء هم شعبك حقاً وقد عرفوك طفلاً جديداً أنت الإله الذي قبل الدُّهور.

٨- وبما أنهم شعبك الخاص، فاسمح بُنيَّ يلجوا حماك، ويشاهدوا فقراً غنياً، ومسكنة مكرَّمة. أنت مجدي وفخري، فلستُ أخجل، أنت النِّعمة، وجمال المسكن وجمالي. أأذن فندخل. ماذا يهمني الفقر وأنت كنزي؟ قد أتي الملوك لينظروك وعرفوا مع المجوس أنك تظهر طفلاً جديداً، أنت الإله الذي قبل الدُّهور.

٩- إنَّ يسوع هو المسيح، وإلهنا حقاً مسَّ خفية قلب أُمِّه وقال لها: أدخلي المجوس الذين قدتُهم بكلمة، لأنَّ كلمتي أشرقت للَّذين يبحثون عنِّي. إنَّ كوكباً دلَّهم على الظَّواهر، وقوَّة كشفت لهم الخفايا. الكوكب رافق المجوس كخادمي، ووقف بعد أن أكمل خدمته، ودلَّ بأشعَّته على

المكان، حيث وُلدتُ طفلاً جديداً، أنا الإله الذي قبل الدُّهور.

١٠- اقبلي الآن يا عفيفة، اقبلي الذين يقبلونني، لأني فيهم كما أني على ذراعيك، أنا لم أغب عنك، وقد أتيتُ إلى هؤلاء، ففتحت الباب من هي الباب المُغلق الذي اجتازه المسيح وحده. فتحت الباب من لا تزال مغلقة، غير مسلوب كنز بكارتها. فتحت الباب من وُلد منها الباب، طفلاً جديداً، وهو الإله الذي قبل الدُّهور.

١١- دخل المجوس للحال إلى الخدر، ولمَّا أبصروا المسيح خافوا، لأنهم شاهدوا أُمَّ الصَّبي وخطيبها فصرخوا برعدة: أنتِ عفيفة، وهذا وُلد بغير والد، فمن أين لكِ رَجُلٌ وولادتك لا لوم فيها؟ فلا بأس أن تساكني يوسف كرَجُل لكِ، لأنَّ حُسَّادك كثيرون، يبحثون عن مولد طفل جديد، هو الإله الذي قبل الدُّهور.

١٢- قالت مريم للمجوس: فهمت كلامكم، فأنا أحفظ يوسف في بيتي نعمة لي، وتبكيتاً لجميع الثَّالبين، سيخبركم بجميع ما سمعه عن ابني، لأنه إذ كان نائماً أبصر ملاكاً أوضح له كيفيَّة حبلي، فالمشهد النَّاري حقَّق ليلاً معجزة العلِّيقة لخزي مخزينه. فيوسف يعيش معي مبرهناً أنَّ هذا الطِّفل الجديد، هو الإله الذي قبل الدُّهور.

١٣- حدَّث يوسف بجميع ما سمعه بوضوح، وبشَّر بدقَّة بجميع ما شاهده بين السَّماويِّين والأرضيِّين، وكيف تسبِّح الأرواح النَّاريَّة مع أبناء الأرض تسابيح الرُّعاة: كوكبٌ منير، وقائدٌ سبقكم أيها المجوس. فلهذا اتركوا المقولات واخبرونا عن الصَّائرات فيكم، فمن أين أتيتم؟ وكيف أتيتم؟ لقد ظهر طفلاً جديداً، الإله الذي قبل الدُّهور.

١٤- وإذ قالت لهم المنارة هذا كلَّه، هتفوا بها وهُم مصابيح المشرق، أتريدين أن تعلمي من أين جئنا؟ من أرض الكلدانيِّين، هناك لا يُقال "إله الآلهة الرَّب"، من بابل حيث لا يعرف النَّاس خالقهم الذي يعبدونه. لقد أتي إلى هناك شعاع الصَّبي، وقادنا إلى نار بابل، تركنا ناراً تلتهم كلَّ شيء، فشاهدنا ناراً نديَّة، طفلاً جديداً، هو الإله الذي قبل الدُّهور.

١٥- كلُّ شيء باطل الأباطيل، ولكن ليس بيننا من يفكر بهذا. لأنَّ بين النَّاس ضالين ومضلِّين. فيا أيتها العذراء، النِّعمة لولدك الذي حُرِّرنا به، ليس من الضَّلال فقط، بل ومن حُزن جميع القُرى التي سرنا بها، فهي أممٌ حقيرة، وألسنة غريبة. لقد خبرنا الأرض وسبرناها، ونحن نبحث عن ضوء الكوكب، أين يولد طفلٌ جديدٌ، الإله الذي قبل الدُّهور.

١٦- لكن بينما كان يضئ لنا هذا النُّور عينه، فقد طُفنا في كلِّ أورشليم، مكمِّلين طبق الحقيقة أقوال النُّبوءة. وكنَّا قد سمعنا أنَّ الله قاصد أن يفتقد أورشليم، فجُزناها في إثر هذا الكوكب. ونحن نتمنَّى أن نجد حُجَّة قويَّة، فلم نجدها، لأنه قد ارتفع عنها فلكها مع تلك الأشياء الجميلة، التي كانت مجموعة قبلاً هناك. لقد زالت القديمات، وجدَّد كلَّ شيء، طفلٌ جديدٌ، هو الإله الذي قبل الدُّهور.

١٧- قالت مريم للمجوس الأمناء: أجل، هل طفتم في كلِّ أورشليم، أورشليم المدينة القاتلة الأنبياء؟ فكيف عبرتموها بدون أذى، والجميع يحسدونها؟ كيف تخلَّصتم قبلاً من هيرودس، ذاك الملتهب إلى القتل خلافاً للشَّرائع؟ أمَّا هم فقالوا لها: أيتها العذراء، لم نتخلَّص منه، ولكن سخرنا به، وكنَّا مع الجميع نبحث أين يولد طفلٌ جديدٌ، الإله الذي قبل الدُّهور.

١٨- لمَّا سمعت والدة الإله أقوالهم، قالت لهم: عن أيِّ شيء سألكم

هيرودس الملك والفريسيُّون؟ إنَّ هيرودس وعظماء أُمَّته كما قلت تحقَّقوا من زمان النَّجم الظَّاهر الآن. اعتبروا أنفسهم جُهلاء و لم يرغبوا أن يشاهدوا من كانوا يبحثون عن معرفته، لأنه كان ينفع الباحث أن يشاهد طفلاً جديداً، الإله الذي قبل الدُّهور.

١٩- إنَّ الحمقى حسبونا حمقى مثلهم، فسألوا قائلين: من أين أتيتم؟ ومتى أتيتم؟ كيف لا تسلكون سبلاً ظاهرة؟ أمَّا نحن فسألناهم عمَّا يعلمون، وأنتم كيف سلكتم قبلاً ذلك القفر الواسع الذي مررتم به؟ إنَّ الذي قاد الإسرائيليِّين من مصر، هو الآن يقود إليه أبناء الكلدانيِّين. أمَّا قبلاً فبعامود من نار، وأمَّا الآن فبكوكب يُظهر طفلاً جديداً، الإله الذي قبل الدُّهور.

٢٠- الكوكب كان يتقدَّمنا في كلِّ مكان، كما أنَّ موسى عندما أظهر لكم عصاه، اطلع عليكم نور المعرفة الإلهيَّة. إنَّ المنَّ غذّاكم قبلاً، والصَّخرة روتكم، والرَّجاء قد دعانا، والفرح بهذا الطِّفل غذَّانا، فلم نفكِّر ونحن بفارس، أن نرجع إلى الوراء، أو نسلك السَّبيل غير المسلوك، بل كنَّا نشتاق أن نشاهد الصَّبي ونسجد له ونمجِّده، طفلاً جديداً، هو الإله الذي قبل الدُّهور.

٢١- وبعد أن تكلَّم المجوس الأمناء، واطمأنت الأُم العفيفة، أثبت الطِّفل كلا القولَين، قول البتول إذ جعل أحشاءها بعد الولادة طاهرة، وقول المجوس إذ أثبت رغبتهم بعد وصولهم قوِّية كخطواتهم. لأنَّ كلاً منهم تحمَّل التَّعب، مثل حبقُّوق عند مضيه إلى دانيال، فإنه لم يشعر بالعياء، لأنَّ الذي ظهر قبلاً للأنبياء، هو نفسه أظهر ذاته، طفلاً جديداً، وهو الإله الذي قبل الدُّهور.

٢٢- وبعد هذا قدَّم المجوس بأيديهم الهدايا، وسجدوا لهدية الهدايا،

وطيب الطُّيوب، قدَّموا للمسيح ذهباً ولباناً ومراً، وصرخوا اقبل هديَّتنا المثلَّثة الطَّبائع، كتسبحة السِّيرافيم المثلَّثة التَّقديس، ولا تُعرض عنها كتقدمة قايين، بل احتضنها كذبيحة هابيل، بشفاعة أُمك التي وُلدتَ منها طفلاً جديداً، أنت الإله الذي قبل الدُّهور.

٢٣- إنَّ البريئة من العيب، لَمَّا نظرت المجوس سُجَّداً، يحملون بأيديهم هدايا جميلة وجديدة، وكوكباً يشرق، ورعاة تسبِّح خالق كلِّ البرايا وسيِّدها، تضرَّعت إليه: بُنيَّ اقبل تثليث الهدايا، وامنح التي ولدتك طلباها الثَّلاث: إنني أسالك لأجل الأهويَّة، ولأجل ثمار الأرض والسَّاكنين فيها. سالم الجميع من أجلي، لأنك وُلدت طفلاً جديداً، أنت الإله الذي قبل الدُّهور.

٢٤- أيها المخلِّص المتحنِّن، بما أني وحدي أُمُّك، فلا يليق بي أن أُرضع رازق اللَّبن، لكنِّي أسألك لأجل جميع النَّاس، وبما أنك أقمتني فماً ومجداً لجنسي كلِّه، فقد ملَّكتني المسكونة كلَّها ستراً عزيزاً وسوراً وثباتاً. وإليَّ ينظر المنفيون من نعيم الفردوس لأني سأعيدهم إليه ليتنعَّموا بإحساسات متنوِّعة بواسطتي، وقد ولدتُك طفلاً جديداً، أنت الإله الذي قبل الدُّهور.

٢٥- خلِّص العالم يا مخلِّصي، لأنك لهذا أتيت. ثبِّت جميع المؤمنين بك، لأنك لهذا أشرقت لي وللمجوس ولكلِّ الخليقة. ها إنَّ المجوس الذين أظهرت لهم نور وجهك، يسجدون لك، مقدِّمين الهدايا الجميلة المفيدة الثَّمينة، أنا أستعين بها، لأني سأذهبُ إلى مصر وأهرب معك لأجلك، أنت يا قائدي، يا ولدي، يا خالقي، يا منقذي، أيها الطِّفل الجديد الإله الذي

قبل الدُّهور"(٢٨).

ويظلُّ الرُّبع الأوَّل منها، أكثر الأبيات عُمقاً وشمولاً وبلاغة، ولقد أوردتُ النَّص بكامله، لنقف على أسلوب رومانس في التَّأليف لأننا نتقابل معه لأوَّل مرَّة. فمن بين الثَّمانين قصيدة الدِّينيَّة التي له، اعتُبر بعضٌ منها من أعظم الآثار الأدبيَّة في العالم، مثل القصيدة السَّابق ذكرها، وهي الأولى له، وكذا القصيدة التَّاسعة والعشرين، وهي للقيامة(٢٩).

الثَّلاثة تقديسات في عيد الميلاد

يقول مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس)(٣٠): "... وبعد ذلك أجيوس الثَّلاثة **Ⲟ ⲉⲕ ⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲩ** وبعدها ذكصابتري. وبعد ذلك بالنَّاقوس:

ربي يسوع المسيح،	**Ⲡⲁϭⲟⲓⲥ Ⲓⲏⲥ Ⲡⲭⲥ :**
الذي ولدته العذراء في	**Ⲫⲏⲉⲧⲁⲥⲙⲁⲥϥ ⲛ̀ϫⲉ ϯⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲥ :**
بيت لحم اليهوديَّة،	**Ϧⲉⲛ Ⲃⲏⲑⲗⲉⲉⲙ ⲛ̀ⲧⲉ ϯⲓⲟⲩⲇⲉⲁ̀ :**
خلِّصنا وارحمنا.	**ⲥⲱϯ ⲙ̀ⲙⲟⲛ ⲟⲩⲟϩ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲛ.**
الشَّاروبيم ...	**Ⲛⲓⲭⲉⲣⲟⲩⲃⲓⲙ ..**
فلنسبِّح مع الملائكة ...	**Ⲙⲁⲣⲉⲛϩⲱⲥ ⲛⲉⲙ ⲛⲓⲁⲅⲅⲉⲗⲟⲥ ..**

ويُكمَّل بالناقوس كالعادة".

٢٨- ترجمة الأب نقولا قدري الشويري.

29- ODCC., 2nd edition, p. 1196.

٣٠- ويتَّفق معه "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

واضحٌ هنا أنَّ هناك ثلاثة أرباع تُقال بطريقة أسبَسموس ميغـالو[٣١] كانت تعقب الثَّلاثة تقديسات بحسب ما يذكر "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسـنة ١٩١٠م"، ولكنَّهـا الآن تتقدَّم هذه الثَّلاثة تقديسات.

ويتغيَّر الرُّبع الأوَّل منها دائماً مع تغيُّر العيد السيِّدي. أمَّا الرُّبعان الآخران، فهما يتكرَّران مع كلِّ الأعياد، لأنهما تسبحة الملائكة، كونها من أقدم العناصر اللِّيتورجيَّة المعروفة، ليس في الكنيسة القبطيَّة وحدها، بل وفي الكنيسة الجامعة. وليس صحيحاً أنَّ تختص هذه الأرباع الثَّلاثة بعيد الميلاد فقط.

وهذه الأرباع الثَّلاثة في عيد الميلاد هي[٣٢]:

- يا ربَّنا يسوع المسيح الذي ولدته العذراء في بيت لحم اليهوديَّـة كالأصوات النَّبويَّة.
- الشَّاروبيم والسِّيرافيم، الملائكة ورؤسـاء الملائكـة، والعسـاكر والسَّلاطين والكراسي والرَّبوبيَّات.
- صارخين قائلين: المجد لله في الأعالي وعلـى الأرض السَّـلام وفي النَّاس المسرَّة.

وعن هذه الأرباع الثلاثة أُوردُ الملاحظات الهامة الآتية:

١- تُقال هذه الأرباع حالياً بعد ألحان الميلاد مباشرة، وقبل أجيوس (قدوسٌ)، أي لحن الثَّلاثة تقديسات، وكانت من قبل تُقال بعـد الثَّلاثـة تقديسات، وهو ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار

٣١- الذي يُقال في سبوت وآحاد الصَّوم المقدَّس الكبير.

٣٢- يمكن للقارئ العزيز مقارنة نصِّ هذه الأرباع مع نصِّها بحسـب مـا أورده "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م".

البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م". ولكن المهم أنه ليس ثمَّة خلط أو تداخل بين هذه الأرباع الثَّلاثة، وبين لحن الثَّلاثة تقديسات. إذ أنَّ بعض الكنائس تشطر لحن الثَّلاثة تقديسات لتضع بعد الرُّبع الأوَّل منه هذه الأرباع الثَّلاثة. وقد عرضتُ لذلك الأمر بالتَّفصيل في كتاب "الصَّوم المقدَّس الكبير"، وأوضحتُ سبب هذا التَّداخل الذي حدث.

٢- تبدأ هذه الأرباع الثَّلاثة بكلمة Πⲁⲟ̅ⲥ̅ أي: "يا ربي"، أو بكلمة Ⲱ Πⲉⲛⲟ̅ⲥ̅ أي: "يا ربَّنا"، ولكن لا يصح أن تكون الكلمة الأولى من هذه الأرباع هي Ⲁ Πⲉⲛⲟ̅ⲥ̅ وذلك طبقاً لقواعد اللُّغة القبطيَّة. لأنَّ الفعل في الجملة - في أرباع عيد الميلاد - جاء ⲫⲏⲉⲧⲁⲥⲙⲁⲥϥ أي "الذي ولدَته"، بخلاف ما جاء في أرباع الصَّوم الكبير. لأنَّ فعل الجملة في أرباع الصَّوم المقدَّس الكبير هو Ⲁϥⲉⲣⲛⲏⲥⲧⲉⲩⲓⲛ أي: "صام"، وبدلاً من حرف ϥ الدَّال على الفاعل جاء الفاعل هو "ربُّنا يسوع المسيح" Πⲉⲛⲟ̅ⲥ̅ Ⲓ̅ⲏ̅ⲥ̅ Π̅ⲭ̅ⲥ̅ فصارت البداية هي Ⲁ Πⲉⲛⲟ̅ⲥ̅ Ⲓ̅ⲏ̅ⲥ̅ Πⲭⲥ ⲉⲣⲛⲏⲥⲧⲉⲩⲓⲛ أي: "ربُّنا يسوع المسيح صامَ ...". وهو ما لا ينطبق على مقدِّمة الأرباع في عيد الميلاد، ولأنه خطأ شائع، لذا لزم التَّنويه.

ترتيل المزمور وفصل الإنجيل المقدَّس

يقول "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" ما يلي: "يُطرح المزمور ويُرد سنجاري"[٣٣].

فبعد أوشيَّة الإنجيل، يُرتَّل المزمور القبطي باللَّحن السِّنجاري البديع، واللَّحن في صعود نغماته وهبوطها، يعبِّر بإلهام رائع عن معاني الكلمات.

٣٣- ويتَّفق معه "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

فمزمور إنجيل القُدَّاس هو خلاصة كلِّ قراءات العيد، ومضمون حدث الميلاد، في أقلِّ عدد من الكلمات: «**الرَّب قال لي: أنت ابني، وأنا اليَوم ولدتُك** ... ». انظر فالابن لا يتكلَّم هنا عمَّا قاله أبيه عنه فحسب، بل إنَّ البِّشارة هي أيضاً لكلِّ واحد منَّا؛ فالرَّب قال لي أنا شخصياً: أنت ابني، وقال لك أنتَ شخصياً: أنت ابني، فهل تصدِّق؟ أنا ابن الله، وأنتَ ابن الله، وأنتِ ابنة الله. والرَّبُّ ولدنا اليَوم.

يا لعجب الميلاد البتولي الذي ولدنا كلّنا بنيناً لله. أنا وأنت وكلُّنا وُلدنا بنيناً لله يوم وُلد المسيح الإله ابناً للإنسان. فلم يكن ممكناً أبداً أن أولد – كإنسان – ابناً لله، لو لم يولد الإله ابناً للإنسان.

من ذا الذي يسمع كلمات المزمور تنسابُ في لحن بديع، يملأ أرجاء الكنيسة، وترتفع نغماته ارتفاعاً متتابعاً حتى تبلغ أوجها عند كلمة "... اليَوم ..."، ولا تتحرَّك مشاعره عرفاناً وشكراً وتسبيحاً وفرحاً، لمن وُلد اليَوم من أجلي، مولوداً كأحقر الحقيرين، لكي لا يفلت أحقر إنسان من نصيب ميلاده من الله، ومن فرحة عيد الميلاد. هو إخلاءٌ قد تعدَّى أقصى حدود الاتضاع.

ففرحة عيد الميلاد تكمُن في أنَّ المسيح مولودٌ **اليَوم** من أجلي. فميلاد المسيح من العذراء هو حدثٌ وقع في ملء الزَّمان، لكي يلغي الزَّمان، لأنَّ ملء الزَّمان يعني غايته، ونهايته، وكماله. فميلاد المسيح فعلٌ دائمٌ لا يتقادم أبداً مع الزَّمان، لأنه حدثٌ إلهيٌّ ألغي بالفعل تأثير الزَّمان، والمكان أيضاً. فاليَوم الذي يولد فيه المسيح في قلب الإنسان، في أيِّ زمان ومكان، هو يوم عيد ميلاد المسيح.

أمَّا المضادة التي تهز المشاعر هزاً، فهي أنَّ المولود في مذود البهائم،

والذي يخاطبه الآب – ونحن كلُّنا فيه – أنا اليَوم ولدتُك ...، هذا المولود المرذول منذ يوم ولادته، يخاطبه الآب قائلاً: سلني فأعطيك الأمم ميراثاً لك، وسُلطانك إلى أقطار الأرض. ما هذا الذي نسمعه؟ كلُّ الأُمم هي ميراث مولود المذود، وسُلطانه يمتد ليغطي كلَّ الأرض، وكيف لا وهو نفسه الجالس على الشَّاروبيم والسِّيرافيم، والذي مجده يملأ السَّماء والأرض.

أمَّا فصل الإنجيل المقدَّس (متى ٢:١- ١٢) فهو يتكلَّم عن زيارة المجوس للصَّبي وسجودهم له، وتقديمهم هداياهم المملوءة أسراراً، حين فتحوا كنوز حكمتهم، وقدَّموا له ذهبَ مُلكه، ولُبانَ كهنوته، ومُرَّ ذبيحته وآلامه في يوم ميلاده.

مرد إنجيل القُدَّاس

يقول "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" ما يلي: ومرد الإنجيل هكذا بلحن الفرح[٣٤].

الواحد من الاثنين، لاهوت وناسوت، لهذا سجد له المجوس، وتكلَّموا ناطقين بالإلهيَّات.	Ⲟⲩⲁⲓ ⲡⲉ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϧⲉⲛ ⲃ̅ : ⲟⲩⲙⲉⲑⲛⲟⲩϯ ⲛⲉⲙ ⲟⲩⲙⲉⲧⲣⲱⲙⲓ : ϧⲉⲛ ⲫⲁⲓ ⲥⲉⲟⲩⲱϣⲧ ⲙ̀ⲙⲟϥ ⲛ̀ϫⲉ ⲛⲓⲙⲁⲅⲟⲥ : ⲉⲩϫⲱ ⲛ̀ⲣⲱⲟⲩ ⲉⲩⲉⲣⲑⲉⲟ̀ⲗⲟⲅⲓⲛ.
قدَّموا له لباناً كإله، وذهباً كملك، ومراً رمزاً لموته المحيي.	Ⲁⲩⲓ̀ⲛⲓ ⲛⲁϥ ⲛ̀ⲟⲩⲗⲓⲃⲁⲛⲟⲥ ϩⲱⲥ ⲛⲟⲩϯ : ⲛⲉⲙ ⲟⲩⲛⲟⲩⲃ ϩⲱⲥ ⲟⲩⲣⲟ : ⲛⲉⲙ ⲟⲩϣⲁⲗⲉϥϯ ⲙ̀ⲙⲓⲛⲓ : ⲉ̀ⲡⲉϥϫⲓⲛⲙⲟⲩ ⲛ̀ⲣⲉϥⲧⲁⲛϧⲟ.

٣٤- ويتَّفق معه "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

ⲁⲣⲓⲡⲣⲉⲥⲃⲉⲩⲓⲛ ..	اشفعي ...

ويورد كتاب "خدمة الشمَّاس والألحان" مرداً آخر للإنجيل، وهو يختص أيضاً بزيارة المجوس للمولود الإلهي(٣٥)، وهو:

نجمٌ أشرق في المشارق، والمجوس تبعوه، حتى أدخلهم بيت لحم، وسجدوا لملك الدُّهور. الليلويا(٤)، يسوع المسيح ابن الله وُلد في بيت لحم ... هذا الذي ينبغي له المجد مع أبيه الصَّالح والرُّوح القُدُس، من الآن وإلى الأبد.

ثانيا: قُدَّاس القُربان في عيد الميلاد

وهو يبدأ بنداء الشمَّاس: "قبِّلوا بعضكم بعضاً بقُبلة مقدَّسة ..."، وهو المعروف باسم "قُدَّاس المؤمنين"، أو قُدَّاس القُربان، أو قُدَّاس الإفخارستيَّا، أو الأنافورا، تمييزاً له عن "قُدَّاس الموعوظين"(٣٦)، الذي هو "قُدَّاس الكلمة". ولا يمكن فصل الاثنين عن بعضهما، أو الاكتفاء بأيِّهما دون الآخر(٣٧).

ولقُدَّاس القُربان في عيد الميلاد ثلاثة أسبسموسات آدام،

٣٥- يلاحظ القارئ العزيز، أنَّ كثيراً من ألحان ومردَّات وقراءات عيد الميلاد، تدور حول زيارة المجوس للمولود الإلهي. فعن هؤلاء المجوس انظر نهاية هذا الفصل.

٣٦- لتفصيلات أوفر، انظر للمؤلِّف: كتاب: "المراسيم الرَّسوليَّة". وكذلك كتاب: "معموديَّة الماء والرُّوح".

٣٧- أمَّا طقس تقديم الحَمَل الذي كان يعقب قُدَّاس الكلمة، ويتقدَّم قُدَّاس القُربان، فقد أصبح الآن يسبق قُدَّاس الكلمة، بعد أن غابت فئة الموعوظين من الكنيسة في غضون القرن السَّادس الميلادي.

وأسبَسموسان واطس كما وردت في كتاب خدمة الشمَّاس والألحان[٣٨].

الأسبَسموس الآدام الأوَّل: "أيها الحمل الحقيقـــي الـــذي لله الآب، اصنع معنا رحمة في ملكوتك، لأنَّ فم أبيك يشهد لك أنك أنت ابني وأنا اليَوم ولدتك".

وقد أورد "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالـــدَّار البطريركيَّـــة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" هذا الأسبَسموس، وأورد في نهايته الرُّبع التَّالي[٣٩]:

يمجِّـــدك الشَّـــاروبيم والسِّـــيرافيم، صـــارخين قائلين: قـــدوسٌ قـــدوسٌ قدوسٌ ...	Ⲥⲉⲧⲱⲟⲩⲛⲟⲩ ϩⲁⲣⲟⲕ ⲛ̀ϫⲉ ⲛⲓⲬⲉⲣⲟⲩⲃⲓⲙ : ⲛⲉⲙ ⲛⲓⲥⲉⲣⲁⲫⲓⲙ ⲉⲛⲱϣ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ⲉⲛϫⲱ ⲙ̀ⲙⲟⲥ : ϫⲉ ϫⲟⲩⲁⲃ ϫⲟⲩⲁⲃ ϫⲟⲩⲁⲃ..

الأسبَسموس الآدام الثَّاني: "إنه وُلد لنا ولدٌ، وأُعطينا ابنـــاً، الـــذي رئاسته على منكبيه، الإله القوي المتسلِّط، وملاك المشورة العُظمى".

الأسبَسموس الآدام الثَّالث: "السَّلام للسَّماء الجديدة التي أشرق لنـــا منها شمس البر، ربُّ جميع البريَّة".

الأسبَسموس الواطس الأوَّل: "المولود من الآب قبل كلِّ الـــدُّهور، ولدته الملكة، وبتوليَّتها مختومة".

٣٨- إنني أنحني إجلالاً وتكريماً للمتنيِّح القُمُّص عبد المسيح المسعودي البراموســـي (١٨٤٨-١٩٣٥م). فدقَّته المتناهية تشد انتباه القارئ المدقِّق، وأمانته الكاملة في نقـــل القديم تبعث على الإعجاب، وهي دقَّة طقسيَّة، ندر أن وجدتُ نظيرها على مـــدي القرن العشرين كلِّه.

٣٩- وهو نفس ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقـــاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط السِّريان لسنة ١٦٩٨م"، و"مخطوط سيرباي لسنة ١٨٦٨م".

الأسبَسموس الواطس الثَّاني: "قدَّموا له هدايا، ذهباً ولُباناً، ومُـــراً، مسبِّحين مع البقيَّة، ساجدين له، الليلويا(٤) يسوع المسيح ابن الله ولدتــه العذراء في بيت لحم اليهوديَّة، كالأصوات النَّبويَّة".

وفي التَّوزيع، يُقال المزمور المائة والخمسون بلحن الفرح، مــع مــرد العيد وهو: "(أي) يسوع المسيح ابن الله، **الذي** وُلد في بيت لحم". ويلزم الإشارة هنا إلى أنَّ المرد لا يوافق أن يكون "يسوع المسيح ابن الله، وُلد في بيت لحم"، بل: "يسوع ... **الذي** وُلـــد في بيـــت لحـــم" **Ⲓⲏⲥ Ⲡⲭⲥ Ⲡϣⲏⲣⲓ ⲙ̀Ⲫϯ ⲫⲏⲉ̀ⲧⲁⲩⲙⲁⲥϥ ϧⲉⲛ Ⲃⲏⲑⲗⲉⲉⲙ** ، وذلك ليتوافـــق المرد في المعنى في صيغته هذه، مع أرباع المزمور المائة والخمسين، والتي تبدأ في معظمها بكلمة "سبِّحوه ...".

أمَّا "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقـــس) بالـــدَّار البطريركيَّـــة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" فيذكر(٤٠) أنه بعد أن يُقال المزمـــور الخمســـون بلحن الفرح، يُقال **Ⲭⲉ ⲉ̀ϥⲥⲙⲁⲣⲱⲟⲩⲧ ..** بلحـــن الفـــرح، وبعـــدها **Ⲡⲓⲟⲩⲁⲓ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϧⲉⲛ ϯ̀ⲧⲣⲓⲁⲥ ..** – وهي ذُكصولوجيَّة عيد الميلاد كما سبق أن ذكر ذلك – وبعد ذلك يقولون ما يتهيأ حفظه من ألحان الميلاد. حيث يورد المخطوط المذكور النَّص الكامل لألحان الميلاد، وهي:

Ⲡⲓϫⲓⲛⲙⲓⲥⲓ .. Ⲭⲉⲛⲛⲉⲑⲗⲓⲟⲛ .. Ⲟⲩⲥⲓⲟⲩ ⲁϥϣⲁⲓ ..

ويقول "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م": "وإذا أعوزوا يقولون بلحن الفرح: **ⲅⲁⲗⲓⲗⲉⲁ̀**"(٤١).

٤٠- ويتفق معه "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".
انظر: الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ٤٨

٤١- انظر: الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ٤٩

وإذا تكامل التَّوزيع، وغسل الكاهن الأواني، يقولون الليلويا ذكصابتري كالعادة. ووقت التَّسريح يقولون الليلويا باللَّحن السَّنوي فإنها تُسمَّى الليلويا الملائكة(٤٢).

ثالثاً: حول المجوس والنَّجم

من هم المجوس؟

دُعوا في العهد الجديد، في بشارة القدِّيس متى، باسم "مجوس" Μάγοι أي حُكماء Sages . ويبرِّر القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) ذلك الأمر بقوله:

[ما كان المسيح متوَّجاً بتاج المُلك، ولا راقداً على سرير مطلي بالذَّهب ... فلو كان المجوس قد جاءوا طالبين مَلكاً أرضيًّا، لكانوا قد شعروا بالخزي بدلاً من الامتلاء بالفرح العظيم، لأنهم يكونون قد تحمَّلوا مشقَّة تلك الرِّحلة بدون مكافأة. ولكن لأنهم كانوا يبحثون عن مَلك سماوي، فرغم أنهم لم يروا فيه شيئاً ملكيًّا، إلاَّ أنهم إذ اكتفوا بشهادة نجم واحد، فقد انفرجت أساريرهم عندما رأوا طفلاً صغيراً فقيراً، لأنَّ الرُّوح أظهر لهم في داخلهم أنه كائن ذو رهبة، وعندما سجدوا له كانوا يرون إنساناً، ولكنَّهم عبدوا الإله](٤٣).

٤٢- هذا ما يذكره أيضاً "مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م".

٤٣- ما ورد هنا من أقوال للقدِّيس يوحنا ذهبي الفم في عظته السَّادسة على الإبيفانيا مأخوذ من:

Sermon for the Epiphany, The Sunday Sermons of the Great Fathers, vol.1, p. 210 - 221.

ولكن يرى الأُسقُف فارار، أنَّ كلمة "مجوس" يونانيَّة، ويذكر[٤٤] أنَّ معناها مُبهم وغامض. ولقد أُطلقت الكلمة أولاً على شيعة طلاَّب العلم المديانيِّين والفارسيِّين. ثم استُعملت بعد ذلك كما في (أعمال ١٣:٦-٧) لتُطلَق على الفلكيِّين الكاذبين، أو قرَّاء البخت الشَّرقيِّين. وأمثال هؤلاء كانوا معروفين في القديم باسم الكلدانيِّين، وكانوا أحياناً يرحلون حتى إلى البلاد الغربيَّة. ويروي لنا ديوجنوس لارتيوس عن أرسطاطاليس أنه قال إنَّ مجوسيًّا سوريًّا تنبأ له أنَّ سقراط سيموت ميتة عنف. ويخبرنا سنيكا أنَّ مجوسيًّا زار مقبرة بلاتو، وقدَّم عليها بخوراً كما لشخص إلهي. ولا يوجد في التَّقليد سوى كميَّة مشوَّشة متناقضة، لا تُلقي ضياءً على مركزهم، ومملكتهم، وعددهم، وأسمائهم.

أمَّا فكرة أنهم كانوا ملوكاً فقد ظهرت أولاً عند العلاَّمة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م)، فهو أوَّل من دعاهم ملوكاً. واستقرَّت هذه الفكرة في التَّقليد المسيحي، وأصبح ذلك تقليداً عاماً بدءاً من القرن السَّادس الميلادي على أساس نصِّ المزمور رقم (٧١/٧٢: ١٠). وربَّما يكون ذلك، استنتاجاً من نبوَّة إشعياء القائلة: «فيسير الأُمم في نورك، والملوك في ضياء إشراقك» (إشعياء ٦:٣). والظَّن أنهم عربٌ، قد بُني على أنَّ المُر واللُّبان هما من حاصلات بلاد العرب، مضافاً إلى ما جاء في (مزمور ٧٢: ١٠) «ملوك ترشيش والجزائر يرسلون تقدمة، ملوك شبا وسبا يقدِّمون هديَّة»[٤٥]. فبينما يقول البعض إنَّ أصلهم من البَّادية أو بلاد العرب، يقول البعض الآخر إنهم من العَجَم.

٤٤- فردريك و. فارار، حياة المسيح، تعريب الدُّكتور جورج يوسف عقداوي، المنصورة، ١٩٤٩م، ص ٣٨، ٣٩، ٤٦

٤٥- هذه الآية ترد في التَّرجمة القبطيَّة لسفر المزامير هكذا: «ملوك طرسوس والجزائر يُقدِّمون له الهدايا. ملوك العرب وسبا يقرِّبون له العطايا» (مزمور ٨:٧١).

ويقول تيودورت إنهم كلدان. وهيلاري إنهم إثيوبيُّون. وهوفمان إنهم هنود[٤٦]. فقد أشار القدِّيس يوستينوس الشَّهيد (١٠٠- ١٦٥م) والعلاَّمة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) إلى المجوس بأنهم من بلاد العرب. أمَّا العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠- ٢١٥م)، والقدِّيس كيرلس الكبير (٤١٢- ٤٤٤م)، فيذكران أنهم من بلاد فارس. وقال غيرهم إنهم من بابل. ويؤيِّد هذا الرأي الأخير، ما جاء في سفر دانيال عن المجوس والسَّحَرَة (دانيال ٢٠:١، ٢:٢)، حيث دُعوا في السِّفر «حُكماء بابل» (دانيال ١٢:٢).

وكان الاعتقاد السَّائد قديماً عند بعض آباء الكنيسة، أنَّ المجوس هم من نسل بلعام النَّبي الأُممي. وفي ذلك يقول القدِّيس يوحنا ذهبي الفم في عظته السَّادسة على الإبيفانيا:

> [نقرأ أنه كان هناك نبيٌّ من الأمميِّين، وهو بلعام، الذي أخبر مسبقاً بكلام محدَّد عن مجيء المسيح وتجسُّده من عذراء بقوله: «يبرز كوكب من يعقوب ...» (عدد ١٧:٢٤). والحكماء الذين رأوا النَّجم الجديد في المشرق، قيل إنهم كانوا من نسل بلعام هذا نبي الأميِّين. ولمَّا رأوا أعجوبة النَّجم الجديد آمنوا، إذ علموا أنَّ نبوَّة سلفهم قد تحقَّقت. وبذلك أظهروا أنهم ليسوا نسله بالجسد فحسب، بل وارثين أيضاً لإيمانه. بلعام نبيُّهم رأى النَّجم بالرُّوح، أمَّا هم فقد رأوه بعيونهم وآمنوا. بالنُّبوَّة أخبر بلعام مسبقاً أنَّ المسيح سيأتي، وهم برؤية الإيمان علموا أنه قد أتى].

ولكن يُظن حالياً أنَّ المجوس هم أتباع مذهب زردشت Zoroaster نبي

٤٦- فارار، حياة المسيح، مرجع سابق، ص ٣٨

الفُرس. ولقد كان وجود زردشت نفسه موضع شك عند كثيرين، وموضع جدل طويل بين النَّافين والمثبتين. ولقد ألَّف الأستاذ جاكسن Jackson كتاباً قيِّماً في حياته، ووصل في بحثه إلى أنه شخصٌ تاريخي لا خرافي، وأنه كان من قبيلة ميديا (في الجزء الشَّمالي الغربي من فارس)، وظهر أمره نحو منتصف القرن السَّابع قبل الميلاد، ومات نحو سنة ٥٨٣ ق.م، عن عمر ٧٧ سنة، وأنَّ موطنه كان أذربيجان، وقد انتشر دينه في فارس كلّها.

ولزردشت كتاب مقدَّس يُسمى "أفستا" Avesta وقد كُتب باللُّغة الفارسيَّة القديمة التي لا يعرفها أحدٌ اليوم. وإن الأفستا كان في عهد الدَّولة السَّاسانيَّة[٤٧] مؤلَّفاً من إحدى وعشرين سورة لم يبق منها في عهدنا إلاَّ سورة واحدة كاملة، وبعض آيات من سور مختلفة. وقد عامل المسلمون الزَّردشتيين في فتوحاتهم معاملة أهل الكتاب، وعدّوا كتابهم أنه كتاب منزَّل.

وتؤمن تعاليم زردشت بوجود إلهين للخير والشَّر، وهما "أهور"، و"أهرِمَن"، وهما في نزاع دائم، ولكلٍّ منهما قدرة الخلق ... وأصل الخير هو النُّور، وأصل الشَّر هو الظُّلمة. وأنَّ أشرف عمل للإنسان هو الزِّراعة والعناية بالماشية. وعلَّم أيضاً أنَّ الماء والهواء والنَّار والتُّراب عناصر طاهرة يجب ألاَّ تتنجَّس، وكان من مظاهر هذا، تقديس النَّار، واتخاذها رمزاً، وتحريم تنجيس الماء الجاري، وتحريم دفن الموتى في الأرض، ونحو ذلك.

ومن تعاليمه أيضاً، أنَّ للإنسان حياتَين، حياة دُنيا، وحياة بعد الموت.

٤٧- الدَّولة السَّاسانيَّة هي الدَّولة التي حكمت فارس قبل دخول الإسلام إلى البلاد، واستمرت في الحُكم من سنة ٢٢٦ - ٦٥١م، حين تسلَّمها العرب من أيديهم، وحكموها بولاتهم، وكان لهذه الدَّولة السَّاسانيَّة الأثر المباشر في المسلمين من النَّاحية الدِّينيَّة والأدبيَّة جميعاً.

وأن نصيبه في حياته الآخرة، نتيجة أعماله في حياته الأولى. وفي الأيام الثَّلاثة الأولى التي تعقُب الموت، تُحلِّق نفس الإنسان فوق جسده، وتنعم أو تشقى تبعاً لأعماله. ومن أجل هذا، تُقام الشَّعائر الدِّينيَّة في هذه الأيام إيناساً للنَّفس. وأنَّ زردشت نفسه يكلِّمه الله ويُنزل عليه الوحي. وكان يعلِّم أنَّ يوم القيامة قريب، وأن نهاية هذه الحياة ليست بعيدة ... الخ[٤٨].

عدد المجوس وأسمائهم

لم يذكر العهد الجديد عددهم، إلاَّ أنَّ هناك تقليدان في هذا الأمر:

التَّقليد الأوَّل: يذكر أنهم كانوا اثني عشر، أي ثلاثة أرابع. وهو ما يقول به القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م)، والقدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م). ولا زال التَّقليد الآشوري يذكر ذلك أيضاً، حيث يقول إنَّ أربعة منهم يحملون الذَّهب، وهم: أرفانديد، هورموسند، كوزناساب، وأرشاق. وأربعة يحملون المُر، وهم: زراندر، أكريهو، أرباكشست، وأشتون كاكودن. وأربعة يحملون البُخور، وهم: محروس، أخشروش، سادلاك، وميروداك.

التَّقليد الثَّاني: وهو التَّقليد الأكثر شيوعاً، والمرتكز في الغالب على عدد الهدايا. فيذكر أنهم كانوا ثلاثة فقط. والعلاَّمة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م) هو أوَّل من حدَّد عددهم بثلاثة تبعاً لعدد هداياهم الثَّلاث. وأصبح ذلك هو التَّقليد العام في الكنيسة.

وجدير بالذِّكر أنَّ إنجيل يعقوب، وهو من بين الأناجيل المنحولة التي تحكي عن طفولة يسوع، قد أورد قصَّة ميلاد يسوع بالتَّفصيل، ولم يصلنا

٤٨- أحمد أمين، فجر الإسلام، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٦م، ص ١٥٤ وما بعدها.

إلاَّ في اللُّغة الأرمينيَّة فقط، ومنه أُخذت أسماء المجوس الثَّلاثة التي لم تُذكر في الأناجيل الرَّسميَّة، وهم: جاسبار Gaspar ، ملخيور Melchior ، بلثسار Balthasar وقد ورد ذكر هذه الأسماء لأوَّل مرَّة في القرن السَّادس الميلادي(٤٩).

أمَّا "بيد" فيذكر أيضاً أسماءهم وممالكهم وملامحهم، فيقول إنَّ الأوَّل كان شاباً، أشعث، طرير اللِّحية. من نسل سام. أمَّا الثَّاني، فكان عجوزاً طويل اللِّحية، أبيض الشَّعر. ومن نسل حام. أمَّا الثَّالث، فهو متوسِّط العُمر، أسمر اللَّون. وهو من نسل يافث.

فيجعلونهم كأنما يمثِّلون أدوار الحياة الثَّلاثة، وأقسام الأرض الثَّلاثة. ومع أنَّ هذه الرِّوايات الخياليَّة لا قيمة لها من الوجهة التَّاريخيَّة، لكنَّها صارت ذات أهمِّيَّة، لما كان لها من عظيم الأثر في الصُّور الدِّينيَّة القيِّمة.

وفي القرون الوُسطى، كُرِّموا كقدِّيسين بواسطة فريدريك بارباروزا Fredrick Barbarossa (١١٢٢-١١٩٠م). والتَّقليد السَّائد في مدينة ميلان بألمانيا، هو أنها تحتفظ برفاتهم التي أحضروها من القسطنطينيَّة في القرن الخامس. ولا زالت تُعرض ضمن ذخائر كنيسة كولونيه، ثلاث جماجم تُعزى لهؤلاء الملوك الثَّلاثة، وعلى كلٍّ منها تاجها الذَّهبي المرصَّع. ويُقال إنَّ الأُسقُف رينالد، هو الذي اكتشفها في القرن الثَّاني عشر ... ولكن يذكر فارار أنهم بعد أن رجعوا إلى كورتهم من طريق آخر، لم يذكر الكتاب المقدَّس، ولا التَّواريخ الموثوق بها، ولا حتى التَّقاليد الأبوكريفيَّة القديمة، أيَّ أثر آخر عنهم(٥٠).

49- Cf. ODCC, 2nd edition, p. 858.

٥٠- فارار، مرجع سابق، ص ٤٦

النَّجم الذي ظهر للمجوس

أمَّا عن نجم المجوس، فيقول عنه القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) أنه كان قوَّة من القوَّات غير المرئيَّة، ظهر ليدعو المسكونة كلَّها للسُّجود للمولود. ففي عظته السَّادسة على إنجيل القدِّيس متى يقول:

[لم يكن هذا النَّجم واحداً من الأجرام السَّماويَّة، لأنَّ أي نجم آخر لا يتحرَّك بهذه الطَّريقة. فقد كان النَّجم يتحرَّك من الشَّرق إلى الغرب، فهذا هو موقع فلسطين بالنِّسبة لبلاد فارس.

ومن ناحية أُخرى، فهذا واضح من أوقات ظهوره، لأنه يبدو أنه كان واضحاً ليس في اللَّيل فقط، بل في وَضَح النَّهار أيضاً، وهذا ليس من طبيعة أيِّ نجم، ولا حتى القمر.

ومن ناحية ثالثة، فكان يخفي نفسه أحياناً، كما عندما دخل المجوس إلى أورشليم، وعندما تركوا هيرودس أظهر نفسه مرَّة أُخرى. إذاً فليس له فَلَكٌ خاص به، ولكن عندما يرحل المجوس، يرحل معهم. وعندما يتوقَّفون، يتوقَّف هو أيضاً مثل عامود السَّحاب في البريَّة (خروج ١٣:٢١).

ومن ناحية رابعة، فقد أشار النَّجم إلى نسل العذراء، ولكنَّه تمَّم ذلك ليس ببقائه عالياً، بل بهبوطه الذي دلَّ على تصرُّف قوَّة عاقلة ... وهكذا فإنَّ النَّجم لم يكن سوى علامة قوَّة غير مرئيَّة، كشفت عن ذاتها في تلك الهيئة].

ويقول أيضاً:

[... قال الرَّب عن نفسه: «أنا أصلُ وذريَّة داود، كوكبُ الصُّبح المنير» (رؤيا ٢٢:١٦)، لأنه بإشراق مجيئه، إذ تبدَّد ليلُ

الجهالة، أضاء كوكب الصُّبح المنير لأجل خلاص العالم، هذا الذي إذ بلغ بهاؤه إلى قلوب المجوس، ملأهم بنور روحاني لكي يعرفوا بواسطة أعجوبة النَّجم الذي أشرق حديثاً، أنَّ خالق السَّماء هو ملك اليهود][٥١].

كان الاعتقاد الجازم في تلك العُصور، هو أنَّ أية ظاهرة فلكيَّة غريبة، إنما تدلُّ على مجيء مَلك. وربما يكون هذا الاعتقاد قد نبت من نبوَّة بلعام العرَّاف الأُممي. وحتى اليونان والرُّومان كانوا يعتقدون أنَّ ميلاد أو وفاة الرِّجال العظام، يصحبه دائماً ظهور أو أفول أحد الأجرام السَّماويَّة. واستمر اعتقادهم هذا إلى وقت قريب. وظهور النُّجوم واختفائها، ليس بالأمر النَّادر، ولكن المدهش حقاً أن يستمر ظهور نجم نحو سنتَين.

ويشير القدِّيس يوحنا ذهبي الفم إلى أنَّ المجوس بواسطة النَّجم، قد أدركوا أنَّ كرامة الملك المولود حديثاً، قد تفوَّقت على كرامة جميع الملوك الأرضيِّين، ولذلك يقول الإنجيلي: «فلمَّا رأوا النَّجم فرحوا فرحاً عظيماً جداً» (متى ٢: ١٠).

ويتأمَّل القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) في هذا النَّجم العجيب فيقول في ذلك:

[... وبينما كان الإله يتربَّى على الصَّدر، ويخضع لرباطات الأقمطة المتواضعة، سطع على الأرض فجأة نجمٌ جديد من السَّماء، ملاشياً الظُّلمة من العالم كلِّه، ومحوِّلاً اللَّيل إلى نهار لئلا يحجب اللَّيل النَّهار][٥٢].

٥١- العظة السادسة على الإبيفانيا

52- Sermon 61C, *Acw*, vol. 50, p. 254

وفي العظة السَّادسة للقدِّيس يوحنا ذهبي الفم عن الإبيفانيا، يقول:

[... هذا النَّجم رآه الجميع، ولكن لم يفهمه الجميع. لقد فهمه الأُمميُّون ولم يفهمه اليهود. تعرَّفت عليه الكنيسة وأنكره مجمع اليهود](٥٣).

زمن زيارة المجوس

أمَّا عن زمن زيارة المجوس للطِّفل الإلهي، فقد تشعَّبت فيها الآراء، ولكن بحسب رواية القدِّيس متى البَّشير (متى ٢:١١) نعرف أنَّ المجوس دخلوا "البيت"، وليس "المغارة"، ورأوا "الصَّبي"، وليس "الطِّفل" مع مريم أُمِّه، فخرُّوا وسجدوا له. وذلك لأنَّ الرِّحلة الَّتي قطعها هؤلاء الحُكماء من فارس إلى أورشليم بعد رؤيتهم النَّجم الذي ظهر لهم منبئاً بميلاد المخلِّص، لا يمكن أن تستغرق أقل من سنتَين في ذاك الزَّمان، إذ كان يلزمهم عبور سلاسل جبال زاجروس، وعبور بلاد العراق والشَّام حتى يصلوا إلى أورشليم، ليسألوا عن المولود الملك. وهاتان السَّنتان اللَّتان استغرقتهما الرِّحلة، تتَّضح من رواية الإنجيل كما يذكرها القدِّيس متى حين يقول: إنَّ هيرودس قد أمر بقتل أطفال بيت لحم من ابن سنتَين فما دون «بحسب الزَّمان الذي تحقَّقه من المجوس».

وهو الرأي الذي يراه القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م)، في قوله السَّابق الإشارة إليه. وهو أيضاً نفس الرأي الذي أورده العلاَّمة ابن الصَّليبي في شرحه للإصحاح الثَّاني من إنجيل القدِّيس متى (ص ٦٩، ٧٠)، حيث ينقل عن القدِّيس إبيفانيوس (٣١٥- ٤٠٣م) قوله:

[إنَّ مخلِّصنا وُلد في بيت لحم. وخُتِّن في المغارة. وأُصعد إلى

٥٣- العظة السَّادسة على الإبيفانيا.

الهيكل، وحمله سمعان. ومُضي به إلى النَّاصرة. وفي السَّنة الثَّانية، جاءوا به ليظهروا أمام الرَّب، ثم مضوا إلى بيت لحم. وفي آخر السَّنتين أصعدوه أيضاً إلى أورشليم، ومضوا به إلى بيت لحم محلّ ولادته، لأنه كان محبوباً لديهم، وكانوا على الدَّوام يحبُّون زيارة المكان الذي وُلد فيه. وبينما هم في بيت لحم، أتى المجوس].

إلاَّ أنَّ القدِّيس يوحنا ذهبي الفم له رأيٌ آخر في ذلك، أورده في عظته السَّابعة على إنجيل القدِّيس متى فيقول:

[هذا النَّجم ظهر مبكِّراً، حيث أنَّ المجوس كان عليهم أن يستغرقوا وقتاً في السَّفر، حتى إنه بمجرد أن يولد الرَّب يكونون قريبين منه، لأنهم يجب أن يسجدوا له وهو في أقماطه، حتى يظهر هذا الحدث أكثر عجباً].

هدايا المجوس

لقد نالت الهدايا التي قدَّمها المجوس ليسوع، اهتماماً في تفسيرها، من كثير من معلِّمي الكنيسة وآبائها. فعند رومانس الملحِّن النَّابغة في الكنيسة البيزنطيَّة، تمثِّل هذه الهدايا الثَّلاثة انعكاساً على الأرض لتسبيح الملائكة المثلث التَّقديس في السَّماء. فيقول: "تقبَّل هذه العطيَّة المثلَّثة الشَّكل، كالنَّشيد المثلَّث التَّقديس الذي يرنِّمه لك السِّيرافيم".

ولقد رأي كثيرون، منذ أيام العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) تقابلاً بين بعض الفضائل وهدايا المجوس: فالذَّهب هو الأعمال الصَّالحة التي لا تحرقها النَّار، والبُخور هو الاعتراف بالله، والمُر هو إيماننا بقيامة المسيح.

وتُقدِّم لنا إبصاليَّات عيد الميلاد في الكنيسة القبطيَّة، التَّفسير التَّقليدي

لهدايا المجوس، فتقول الإبصاليَّة:

"أتي ملوك المجوس من المشرق، وسجدوا للمسيح ذي الاسم المكرَّم. حقاً فتحوا كنوزهم، وقدَّموا له قرابين ثلاثة: لُباناً علامة على ألوهيَّتـه، وذهباً إشارة إلى أنه ملك، ومُراً إشارة إلى موته المحيي"(٥٤).

وهو نفس ما تشير إليه ثيؤطوكيَّة يوم الخميس: "ولهذا سـجد لـه المجوس ساكتين وناطقين بلاهوته. قدَّموا له لُباناً كإله، وذهباً كملك، ومُراً علامة على موته المحيي، هذا الذي قَبِله من أجلنا".

أمَّا القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) فيرى أنَّ الذَّهب يعـني سُلطان المُلك، واللُّبان يعني كرامة الله، والمُر يعني: دفن الجسد. وبناءً على ذلك، فقد قدَّموا له ذهباً كملك، وبخوراً كإله، ومُراً كإنسان. وهكـذا بهداياهم أعلنوا أنه هو المسيح والإله والملك الذي يملك على الإنسان(٥٥).

أمَّا بعض المؤلِّفين في العُصور الوُسطى، فقـد رأوا رمـز المحبَّـة في الذَّهب، ورمز الصَّلاة في البُخور، ورمز الإماتة المنقِّية في المُر(٥٦).

رجوع المجوس من طريق أُخرى

يقول القدِّيس متى البَّشير: «... ثم إذ أوحي إلـيهم في حُلـم أن لا يرجعوا إلى هيرودس، انصرفوا في طريق أُخرى إلى كورهم» (متى ٢: ١٢).

وهكذا لم يمكن لحكماء المشرق أن يدركوا بحكمتهم شرَّ هـيرودس وخُبث نيَّته، لولا أن أوحي إليهم من السَّماء. و لم توصِّلهم حكمتـهم إلى

٥٤- إبصاليَّة آدام على ثيؤطوكيَّة يوم الأحد لعيد الميلاد.

٥٥- العظة السَّادسة على الإبيفانيا.

٥٦- حياتنا اللِّيتورجيَّة، العدد ١٤، سنة ١٩٩١م، ص ١٨٧، ١٨٨

يسوع، بل قادهم نجم سماوي في مجيئهم إليه. وقادهم إعلان سماوي في عودتهم. وبالضَّرورة لا يمكن لمن يتقابل مع يسوع أن يعود من ذات الطَّريق الذي أتي منه إليه، إذ يكون قد أدرك أنَّ يسوع نفسه هو الطَّريق الحقيقي الوحيد المؤدِّي إلى الحياة.

ولم ينس القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م)(٥٧) ومن بعده البابا غريغوريوس الكبير (+ ٦٠٤م) التَّعليق على موضوع "الرُّجوع في طريق أُخرى" فالإنسان قد أضاع الفردوس، موطنه الأوَّل، عندما جُذب نحو الخليقة، فعليه أن يرجع إليه، أي أن يصحِّح طريقه بالتَّوبة(٥٨).

وفي ذلك يقول القدِّيس يوحنا ذهبي الفم:

[... وبرجوع المجوس من طريق آخر، أبطلوا قساوة الطَّاغية (هيرودس). وهكذا صار الطِّفل الملك المولود معروفاً للبَّشر بواسطة المجوس، وغدر هيرودس انتهى إلى لا شيء ...](٥٩).

ونجد نصوصاً في اللِّيتورجيَّة البيزنطيَّة واللِّيتورجيَّة السِّريانيَّة الغربيَّة (الأنطاكيَّة) تعبِّر عن تحول عُبَّاد الوَّثن إلى عبادة الإله الحقيقي: "إنَّ السَّاجدين للكواكب، تعلَّموا السُّجود لك يا شمس البر"(٦٠). "إنَّ الشَّمس قد أدَّت للطِّفل العبادة الواجبة له، فإنها قد قدَّمت له الإكرام بشخص المجوس، فعبدته هكذا بشخص عُبَّادها"(٦١).

57- Sermon 202, 4, PL 38, 1035.

٥٨- حياتنا اللِّيتورجيَّة، العدد ١٤، سنة ١٩٩١م، ص ١٨٧، ١٨٨

٥٩- العظة السَّادسة على الإبيفانيا.

٦٠- طروباريَّة عيد الميلاد في الطَّقس البيزنطي.

٦١- نشيد من اللِّيتورجيَّا السِّريانيَّة.

الفَصل السَّابع

طقس أيام ما بعد عيد الميلاد

هناك فترتان في السَّنة اللِّيتورجيَّة القبطيَّة، تعرَّضتا للتَّطوُّر الطَّقسي على مرِّ الأيام والسنين:

الفترة الأولى: هي الفترة الواقعة ما بين عيدَي النَّيروز والصَّليب، في مستهل السَّنة القبطيَّة. وقد نالها تطوُّرات متلاحقة عبر السِّنين، ولاسيَّما في المائة سنة الماضية تقريباً. ولكن ظلَّت مخطوطات ترتيب البيعة حتى بدايات القرن العشرين تشرح الطَّقس الذي عُرفت به هذه الفترة منذ العُصور الوُسطى على الأقل، وبالتَّحديد منذ القرن الرَّابع عشر الميلادي، أو قبله بقليل.

ولقد شرحتُ هذا الأمر في كتاب "الزَّمن الطَّقسي بين عيدَي النَّيروز والصَّليب"، فارجع إليه إن شئت.

الفترة الثَّانية: هي تلك الواقعة بين عيدَي الميلادي والغطاس. وهي الأُخرى قد نالها تطُّورات طقسيَّة، ولاسيَّما بدءاً من النِّصف الثَّاني من القرن العشرين. أمَّا طقسها القديم الذي عُرفت به من قَبل، فهو محفوظ في كُتُبنا الطَّقسيَّة ومخطوطاتنا الكثيرة المنتشرة في مكتبات مصر والعالم، ولاسيَّما مخطوطات ترتيب البيعة.

وعن هذه الفترة الثَّانية، يدور حديثنا في هذا الفَصل من الكتاب.

نعرف من قوانين الكنيسة في القرن الثّالث عشر، أنّ طقس الفرح في عيد الميلاد يمتد إلى يومين، أي يوم العيد واليَوم التّالي له. فبحسب قوانين البابا كيرلس الثّالث (ابن لقلق) (١٢٣٥- ١٢٤٣م)، يُعامل ثاني يوم الميلاد (٣٠ كيهك) كطقس عيد الميلاد تماماً[1].

ولدينا إشارة قديمة لذلك، ترقى إلى القرن السّابع الميلادي، أيام البابا بنيامين (٦٢٣- ٦٦٢م) الـ ٣٨ من باباوات الكرازة المرقسيَّة.

وهو أيضاً نفس ما يذكره كتاب "الجوهرة النَّفيسة في علوم الكنيسة" لابن سباع (القرن الثّالث عشر) عن عيد الميلاد، حيث يقول ما نصُّه: "... عيد الميلاد وهو يومان، الثّامن والعشرين من كيهك، ويوم التّاسع وعشرين، وذلك لأنه شهد السِّنكساري بتعييد اليَومين معاً، لأنّ المسيح له المجد توالد في الثّامن والعشرين، وملا نوره المغارة فلم ينظروا. (ثم) رؤي في التّاسع والعشرين طفلاً ملفوفاً بالخرق في مذود داخل مغارة بيت لحم كما تنبأت عليه الأنبياء، وكذلك **عيَّدوا له اليَومين معا**"[2].

وهو أيضاً نفس ما أشار إليه كتاب "خدمة الشمَّاس والألحان" ضمن التَّنبيهات الطَّقسيَّة الاثني عشر التي أوردها في بداية الكتاب المذكور، حيث يقول في البند الحادي عشر منها: "إذا وقع عيد الميلاد يوم ثلاثاء فيكون يوم الأربعاء فطراً، وإذا جاء يوم الخميس يكون الجمعة

1- O.H.E. KHS - Burmester, *The Canons of Cyril III Ibn Laklak 75th Patriarch of Alexandria* A.D. 1235- 1250, dans Bulletin de La Société d'Archéologie Copte (BSAC), t. 12, 1947, p. 125.

٢- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ٣١٠، ٣١١

فطراً''، وهنا أجاز هذا التَّنبيه الفطر في يومي الأربعاء والجُمعة إن وقع أيهما ثاني يوم عيد الميلاد، بغض النَّظر عن تاريخ وقوع العيد نفسه، سواء كان في ٢٨ كيهك أو في ٢٩ كيهك. وهكذا اتفقت المصادر القديمة على أنَّ عيد الميلاد يمتد إلى يومين كاملين، بدون أيِّ استثناءات أو محاذير.

ولكن ظهر مؤخَّراً تفسير طقسي لثَّاني يوم عيد الميلاد، يقول بأنه إن وقع عيد الميلاد يوم ٢٩ كيهك، وكان اليَوم التَّالي له أربعاء أو جُمعة، فيُفرض فيه الصَّوم. وهو ما يتكرَّر ثلاث مرَّات كلَّ أربع سنوات. أمَّا إذا وقع عيد الميلاد يوم ٢٨ كيهك، ووافق اليوم التَّالي (٢٩ كيهك) أربعاء أو جُمعة، فلا يصام ذلك اليَوم.

وهو تعليلٌ قد فرَّق طقسياً بين اليَوم التَّالي لعيد الميلاد إن وقع العيد في ٢٨ كيهك أو وقع في ٢٩ كيهك. وهذا التَّفسير قد سبَّب تشويشاً فيما يختص بطقس ثاني يوم عيد الغطاس - والذي يُعامل معاملة عيد الغطاس تماماً من جهة الطَّقس والصَّوم - حيث يقول التَّفسير أنه إذا وقع ثاني أيام عيد الغطاس يوم أربعاء أو جمعة لا يُصام انقطاعياً!، (أي يُصام بدون فترة انقطاع). فما معني صومٌ لا تسبقه فترة انقطاع عن الطَّعام؟

إن كُتُبنا الطَّقسيَّة حتى اليَوم، لا زال بعضها يفسِّر سبب صوم البرامون السَّابق للعيد، ليس كاستعداد يسبق العيد، بل ''تعويض'' عن فطر يوم الأربعاء والجُمعة إن وقع عيد الميلاد أو عيد الغطاس في أي منهما. فيذكر السِّنكسار تحت اليَوم العاشر من طوبة (برمون عيد الغطاس المجيد) النَّص التَّالي:

''في هذا اليَوم تقلَّدت جميع الكنائس المسيحيَّة عن الآباء القدِّيسين معلِّمي الكنيسة أن نصوم إلى الغروب، ولا نأكل شيئاً من الزُّهومات إلاَّ ما

جرت به العادة أن يؤكَّل في الأربعين المقدَّسة. والسَّبب في ذلك، هو أنَّ الرُّسُل القدِّيسين رسموا لنا أن يأكل المؤمنون في يومي الأربعاء والجُمعة إذا اتفق فيهما عيد الميلاد أو الغطاس سائر الأطعمة المحلَّل أكلها في أيام الخمسين، لأنهما عيدان للرَّب. ولئلا يُظنُّ بنا أننا نهمون منهمكون في لذَّات العالم الزَّائلة، رُسم لنا أن نتقدَّم هذين اليَومين بالصَّوم في يومين عوضاً عنهما، ليكمل لنا القصدان، قصد الصَّوم، وقصد العيد ...".

وهذا الكلام منقول من كتاب "الجوهرة النَّفيسة في علوم الكنيسة" ليوحنا بن سباع في القرن الثَّالث عشر أو الرَّابع عشر، حيث يقول: "... وهذين اليومين (أي الأربعاء والجُمعة) لا رُخصة فيهما أبداً ما دامت الشَّمس تطلع. وسبب التَّأكيد في ذلك، أنَّ اليومين المجيدَين وهما الميلاد والظُّهور، أي الغطاس، متى اتفق حضور أحدهما في هذين اليومَين، لا يمكن صوم العيد السيِّدي، فجعلوا يوما صوما قبل حضور العيد لمعنيين؛ أحدهما أن يصير للعيد بهجة في النَّفس لأجل الفطر بعد الصَّوم، والآخر تعويض احد اليومين الأربعاء والجُمعة، إذا جاء العيد فيه، حتى لا يقع تفريط في صوم هذين اليومين جُملة كافية"[٣].

وحريٌ بنا أن نعرف، أنَّ هذا الكلام السَّابق ذكره، لم تذكره قوانين البابا خريستوذولوس (١٠٤٧ــ ١٠٧٧م)، ولا قوانين البابا كيرلس الثَّالث بن لقلق (١٢٣٥ــ ١٢٤٣م)، وهي القوانين التي وضعها المجمع المقدَّس للكنيسة القبطيَّة، متمثلاً في أساقفتها في زمن هذا البطريرك المذكور.

ثم أنَّ مفهوم البرامون بالتَّحديد عند كلٍّ من ابن سباع وابن كبر، كان مفهوماً ضعيفاً. فهو عند الأوَّل "على خلاف العادة"، وعند الثَّاني

٣- نفس المرجع، ص ٨٨

"الوقفة". بالإضافة إلى أنَّ صوم البرامون "كتعويض" عن صوم كان يلزم في عيد الميلاد إن وقع يوم أربعاء أو جمعه، هو مبدأ ينفي مفهوم البرامون كاستعداد للعيد. فماذا يكون الحال في مبدأ التَّعويض هذا، إذا لم يقع عيد الميلاد أو الغطاس في يوم أربعاء أو جمعة؟ واضحٌ هنا أنَّ تفسير سبب صوم البرامون كتعويض عن صوم آخر، هو تفسير يحتاج إلى مراجعة.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ أوَّل مرَّة يرد فيها حديث عن صوم كتعويض عن صوم آخر، تجيء إلينا من قوانين هيبوليتس القبطيَّة (القرن الخامس)، فمن القانون (٢٢:٣): "... وإن كان واحدٌ مريضاً أو في كورة ليس فيها نصراني، ويفرغ زمان البصخة، و لم يعرفه كحدِّه، أو لأجل مرض أخَّره عن الصَّوم، فليصوموا بعد الخمسين، ويصنعوا البصخة بأدب، لتتبيَّن نيَّتهم أنهم لم يتوانوا بغير مخافة".

فهنا حديث عن أيام أسبوع البصخة بالتَّحديد، وليس أيّ صوم آخر. لأنَ قوانين هيبوليتس نفسها، تعرف أصواماً أُخرى غير صوم البصخة المقدَّسة، هي أصوام الأربعاء والجُمعة، والأربعون المقدَّسة. فتذكر في القانون العشرين منها: "أيام الصَّوم التي قُنِّنت هي: الأربعاء والجمعة والأربعون. والذي يزيد على هذا، فإنه ينال أجراً".

هذا؛ وعلى الرَّغم من أنَّ صوم يوم الأربعاء والجُمعة، هو صوم قديم في الكنيسة، قد ورد ذكره بوضوح عند العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠- ٢١٥م)[٤]، إلاَّ أنه ليس هناك قانون قديم في الكنيسة يجعل من طقس صوم الأربعاء والجمعة قريناً بطقس الصَّوم المقدَّس الكبير، أو أسبوع البَصخة المقدَّسة. في حين أنَّ طقس البرامون يُعامل بقوانين كنسيَّة واضحة

٤- انظر: المتنوعات، ١٢:٧

معاملة طقس الصَّوم المقدَّس الكبير، كما ورد مثلاً في قوانين البابا ثاؤفيلس البطريرك الإسكندري[٥].

خلاصة القول، إنَّ صوم يوم البرامون لا يعني أبداً بديلاً أو تعويضاً عن عدم صوم يوم آخر، فليس هذا هو معنى البرامون. وإن انتهجنا هذا المبدأ، فلماذا لم نضف أسبوعَين آخرين على الصَّوم المقدس الكبير ليصبح عشرة أسابيع بدلاً من ثمانية عوضاً عن أيام الأربعاء والجمعة التي نفطر فيها في فترة الخمسين المقدَّسة، لأنَّ كلا المناسبتَين (أي الخمسين وعيد الميلاد) هي لأعياد سيديَّة كُبرى؟

وبعد كلِّ هذا الكلام عن اليَوم الثَّاني للعيد، وما يختص به من طقس وصوم، يذكر ابن كبر (+ ١٣٢٤م) عن فترة الفرح التي تعقب عيد الميلاد فيقول: "... ويستمر لحن الفرح من يومه إلى يوم العماد متتابعاً"[٦]. وهو نفس ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، والذي يقول في حديثه عن اليَوم التَّاسع والعشرين من كيهك: "وطريقة الفرح مستعملة من هذه اللَّيلة إلى آخر ثالث عشر طوبه، خلا برامون الغطاس بطريق السَّنوي"[٧]. وهو أيضاً نفس ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م": حيث يقول: "ترتيب شهر طوبه من يوم الميلاد إلى اليَوم التَّاسع من طوبه يُقرأ لحن الفرح".

إذاً فهو تقليدٌ مستمرٌ في الكنيسة القبطيَّة، بأن يستمر طقس الفرح من

5- Cf. PNF, 2nd Series, Vol. xiv, p. 613.

٦- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، البَاب ١٩

٧- الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ٣١

عيد الميلاد حتى إلى ما قبل برامون الغطاس، أي إلى اليَوم التَّاسع من طوبه. وهنا كيف سيستقيم صوم الأربعاء والجمعة في هذه الأيام مع الاحتفال فيها بطقس الفرح؟

إنَّ بيتَ القصيد في هذه الفترة هو طقس صوم أيام الأربعاء والجمعة الواقعة بين عيد الميلاد وبرامون الغطاس، فلأنه ليس هناك قانون محدَّد بخصوصهما، فقد تعدَّدت الآراء في ذلك إلى ثلاثة:

- الرأي الأوَّل: أن يُصام في هذين اليَومين صوماً انقطاعياً كباقي أيام السَّنة، وهنا سيحدث - كما أشرتُ من قبل - إلى تداخل بين الصَّوم وطقس الفرح لاسيَّما في حالة إقامة قُدَّاسات.

- الرأي الثَّاني: أن يُصام يومي الأربعاء والجُمعة، بدون فترة انقطاع. ولكن صوماً بدون فترة انقطاع، لا يُعدُّ ذلك الصَّوم صوماً.

- الرأي الثَّالث: لا يُصام أيام الأربعاء والجُمعة في هذه الفترة.

وربما كان الرأي الثَّالث هو اقتداءً بما تمارسه الكنائس الشَّرقيَّة الأُخرى الشَّقيقة. فالكنيسة السِّريانيَّة الأنطاكيَّة، ويتبعها الكنيسة المارونيَّة، تمتنع عن أكل اللُّحوم والمواد الغذائيَّة من أصل حيواني، كلَّ أيام الأربعاء والجُمعة من أيام السَّنة ما عدا الفترة الواقعة بين عيدي الميلاد والغطاس من جهة، وعيدي الفصح والصُّعود من جهة أُخرى.

وفي الكنيسة اليونانيَّة كذلك، فإنَّ الفترة الواقعة بين عيد الميلاد وبرامون الغطاس يُسمح فيها بكلِّ مأكول.

ويظلُّ الأمر وقفاً على قرار محدَّد من السُّلطة الكنسيَّة، في هذا الأمر، يُبطل تعدُّد الآراء.

البَاب الثَّالث

برامون وعيد الغطاس المجيد

الفَصل الأوَّل

رؤيـــة شـــاملة

«والشَّمس أشرقت على المياه»
(٢ملوك ٣:٢٢)

تمهيد

الإبيفانيا أي الظُّهور الإلهي هو عيد الغطاس. و"الغطاس" هو الاسم التَّقليدي لهذا العيد، ليس عند الأقباط فحسب، بل وفي كثير من كنائس الشَّرق المسيحي أيضاً.

وتعبير "الغطاس" يحمل المعنى الطَّقسي للعيد، كعيد لعماد الرَّب في مياه الأردن بالتَّغطيس. أي النُّزول إلى الماء والغوص فيه، كما كانت العادة الجارية في تعميد البالغين، وكما لا تزال حتى الآن في الكنائس الشَّرقيَّة. ولازالت لبعض قُرى صعيد مصر الواقعة على ضفاف نهر النِّيل، عادة نزول الشَّعب في مياه النَّهر ليغطسوا فيه، وذلك بعد انتهاء صلوات قُدَّاس العيد ليلاً.

وهذا التَّقليد، يشرح معنى المعموديَّة، كعملية دفن في الماء «مدفونين معه في المعموديَّة» (كولوسي ٢:١٢).

بين "الإبيفانيا" و"الثِّيؤفانيا"

يُعرف هذا العيد في الكنائس الشَّرقيَّة باسم "عيد الإبيفانيا"، والكلمة اليونانيَّة Ἐπιφάνεια (إبيفانيا) تعني "ظهور". وهذه اللَّفظة اليونانيَّة "إبيفانيا" لم تكن غريبة الاستعمال في العبادات الوثنيَّة اليونانيَّة،

إذ كانت تدل على "ظهور" إمَّا أشفية جسديَّة، أو وحيٌ بمعرفة خفيَّة. ثمَّ أُطلقت فيما بعد على ظهور الإمبراطور أمام الشَّعب. ثمَّ فقدت اللَّفظة التصاقها بالآلهة والأباطرة، وأصبحت تُطلق على كلِّ ظهور أو زيارة لواحد من العظماء لمدينة من المُدُن، أو مقاطعة من المقاطعات[1].

كما تُشتق الكلمة اليونانيَّة "إبيفانيا" من فعل يوناني تستعمله التَّوراة السَّبعينيَّة في المزامير، للدَّلالة على ميزة إضاءة نور الله على شعبه. وهي تُستعمل عند الأنبياء أيضاً كنعت أو وصف ليوم الرَّب[2]. أمَّا في العهد الجديد، فيختص القدِّيس بولس الرَّسول باستعمالها في رسائله ليدُل بها على المجيء المجيد[3].

ثمَّ استُخدمت الكلمة في الكنيسة المسيحيَّة لتختص بظهور الثَّالوث القدُّوس إبَّان معموديَّة المسيح في مياه الأردن، ولتكون هي اسم هذا العيد Ἐπιφάνεια أي: "ظهور الله واستعلانه للعالم". أي استعلان أقانيم الثَّالوث القدُّوس الآب والابن والرُّوح القُدُس. الآب في السَّماء يشهد لابنه الحبيب بصوت سمعته الجموع كرعد[4]، والابن الكلمة في مياه الأردن يكمِّل مشيئة أبيه، ويعتمد من يوحنا المعمدان، والرُّوح القُدُس نازلاً مثل حمامة ومستقراً على الابن.

ولأنَّ العيد هو عيد الظُّهور الإلهي، فمن ثمَّ صارت الكلمة اليونانيَّة Θεοφάνεια (ثيؤفانيا) هي الكلمة التي تحدِّد بالفعل كُنه هذا الظُّهور ونوعيَّته على أنه "ظهورٌ للإله في أقانيمه الثَّلاثة".

١- حياتنا اللِّيتورجيَّة، السَّنة الثَّانية، ١٩٩١م، العدد ١٤، ص ١٨٠
٢- يوئيل ٢:٣١ ؛ حبقوق ١:٧ ؛ ملاخي ١:٤
٣- ١تيموثاوس ٦:١٤ ؛ ٢تيموثاوس ١:١٠ ، ٤:١، ٨
٤- يوحنا ١٢:٢٩

وكان القدِّيس غريغوريوس النَّزينزي (٣٢٩-٣٨٩م) أو النَّاطق بالإلهيَّات، يُسمِّي عيد الميلاد بهذا الاسم "الثِّيؤفانيا" وذلك بعد أن صار عيد الميلاد عيداً مستقلاً عن عيد الغطاس. أي دعاه "الظُّهور الإلهي" كمرادف لعيد الميلاد، ولكن هذه التَّسمية لم تدم طويلاً، لأنَّ القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) قد أبقى تعبير "الثِّيؤفانيا" مرادفاً لتعبير "الإبيفانيا"، لكي يعبِّر كلاهما عن عيد الغطاس، أو عماد الرَّب في مياه الأردن، واستعلانه للعالم كلِّه. فيقول في ذلك:

[إننا ندعو هذا اليَوم باسم "إبيفانيا" أي الظُّهور، لأنَّ نعمة الرَّب الخلاصيَّة، قد ظهرت لكلِّ النَّاس. فلم لا ندعو ظهوراً، اليَوم الذي وُلد فيه، بل اليَوم الذي اعتمد فيه؟ لأنَّ ظهوره لكلِّ النَّاس، لا يبدأ بميلاده، إنما يبدأ بمعموديَّته. فقد كان كثيرٌ من النَّاس لا يدرون به حتى ذلك الحين][٥].

وهو ما استقرَّت عليه الكنائس حتى اليَوم. ويُسمَّى هذا العيد في الكنيسة السِّريانيَّة "عيد الدِّنح"، حيث أنَّ الكلمة السِّريانيَّة "دْنَحْ" تعني إعلان الحضور الإلهي، وهي ترادف في المعنى الكلمة اليونانيَّة "إبيفانيا".

عيد الغطاس هو عيد الأنوار

ومن الأسماء القديمة لهذا العيد أيضاً: "عيد الأنوار" أو "عيد الأنوار المقدَّسة". إذ كان هو أحد المناسبات الرَّئيسيَّة في الكنيسة الأولى، والتي فيها يتم منح سرّ المعموديَّة للموعوظين. حيث كانوا بعد معموديتهم يحملون الشُّموع الموقدة، ويدخلون إلى الكنيسة في موكب مبدع، هو موكب النُّور يحمله أبناء النُّور، ليشتركوا للمرَّة الأولى في اللِّيتورجيَّة

5- St. Jean Chrysostome, *Homele Baptesimo Christi*, 2, PG 49, 365-366.

المقدَّسة، ويتناولون الأسرار المقدَّسة، حيث يقتبلون النُّور الحقيقي الذي يسكن قلوبهم ويضئ حياتهم.

ولازالت هناك مقاطع من صلوات هذا العيد في الطَّقس السِّرياني، تبرِّر بمعانيها، تسمية هذا العيد بعيد الأنوار. فنقرأ مثلاً: "مباركٌ من هو نورٌ من نور، وإلهٌ من إله. وقد أنار الأرض بأشعَّته، وبرَّر المسكونة بعماده". وأيضاً: "ياربُّ، أنت هو النُّور المنير جميع البرايا. وأنت بعمادك أنرت العالم بجملته. أنرنا كلَّنا ياربُّ بنور عمادك المجيد"[٦].

وفيما يلي مقطعان من الصَّلوات اللِّيتورجيَّة في الكنيسة السِّريانيَّة يشرحان نفس المعنى، وهما:

"أشرق نورُ ربِّنا في الماء، فابتلع الظَّلام بأعجوبة. انزلوا يا أمَّة، واعتمدوا في النُّور".

وأيضاً: "في هذا اليَوم، أشرق لنا شمسُ البر الذي اسمه قبل الشَّمس، فأنار جميع البرايا التي كانت مُظلمة بدنحه المسجود له، والذي أشرق لنا من نبت داود"[٧].

إذاً فقد حمل هذا العيد السِّيدي الكبير كأقدم وأوَّل عيد عرفته الكنيسة المسيحيَّة بحسب شهادة القدِّيس يوحنا ذهبي الفم[٨]، الأربعة أسماء الشَّهيرة له وهي: "عيد الغطاس"، و"عيد الإبيفانيا"، و"عيد الثِّيؤفانيا"، و"عيد الأنوار".

٦- صلاة الفرض لأيام الآحاد والأعياد، ويُسمَّى "فنقيت"، فصل ٣، ص ٢٢

٧- نفس المرجع، فصل ٣، ص ٢٧٦

8- Davis, J.G., A Dictionary of Liturgy and Worship, SCM Press LTD, 1972, p. 171.

الإشارات المبكِّرة عن الاحتفال بعيد الغطاس في مصر

من أقدم الإشارات التي وصلت إلينا عن الاحتفال بهذا العيد في مصر، تعود إلى الرُّبع الثَّاني من القرن الثَّاني الميلادي. فالعلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م) يذكر أنَّ إحدى شيع الغنوسيِّين، والتي كانت تتبع باسيليدس Basilides الهرطوقي الغنوسي[٩]، كانت تحتفل بهذا العيد في يوم ٦ يناير، كأحد الأيام التي اختيرت للاحتفال به في كلِّ سنة، لتذكار عماد السيِّد المسيح في مياه الأردن. فيكتب بعد حديثه عن تاريخ ميلاد المسيح يقول:

[إنَّ أتباع واسيليدس يعيِّدون أيضاً ليوم معموديَّة يسوع، ويقضون اللَّيلة السَّابقة للعيد كلِّها في القراءات. ويقع هذا بحسب رأيهم في السَّنة الخامسة عشرة للملك طيباريوس، في اليَوم الخامس عشر أو اليَوم الحادي عشر حسب رأي غيرهم من شهر طوبه][١٠].

ويؤكِّد العالم أوتو ميناردس Otto Menardes أنَّ أحد التِّذكارات المبكِّرة في كنيسة الإسكندريَّة، هو عيد الظُّهور الإلهي (١١ طوبة)، الذي يعود أصله إلى أواخر القرن الثَّاني الميلادي[١١].

٩- نشر تعاليمه في الإسكندريَّة في الرُّبع الثَّاني من القرن الثَّاني، حيث مارس نشاطه ما بين سنة ١٢٠م وسنة ١٤٠م. ويدَّعي أتباعه أنَّ معلِّمهم قد تلقَّى تعاليمه عن غلاوسيوس، مترجم القدِّيس بطرس. وأنه قد كتب إنجيلاً خاصاً به. ولم يكتف أتباعه بالنَّظرة الفلسفيَّة للغنوسيَّة، بل حاولوا عيشها في جماعة روحيَّة شبيهة بجماعة رهبانيَّة.

١٠- أي اليَوم العاشر أو اليَوم السَّادس من شهر يناير.

11- Otto Menardus, *A Comparative Study on the Sources of the Synaxarium of the Coptic Church*, dans Bulletin de La Société d'Archéologie Copte (BSAC), t. 17, Le Caire, 1964, p. 113, 154.

إذاً فأوَّل شهادة لعيد الإبيفانيا في التَّاريخ المسيحي كلِّه، تأتينا من الإسكندريَّة بين الجماعات الغنوسيَّة فيها، والتي التأمت حول مدبِّرها باسيليدس Basilides . أمَّا اختيار هذا اليَوم أي يوم ٦ يناير ليكون هو يوم الاحتفال بالعيد، فكان في الحقيقة إحلالاً له محلَّ عيد ميلاد الإله حامي مدينة الإسكندريَّة عاصمة مصر اليونانيَّة، وهو المُسمَّى في اليونانيَّة الإله Aiώv (إي أون) أي "دهر"، والذي كان الاحتفال به يجري خلال ليل ٥-٦ يناير.

وهذا العيد الأخير ذو الأصل اليوناني من حيث تاريخه، هو ذو علاقة بعيد آخر أقدم منه بكثير، هو عيد ميلاد أوزيريس Osiris . وأيضاً عيد ثيؤديسيا Theodaisia . أمَّا تاريخ هذه الأعياد فيعود إلى حوالي سنة ١٩٩١ قبل الميلاد في زمن مؤسِّس الدَّولة الفرعونيَّة الوُسطى، أمنحتب الأوَّل، والذي جدَّد التَّقويم الفرعوني، حيث ثبَّت الانقلاب الشِّتوي ليكون في يوم ٦ يناير من كلِّ سنة[١٢].

ويُظَنُّ أنَّ الفصلَين الأخيرَين من الرِّسالة إلى ديوجنيتس[١٣] Diognetus هما عظة عن عيد الإبيفانيا، كعيد استعلان الله في المسيح في التَّجسُّد والمعموديَّة. ولكنَّنا نعرف منذ منتصف القرن الثَّاني الميلادي، أنَّ موقف الكنيسة الرَّسمي، كان حذراً إزاء الآراء المختلفة في تحديد تاريخ ميلاد المسيح ومعموديَّته. لذا لا نجد عند العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-

---

12- Burmester, O.H.E. Khs, *op. cit.*, p. 153.

١٣- يعتقد المؤرِّخ الألماني ليتزمان Lietzmann أنه معلِّم الإمبراطور ماركوس أوريليوس. وكُتبت الرِّسالة بهدف الدِّفاع عن المسيحيِّين، وشرح الحياة المسيحيَّة. وهي رسالة تعود إلى حوالي القرن الثَّاني، أو ربما الثَّالث الميلادي.

٢٥٤م) أيّ ذكر لهذا العيد، في لائحة الأعياد التي ينظِّمها إلى كلسس[١٤].

وبحلول أواخر القرن الثَّالث الميلادي، عُـرف العيـد في الشَّـرق أولاً[١٥]، كاحتفال بتذكار عماد الرَّب في مياه الأردن. وذلك في يوم ٦ يناير كيوم احتفلت به كلّ كنائس الشَّرق المسـيحي، قبـل التَّعـديل الغريغوري، والذي بموجبه أصبح العيد يقع في يوم ١٩ يناير في الكنيسـة القبطيَّة، التي تتبع التَّقويم اليولياني.

وقد أُلحق بهذا العيد، عيد ميلاد الرَّب في بيت لحم، وذلك في بعض كنائس الشَّرق دون بعضها الآخر، قبل أن يُصبح عيد المـيلاد عيـداً مستقلاً بذاته.

ونقرأ في الباب الثَّامن عشر من كتاب ''الدِّسقوليَّة'' عن عيد الظُّهور الإلهي: ''ليكن عندكم جليلاً عيد الظُّهور الذي هو الغطاس، لأنَّ الـرَّب بدأ يُظهر فيه لاهوته في معموديَّته في الأردن من يوحنا. واعملوه في يوم ٦ من الشَّهر العاشر للعبرانيين، ١١ من الشَّهر الخامس للمصريِّين (طوبه)''.

ويلاحظ القارئ العزيز أنَّ الدِّسقوليَّة دُوِّنت في الوقت الذي كان فيه عيد الميلاد قد أصبح عيداً منفصلاً عن عيد الغطاس. إذ حدَّدت الدِّسقوليَّة يوم ٢٩ كيهك ليكون هو يوم عيد الميلاد. وفي النَّص السَّابق نجد أنَّ يوم

١٤- كلسس Celses هو فيلسوف أفلاطوني جابه المسيحيَّة النَّاشئة في أواخر القرن الثَّاني الميلادي. فكتب كتاباً بعنوان: ''الكلمة الحق''. فرد عليه العلاَّمة أوريجـانوس بعد سنوات بكتاب مطوَّل أسماه ''ضد كلسس'' أورد فيه مقاطع طويلة من كتابات هذا الفيلسوف، وهي كتابات مفقودة.

15- Cross, F.L., & Livingstone, E.A., The Oxford Dictionary of The Christian Church (ODCC), (2nd edition), 1988, p. 465.

١١ طوبه هو ميعاد الاحتفال بعيد الغطاس. وقد كان هذا اليَوم يوافق ٦ يناير قبل التَّعديل الغريغوري سنة ١٥٨٢م.

وجاء في قوانين الرُّسل القبطيَّة: "لا تشتغلوا في عيد الحميم، لأنَّ فيه ظهرت لاهوتيَّة المسيح، وشهد له الآب في العماد، ونزل عليه الرُّوح القُدُس بشبه حمامة، وظهر الذي شهد له للقيام، أنَّ هذا هو الله الحقيقي، ابن الله" (رسطب ٦٦).

واعتباراً من القرن الرَّابع الميلادي، تؤكِّد لنا الشَّواهد الكثيرة، على أنَّ عيد الإبيفانيا قد احتل مع عيدي القيامة والعنصرة مكانة مرموقة، كأحد أهم ثلاثة أعياد رئيسيَّة في الكنيسة المسيحيَّة. حيث صنَّفت كنيسة أورشليم خدمة السَّهَر اللَّيلي لعيد الغطاس، على نسق خدمة السَّهَر اللَّيلي لعيد الفصح. وكانت مجموعة القراءات المتتابعة في هذا السَّهَر اللَّيلي، هي السِّمة الأولى المميِّزة لهذا السَّهَر القديم[١٦].

إذاً فالعيد يقع في يوم ٦ يناير لذكرى معموديَّة المسيح، وظهور الله، وكان هذا اليَوم هو البديل لاحتفالات وثنيَّة كانت تُقام فيه. وقد أشار بليني الصَّغير (٦٢-١١٣م) إلى بعض الخوارق التي كانت ترافق الاحتفال بهذه الأعياد الوثنيَّة، كإنتاج خارق للخمر، وتحوُّل بعض الينابيع إلى خمر. وفي المقابل أشار بعض الكتَّاب المسيحيِّين إلى بعض الخوارق التي ترافق عيد الظُّهور في البيئة المسيحيَّة، مثل ما ذكره القدِّيس إبيفانيوس[١٧] (٣١٥-٤٠٣م)، والقدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) الذي يشير إلى

16- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, Englished Edition By F.L. Cross, London, 1958, p. 116.

17- *Adv. Haereses* SI 30, PG 41, 941.

أنَّ الماء الذي يُستقى من الينابيع في هذا اليَوم، لا يفسد على امتداد العام كلِّه[١٨].

من هذا نرى، أنَّ المسيحيِّين لم يخافوا من هذه التَّأويلات، فوضعوا الحقيقة محلَّ الرَّمز، ونسبوا هذه الخوارق إلى قُدرة السيِّد الرَّب، فألحقوها بسرِّ المعموديَّة، وبعُرس قانا الجليل. فكما حدث في الغرب من إحلال عيد الميلاد محلَّ عيد الشَّمس التي لا تُقهر، هكذا حدث في الشَّرق، إذ حلَّ عيد الظُّهور الإلهي، ظهور الله الثَّالوث، مكان الاحتفالات الوثنيَّة.

وفي مصر وفي القرن العاشر الميلادي، وفي زمن الدَّولة الإخشيديَّة، أشعل محمد بن طغج الإخشيدي سنة ٩٤١م ألف مشعل في الاحتفال بعيد الغطاس. غير ما أوقده أهل مصر من المشاعل والشُّموع من مسلمين ونصارى، الذين شاركوا في الاحتفال. فمنهم من كان في الزَّوارق، ومنهم من كان في الدّور الدَّانية، أو على الشُّطوط، يُظهرون من المآكل والمشارب والملابس والملاهي، الشَّيء الكثير[١٩].

ويصف المقريزي (١٣٦٥ـ١٤٤١م) يوم الاحتفال بعيد الغطاس في مصر سنة ١٠٢٥م في خلافة الظَّاهر، بأنَّ الخليفة نزل بنفسه لينظر الغطاس، وأمر بأن توقد النَّار والمشاعل في اللَّيل، وكانت تُنصب الخيام على شاطئ النِّيل، ويمتلئ النِّيل بالزَّوارق والمراكب التي توقد فيها الأنوار ليلاً، حيث يُشعل في تلك اللَّيلة أكثر من ألف مشعل على الشُّطوط، ولا يُغلق فيها دكَّان ولا درب ولا سوق، ويتبادل النَّاس في

18- *Hom. in Theophania*, PG 46, 365366.

١٩ – المسعودي، مروج الذَّهب ومعادن الجوهر، الجزء الثَّاني، ص ٣٦٤

هذه اللَّيلة الهدايا من أصناف الطَّعام والحلوى المختلفة[٢٠].

هذه إشارات جميلة عن احتفال الأقباط بهذا العيد ، منذ العصر الفاطمي (٩٦٩-١١٧١م) ومشاركة إخوتهم المسلمين لهم فرحتهم فيه. فقد كانت ليلة الغطاس، هي ليلةٌ يسهر فيها النَّاس طوال اللَّيل، وتُسرج المشاعل وتُدق الطُّبول، وتُقام الملاهي، ويظهر الأهالي بأعظم مباهج السُّرور والغبطة[٢١].

الملامح الرِّئيسيَّة المميِّزة لعيد الغطاس في الشَّرق

تتَّفق التَّقاليد المختلفة للكنائس الشرقيَّة، على الملامح الرئيسيَّة التي تميِّز عيد الغطاس أو عيد الإبيفانيا، كواحد من أقدم الأعياد السَّيديَّة التي عرفتها الكنيسة الجامعة، والتي كان الشَّرق هو منبعها، ولاسيَّما مصر.

وهناك سمتان أساسيَّتان ينفرد بهما هذا العيد السيِّدي، السِّمة الأولى هي طقس تبريك مياه المعموديَّة، والذي أصبح طقس تبريك مياه اللقَّان، والسِّمة الثَّانية هي الاحتفال بشخصيَّة القدِّيس يوحنا المعمدان السَّابق الصَّابغ، نسيب عمانوئيل.

طقس تبريك مياه اللقَّان

كانت أهم الملامح الرَّئيسيَّة المميِّزة لهذا العيد في الشَّرق المسيحي هو طقس تبريك مياه المعموديَّة. وبعد أن استُبدلت مياه المعموديَّة في هذا اليَوم

٢٠- المقريزي، الخطط، الجزء الأوَّل، ص ٢٦٥ ؛ ابن إياس، بدائع الزُّهور، الجزء الأوَّل، ص ٢١٢-٢١٣

٢١- دكتور علي إبراهيم حسين، مصر في العُصور الوُسطى، عن وطنيَّة الكنيسة القبطيَّة وتاريخها، ص ١٠١

بمياه اللقَّان، لازالت حتى اليَوم مياه لقَّان عيد الغطاس كمياه للبركة والتَّقديس. بل ولازال قُدَّاس لقَّان عيد الغطاس يحمل الملامح الطَّقسيَّة لهذا العيد في أصولها الأولى حتى بعد أن توقَّفت ممارسة سرّ المعموديَّة في هذا اليَوم من السَّنة اللِّيتورجيَّة. وسنأتي إلى تفصيل هذه النُّقطة فيما بعد.

الاحتفال بشخصيَّة القدِّيس يوحنا المعمدان

تشغل شخصيَّة القدِّيس يوحنا المعمدان، حيزاً كبيراً في صلوات هذا العيد في الكنيسة الشَّرقيَّة.

في الكنيسة القبطيَّة

ففي الكنيسة القبطيَّة، يُعتبر طقس برامون الغطاس، وهو اليَوم السَّابق للعيد، طقس احتفالي بالقدِّيس يوحنا المعمدان. حيث تتركَّز حوله نصوص الصَّلوات والقراءات أيضاً. فأرباع النَّاقوس ومردَّات الأناجيل، والذُّكصولوجيَّة الخاصة بالبرامون، وإبصاليَّات اليَوم الواطس والآدام، وفصول القراءات لهذا اليَوم، تدور كلُّها حول يوحنا المعمدان، الذي صار مستحقاً أن يضع يده على رأس السيِّد المسيح. وهذا هو برُّ الاتضاع الذي قصده الرَّب، أن يضع المخلوق يده على رأس خالقه.

وفي نهاية هذا اليَوم أيضاً – أي يوم البرامون – يُعمل تمجيد أمام أيقونة القدِّيس يوحنا المعمدان، وذلك قبل بدء صلوات تسبحة العيد كما سيأتي ذكره فيما بعد.

إذاً فمن هذا الطَّقس الذي تنهجه الكنيسة القبطيَّة في تكريم هذا النَّبي السَّابق والصَّابغ، يمكننا أن نُدرك كرامته ورفعته في تقليد الكنيسة القبطيَّة على وجه الخصوص، وفي الكنيسة الجامعة على وجه العموم. ومن أجل

هذا لا نعجب أن تفرد له الكنيسة القبطيَّة لحناً بديعاً يختص بـه، وهـو المعروف بلحن Oⲩⲣⲁⲛ ⲛ̀ϣⲟⲩϣⲟⲩ (أوران إنشوشو)، والذي يبـدأ بعبارة: ”اسمُ فخر هو اسْمُك يا نسيب عمانوئيل ...“. وهو اللَّحن الذي يُقال بعد الإبركسيس في يوم عيد الغطاس، وبعد المزمور المائة والخمسين أثناء توزيع الأسرار المقدَّسة في برامون وعيد الغطاس.

في الكنيسة البيزنطيَّة

أمَّا في الكنيسة البيزنطيَّة، فقد خُصِّص اليَوم التَّالي مباشـرة لعيـد الغطاس – أي يوم ٧ كانون ثاني (يناير) حسب التَّقويم الغريغوري ليكون تذكاراً جامعاً للقدِّيس النَّبي السَّابق يوحنا المعمدان، حيث تُلقِّبه الكنيسة البيزنطيَّة بلقب ”الفائق الطهَّارة“.

وتتركَّز ألحان وصلوات وقراءات الكنيسة البيزنطيَّة في هذا اليَـوم، لتدور كلُّها حول هذا التَّذكار. ومن الطُّروباريَّات التي تُقال في هذا اليَوم، طروباريَّة باللَّحن الثَّاني تقول:

”تذكار الصدِّيق بالمديح. فأنت أيها السَّابق تكفيك شهادة الـرَّب، لأنك ظهرت بالحقيقة أشرف من كلِّ الأنبياء، إذ قد استأُهلت أن تعمِّد في المياه الجارية من قد كُرز به، ولذلك جاهدت عن الحق مسروراً ...“.

وهناك أيضاً قنداق يُقال باللَّحن السَّادس: ”إنَّ الأردن قد هَيَّب لحضورك الجسدي، فولَّى مرتعداً. ويوحنا احتشم خوفاً عند إتمامـه الخدمة النَّبويَّة. ومراتب الملائكة اندهشوا لمَّا شاهدوك معتمداً بالجسد في المياه الجارية. وجميع الذين في الظَّلام استناروا مسبِّحين إيَّاك، أيها الطَّاهر والمنير الجميع“.

في الكنيسة السِّريانيَّة

أمَّا الكنيسة السِّريانيَّة في هذه المناسبة، فهي تركِّز على دور يوحنا المعمدان المزدوج، أي تعميد السيِّد المسيح، وزفاف الكنيسة عروساً له، وذلك في مقطع لمار أفرآم السِّرياني (٣٠٦-٣٧٣م) يقول:

[كان يكرز بصوته، ويشير إليه بإصبعه، وقرَّب عروس النُّور لتسجد له، فاغتسلت وصعدت وقامت، فرأته وتاقت إليه. وكان يوحنا ينصحها ويحكِّمها معلِّماً إياها، أن هوذا الحَبر والذَّبيحة، الحَمَل والقُربان الشَّهي، والكاهن الذي يحمل خطيئة العالم][٢٢].

وجديرٌ بالذِّكر، أنَّ الكنائس السِّريانيَّة تلقِّب السيِّد المسيح في مناسبة عماده من يوحنا المعمدان بلقب Νυμφίος τῆς Ἐκκλησίας أي: "عريس الكنيسة". ومن ثمَّ، فإنَّ اتحاد المسيح بعروسته الكنيسة، أعطى الكنيسة إمكانيَّة أن تصير أُماً روحيَّة للذين يولدون منها بالماء والرُّوح. هذا هو الزَّواج المقدَّس ιέρὸς γάμος الذي عظَّمه بولس الرَّسول عندما قال: «هذا السِّر عظيم، ولكنَّني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة» (أفسس ٥:٣٢). وجديرٌ بالذِّكر هنا، أنَّ تعبير "عريس الكنيسة" هو التَّعبير الذي تُلقِّب به الكنيسة اليونانيَّة السيِّد المسيح في هذا العيد. فلقد استقرَّ في فكر الكنيسة منذ القديم، أنَّ تلقيب السيِّد المسيح بلقب "العريس"، مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بعيد الإبيفانيا[٢٣].

وإن كان الشَّيء بالشَّيء يُذكر، فلقد استغلَّ أحد علماء

٢٢- فنقيت، أي كتاب صلاة الفرض لأيام الآحاد والأعياد، فصل ٣ ص ٢٧٢

23- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 158.

اللِّيتورجيًّا واسمه أوسنر H. Usener لقب "عريس الكنيسة" الذي يلقَّب به السيِّد المسيح في هذا اليَوم، ليبرِّر به رأياً له في تحديد يوم استقلال عيد الميلاد عن عيد الإبيفانيا. ففي عظة شهيرة للقدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧م) في مناسبة تكريس مارسيلا Marcella في زمن البابا ليبيريوس Liberius الرُّوماني أُلقيت في ٦ يناير سنة ٣٥٣م يقول القدِّيس أمبروسيوس:

[لقد رغبت في زواج نقي يا ابنتي، وتستطيعين أن ترى كيف أنَّ جموعاً غفيرة قد جاءت **ليوم ميلاد العريس**، وكيف أنه لم يرجع أحدٌ غير مكتف].

فالتقط العالم أوسنر H. Usener هذا القول الآبائي ليقرِّر أنَّ الإشارة الجليَّة في هذه العظة عن ميلاد المخلِّص، توضِّح أنَّ عيد الميلاد ما زال مرتبطاً بعيد الإبيفانيا حتى هذه السَّنة أي سنة ٣٥٣م. ثمَّ يخلُص إلى القول بأنَّ عيد الميلاد قد احتُفل به لأوَّل مرَّة في سنة ٣٥٤م.

وعلى الرَّغم من رأي أوسنر H. Usener إلاَّ أنه قد سبق أن أشرتُ إلى أنَّ عيد الميلاد قد احتُفل به في يوم ٢٥ ديسمبر سنة ٣٣٦م لأوَّل مرَّة في عهد البابا الرُّوماني يوليوس الأوَّل. ولكي نفسِّر هذا القول السَّابق ذكره للقدِّيس أمبروسيوس، نقول: إنه بعد تأسيس عيد الميلاد، ظلَّ الاحتفال بعيد ٦ يناير مستمراً في روما كيوم ميلاد المسيح. لأنَّ الاحتفال بعيد الميلاد في بداياته الأولى، كان لا يزال يعني احتفالاً ليس بمضمونه التَّاريخي، ولكن بفكرته الإيمانيَّة أو العقيديَّة(٢٤).

24- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 161.

عيد الثِّيؤفانيا في الغرب المسيحي

عرف الغرب هذا العيد نقلاً عن الشَّرق في القرن الرَّابع الميلادي، إذ لا نجد في الغرب أيَّ أثر لأيِّ احتفال في اليَوم السَّادس من كانون الثَّاني (يناير)، قبل القرن الرَّابع الميلادي.

ومن دراستنا لتاريخ عيد الظُّهور في الغرب، نجد هناك ثلاث مناطق جغرافيَّة كُبرى، وهي: غاليا (فرنسا الحاليَّة)، شمال أفريقيا وروما، شمال إيطاليا وأسبانيا.

فأوَّل وثيقة تُثبت الاحتفال بعيد الظُّهور الإلهي في غاليا، نجدها عند أميانوس مرسلينوس، وهو رفيق الإمبراطور يوليانوس الجاحد. فيقول في سنة ٣٦١م: إنَّ كنيسة باريس تحتفل بعيد الظُّهور في ٦ كانون الثَّاني (يناير)، وإن يوليانوس – قبل أن يجحد إيمانه – قد حضر الاحتفال المسيحي في فيينَّا يوم عيد الظُّهور.

ويفترض بعض المؤرِّخين، أمثال المؤرِّخ بوت B. Botte ، أنَّ العيد قد دخل إلى روما عبر أسبانيا، نظراً للتَّشابه بين اللِّيتورجيَّا الرُّومانيَّة لعيد الظُّهور، والاحتفال الأسباني به. وهو ما يتَّضح لنا من قصيدة "برودانص" وهي تعود إلى النِّصف الأوَّل من القرن الخامس.

بينما يفترض البعض الآخر، أنَّ هذا العيد قد دخل إلى روما من مصر عبر البحر المتوسِّط، مروراً بأفريقيا الشَّماليَّة. إلاَّ أنَّ روما وأفريقيا الشَّماليَّة لم يحافظا على مضمون صلوات العيد الشَّرقي، بل وسَّعا معنى العيد. فقد فصلت روما حدث الميلاد عن حدث سجود المجوس الذي نقلته إلى يوم ٦ كانون الثَّاني، وأسبغت عليه معنى ظهور المسيح للأُمم.

وهو ما نجده مثلاً في عظات لاون الكبير، الذي يروي عن "الظُّهور" أنه تكملة للميلاد إذ يأتي ليطيل فرحنا.

وكان بولينوس أُسقُف نول (+ ٤٣١م) هو أوَّل من ذكر محتوى هذا العيد، حيث يقول: "في عيد الظُّهور، تحتفل الكنيسة بعجائب السيِّد الثَّلاث: سجود المجوس، والمعموديَّة وعُرس قانا". ولنا في القرن السَّادس الميلادي وثائق كثيرة، تدعم شهادة بولينوس هذه.

ولا يختلف مضمون العيد ومحتواه في أفريقيا عنه في روما، إذ يعتبر القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤–٤٣٠م) أنَّ موضوع عيدي الميلاد والظُّهور، هما واحد، وهو "سرّ ظهور المسيح". ففي الميلاد، يوحي المسيح بذاته لإسرائيل، وفي الظُّهور للأُمم. ولا يشير أغسطينوس لمعنى العيد الشَّرقي في شيء، وهو التَّركيز على الحدث الأساسي وهو معموديَّة المسيح من يوحنا المعمدان. ففي خمس عظات له عن عيد الظُّهور لا يذكر المعموديَّة مرَّة واحدة. فموضوع الاحتفال عنده هو ظهور النَّجم وسجود المجوس[٢٥]. وفيما بعد أُضيف موضوعا المعموديَّة وعُرس قانا الجليل، وإنما بقيا كموضوعين ثانويَّين.

أمَّا المنطقة الجغرافيَّة الثَّالثة وهي شمال إيطاليا وأسبانيا، فقد كانت منطقة وُسطى، تلاقت فيها التَّأثيرات الشَّرقيَّة والرُّومانيَّة والغاليَّة. فلقد كان محتوى العيد الأساسي هو سجود المجوس، ويُضاف إليه هنا أو هناك إمَّا ذكرى عُرس قانا الجليل، وإمَّا المعموديَّة. ويظهر في كنيسة ميلانو بعض الاهتمام بموضوع المعموديَّة. ففي هذا اليَوم تُسجَّل أسماء الذين يرغبون في تقبُّل سرّ العماد. أمَّا عند الكتَّاب اللاَّحقين، أمثال بطرس

25- St. Augustin, *Serm.* 203, 1, PL 38, Col. 1035.

كريسولوغوس (القرن الخامس)، فذكرى العجائب الثَّلاث ثابتة، مع التَّشديد على سجود المجوس[٢٦].

إذاً فقد فَقَدَ العيد سمته الأساسيَّة في الغرب، كعيد لتذكار عماد الرَّب في مياه المعموديَّة، وظهوره واستعلانه للعالم كلِّه، حيث حمل الاسم Ἐπιφάνια (إبيفانيا) معنى ظهور الرَّب واستعلانه للأُمم في شخص المجوس الذين وفدوا من بلاد فارس يبحثون عن المولود ملك اليهود. فاحتلت زيارة المجوس المكانة الرَّئيسيَّة في طقس وخدمة قُدَّاس ذلك اليَوم في الكنيسة الغربيَّة، ولم يأت ذكر عماد الرَّب في الأردن في طقس هذا اليَوم سوى ذكر عابر، مع إشارة طفيفة إلى معجزة عُرس قانا الجليل.

إنه في الحقيقة تقييدٌ للمعنى المتَّسع للعيد، وانزلاقٌ عن المحتوى الأساسي له، كما يعرفه الشَّرق، باعتباره عيد معموديَّة المسيح واستعلان الثَّالوث القدُّوس للعالم كلِّه في شخص يسوع المسيح، كحَمَل الله الذي جاء ليرفع خطايا كلِّ العالم.

فاللِّيتورجيَّا الأسبانيَّة تعتبر سجود المجوس في هذه المناسبة هو الظُّهور بأجلى بيانه "لأنه أظهر الله للبشريَّة". وفي اللِّيتورجيَّا الرُّومانيَّة، يتجلَّى دور النَّجم، حيث يرد نصٌّ هو: الكوكب "يعترف بالله".

ولا زال الطَّقس الغالي الأسباني Gallo-Spanish يحتفظ في عيد ٦ يناير بخصائصه المميِّزة الأولى، كعيد للظُّهور الإلهي. ففصل الإنجيل الذي يُقرأ في هذا العيد، يحوي سجود المجوس للمولود الإلهي. كما لا زال نفس

٢٦- مجلَّة حياتنا اللِّيتورجيَّة، السَّنة الثانية، ١٩٩١م، العدد ١٤، ص ١٨٤، ١٨٥

هذا الفصل في طقس روما. بينما انتقل هذا الفصل ليُقـرأ في عيـد ٢٥ ديسمبر في الشَّرق. ومع مرور الأيام، اعتبر عيد الإبيفانيا في رومـا أنـه تذكار تاريخي لزيارة المجوس الذين أتوا من المشرق، وينتهي الأمر عند هذا الحد مع الأسف، حيث يُصبح مضمون العيد عند الغرب هو عيد الثَّلاثة ملوك المقدَّسين[٢٧] Three Holly Kings وهم المجوس، الذين سُرقت رفاقم من ميلان بواسـطة الحـاكم باربـاروزا Barbarossa وأُحضـرت إلى كولونيا[٢٨] Cologne حيث حُفظت هناك.

٢٧- عن المجوس، وما يختص بهم، انظر (ص ٢٦٥) من هذا الكتاب.
ولقد أصبح سجود هؤلاء الملوك للمسيح المولود، واحداً من أهـم الموضـوعات الشَّعبيَّة التي لا زال يمثلها الفن الغربي. أمَّا أوَّل صورة لهم، فقد وُجدت في سـرداب بريسكيلا Priscilla Catacomb ، وهي تعود إلى القرن الثَّاني الميلادي.
Cf. ODCC, 2nd edition, p. 858.

٢٨- كولونيا الألمانيَّة هي غير كولونيا الميناء الصَّغير الذي يقع جنوب أورجواي، والتي أسَّسها البرتغاليون سنة ١٦٨٠م، وانتزعها منهم الأسبان بعد قتال مرير.
وتقع مدينة كولونيا شمال غرب ألمانيا على نهر الرَّاين. وهي ذات مركـز تـاريخي وديني وتجاري. فقد تأسَّست إيبارشيَّة كولونيا في القرن الرَّابع الميلادي إبَّـان فتـرة حُكم الإمبراطور قسطنطين (+ ٣٣٧م)، وحكمهـا رؤسـاء أسـاقفة كـأمراء في الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة المقدَّسة، وحصلوا على سُلطة كبرى، وأصـبحوا في المرتبـة الثالثة بعد الأمراء الجرمانيين. واستمرَّت المدينة ذات أهميَّة سياسيَّة حتى سنة ١٨٠١م. ومنذ سنة ١٨٢١م لم تعُد مقراً لرئيس الأساقفة كما كانت سابقاً. وتُعـدُّ كولونيـا مركز الكاثوليكيَّة في شمال ألمانيا. ومن بين كنائسها الرُّومانيَّة: كنيسة سانتا ماريَّا من القرن الحادي عشر، وكنيسة سانت جريون، وكنيسة الرُّسُل. وقد دُمِّرت جميعاً. وبها جامعة من أقدم الجامعات الألمانيَّة والتي تأسَّست سنة ١٣٨٨م. وبها مكتبـة كُـبرى تأسَّست سنة ١٩١٩م، وتحوي أكثر من مليون مجلَّد. وما زالـت كولونيـا مركـز مواصلات وميناء هاماً برغم تدميرها في الحرب العالميَّة الثَّانية.
وتعود الكاتدرائيَّة الحاليَّة في مدينة كولونيا الألمانيَّة إلى القرن الثَّالث عشر، وهـي تحوي المقبرة Shrine التي يُحفظ فيها رُفات المجوس الثَّلاثة.

وفي سنة ١٩٥٥م أُهمل عيد الختان ومعه برامون الغطاس، وخُصِّص الأحد الذي يلي عيد الإبيفانيا، ليكون عيداً مستقلاً لتذكار عماد الـرَّب في مياه المعموديَّة، كمحاولة من الغرب المسيحي لتدارك هذا القصور.

حول الصَّلوات السَّرائريَّة والصَّلوات التَّقديسيَّة

ينحى اللاهوت المدرسي الغربي إلى تقسيم الصَّلوات إلى صـلوات سرائريَّة، وأُخرى تقديسيَّة. ويقول بأنَّ الأولى أكثر أهميَّة من الثَّانية. ولكن الحقيقة، فإنَّ كلَّ صلوات الكنيسة اللِّيتورجيَّة هي بذات الأهميَّة، لأننا لن نستطيع – إن قبلنا هذا التَّقسيم أصلاً – أن نكتفي مثلاً في حياتنا الكنسيَّة بصلوات الأسرار الكنسيَّة، ولا نولي نفس الأهميَّة لتلك الصَّـلوات الـتي تُدعى تقديسيَّة، مثل صلوات السَّواعي، أي الصَّلاة بالأجبية، أو تسـبحة نصف اللَّيل والسَّحَر، أو قُدَّاسات اللقَّانات، أو تكريس الكنائس الجديدة، أوتكريس الأيقونات في الكنائس، أو تكريس المذابح المقدَّسة ... الخ. بل إنَّ الصَّلاة على المنتقلين في الكنيسة قبل مواراهم الثَّـرى، وتـذكاراهم الدَّائمة بعد ذلك، تمثِّل جانباً عقائدياً مهماً في ضمير الكنيسة وحياهـا، ولكلِّ عضو من أعضائها.

ولقد عقد اللاَّهوت المدرسي الغربي، مقارنة بين الصَّلوات السَّرائريَّة والصَّلوات التَّقديسيَّة، فجعل من الأولى اختصاصها بحيـاة الإنسـان في نواحيها الأساسيَّة، ومن الثَّانية أها الأكثر اتساعاً من ميـدان الأسـرار لتشمل الإنسان والخليقة، أي الكائنات غير العاقلة. وأنَّ الأسرار الكنسيَّة رئيسيَّة وجوهريَّة لخلاص الإنسان، في حين لا تتمتَّع الصَّلوات التَّقديسيَّة بالأهميَّة ذاهًا. وأنَّ الأسرار الكنسيَّة تفعل مفعولها من تلقاء ذاهًا، بصرف

Cf. ODCC, 2nd edition, p. 315.

النَّظر عن استحقاق مقتبليها، في حين أن الصَّلاة التَّقديسيَّة تفعل في يؤمن حقاً بمفعولها. وأنَّ الأسرار الكنسيَّة أسَّسها الرَّب نفسه، أمَّا الصَّلوات التَّقديسيَّة فقد أنشأها الكنيسة ... الخ.

فالرَّب الذي انحنى يغسل أرجل تلاميذه في ليلة آلامه وقبل الصَّليب، قد أسَّس بذلك صلوات قُدَّاس الماء، أو طقس اللقَّان في الكنيسة، ليس فقط بما مارسه هو فعلياً، بل أيضاً بوصية إلهيَّة، بقوله: «أتفهمون ما قد صنعت بكم؟ فإن كنتُ وأنا السيِّد والمعلِّم قد غسلت أرجلكم، فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض» (يوحنا ١٣: ١٢، ١٤).

فالرُّوح القُدُس يُقدِّس ماء اللقَّان تقديساً، يصبح بموجبه ذات قوَّة للتَّطهير والخلاص، بل ونافعاً لكلِّ شيء، وذلك بحسب منطوق الصَّلوات ذاتها. وهو نفس ما يفعله سري مسحة المرضي، والتَّوبة والاعتراف أيضاً. بل إنَّ نصوص صلوات اللقَّان نفسها، تنصُّ على تسمية هذا الطَّقس سراً، بل وسراً مقدَّساً.

وإن عُدنا إلى القرن الرَّابع عشر في الكنيسة القبطيَّة، وعند العالم الطَّقسي شمس الرئاسة ابن كبر (+ ١٣٢٤م)، وهو قس كنيسة العذراء المعلَّقة، المقر البطريركي آنئذ، لا نجد أيَّ تفريق عنده بين صلوات الأسرار التي نعرفها اليوم، وباقي الصَّلوات الكنسيَّة الأُخرى. فهو مثلاً لا يفرِّق بين صلوات تكريس الكهنة (أي سرّ الكهنوت)، وصلوات تكريس الكنائس.

ففي الباب السَّادس عشر من مؤلَّفه: "مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة" نقرأ: "والصَّلوات المختصَّة بالكهنة هي مُرتَّبة في البيعة، ولا تجوز بغير كاهن، صلاة التَّعميد، صلاة تقديس القُربان، وصلاة تكريس

الكهنة والبيَع، وصلاة الزَّواج، والتَّحليل، وصلاة أشفية المرضى وهي صلاة الزَّيت، وصلاة الأموات حال انتقالهم وبعدها، وأبكار المآكل، وصلاتا الغطاس والقصريَّة مستنبطة من القُدَّاس".

ففي القائمة السَّابقة يذكر ابن كبر أسرار: المعموديَّة، والميرون، والقُربان المقدَّس، والكهنوت، والزِّيجة، والتَّوبة والاعتراف الذي يدعوه "التَّحليل"، ومسحة المرضى. إلى جانب صلوات تكريس الكنائس، والصَّلاة على المنتقلين، وتذكارات المنتقلين، وصلاة تبريك باكورات الثِّمار، وصلاة اللقَّان في عيد الغطاس، وصلاة القصريَّة أي قُدَّاس الماء في خميس العهد. وكلُّها يدعوها "الصَّلوات المختصَّة بالكهنة". وجدير بالذِّكر أنه لم يُشر إلى لقَّان عيد الرُّسل الذي لم يكن حتى ذلك الوقت قد انتشر في الكنيسة القبطيَّة، إذ بدأ استخدامه فيها منذ القرن الثَّالث عشر.

وبالاختصار، كلُّ صلاة كنسيَّة تتبع الممارسة الكاتدرائيَّة، أي التي لا يمكن تتميمها إلاَّ بواسطة الكاهن، هي صلوات سرائريَّة. ويُستثنى من ذلك صلوات الممارسة الدَّيريَّة، مثل صلوات السَّواعي، وتسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر. أمَّا رسامة الرُّهبان والرَّاهبات، فقد أصبحت مؤخَّراً من اختصاص الكاهن، سواء الأُسقُف أو رئيس الدَّير الذي يحمل رُتبة كهنوتيَّة.

إنَّ التَّحديدات التي قنَّنها الغرب وتثبَّتت لديهم بمجامع كنسيَّة عبر قرون متتابعة، قد انتقلت رويداً رويداً إلى الشَّرق المسيحي. ومن ثمَّ صار من اللازم إعطاء تفسير مقبول للتَّفريق بين الأسرار الكنسيَّة وبين الصَّلوات التَّقديسيَّة فيها، ممَّا فتح باب الاجتهاد لتأويلات وشروحات تبغي وضع حد يفصل بين ما تقنَّن كسرٍّ كنسي، وبين ما أُدرج تحت مضمون "صلوات تقديسيَّة"، والتي من بينها لقَّان عيد الغطاس المجيد.

وإن الكُتُب الطَّقسيَّة البيزنطيَّة نفسها لا تميِّز في نصوص صلواتها بين الأسرار Sacraments وبين الصَّلوات التَّقديسيَّة Sacramentals تمييزاً واضحاً كما بات معروفاً في الكنيسة الغربيَّة[٢٩].

ولسوف يظل لقَّان عيد الغطاس في الكنيسة الشَّرقيَّة شاهداً على تقليد ليتورجي شرقي أصيل لا يعرفه الغرب، وهو أقدم من تحديدات انتهجها اللاَّهوت المدرسي الغربي وتسرَّب إلى لاهوتنا الشَّرقي وحياتنا اللِّيتورجيَّة.

العلاقة بين لقَّان عيد الغطاس وبين المعموديَّة

قُدَّاس الماء في عيد الغطاس، هو طقس قديم تعرفه تقاليد الكنائس الشَّرقيَّة. وهو أحد السِّمات الرَّئيسيَّة التي تميِّز هذا العيد في الشَّرق المسيحي. كما كان عيد الغطاس أيضاً هو أحد أهم المناسبات الكنسيَّة التي يتمَّم فيها سرّ المعموديَّة[٣٠]. فما هي العلاقة بين لقَّان عيد الغطاس، وبين سرّ المعموديَّة؟

إنَّ كلمة "لقَّان" في الإنجليزيَّة هي font وهي من أصل لاتيني هو fons ويعني "نبع ماء"، أي نبع ماء جاري، حيث كانت تجري طقوس التَّعميد في الأزمنة المبكِّرة للكنيسة المسيحيَّة قبل أن تنحصر في جرن المعموديَّة داخل مبنى خاص مُلحق بالكنيسة.

ولا زال يوم عيد الغطاس في التَّقليد الشَّعبي هو يوم المعموديَّة.

29- Davis, J.G., *op. cit.*, p. 78.

30- Fernand Cabrol (Le premiér dom) & R.P. dom Henri Leclercq, Dictionnaire d'Archeólogie chrétienne et de liturgie (DACL), Tome 2, Paris, 1925, p. 699, 700.

وتؤكِّد العادات المتوارَثة في بعض بلاد صعيد مصر هذا التَّقليد القـديم، حيث ينزل النَّاس جماعات ليغطسوا في أقرب مجرى ماء قريب إلى بلدهم، ويحرصون على ممارسة هذه العادة سنوياً، برغم أنَّ عيد الغطاس يقـع في شهر طوبه، أبرد شهور السَّنة.

ويذكر فانسليب المؤرِّخ الغربي، أنَّ الأقباط يشغلون معظـم اللَّيـل toute la vigile nocturne في الاحتفال بعيد الإبيفانيا. وعنـدما يتمِّمـون طقس تبريك الماء، فإنهم ينزلون فيه للتَّو جماعات، للاستحمام فيـه[٣١]. وعن الأقباط نقل الأحباش في القرن الخامس عشر عادة الاسـتحمام في الماء في عيد الغطاس بعد تبريكه[٣٢]. وإنَّ عادة الاستحمام في الماء في عيد الغطاس كانت معروفة منذ القرن السَّادس الميلادي في فلسطين أيضاً[٣٣].

ولقد شاهد ألفريد بتلر A. Butler في مصر الطَّقس الـذي تمارسـه كنيسة الرُّوم الأرثوذكس، فيصف ذلك بقوله إنه يتم مباركـة صـليب صغير مغلَّف بأوراق الزَّيتون أو بغيرها. وبعد إجراء صلوات الماء، يلـبس الأُسقُف ملابس الخدمة وأيضاً رجال الإكليروس، ويسـيرون إلى ضـفَّة النَّهر، وخلفهم جموع النَّاس. وعندما يُلقى الصَّليب في الماء، ينـدفع عدد من النَّاس بغمر أنفسهم في النَّهر ويدور صـراع للحصـول علـى الصَّليب، لأنهم يعتقدون أنَّ من يحصل على هذا الصَّليب ينال بركة طوال

٣١- انظر في ذلـك، فانسـليب J.M. Vansleb في مؤلفـه: "تـاريخ كنيسـة الإسكندريَّة"، ص ١٤٣
وهو مؤلِّف عاش في القرن السَّابع عشر الميلادي، وزار كنيسة الإسكندريَّة، وهـو شاهد عيان لطقوسها في هذه الفترة.

32- DACL, t. 2, *op. cit.*, p. 707.

33- Cf. St. Grégoire de tours, *De gloria martyrum*, 1. I, C. LXXXVIII, PL., t. LXXI, Col. 783.

العام المقبل[٣٤].

ومن جهة *أخرى، كانت هناك ممارسة شعبيَّة ربما لا يخلو منها بيت* مسيحي في مصر في ليلة عيد الغطاس، حيث كانت تُضاء الشُّموع والقناديل التي تُصنع من ثمار البرتقال، فتمتلئ البيوت بالنُّور، في ليلة عيد الأنوار. وهذا النُّور الذي يحمله الأطفال في كلِّ مكان، يذكِّرنا بموكب المعمَّدين الجُدد أي المستنيرين، وهم يدخلون إلى الكنيسة حاملين الشُّموع الموقدة ليشتركوا في خدمة اللِّيتورجيَّا المقدَّسة.

إنَّ المعموديَّة هي سرٌّ ليتورجي بالدَّرجة الأولى، كما عرفته الكنيسة المسيحيَّة، لا ينفصل قط عن خدمة سرِّ الإفخارستيَّا، بل ملازم له، وسابق عليه. سرٌّ ليتورجي تشترك فيه الكنيسة كلُّها. هو سرُّ الحياة الجديدة التي تولد في النُّور، سرُّ العبور من حياة بحسب دهر هذا العالم الذي يزول، إلى حياة جديدة روحانيَّة تدوم إلى الأبد.

سرُّ المعموديَّة هو سرُّ اشتراك الكنيسة كلِّها في موت المسيح وقيامته، فالمعموديَّة هي محور التَّقوى المسيحيَّة منذ عصورها الأولى وأساسها، فهل يمكن مع هذا أن يُمارس سرُّ المعموديَّة في زاوية معزولة من الكنيسة؟ فكم من أناس اعتمدوا صغاراً، وعاشوا كلَّ حياتهم بدون أن يفطنوا إلى ما كانوا عليه وما آلوا إليه؟ كانوا أبناء هذا الدَّهر، فصاروا أبناء الله، وارثين للحياة الأبديَّة.

إن كنَّا نحب الكنيسة ونبغي نهضتها، فلنعط لسرِّ المعموديَّة مكانته

٣٤- ألفريد بتلر، الكنائس القبطيَّة القديمة في مصر، الجزء الثاني، ترجمة إبراهيم سلامة، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٢٦٧

السَّامية التي يستحقّها كما كانت منذ عصور الكنيسة الأولى، ليس فقط من حيث التَّعليم عنه، بل وأيضاً باشتراك كلّ المؤمنين فيه، اشتراكاً فعلياً، بصلاة وطلبة وابتهال، لاتحاد أعضاء جُدد بجسد المسيح الذي هو الكنيسة، فيتجدَّد شباب الكنيسة دائماً وتنتعش حياها بالمسيح وفيه.

لابد لسرِّ المعموديَّة أن يحظى بجانب وافر من التَّعليم الكنسي، ليس لموعوظين جُدد يستعدُّون للمعموديَّة، فلا يمكننا أن نجبر التَّاريخ على الرُّجوع القهقرى، ولكن لمؤمنين اقتبلوا في حياهم بالفعل قوَّة وتجديداً ربما لا يدركونه جيداً. وهذا هو ما يود طقس الكنيسة أن يُقدِّمه في قُدَّاس لقَّان عيد الغطاس، لكي تشترك الكنيسة كلُّها في طقس تبريك مياه تتقدَّس بالصَّلاة، ويُمسح بها كلُّ المصلّين، ثمَّ يتقدَّمون كلُّهم معاً للاشتراك في خدمة الإفخارستيَّا، فيتذكَّر المؤمنون كلّ عام، يوم معموديَّتهم لميلادهم الجديد من الله، واشتراكهم في مائدة الرَّب، لثباهم واتحادهم به. فيصبح عيد الغطاس ليس ذكرى فحسب لما فعله المسيح لأجلنا بقبوله المعموديَّة، بل اشتراكنا نحن أيضاً في الاغتسال بماء مقدَّس، يُطهِّر ويشفي كلّ المتقدِّمين إليه بإيمان، بل ويغفر الخطايا أيضاً. فهذا هو مضمون صلوات اللقَّان، وهذا هو ما تعيه الكنيسة وتوقنه، وتبغي أن توصِّله بكلّ وضوح لأولادها.

وهكذا صار عيد الغطاس – وبقى حتى اليَوم – العيد الأمثل للاحتفال بالمعموديَّة، واسترجاع المعمَّدين لعهود معموديَّتهم. ومن أجل هذا فقد دُعي هذا العيد "عيد الأنوار". فالمسيح هو النُّور الحقيقي، وكل من يعتمد في المسيح يخرج من الماء، وقد صار ابناً للنُّور. وهذا هو ما قاله القدِّيس غريغوريوس النِّيسي (٣٣٥–٣٩٥م) في عظة له ألقاها يوم ١٣ يناير يقول فيها:

[إنَّ المسيح قد استنار، أو بالحري ينيرُنا نحن ببهائه].

فمعموديَّة المسيح له المجد، لا تنير البشر وتجدِّد ميلادهم فحسب، بل تُنير أيضاً كلَّ الخليقة، وتُلبسها ثوباً جديداً.

وهكذا صار قُدَّاس لقَّان عيد الغطاس حاملاً لتجديد مفاعيل قُـدَّاس سرِّ المعموديَّة، باستثناء فعل واحد، هو فعل الميلاد الجديد من الله، وهو ما ينفرد به سرُّ المعموديَّة دون سواه، وصلوات قُدَّاس اللقَّان الـتي يُصـليها الكاهن باشتراك كلِّ الشَّعب هي ضمانة ذلك، لأنَّ عطاء الله في الكنيسة هو بلا حدود، فالكنيسة تعني بالضَّبط ما تقول من صلوات.

وأخيراً أشيرُ هنا إلى الرِّباط بين المعموديَّة واللقَّان في ممارسات طقسيَّة تعرفها بعض الكنائس الشَّرقيَّة. ففي التَّقليد السِّرياني، بعد انتهاء صلوات اللقَّان، يتوجَّه مترئس الصَّلاة مع جميع خدَّام المذبح في موكب احتفالي إلى حيث جرن المعموديَّة، ويسكب فيه قليلاً من ماء اللقَّان المصلَّى عليه. وفي الطَّقس الأرمني يُصبُّ قليلاً من الميرون على ماء اللقَّـان بعـد انتـهاء الصَّلوات عليه.





الفَصل الثَّاني

الطَّقس القبطي لصلوات برامون الغطاس

تمهيد

يُسمَّى برامون الغطاس مع عيد الغطاس "موسم الإبيفانيا"، حيث عُرف برامون الغطاس أو برامون الإبيفانيا، كيوم صوم، يسبق العيد استعداداً له.

ويُعدُّ القانون الأوَّل من قوانين البابا ثاؤفيلس (٣٨٤- ٤١٢م) البطريرك الـ ٢٣ من بطاركة الكنيسة القبطيَّة هو أوَّل إشارة ترد إلينا عن برامون الغطاس. فيقول القانون: "قد يقع عيد الغطاس أحياناً بحيث يتَّفق أن يكون يوم الرَّب هو يوم الاستعداد له (البرامون). فلنتصرَّف بحكمة وبما يليق باليَومَين، فنأكل يوم الأحد شيئاً من الأثمار حتى لا نقع في بدعة عدم تكريم يوم الرَّب، ولكن لا نهمل الصَّوم كلَّ الإهمال، فنمتنع عن أكل أيِّ شيء بعد ذلك حتى صلاة المساء، أيِّ السَّاعة الثَّالثة بعد الظُّهر"[١].

وتقول التَّعليمات الطَّقسيَّة لبرامون الغطاس في الكنيسة البيزنطيَّة، بأن يُصام فيه في أيِّ يوم، اتفق حدوثه.

وبعد انفصال عيد الميلاد عن عيد الغطاس، أخذ عيد الميلاد نفس كرامة وطقس عيد الغطاس، فأُلحق بعيد الميلاد برامون الميلاد كيوم سابق عليه قبل أن يُعرف صوم الميلاد بعد ذلك بعدة قرون.

١- أرشيمندريت حنانيا كساب، مجموعة الشَّرع الكنسي، منشورات النُّور، ١٩٧٥، ص ٩١١

ومن الوجهة اللِّيتورجيَّة، يُعامل طقس برامون الغطاس معاملة طقس برامون الميلاد، ولكن بإبصاليَّات وطروحات وذُكصولوجيَّات ومردَّات وألحان تختص به.

الصَّلوات اللِّيتورجيَّة في برامون الغطاس

أُوردُ فيما يلي نصَّ ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م". فيذكر تحت عنوان: "اليَوم العاشر من شهر طوبه برمون الغطاس" قائلاً ما نصُّه:

"صلاة عشيَّة وباكر والقُدَّاس، يقولوا الطَّريق السَّنوي. صلاة عشيَّة كالعادة من غير زيادة ولا نقص"[٢].

ولاحظ هنا قارئي العزيز، أنَّ اللَّحن السَّنوي هو اللَّحن المختص ببرامون الغطاس، وعلى نهجه عومل برامون الميلاد أيضاً، في حين ظلَّت المخطوطات القبطيَّة تشير إلى أنَّ لحن برامون الميلاد، هو اللَّحن الكيهكي وليس السَّنوي، كما سبق أن ذكرتُ.

ثمَّ يذكر مخطوط "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" مردَّات إنجيل عشيَّة وباكر والقُدَّاس إلى جوار قانون التَّسريح في عشيَّة وباكر، والأسبَسموس الآدام الذي يُقال في القُدَّاس.

٢- وهو ما يذكره أيضاً: "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".
انظر: الأنبا صموئيل أسقف شبين القناطر وتوابعها، مرجع سابق، ص ٩٨

مرد إنجيل عشيَّة برامون الغطاس[٣]

لأنَّ فرحكَ كَمُـــل، وتهليلكَ، يـــا يوحنـــا المعمـــــدان نســـــيب عمانوئيل.	Ⲏⲡⲡⲉ ⲅⲁⲣ ⲁ ⲡⲉⲕⲟⲩⲛⲟϥ : ϫⲱⲕ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ⲛⲉⲙ ⲡⲉⲕⲑⲉⲗⲏⲗ : Ⲓⲱⲁ ⲡⲓⲣⲉϥϯⲱⲙⲥ : ⲱ̀ ⲡⲓⲥⲩⲅⲅⲉⲛⲏⲥ ⲛ̀Ⲉⲙⲙⲁⲛⲟⲩⲏⲗ.

مرد إنجيل باكر برامون الغطاس[٤]

جليلو الأمم ...[٥]	Ϯⲅⲁⲗⲓⲗⲉⲁ̀ ⲛ̀ⲧⲉ ⲛⲓⲉⲑⲛⲟⲥ..

مرد آخر لإنجيل باكر برامون الغطاس[٦]

أنت ارتفعتَ بالحقيقة أفضل من نبي. أنـــت صديق العريس حمـــل الله.	Ⲛ̀ⲑⲟⲕ ⲟⲩϩⲟⲩⲟ̀ ⲙ̀ⲡⲣⲟⲫⲏⲧⲏⲥ : ⲁⲕϭⲓⲥⲓ ϧⲉⲛ ϯⲙⲉⲑⲙⲏⲓ : ⲛ̀ⲑⲟⲕ ⲡⲉ ⲡ̀ϣⲫⲏⲣ ⲙ̀ⲡⲓⲡⲁⲧϣⲉⲗⲉⲧ : ⲡⲓϩⲓⲏⲃ ⲛ̀ⲧⲉ Ⲫϯ.

ويُكمَّل كالعادة.

٣- وهو ما يذكره أيضاً: "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقـــاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط السِّريان لسنة ١٦٩٨م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

٤- وهو ما يذكره أيضاً: "مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م".

٥- وهو الرُّبع الأوَّل من القطعة السَّابعة من ثيؤطوكيَّة الأربعاء: "جليلو الأمم، الجالسون في الظُّلمة وظلال الموت، أشرق عليهم النُّور العظيم".

٦- وهو ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقـــاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط السِّريان لسنة ١٦٩٨م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

قانون يقرأ عشيَّة وباكر برامون الغطاس(٧)

تعـــالوا انظـــروا وتعجَّبـــوا، ســـبِّحوا وابتهجوا بتهليل، لهذا السِّر الذي ظهر لنا.	Ⲁⲙⲱⲓⲛⲓ ⲁ̀ⲛⲁⲩ ⲁ̀ⲣⲓϣⲫⲏⲣⲓ : ϩⲱⲥ ⲑⲉⲗⲏⲗ ϧⲉⲛ ⲟⲩϣⲗⲏⲗⲟⲩ̀ⲓ : ϩⲓϫⲉⲛ ⲡⲁⲓⲙⲩⲥⲧⲏⲣⲓⲟⲛ : ⲉ̀ⲧⲁϥⲟⲩⲱⲛϩ ⲛⲁⲛ ⲉ̀ⲃⲟⲗ.

مرد إنجيل قُدَّاس برامون الغطاس(٨)

كـــلُّ وادي وتـــل وبرِّية، امتلأ بصوتك، أيها الكارز بالتَّقوى.	Ϧⲉⲗⲗⲟⲧ ⲛⲓⲃⲉⲛ ⲛⲉⲙ ⲕⲁⲗⲁⲙⲫⲟ : ⲛⲉⲙ ⲡⲓⲁ̀ⲡⲣⲩⲙⲟⲥ ⲁⲩⲙⲟϩ : ⲉ̀ⲃⲟⲗϧⲉⲛ ⲧⲉⲕⲥ̀ⲙⲏ : ⲱ̀ ⲡⲓⲕⲩⲣⲓⲝ ⲛ̀ⲧⲉ ϯⲙⲉⲑⲉⲩⲥⲉⲃⲏⲥ.

ويُكمَّل كالعادة(٩).

٧- وهو قانون طويل يذكره أيضاً: "مخطوط ترتيب البيعة رقـم (٧٣ طقـس) بالـدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط السِّريان لسـنة ١٦٩٨م"، و"مخطـوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

٨- أمَّا في كتاب خدمة الشمَّاس والألحان، فمرد إنجيل برامون الغطاس، مسـتعارٌ من الرُّبع الأوَّل من الذُّكصولوجيَّة الثانية ليوحنا المعمدان، وهو: "شهد يوحنـا في الأربعة أناجيل أني عمَّدتُ مخلِّصي في مياه الأردن". أمَّا أن يضيف كتـاب خدمـة الشمَّاس رُبعاً تالياً لهذا الرُّبع السَّابق وهو: "الليلويا يسوع المسيح ابن الله اعتمـد في الأردن"، فهذا أمرٌ لم تذكره مخطوطات ترتيب البيعة قيد الدِّراسة، لأنَّ هذا الرُّبـع الأخير هو المرد الطَّبيعي والوحيد لكلِّ أناجيل عشيَّة وباكر وقُدَّاس عيـد الغطـاس بلحن الفرح. فليس مناسباً أن يكون مرداً لقُدَّاس البرامون بالطَّقس السَّنوي.

٩- يورد "مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م" وحده مرد الإبركسيس: "السَّلام ليوحنـا العظيم السَّابق، السَّلام للكاهن نسيب عمانوئيل".

أسبَسموس برامون الغطاس[١٠]

افرحوا وتهلّلوا يا جنس البشر، لأنه هكذا أحب الله العالم.	Ⲣⲁϣⲓ ⲟⲩⲟϩ ⲑⲉⲗⲏⲗ : ⲱ̀ ⲡ̀ⲅⲉⲛⲟⲥ ⲛ̀ⲛⲓⲣⲱⲙⲓ : ϫⲉ ⲡⲁⲓⲣⲏϯ ⲁ Ⲫϯ ⲙⲉⲛⲣⲉ ⲡⲓⲕⲟⲥⲙⲟⲥ.
لكي يبذل ابنه الحبيب عن المؤمنين به، لكي يحيوا إلى الأبد.	Ϩⲱⲥⲧⲉ ⲛ̀ⲧⲉϥϯ : ⲙ̀ⲡⲉϥϣⲏⲣⲓ ⲙ̀ⲙⲉⲛⲣⲓⲧ : ϧⲉⲛ ⲛⲏⲉⲑⲛⲁϩϯ ⲉ̀ⲣⲟϥ : ⲉⲑⲣⲟⲩⲱⲛϧ ϣⲁ ⲉ̀ⲛⲉϩ.

ويُكمَّل القُدَّاس كالعادة.

ثمَّ يقول ''مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م''[١١]: ''ويكون التَّناول والأكل والشُّرب قبل الغروب، لئلا يأكلوا في دخول اللَّيل ويشربوا، ويتناولوا سَحَراً، فيتناولوا وهم مفطرين. وذلك خطأ عظيمٌ للغاية. فيكفي الله من ذلك. والحذر ثم الحذر من هذا الخطأ. والمجد لله دائماً أبدياً''.

هذا هو كلُّ ما تذكره مخطوطات ترتيب البيعة قيد الدِّراسة.

أمَّا اليَوم، فتُقال إبصاليَّة واطس أو آدام، حسب وقوع يوم برامون الغطاس، وأيضاً طرح واطس أو آدام، في كلٍّ من تسبحة عشيَّة، وتسبحة نصف اللَّيل. كما أنَّ هناك أيضاً ذُكصولوجيَّة تُقال في رفع بخور عشيَّة

١٠- وهو ما يذكره أيضاً: ''مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م''، و''مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م''، و''مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م''.
انظر: الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ١٠١

١١- وهو ما يذكره نصاً كلٌ من ''مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م''، و''مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م''.

وباكر البرامون.

إبصاليَّتا برامون الغطاس

وهما إبصاليَّتان - واطس وآدام - مأخوذتان من إبصاليَّات عيد الغطاس، والتي يحويها "كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس"، واحدة آدام، وهي إبصاليَّة يوم الاثنين، والأُخرى واطس وهي إبصاليَّة يوم الخميس، لتكونا إبصاليَّتان آدام وواطس لبرامون الغطاس. أمَّا مؤلِّف هذه الإبصاليَّات كلِّها، فهو نيقوديموس، الذي عاش في غضون النِّصف الثَّاني من القرن الخامس عشر.

وسنعود لإلقاء الضَّوء على هذه الإبصاليَّات في الفصل التَّالي.

طرحا برامون الغطاس

يورد كتاب "كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس"، ثمانية طروحات، اثنان منها لبرامون الغطاس[١٢]، واحد آدام والآخر واطس. وفي الوقت الذي يُكتفى فيه بطرحَين فقط في برامون الغطاس ليُقال أيٌّ منهما في برامون الغطاس، ثم مرَّة ثانية في عشيَّة العيد، ثم مرَّة ثالثة في تسبحة نصف اللَّيل للعيد[١٣]، نجد كماً من هذه الطُّروحات في برامون عيد الميلاد المجيد.

١٢- في حين أننا نجد ثمانية طروحات لبرامون الميلاد. اثنان منها لعشيَّة البرامون — إمَّا واطس أو آدام — والسِّتة الباقية موزَّعة على الأربعة هوسات والثِّيؤطوكيَّة الواطس أو الآدام.

١٣- حيث يُقال الطَّرح الآدام على الهوس الأوَّل، والطَّرح الواطس على الهوس الثَّالث. بدون أية علاقة بين الطُّروحات وبين الهوسات من حيث المضمون.

وسنعود للحديث عن هذه الطُروحات مرَّة أُخرى في الفصل التَّالي.

ذُكصولوجيَّة برامون الغطاس

أورد "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨" فقط، ذُكصولوجيَّة واحدة لبرامون الغطاس بدايتها هي: Ⲟⲩⲛⲓϣϯ ⲙ̀ⲙⲩⲥⲧⲏⲣⲓⲟⲛ "سرٌّ عظيم الذي أعلنه لك يا يوحنا السَّابق ابن زكريا ...".

نصُّ ذُكصولوجيَّة برامون الغطاس

وهي تدور كلُّها حول شخص يوحنا المعمدان، وهي ثمانية أرباع:

- سرٌّ عظيم الذي أعلنه لك يا يوحنا السَّابق ابن زكريا.
- فم الله شهد لك أيها المعمِّد، لأنه ليس من يشبهك في مواليد النِّساء.
- أنت هو كمال الأنبياء الذين جاءوا قبل مخلِّصنا لتُعدَّ طرقه كقول إشعياء.
- وكنتَ تكرز قائلاً: أمَّا أنا فأعمدكم بماء التَّوبة لمغفرة الخطايا.
- من له ثوبان فليعط من ليس له، والذي عنده خُبز فليصنع هكذا أيضاً.
- لهذا نمدح صارخين مع النَّبي قائلين: إنَّ كلَّ جسد ينظر خلاص الله.
- فلنسجُد لمخلِّصنا الصَّالح محب البشر، لأنه تراءف علينا، أتى وخلَّصنا.
- نسبِّحه ونمجِّده ونزيده رفعة، كصالح ومحب البشر، ارحمنا كعظيم رحمتك.

كما أوردت كلُّ الأبصلموديَّات السَّنويَّة المقدَّسة قيد الدِّراسة،

ذكصولوجيَّتين لعيد الغطاس؛ الذُّكصولوجيَّة الأولى بدايتـــها: Ⲧⲟⲧⲉ ⲣⲱⲛ ⲁϥⲙⲟϩ ⲛ̀ⲣⲁϣⲓ "حينئذ امتلأ فمنا فرحاً، ولساننا تهليلاً، لأنَّ ربَّنا يسوع المسيح اعتمد من يوحنا ...". والذُّكصـــولوجيَّة الثَّانيـــة بدايتها: Ⲫϯ ⲡⲓⲙⲟⲛⲟⲅⲉⲛⲏⲥ "الإله الوحيد جاء إلى الأردن، والصُّـــورة التي فسدت وماتت بالخطيئة، جدَّدها مرَّة أُخرى بعماد الماء ...".

حصـــر بذُكصـــولوجيَّات الأعيـــاد الـــتي وردت في مخطوطـــات الأبصلموديَّات السَّنويَّة بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار

لم يعُد يوجد بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار سوى ســتَّة مخطوطـــات لأبصلموديَّات سنويَّة(١٤). وبرغم قلَّة هذا العدد من المخطوطات لاستنباط نتائج دقيقة، إلاَّ أن ميزها في ذلك، أنها حوت أبصلموديَّات مـــن ثلاثـــة أديرة هي: دير السيِّدة العذراء البراموس، ودير الأنبا مقار، ودير الســيِّدة العذراء السِّريان، علاوة على مخطـــوط أبصـــلموديَّة يختـــص بالقلاَّيـــة البطريركيَّة المرقسيَّة القبطيَّة.

وأقدم هذه المخطوطات المذكورة يعود إلى سنة ١٧٧٤م، أمَّا أحدثها فيعود زمن نساخته إلى سنة ١٩٠٠م، أي بثماني سنوات فقط قبـــل طباعـــة "أبصلموديَّة أقلاديوس بك لبيب".

وفيما يلي محتوى هذه المخطوطات من الذُّكصولوجيَّات:

- **مخطوط أبصلموديَّة سنويَّة رقم "١٠٠ طقس"**

يعود تاريخه إلى سنة ١٨٦٢م، وقد أوقفه القس يوحنا على دير أنبـــا مقار. ولا يوجد به ذكر لأرباع النَّاقوس، ولا لذُكصولوجيَّات الأعياد.

١٤- وهي أرقام: "١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧ طقس".

◆ مخطوط أبصلموديَّة سنويَّة رقم "١٠١ طقس"

يعود تاريخه إلى سنة ١٨٩٤م، وهو ملك القُمُّص مقار أحد رُهبان دير سيِّدي العظيم أبو مقار. ولا يوجد به أرباع ناقوس، ولا ذُكصولوجيَّات للأعياد.

◆ مخطوط أبصلموديَّة سنويَّة رقم "١٠٣ طقس"

يعود تاريخه إلى سنة ١٧٧٤م، وهو وقف على القلاَّيَّة البطريركيَّة المرقسيَّة القبطيَّة. ولا يحوي أرباع ناقوس، ويذكر ذُكصولوجيَّات الأعياد والمناسبات الكنسيَّة التَّالية:

- ذُكصولوجيَّة عيد النَّيروز **Ϩⲱⲥ ⲉ̀Ⲡⲟ̄ⲥ̄**
- ذُكصولوجيَّة عيد الصَّليب **Ϫⲉⲛⲉⲣϩⲉⲙⲛⲟⲥ**
- ذُكصولوجيَّات شهر كيهك، وهي خمس ذُكصولوجيَّات[١٥]، بالإضافة إلى توزيع شهر كيهك:

الأولى: **Ⲕⲉ ⲅⲁⲣ ⲁⲓϣⲁⲛⲥⲁϫⲓ**

الثَّانية: **Ⲉⲣⲉ ⲡ̀ⲥⲟⲗⲥⲉⲗ**

الثَّالثة: **Ⲅⲁⲃⲣⲓⲏⲗ**

الرَّابعة: **Ϧⲉⲛ ⲡⲓⲁ̀ⲃⲟⲧ**

الخامسة: **Ⲉⲧⲁ ⲡⲓⲱ̀ⲡ**

توزيع شهر كيهك: **Ϥⲉⲙⲡ̀ϣⲁ**

- ذُكصولوجيَّات عيد الميلاد، وهي ثلاث ذُكصولوجيَّات هي:

الأولى: **Ϫⲟⲩⲧⲉⲣⲱⲛ**

١٥- وهي كلُّ الذُّكصولوجيَّات التي أوردها "أبصلموديَّة جمعيَّة نهضة الكنائس، لسنة ١٩٤٨"، بالإضافة إلى ذُكصولوجيَّة رئيس الملائكة غبريال **Ⲛ̇ⲑⲟⲕ ⲟⲩⲛⲓϣϯ**

الثَّانية: Ⲡⲓⲟⲩⲁⲓ ⲉ̀ⲃⲟⲗ

الثَّالثة: Ⲁⲙⲱⲓⲛⲓ ⲧⲏⲣⲟⲩ ⲛ̀ⲧⲉⲛⲟⲩⲱϣⲧ

- ذُكصولوجيَّات الصَّوم المقدَّس الكبير، وهي ثلاث ذُكصولوجيَّات، بالإضافة إلى توزيع الصَّوم المقدَّس الكبير:

الأولى: Ⲙⲉⲕⲛⲁⲓ̀ⲱ Ⲡⲁⲟ̅ⲥ̅

الثَّانية: Ϯⲛⲏⲥⲧⲓⲁ ⲛⲉⲙ ⲡⲓϣ̀ⲗⲏⲗ

الثَّالثة: Ⲡⲓⲙⲁⲓⲣⲱⲙⲓ

توزيع سبوت وآحاد الصَّوم: Ⲟⲩⲛⲓϣϯ ⲙ̀ⲙⲩⲥⲧⲏⲣⲓⲟⲛ

- ذُكصولوجيَّة عيد القيامة إلى الصعود Ⲧⲟⲧⲉ ⲣⲱⲛ
- ذُكصولوجيَّة الصعود Ⲟⲩⲟϩ ⲙⲉⲛⲉⲛⲥⲁ
- قطعة رومي في صوم الرُّسُل Ⲁⲥⲱⲙⲉⲛ ⲧⲱ Ⲕⲩⲣⲓⲱ

◆ مخطوط أبصلموديَّة سنويَّة رقم "١٠٤ طقس"

وهو لأحد رُهبان دير القدِّيس أنبا مقار، ويعود تاريخه إلى سنة ١٨٤١م. والمهتم به الشمَّاس إبراهيم داود. ولا يحوي أرباع ناقوس، ولا ذُكصولوجيَّات أعياد.

◆ مخطوط أبصلموديَّة سنويَّة رقم "١٠٦ طقس"

وهو ملك القُمُّص زخاري البراموسي، وقد اشتراه منه الإيغومانس فيلوثاؤس المقاري. يعود تاريخ نساخته إلى سنة ١٩٠٠م. ولا يوجد به أرباع ناقوس. ويحوي ذُكصولوجيَّات للأعياد والمناسبات الكنسيَّة كالتي وردت في مخطوط رقم "١٠٣ طقس" السَّابق ذكره، بالإضافة إلى:

ذُكصولوجيَّة الملاك غبريال التي تُقال في شهر كيهك.

ذُكصولوجيَّتي عيد الغطاس.
ذُكصولوجيَّة نينوى.
ثلاث ذُكصولوجيَّات لأحد الشَّعانين.
وذُكصولوجيَّة لعيد العنصرة.

◆ مخطوط أبصلموديَّة سنويَّة رقم "١٠٧ طقس"

وكان هذا المخطوط محفوظاً في قلاية المطران بأرض الحبشة. وكان ملكاً للقِّس مرقس أحد قسوس دير السِّت السيِّدة بالسِّريان، وقد عثر عليه في الحبشة فأخذه وحفظه عنده "لأجل التَّعزية مدَّة حياته". وقد عُرف منه أنه من دير أبينا العظيم أنبا مقار. ولم يرد فيه أرباع ناقوس. وورد فيه الذُّكصولوجيَّات التي وردت في مخطوط رقم "١٠٣ طقس" السَّابق ذكره ولكن بالاستثناءات التَّالية:

ذُكصولوجيَّة واحدة للميلاد هي Ϯ ⲟⲧⲉ ⲣⲱⲛ
ذكصولوجيَّتان عربيَّتان للعيد.
ذُكصولوجيَّة واحدة للغطاس Ⲫϯ ⲡⲓⲙⲟⲛⲟⲅⲉⲛⲏⲥ
ذكصولوجيَّتان عربيَّتان للغطاس.

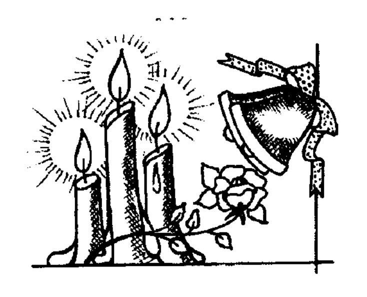
أربع ذكصولوجيَّات للصَّوم المقدَّس الكبير وهي:
الأوَّل: Ⲡⲓⲙⲁⲓⲣⲱⲙⲓ
الثَّانية: Ⲙⲉⲕ ⲛⲁⲓ ⲱ Ⲡⲁⲟ̅ⲥ̅
الثَّالثة: Ϯⲛⲏⲥⲧⲓⲁ
الرَّابعة: Ϯⲛⲏⲥⲧⲓⲁ
التَّسريح Ⲥⲱⲙⲁⲧⲟⲥ

- ذُكصولوجيَّتان لأحد الشَّعانين
الأوَّل: Ⲇⲁⲩⲓⲇ ⲅⲁⲣ ⲡⲓⲉ̀ⲣⲟⲯⲁⲗⲧⲏⲥ

الثّانية: Ⲫⲏⲉⲧϩⲉⲙⲥⲓ ϧⲉⲛ ⲛⲓⲉⲧϭⲟⲥⲓ
وذُكصولوجيَّة واطس عربي للشَّعانين: "اليَوم تمَّت الأقوال، من النُّبوَّات والأمثال ...".

وممَّا سبق، نرى عدم وجود ذكر لذُكصولوجيَّة تُقال في برامون الغطاس، أو في برامون الميلاد، لأيٍّ من المخطوطات السَّابق ذكرها. كما لم يرد ذكر لذُكصولوجيَّات عيد الغطاس سوى في مخطوطين هما "١٠٦، ١٠٧ طقس"، وحتى المخطوط رقم "١٠٧ طقس" لم يورد سوى ذُكصولوجيَّة واحدة لعيد الغطاس، وهي الذُّكصولوجيَّة الثَّانية التي أوردها الأبصلموديَّة السَّنويَّة قيد الدِّراسة.

وهو ما يتَّضح معه المجهود الذي بذلته جمعيَّة نهضة الكنائس القبطيَّة الأرثوذكسيَّة في الأبصلموديَّة التي قامت بطباعتها للمرة الأولى سنة ١٩٤٨م. لتجمع فيها – من بين ما جمعت – ذُكصولوجيَّات كانت معروفة في بعض مناطق مصر الواسعة دون بعضها الآخر، وكان من بينها ذُكصولوجيَّة برامون الغطاس، برغم قِدَم برامون الغطاس في الكنيسة القبطيَّة.



الفَصل الثّالث

الطّقس القبطي لصلوات عيد الغطاس

تمهيد

يشير العالم الطَّقسي ابن كبر (+ ١٣٢٤م) في عبارة مبهمة إلى وجود فرق بين ليلة عيد الميلاد وليلة عيد الغطاس فيقول: "... وحُكمه (أي عيد الغطاس) في البارامون الذي يتقدَّمه، وفي صومه، وما يُتجنَّب فيه من المأكولات، كحُكم الميلاد ما خلا ليلته، ليس لها صلاة بعد صلاة عشيَّة أن يكون ليلة الأحد، ولا بعد قُدَّاس البارامون أن يكن غيرها".

ولابد من الإشارة هنا إلى أنه ممَّا يؤسَف له أنَّ تاريخ الاحتفال بطقس عيد الإبيفانيا في الكنيسة القبطيَّة هو ممَّا طواه التَّاريخ. فلا نستطيع أن نتعرَّف على طقس هذا العيد في كنيسة مصر في الألف سنة الأولى للميلاد، برغم أنَّ كنيسة مصر كانت أوَّل كنائس الشَّرق التي احتفلت به، أي منذ القرن الثَّالث الميلادي. وهذا ليس خافياً على دارسي التَّاريخ الذين يعرفون ما تعرَّضت له مخطوطاتنا القديمة من إبادة وحرق وسرقة. وحتى الكنائس القديمة التي حوت بين جدرانها تلك المخطوطات، لم تفلت هي الأُخرى من ذات العقاب. أمَّا مخطوطاتنا التي تملأ مكتبات العالم ومتاحفه، فكثيرٌ منها لا يعود لما قبل القرن الثَّالث عشر الميلادي، وبعضها الآخر لا يتعدى التَّاسع الميلادي، أمَّا النَّذر اليسير منها فهو أقدم من هذا التَّاريخ. ومن ثمَّ، يصبح من الصَّعوبة بمكان أن نتتبَّع الطَّقس القبطي للاحتفال بعيد الغطاس، بعيداً عن التَّعرُّف عليه في طقوس الكنائس الشَّرقيَّة الأُخرى.

ويُعامل طقس عيد الغطاس معاملة طقس عيد الميلاد، ولكن بإبصاليَّات وطروحات وذُكصولوجيَّات ومردَّات وألحان تختص به،

بالإضافة إلى أهم ما يميِّز طقس العيد، وهو قُدَّاس الماء.

أولاً: عشيَّة عيد الغطاس المجيد

وفيما يلي نصٌّ ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م"(١) مع تعقيب على النَّص في الهامش.

"ترتيب الحادي عشر من شهر طوبه. عيد الدِّنح الذي هو الثَّاؤفانيا، وهو الظُّهور، عماد الابن الوحيد من نسيبه يوحنا المعمداني.

صلاة عشيَّة يبتدئون كالعادة. إلى آخر المزمور الخمسين، لا يقولون بيهمنوس(٢)، لكن يقولون: الليلويا الليلويا ⲁⲗⲗⲏⲗⲟⲩⲓⲁ ⲇⲟⲍⲁⲥⲓ ⲟ ⲑ︦ⲥ︦ ⲏⲙⲱⲛ .. (٣). وبعدها ⲥⲙⲟⲩ ⲉⲡ︦ⲟ︦ⲥ︦ (٤). إلى آخرها إن كان واطس تُقرأ الإبصاليَّة الواطس .. ⲡⲓⲟⲩⲣⲟ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓⲕⲧⲓⲥⲓⲥ (٥) وإن كان آدام تُقال الإبصاليَّة الآدام .. ⲡ︦ⲟ︦ⲥ︦ ⲉ̀ⲣⲟⲩⲣⲟ (٦) وإن كانت الثيؤطوكيَّة واطس يُطرح

١- ويتفق معه: "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

٢- ⲡⲓϩⲩⲙⲛⲟⲥ وهي بدء صلوات السَّواعي. أي لا وجود لصلوات السَّواعي في بداية تسبحة عشيَّة العيد. وفي ذلك يقول "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م": ما يلي: "... ولا يُقال مزامير جملة".

٣- وهو المزمور الـ ١١٦ "سبِّحوا الرَّب يا جميع الأمم ...".

٤- وهو الهوس الرَّابع.

٥- أي: "يا ملك الخليقة كلّها ...". وهي الإبصاليَّة المدوَّنة في "كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس" تحت عنوان: "إبصاليَّة واطس تقال على تذاكية السَّبت لعيد الغطاس".

٦- أي: "ملك الرَّب فتهللت الأرض ...". وهي الإبصاليَّة المدوَّنة في "كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس" تحت عنوان: "إبصاليَّة آدام تقال على

الطَّرح الواطس قبل Ⲱⲡⲉⲛⲟⲥ (٧) وإن كانت آدام يُطرح الطَّرح في رفع البُّخور. ويقولون الذُّكصولوجيَّة Ⲁϥⲉⲣⲙⲉⲑⲣⲉ.. (٨).

يقولون كيرياليصون

Ⲅⲉⲛⲟⲩϣϣⲧ .. Ⲭⲉⲣⲉ ϯⲉⲕⲕⲗⲏⲥⲓⲁ .. Ⲭⲉⲣⲉ Ⲓⲱⲁ ⲡⲓⲛⲓϣϯ ⲙ̀ⲡⲣⲟⲇⲣⲟⲙⲟⲥ: Ⲭⲉⲣⲉ ⲡⲓⲟⲩⲏⲃ ⲛ̀ⲥⲩⲅⲅⲉⲛⲏⲥ ⲛ̀ⲉⲙⲙⲁⲛⲟⲩⲏⲗ..

ويُكمِّلون كالعادة إلى آخر رُبـــع .. Ⲉⲑⲣⲉⲛϩⲱⲥ (٩). وإذا قـــالوا أجيوس(١٠) فالأولى Ⲟ ⲉⲕ ⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲩ (١١) والثَّانيـــة والثَّالثـــة Ⲟ ⲉⲛ Ⲓⲟⲣⲇⲁⲛⲏ Ⲃⲁⲡⲧⲓⲥⲧⲏⲥ (١٢) والذُّكصولوجيَّة بلحن الفـــرح وهـــي: Ⲁϥⲉⲣⲙⲉⲑⲣⲉ (١٣).

ذُكصولوجيَّات عيد الغطاس

أوردت كتب الأبصلموديَّة السَّنويَّة قيد الدِّراسة، ذُكصـــولوجيَّتين لعيد الغطاس؛ الذُّكصـــولوجيَّة الأولى بدايتـــها: Ⲧⲟⲧⲉ ⲣⲱⲛ ⲁϥⲙⲟϩ ⲛ̀ⲣⲁϣⲓ "حينئذ امتلأ فمنا فرحاً، ولسانا تهليلاً، لأن ربَّنـــا يســـوع

تذاكية يوم الأحد في عيد الغطاس المجيد".

٧- وهو ختام الثيؤطوكيَّات الواطس: "يا ربَّنا يسوع المسيح ...".

٨- وهي ذُكصولوجيَّة يوحنا المعمدان الثَّانية كما وردت في كُتُب الأبصـــلموديَّة السَّنويَّة المقدَّسة قيد الدِّراسة..

٩- وهي أرباع النَّاقوس العادية التي تقال على مدار السَّنة.

ويذكر "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لســـنة ١٤٤٤م" هنا: "وبعد ذلك يقول الكاهن أوشيَّة الأموات ...".

١٠- أي الثَّلاثة تقديسات: "قدوسٌ الله، قدوسٌ القوي، قدوسٌ الحي ... الخ".

١١- أي: "يا من وُلد من العذراء ارحمنا".

١٢- أي: "يا من اعتمد في الأردن ارحمنا".

١٣- وهي ذُكصولوجيَّة يوحنا المعمدان الثَّانية.

المسيح اعتمد من يوحنا ...". والذُّكصولوجيَّة الثَّانية بدايتها: ⲫϯ ⲡⲓⲙⲟⲛⲟⲅⲉⲛⲏⲥ "الإله الوحيد جاء إلى الأردن، والصُّورة التي فسدت وماتت بالخطيئة ...".

نصُّ الذُّكصولوجيَّة الثَّانية لعيد الغطاس

الذُّكصولوجيَّة الأولى لعيد الغطاس تورد معاني جيِّدة عن العيد، أمَّا الذُّكصولوجيَّة الثَّانية للغطاس، فهي عجيبة حقاً، إذ جاء نصُّها يجمع بين عيدي الغطاس والميلاد معاً في تناسق بديع، وفي أسلوب يتَّضح لنا منه أنه نصٌّ ليتورجي قديم، يتَّسم بالبساطة والعُمق في آن معاً.

فتقول هذه الذُّكصولوجيَّة الثَّانية:

- الإله الوحيد جاء إلى الأردن، والصُّورة التي فسدت بالخطيئة،
- جدَّدها مرَّة أُخرى بعماد الماء. ورضَّ رأس التِّنين على مياه الأردن.
- رأيتُ الرُّوحِ القُدُس لَمَّا نزل من السَّماء، وسمعتُ صوت الآب صارخاً قائلاً:
- هذا هو ابني حبيبي الذي سرَّت به نفسي، وصنع مشيئتي، فاسمعوا له، لأنه هو المحيي.
- إشعياء النَّبي نطق بكرامة السَّابق البتول الطَّاهر يوحنا نسيب المسيح.
- مباركٌ أنت يا سيِّدنا المسيح الابن الوحيد، الذي تجسَّد من العذراء واعتمد في الأردن.
- هلِّل مثل الحملان أيها الأردن وبريَّته، فقد أتى إليك الحَمَل حامل خطيئة العالم.

– هذا هو حَمَل الله حامل خطيئة العالم الذي أتى بقرن خلاص ليخلّص شعبه.

– تعالوا يا جميع الشُّعوب وملوك الأرض والجنود السَّمائيَّة لنسبِّحه بغير فتور.

– صارخين قائلين: قدوسٌ قدوسٌ قدوسٌ الرَّب. هذا هو ابني الحبيب.

– بهذا نفرح ونرتِّل مع الملائكة الأطهار بتهليل قائلين: المجد لله في الأعالي.

– وعلى الأرض السَّلام، وفي النَّاس المسرَّة، لأنه سُرَّ بكِ الذي له المجد إلى الأبد.

– الليلويا[٤] يسوع المسيح ابن الله اعتمد في الأردن.

– هذا الذي ينبغي له المجد مع أبيه الصَّالح والرُّوح القُدُس من الآن وإلى الأبد.

ويورد "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" مرد إنجيل عشيَّة العيد، وقانون التَّسريح للعيد، في عشيَّة وباكر.

مرد إنجيل عشيَّة عيد الغطاس[١٤]

تباركت يا سيِّدنا المسيح،	Ⲕ̇ⲥⲙⲁⲣⲱⲟⲩⲧ ⲱ̀ ⲡⲉⲛⲛⲏⲃ
الابن الوحيد، الذي تجسَّدَ	Ⲡⲭ̅ⲥ̅ ⁘ ⲡ̀ϣⲏⲣⲓ ⲙ̀ⲙⲟⲛⲟⲅⲉⲛⲏⲥ ⁘

١٤– لقد أغفل كتاب خدمة الشمَّاس والألحان أيّ ذكر لمردَّات تُقال في عشيَّة عيد الغطاس المجيد، كما فعل تماماً من قَبل في إغفاله أيّ مردَّات تُقال في عشيَّة عيد الميلاد المجيد.

من العـــذراء، وتعمَّـــدَ في الأردن.	ⲫⲏⲉ̀ⲧⲁϥϭⲓⲥⲁⲣⲝ ϧⲉⲛ ϯⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲥ : ⲟⲩⲟϩ ⲁϥϭⲓⲱⲙⲥ ϧⲉⲛ ⲡⲓⲒⲟⲣⲇⲁⲛⲏⲥ.

ويُكمِّلون كالعادة. ثمَّ يبتدئ الكاهن بتكميل الصَّلاة. وبعد ذلـــك يقرأون هذا القانون.

قانون يقرأ في عشيَّة وباكر عيد الغطاس[١٥]

إشعياء النَّبي تكلَّـــم بكرامة السَّابق البتول، القدِّيس يوحنا نســـيب المســـيح، أن صـــوتَ صارخٍ في البريَّة: أعدُّوا طريق الرَّب وقوِّمـــوا سبله.	Ⲏ̀ⲥⲁⲏ̀ⲁⲥ ⲡⲓⲡ̀ⲣⲟⲫⲏⲧⲏⲥ : ⲁϥϫⲱ ⲙ̀ⲡ̀ⲧⲁⲓⲟ ⲙ̀ⲡⲓⲡ̀ⲣⲟⲇⲣⲟⲙⲟⲥ : ⲡⲓⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲥ ⲉ̅ⲑ̅ⲩ̅ Ⲓ̅ⲱ̅ⲁ̅ : ⲡⲓⲥⲩⲅⲅⲉⲛⲏⲥ ⲛ̀ⲧⲉ Ⲡ̅ⲭ̅ⲥ̅ : ϫⲉ ϯⲥ̀ⲙⲏ ⲙ̀ⲡⲉⲧⲱϣ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϩⲓ ⲡ̀ϣⲁϥⲉ : ϫⲉ ⲥⲉⲃ̀ⲧⲉ ⲫ̀ⲙⲱⲓⲧ ⲙ̀Ⲡ̅ⲟ̅ⲥ̅ : ⲟⲩⲟϩ ⲥⲟⲩⲧⲉⲛ ⲛⲉϥⲙⲁⲛⲙⲟϣⲓ.
المجد ...	Ⲇⲟⲝⲁ..
كلُّ الوديان والجبال وبريَّة الأردن امتلأت بصوتك أيها الكـــارز بـــالتَّقوى، أن حقـــاً	Ϧⲉⲗⲗⲟⲧ ⲛⲓⲃⲉⲛ ⲛⲉⲙ ⲕⲁⲗⲁⲙⲫⲟ : ⲛⲉⲙ ⲡⲓⲇ̀ⲣⲓⲙⲟⲥ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓⲓⲟⲣⲇⲁⲛⲏⲥ : ⲁⲩⲙⲟϩ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϧⲉⲛ ⲧⲉⲕⲥ̀ⲙⲏ : ⲱ̀ ⲡⲓⲕⲩⲣⲓⲝ ⲛ̀ⲧⲉ ϯⲙⲉⲧⲉⲩⲥⲉⲃⲏⲥ :

١٥- وهو ما يذكره أيضاً: "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م". كما ورد في "مخطوط فيينا رقم (٣ قبطي)" (ورقة ١٦٧ ظهر إلى ورقة ١٦٨ وجـــه)، وأيضـــاً في مخطوط رقم (٢٢١ طقس) بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقـــار، وهـــو مـــن أقـــدم مخطوطـــات الأبصلموديَّات في العالم.

ⲟⲛⲧⲱⲥ ϫⲉ ⲁⲣⲓⲙⲉⲧⲁⲛⲟⲓⲛ: ⲟⲩⲟϩ ϫⲉ ⲁⲥϧⲱⲛⲧ ⲉ̀ⲣⲱⲧⲉⲛ: ⲛ̀ϫⲉ ϯⲙⲉⲧⲟⲩⲣⲟ ⲛ̀ⲧⲉ Ⲫϯ.	توبوا فقد اقترب منكم ملكوت الله.
Ⲕⲉⲛⲩⲛ..	الآن ...
Ⲉⲧⲁϥϭⲓⲱⲙⲥ ⲛ̀ϫⲉ Ⲡⲭ̅ⲥ̅: ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϩⲓⲧⲟⲧⲕ ⲱ̀ ⲡⲓⲣⲉϥϯⲱⲙⲥ: ϧⲉⲛ ⲛⲓⲙⲱⲟⲩ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓⲒⲟⲣⲇⲁⲛⲏⲥ: ⲕⲁⲧⲁ ⲡ̀ⲥⲁϫⲓ ⲙ̀ⲡⲓⲉⲩⲁⲅⲅⲉⲗⲓⲟⲛ: ⲁϥϣⲉⲛⲁϥ ⲉ̀ⲡ̀ϣⲱⲓ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϧⲉⲛ ⲛⲓⲙⲱⲟⲩ: ⲁⲕⲛⲁⲩ ⲉⲡⲓⲙⲩⲥⲧⲏⲣⲓⲟⲛ: ⲛ̀ⲧⲉ ϯⲦⲣⲓⲁⲥ ⲉ̅ⲑ̅ⲩ̅.	بعدما اعتمد المسيح من قبلك أيها المعمدان في مياه الأردن كقول الإنجيل: صعد من المياه ونظرتَ السِّر الذي للثَّالوث المقدَّس.
Ⲕⲉⲛⲩⲛ..	الآن ...
Ⲁⲩⲟⲩⲱⲛ ⲛⲁϥ ⲛ̀ϫⲉ ⲛⲓⲫⲏⲟⲩⲓ̀ ⲟⲩⲟϩ ⲟⲩⲡ̅ⲛ̅ⲁ̅ ⲛ̀ⲧⲉ Ⲫϯ: ⲁϥⲓ̀ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ⲕⲁⲧⲁ ⲟⲩϭⲣⲟⲙⲡⲓ: ⲟⲩⲟϩ ⲁϥⲙ̀ⲧⲟⲛ ⲉ̀ϫⲱϥ: ⲟⲩⲟϩ ⲓⲥ ⲟⲩⲥ̀ⲙⲏ ⲛ̀ⲧⲉ ⲫ̀ⲓⲱⲧ: ϫⲉ ⲫⲁⲓ ⲡⲉ ⲡⲁϣⲏⲣⲓ ⲡⲁⲙⲉⲛⲣⲓⲧ: ⲉⲧⲁⲓϯⲙⲁϯ ⲛ̀ϧⲏⲧϥ.	انفتحت له السَّموات، وخرج روح الله مثل حمامة، واستقر عليه، وها صوت الآب قائلاً: هذا هو ابني حبيبي الذي به سُررت.
Ⲉⲛⲱϣ ⲉ̀ⲃⲟⲗ..	قائلين: ...

يقرأ الكاهن البركة، ويصرف الشَّعب.

ثانياً: تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر لعيد الغطاس المجيد

يقول "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م"(١٦) ما يلي:

يبتدئون بصلاة نصف اللَّيل تلاوة كالعادة، وبأيديهم الشُّموع موقدة، وهم وقوف بالخوروس أمام باب المذبح، ويقولون هكذا:

ϧⲉⲛ ⲫ̀ⲣⲁⲛ .. Ⲕⲉ ⲉ̀ⲗⲉⲏ̀ⲥⲟⲛ ⲕⲉ ⲉ̀ⲗⲉⲏ̀ⲥⲟⲛ ⲕⲉ Ⲉⲩⲗⲟⲅⲓⲥⲟⲛ ⲁ̀ⲙⲏⲛ ⲁ̅ⲗ̅ .. Ⲇⲟⲝⲁ .. Ⲕⲉ ⲛⲓⲛ .. Ⲁⲣⲓⲧⲉⲛ .. Ⲭⲉ ⲡⲉⲛⲓⲱⲧ .. Ⲙⲁⲣⲉⲛϣⲉⲡ̀ϩⲙⲟⲧ .. (17)

أجيوس الأولى .. **Ⲟ ⲉⲕ ⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲩ** أجيوس الثَّانية والثَّالثة **Ⲟ ⲉⲛⲓⲟⲣⲇⲁⲛⲏ ..**(١٨). إلى آخر أبانا، يقولون **Ⲧⲱⲟⲩⲛⲟ ⲉ̀ⲡϣⲱⲓ** بالنَّاقوس بلحنها المعروف(١٩). ثمَّ يمضون إلى المغطس وهم يرتِّلون إلى أن يصلوا إلى المغطس، فيقفون حوله كطقوسهم، ويكملون **Ⲧⲱⲟⲩⲛⲟ ⲉ̀ⲡϣⲱⲓ**. إلى آخرها يقولون الليلويا الليلويا **Ⲇⲟⲝⲁⲥⲓ ⲟ̀ ⲑ︦ⲥ︦ ⲏ̀ⲙⲱⲛ**(٢٠).

١٦- ويتفق معه: "مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و "مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

وتذكر هذه المخطوطات السَّابق ذكرها مباشرة ما يلي: "يقرأ الكاهن البركة، ويجر ستر المذبح (بعد انتهاء صلاة عشية) ويبتدئون بصلاة نصف اللَّيل وهم وقوف مكانهم وبأيديهم الشُّموع موقدة ... ويبتدئون من أمام باب المذبح وهم ماضين بالمهل من باب الخوروس، إلى أن يصلوا إلى المغطس، فيقفون حوله ...".

١٧- أي: باسم الآب ... يارب ارحم، يارب ارحم، يارب بارك، آمين. الليلويا المجد (للآب) ... الآن ... اجعلنا (مستحقين أن نقول) ... أبانا ... فلنشكر ...

١٨- وهي الثَّلاثة تقديسات: "قدوسٌ الله قدوسٌ القوي ..." الأولى يقال فيها: "يا من وُلد من العذراء"، والثَّانية والثَّالثة يُقال فيها: "يا من اعتمد في الأردن".

١٩- وهو لحن "تين ثينو" أي "قوموا يا بني النُّور، لنسبِّح رب القوَّات ...".

٢٠- أي: "الليلويا الليلويا، المجد لإلهنا".

ثمَّ يقول أحد الكهنة أو الشَّمامسة الليلويا المعروفة بالمغطس Πιcon ⲁⲗⲗⲟⲩ ثمَّ يردُّون عليه مثل ما قال إن كانوا يحسنون ذلك، أو يردُّوها بالصَّغير.

وإذا انتهى ذلك، يقول القارئ هذه القطع (الآتية) بطريقة هوس المعموديَّة إن كانوا يحسنون ذلك، وإلاَّ سنوي.

الهوس الكبير لعيد الغطاس المجيد

وهو يحوي مجموعة منتخبة من المزامير الموافقة تماماً لمناسبة العيد. أمَّا المرد فهو: "الليلويا"، حيث يردُّون على القارئ، وفي أثناء المرد يسكت القارئ[٢١].

وهو يبدأ بالرُّبع التَّالي:

- ياربُّ إليك صرخت، فاسمعني. أنصت إلى صوت تضرُّعي إذا ما صرختُ إليك. لتستقم صلاتي قدَّامك. الليلويا. (مزمور ١٤٠: ١، ٢)

وفيما يلي جانبٌ منه:

- صوت الرَّب على المياه، إله المجد أرعد، الرَّب على المياه الكثيرة. الليلويا. (مزمور ٢٨: ٣)
- الجامع مياه البحار كأنها في زق، ووضع الأعماق في كنوز. الليلويا. (مزمور ٣٢: ٧)
- أذكرك ياربُّ في أرض الأردن، وحرمون الجبل الصَّغير.

٢١- هذا ما يقوله "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م".

ولاحظ هنا قارئي العزيز أنَّ المرد الذي يردِّده السَّامعون هو كلمة "هلليلويا" فقط. والتي في أثنائها يصمت القارئ.

الليلويا. (مزمور ٤١:٧)

- الغُمق نادى الغُمق بصوت ميازيبك. كلُّ تيَّاراتك وأمواجك أتت عليَّ. الليلويا. (مزمور ٤١:٨)

- عجَّت الأمواج واضطَّربت، تقلقلت الجبال بعزَّته. مجاري الأنهار تفرِّح مدينة الله. الليلويا. (مزمور ٤٥:٣، ٤)

- المقلق سعة البحر، وصوت أمواجه. وامتلأ نهر الله مياه. الليلويا. (مزمور ٦٤:٧، ١٠)

- أنتَ شدَّدت البحر بقوَّتك، أنت سحقت رؤوس التَّنانين على المياه. أنت رضضت رؤوس التِّنين، وأعطيته طعاماً لشعب الحبشة. الليلويا. (مزمور ٧٣:١٢، ١٣)

- أنتَ فجَّرت العيون والأودية. لكَ هو النَّهار، ولكَ هو اللَّيل أيضاً. الليلويا. (مزمور ٧٣:١٤)

- أبصرتك المياه يا الله، رأتك المياه ففزعت. اضطربت اللُّجج من كثرة دوي المياه. أعطت السَّحاب صوتها، لأن سهامك تسير صوت رعودك في البكرات. الليلويا. (مزمور ٧٦:١٠: ١١)

- يا الله في البحر طريقك، ومسالكك في المياه الكثيرة. الليلويا. (مزمور ٧٦:١٣)

- أنتَ تسود على عزَّة البحر، وحركة أمواجه أنت تهدي. الليلويا. (مزمور ٨٨:٧)

- جعل في البحر يده، وفي الأنهار يمينه. الليلويا. (مزمور ٨٨:١٦)

- قامت الأنهار ياربُّ، رفعت الأنهار صوتها من صوت مياه

كثيرة. الليلويا. (مزمور ٢:٩٢)

- عجيبةٌ هي أهوال البحر. عجيبٌ هو الرَّب في الأعالي. الليلويا. (مزمور ٣:٩٢)

- لتفرح السَّموات ولتبتهج الأرض، وليتحرَّك البحر وجميع ملئه. تفرح البقاع وكلُّ ما فيها. الليلويا. (مزمور ١٠:٩٥، ١١)

- فليتحرَّك البحر وكلُّ امتلائه. الأنهار تصفِّق بأيديها جميعاً. الجبال تبتهج أمام وجه الرَّب، لأنه أتى ليدين الأرض. الليلويا. (مزمور ٧:٩٧، ٨)

- كساهُ العمق مثل الثَّوب، وعلى الجبال تقف المياه من انتهارك هَرب، ومن صوت رعودك تجزع، تصعد الجبال وتنزل البقاع إلى الموضع الذي أسَّسته لها. الليلويا. (مزمور ٦:١٠٣-٨)

- الذي يرسل العيون في الأودية، وفي وسط الجبال تعبر المياه. الليلويا. (مزمور ١٠:١٠٣)

- أبصر البحر فهرب، والأردن رجع إلى خلف. ارتكضت الجبال مثل الكباش، والآكام مثل حملان الضأن. الليلويا. (مزمور ٣:١١٣، ٤)

- مالك أيها البحر أنك هربت، وأنت أيها الأردن أنك رجعت إلى خلف، ويا جبال أنك ارتكضت مثل الكباش، والجبال مثل حملان الغنم. الليلويا. (مزمور ٥:١١٣، ٦)

وتُكمَّل تسبحة نصف اللَّيل كالعادة. ويقول "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م": يقولون

الطُّبحات إلى عند جاورجيوس، فيختمون كالعادة[٢٢] ... يقولون الإبصاليَّة التي توافق".

إبصاليَّات عيد الغطاس المجيد

أورد "كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس" سبع إبصاليَّات لبرامون وعيد الغطاس، مرتَّبة على سبعة أيام الأسبوع، استعار منها إبصاليَّتين، واحدة آدام، وهي إبصاليَّة يوم الاثنين، والأُخرى واطس وهي إبصاليَّة يوم الخميس لتكونا إبصاليَّتين آدام وواطس لبرامون الغطاس. أمَّا مؤلِّف هذه الإبصاليَّات كلُّها فهو نيقوديموس، الذي عاش في النِّصف الثَّاني من القرن الخامس عشر الميلادي، كما سبق أن ذكرتُ غير مرَّة.

• إبصاليَّات الجمعة والسَّبت والأحد

أوردت هذه الثَّلاث إبصاليَّات أرباعاً جيِّدة تناسب عيد الغطاس المجيد، حيث تدور أرباعها حول حدث عماد الرَّب في نهر الأردن بدون إغفال ليوحنا المعمدان، ودوره العظيم والأساسي في هذا العيد.

وقد سبق أن ذكرتُ أنَّ "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" قد أشار إلى إبصاليَّة يوم السَّبت، على أنها الإبصاليَّة الواطس لعيد الغطاس. كما أشار إلى إبصاليَّة يوم الأحد على أنها الإبصاليَّة الآدام لعيد الغطاس. فيتَّضح إذاً أنَّ هاتين الإبصاليَّتين هما أقدم الإبصاليَّات السَّبع التي يوردها "كتاب الطُّروحات والإبصاليَّات للميلاد والغطاس".

٢٢- أي أنَّ مجمع التَّسبحة في تسبحة العيد ينتهي عند الرُّبع الخاص بالشَّهيد مار جرجس، ويعقبه الختام. وهو ما يذكره أيضاً مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م.
انظر: الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ١١٢، ١١٣

وفيما يلي أُوردُ جانباً من هذه الأرباع مع تفادي تكرار الأرباع التي وردت من قبل في الهوس الكبير لهذا العيد، مع ذكر الرُّبع الأوَّل من كلّ إبصاليَّة منها.

فمن إبصاليَّة الجمعة

- أتى السَّابق نسيب عمانوئيل يوحنا المعمد إلى أرض إسرائيل.
- ها هوذا يسوع الرَّحوم جاء إلى الأردن في مثل اللَّيلة، وتعمَّد من يوحنا.
- أيها المؤمنون إسرائيل الجديد، تعالوا إلى العماد المقدَّس باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس.
- حقاً قال حزقيال: إني أنضح عليكم ماءً مختاراً بتهليل، وأطهِّركم.
- قلباً وروحاً جديداً أصيِّره داخلكم، وأنزع القلب الحجري من أجسادكم كل حين.
- وقال أيضاً هذا البار: إن كل نفس حيَّة يتبدَّد عليها ماء هذا النَّهر تحيا.
- افرحوا أيها المسيحيُّون، لأن المسيح اختاركم وأعطاكم الآن الخلاص وكل حين.
- اسمعوا يا جميع الشُّعوب والقبائل ولغات الألسن، أسرعوا إلى العماد الفاخر لتنالوا الحياة الدَّائمة.
- قال ابن الله محب البشر بسلطانه: إن لم يولد الإنسان من الماء والرُّوح فلا يقدر أن يدخل ملكوت الله والفرح الدَّائم بغير فساد.

ومن إبصاليَّة السَّبت

- يا ملك الخليقة كلها، خالق الينابيع، الإله بطبيعته، الـرَّب الإلـه محب البشر.
- أعنَّا يا عون من ليس له معين، واغسل آثامنا يا مؤسس الأزمان.
- لأن ابن لاوي وضع يده على رأسك، أعني يوحنا الصَّابع الـذي كان في برية.
- الأردن وعمَّدك مثل سائر النَّاس. أيها المختار أليصابات ولـدتك التي كانت عاقراً أولاً.
- أتى بعظم مجده الذي هو ابن الآب، واعتمد في الماء اليَوم وصـار لنا ملجأ.
- زبولون وتخومها وعبر الأردن امتلأت من صوتك يا منادي التَّقوى.
- تهلَّل مثل الحملان أيها الأردن وبريَّته، لأنه أتى إليك الحَمَل الذي يحمل خطايا العالم.
- فليتحرَّك البحر ولتفرح البقاع، لأن الرَّب إله القـوَّات روَّعهـا بخوف عظيم.
- تباركت يا ملكنا المسيح الابن الوحيد الجنس، الذي تجسَّد مـن العذراء واعتمد في الأردن.
- روح الحق جاء مثل حمامة وثبت بالحقيقة على الذي أخذ شكلنا.

ومن إبصاليَّة الأحد

- ملك الرَّب فتهللت الأرض، لأنه هو الملك ذو العزَّة.
- عمدني أيها الصَّابغ واقترب مني لأني أنا هو يسوع.
- لأني من أجل هذا العمل، أتيت إلى العالم لكي أعمـل مشـيئتي

حسناً.
- قالت المياه حسناً أتى إلينا يسوع ذو المجد لكي يثبِّتنا.
- فلتفرح اليَوم الجزائر المحيط بها السَّحاب والضَّباب.
- كلُّ الأسماء العالية التي لغير المتجسِّدين تسبِّح العلي ربَّنا يسوع المسيح.
- سمعوا صوتاً زاهراً يشهد من أجله قائلاً: هذا هو ابني الذي بـه سُررت.
- ظهر ابن الله بأمر عظيم، والأنهار تصفِّق بأيديها معاً.
- أيها الإله محب البشر، تستحق التَّقديس المثلَّث، لأنك اعتمدتَّ وغسلت خطايانا.

هذا جانبٌ من صلوات هذا اليَوم العظيم، وهي صلوات ترقى إلى القرن الثَّالث عشر أو الرَّابع عشر الميلادي حوت عمقاً يدفعنا على الحفاظ عليه. أمَّا الإبصاليَّات الأربع التَّالية فلم تكن على نفس هذا المستوى اللائق بالعيد، وهو ما سيرد ذكره فيما يلي.

• إبصاليَّات الاثنين إلى الخميس

على مدى هذه الأربعة إبصاليَّات - من الاثنين إلى الخميس - من بين هذه السَّبع إبصاليَّات، والتي تحوي ما يقرب من مائة رُبع، لم تشر إلى معموديَّة الرَّب في مياه الأردن بيد يوحنا المعمدان سوى في أقل من عشرة أرباع منها. ففي رُبع واحد من إبصاليَّة الاثنين يرد: "يسوع الوحيد وضعت يدك عليه، وفي الأردن عمَّدته". ورُبعان في إبصاليَّة الخميس؛ الأوَّل منهما يقول: "تزيَّنت في أعمالك، وشهدت للنُّور الذي نزل من السَّماء، (أنك) أنت هو نور من نور". وجاء الرُّبع الثَّاني في تعبير

ضمني عن العيد، فيقول: "وأيضاً استحقَّ أن ينظر سرّ الثّالوث المحيي الدَّائم إلى الدُّهور".

أمَّا باقي الأرباع العشرة فجاءت في صيغة إخباريَّة لتسرد رواية الإنجيل المقدَّس عن عماد الرَّب في مياه الأردن.

وعدا هذه الأرباع العشرة، فمعظم أرباع الإبصاليَّات الأربع السَّابق ذكرها - من الاثنين إلى الخميس - تركِّز على شخص يوحنا المعمدان، حتى أصبحت بذلك صالحة لتكون إبصاليَّات لأعياد يوحنا المعمدان، أو لبرامون عيد الغطاس مثلاً، أكثر من كونها إبصاليَّات لعيد الغطاس نفسه. ففي إبصاليَّة الثُّلاثاء نقرأ مثلاً: "هلِّلوا أيها الشُّعوب المسيحيِّين في عيد الشَّهيد يوحنا السَّابق". وفي إبصاليَّة الأربعاء: "الأردن يفرح اليَوم في عيد يوحنا الكاهن الذي للمسيح ملك المجد ابن زكريا الكاهن".

أمَّا عن الألقاب التي أوردتها هذه الإبصاليَّات ليوحنا المعمدان فهي كثيرة، وهي كما يلي على وجه الحصر:

السَّابق، الصَّابغ. المعمِّد. الصَّوت الصَّارخ في البريَّة. المكرَّم أكثر من الأنبياء. المرتفع أكثر من البطاركة. البار. المبارَك. النَّبي. الرَّسول. النَّاسك. الشَّهيد. المتشبِّه بالملائكة. إيليا الآتي. الشَّاهد الصَّادق. صديق حمل الله. نسيب المسيح. الخادم. المجاهد غير المتزعزع. القمر المضيء الحقيقي. ذو الدَّالة. محب النُّسك. كوكب الصُّبح. منادي التَّقوى. الغالب. العظيم. مركبة إسرائيل. لابس المسيح. وكاهن الرَّب.

ولقد أوردت هذه الإبصاليَّات الأربع أرباعاً عامة لا علاقة لها بمناسبة العيد، وهو أسلوب يختص بنيقوديموس المؤلِّف، وذلك مثل قوله: "رفعت

عيني إليك أيها الرَّب كعيني العبد إلى سيِّده''، و''حل عني وثاق الخطيئة وأعني بمحبتك للبَّشر''، و''احفظني أيها الرَّب إلهي لأني عليك توكَّلت، أعطني نعمة وخلاصاً لكي أسبِّحك''، ''ارفع شأن المسيحيِّين من أجل سيِّدتنا وملكتنا مريم العذراء، أعطنا ياربُّ سلامتك، يا مخلِّصنا الصَّالح بارك إكليل السَّنة بصلاحك أيها الرَّب ... الخ''.

ولا ينسى نيقوديموس أبداً ذكر المنتقلين في إبصاليَّاته، ولاسيَّما إبصاليَّات الأعياد السَّيديَّة، وهي إحدى ملامح أسلوبه أيضاً، مثل قوله: ''كلُّ الأنفسِ معاً التي تركت هذا العُمر أعطها بـرَدَاً في الفردوس''، وأيضاً: ''كلُّ الأنفس أعطها برَداً في أحضان آبائنا الصدِّيقين إبراهيم واسحق ويعقوب''.

إن الزَّمن الذي أُلفت فيه هذه الإبصاليَّات، يتَّضح من محتواها، مثل قوله: ''انظر إلى شعبك، خلِّصهم من أعدائهم، ومن التَّجارب، ومن النَّاس الأشرار. فرق أعداء الكنيسة أيها المسيح وأزل مشورهم. احرسنا أيها المسيح ملكنا من الغاشين والحُسَّاد. نجِّنا من يد الجبَّار. أعطنا أن نكمِّل مسيحيَّتنا. أيها السيِّد الله عوننا ارفع شأن المسيحيِّين ... الخ''. ولقد احتل الأسلوب السَّابق ذكره مباشرة نصف أرباع إبصاليَّة الثُّلاثاء، أعفي القارئ العزيز من تكراره هنا مرَّة أُخرى.

طروحات عيد الغطاس المجيد

وهي ثمانية طروحات كما أوردها كتاب طروحات وإبصاليَّات براموني وعيدي الميلاد والغطاس. اثنان منها لبرامون الغطاس[٢٣]، واحد

٢٣- في حين أننا نجد ثمانية طروحات لبرامون الميلاد. اثنان منها لعشية البرامون – إمَّا واطس أو آدام – والستة الباقية موزَّعة على الأربعة هوسات والثيؤطوكيَّة

آدام والآخر واطس. أمَّا السِّتة طروحات الباقية، فاثنان منها على الهوسين الثّاني والرَّابع، والأربعة الأُخرى على ثيؤطوكيَّات الجمعة والسَّبت والأحد، حيث خُصِّص طرحان لثيؤطوكيَّة الأحد وحدها.

ففي الوقت الذي يُكتفى فيه بطرحين فقط في برامون الغطاس ليقال أي منهما في برامون الغطاس، ثم مرَّة ثانية في عشيَّة العيد، ثم مرَّة ثالثة في تسبحة نصف اللّيل للعيد(٢٤)، نجد كماً من هذه الطُّروحات في برامون الميلاد.

ولقد جاءت هذه الطُّروحات قويَّة المعنى، متماسكة العبارة، تحمل بالحق روح الكنيسة في إدراك معنى العيد، وهو أنَّ كلَّ ما فعله المسيح بتجسُّده، قد فعله من أجلنا نحن، ومن أجل خلاصنا. وأنَّ كلَّ ما جازه المسيح من أفعال الخلاص، صار بكُلِّيته ميراثاً لنا نحن المؤمنين به. فكلُّ ما فعله المسيح، لم يفعله لذاته، بل لنا نحن، عندما حمل في جسده طبيعتنا السَّاقطة لكي يردَّها إلى غايتها التي خُلقت من أجلها، أي ميراث الحياة الأبديَّة، والانفلات من الموت والخطيئة، ومن قبضة الشيطان، والذي تصفه الطُّروحات باسم "المتجبِّر".

وفيما يلي أهم ما حوته الطُّروحات من معاني عن مناسبة عماد الرَّب في مياه الأردن:

"الشَّعب الغليظ العنق بنو إسرائيل لم يؤمنوا بصوت الآب الصَّالح صارخاً: ... هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت، أمَّا نحن الشُّعوب فقد استحققنا رسم المعموديَّة المقدَّسة الحقيقيَّة باسم الثَّالوث المقدَّس.

الواطس أو الآدام.

٢٤- حيث يُقال الطَّرح الآدام على الهوس الأوَّل، والطَّرح الواطس على الهوس الثَّالث. بدون أية علاقة بين الطُّروحات وبين الهوسات من حيث المضمون.

تعالوا يا جميع أقطار الأرض، لنمضي بالرُّوح إلى أرض إسـرائيل، لنمشي مع يسوعٍ، وهو مقبل إلى الأردن ليعتمد من يوحنـا، ونسـمع صوت الآب قائلاً: هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت. تعـرُّوا مـن الإنسان العتيق والبسوا الإنسان الجديد. اخرجوا من الأردن لتنالوا التَّطهير بالعماد المقدَّس، لأنَّ الكُتُب تشهد لنا أنه بغير الطهَّارة لا يعاين أحد الله. لنغطس في الماء المقدَّس الذي للأردن[٢٥] وهو يطهِّرنا.

الذي زيَّن السَّماء بكثرة النُّجوم تعرَّى من ثيابه وتعمَّد بالماء ... قد أُضئت أيها الأردن بنور الثَّالوث الذي ظهر وقت حلول الرُّوح القُـدُس على الابن، ومن الآن كلُّ الأنفس التي تعمَّدت باسم الثَّالوث المقدَّس، قد استنارت بنوره الذي أعطاها إياه مخلِّصنا مع السُّلطان لكي تدوس قوَّة العدو.

الله الآب ضابط الكُل ... تحنَّن على صورته وجبلته الـتي خلقهـا وأرسل وحيده ... واعتمد من يوحنا، وعتقنا من عبوديَّة المتجبِّر من قِبَل رسم المعموديَّة المقدَّسة ... فلنرتِّل بخشوع ونمجِّد الله بتسابيح روحانيَّـة، لأنه ردَّنا إلى رئاستنا الأولى، ولأننا كنَّا جلوساً في الظُّلمة وظلال الموت، فأضاء علينا من قِبَل معموديَّته المقدَّسة ... لأنه من قِبَل حميم المعموديَّـة المقدَّسة صرنا وارثين الملكوت السَّمائيَّة. فلنسجُد للثَّالوث المساوي، الإله الواحد الدَّائم إلى الأبد، هذا الذي قد استحققنا أن ننال منه مغفرة خطايانـا بمثاله المقدَّس. هذا الذي نرسم مثاله على جباهنا في المعموديَّة المقدَّسة".

ومن المعروف أنَّ هذه الطُّروحات السَّابق ذكرها هي أقدم بكثير مـن زمن تأليف الإبصاليَّات، وذلك إقتداء بطروحات أُخرى في الكنيسة القبطيَّـة

٢٥- يُسمَّى جرن المعموديَّة في الطَّقس باسم "الأردن". انظر للمؤلِّف كتـاب: "معموديَّة الماء والروح".

لاسيَّما طروحات أسبوع الفصح المقدَّس. ولا يخفى على القارئ العزيز – كما أشرت غير مرَّة – أنَّ هذه الطُّروحات لم تكن تُقرأ قراءة عاديَّة، بل كانت تُلحَّن جملة جملة بلحن بديع، مع ما يسبقها من مقدِّمة الطَّرح باللَّحن المختص به، وما يعقبها من خاتمة باللَّحن المختص به أيضاً. ومن ثمَّ فقد كانت تتيح وقتاً كافياً للقارئ والسَّامع معاً للتأمُّل في معنى العيد.

وجدير بالذِّكر، أنَّ الطُّروحات والإبصاليَّات تُلقِّب يوحنا المعمدان بلقب "الكاهن"، بينما طرح واطس على ثيؤطوكيَّة السَّبت يلقبه بلقب "رئيس الكهنة"، وهي المرَّة الوحيدة التي ترد فيها هذه الصِّفة عن يوحنا المعمدان. أمَّا طرحا ثيؤطوكيَّة الأحد، فهما يناسبان أن يكونا طرحَين لأعياد يوحنا المعمدان عن كونهما طرحَين لعيد الغطاس المجيد.

وبانتهاء تسبحة نصف اللَّيل يبدأ لقَّان عيد الغطاس. وقد أفردتُ الباب الرَّابع من هذا الكتاب للحديث عنه، فارجع إليه.

ثالثاً: باكر عيد الغطاس المجيد

وقد كُتب في الميلاد المجيد والاعتماد عليه[٢٦].

مرد إنجيل باكر[٢٧]

هَلِّل مثل الحملان أيها	Ⲑⲉⲗⲏⲗ ⲙ̀ⲫⲣⲏϯ ⲛ̀ϩⲁⲛϩⲓⲏⲃ : ⲱ̀
الأردن وكلّ بريَّته، فقد	ⲡⲓⲓⲟⲣⲇⲁⲛⲏⲥ ⲛⲉⲙ ⲡⲉϥⲇⲣⲓⲙⲟⲥ :
أتى إليك الحَمَل حامل	ⲁϥⲓ̀ϣⲁⲣⲟⲛ ⲛ̀ϫⲉ ⲡⲓϩⲓⲏⲃ : ⲫⲏⲉⲧⲱ̀ⲗⲓ

٢٦- "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م".
٢٧- وهو المرد الذي تذكره كلّ مخطوطات ترتيب البيعة قيد الدِّراسة. ولم يذكره كتاب خدمة الشمَّاس والألحان.

ⲙ̀ⲫⲛⲟⲃⲓ ⲙ̀ⲡⲓⲕⲟⲥⲙⲟⲥ.	خطيَّة العالم.

ويُكمَّل كالعادة. ثمَّ يبتدئون بالقُدَّاس".

رابعاً: قُدَّاس عيد الغطاس المجيد

إنَّ ما يبعث على الدَّهشة، وما يُتعجَّب له حقاً، أننا لا نجد لهذا العيد السَّيدي العظيم - برغم قدمه السَّحيق في الكنيسة القبطيَّة — ألحاناً تختص به. هذا هو اللُّغز الكبير، وهو ما يدعوني إلى التَّيقُّن، أنَّ ما وصل إلينا من ألحان الكنيسة القبطيَّة، ليس إلاَّ جزءًا يسيراً منها. أمَّا بقيتها فقد توارى بين طيات التَّاريخ، وما أقساه من تاريخ.

لحن "أوران إنشوشو"

ليس لدينا في العيد سوى لحن واحد، هو لحن **Ⲟⲩⲣⲁⲛ ⲛ̀ϣⲟⲩϣⲟⲩ** (أوران إنشوشو)، والذي اضطرَّ كتاب خدمة الشمَّاس أن يسميه "لحن الغطاس". وهو في الحقيقة لحنٌ يختص القدِّيس يوحنا المعمدان، أكثر من كونه لحناً لعيد الغطاس.

أمَّا كلمات هذا اللَّحن فهي:

"اسم فخر هو اسمك يا نسيب عمانوئيل. أنت عظيم في جميع القدِّيسين يا يوحنا المعمدان.

أنتَ مرتفع أكثر من رؤساء الآباء، ومكرَّم أكثر من الأنبياء، لأنه لم يقُم في مواليد النِّساء من يشبهك.

تعالوا اسمعوا الحكيم لسان الذَّهب ثاؤدوسيوس، ينطق بكرامة السَّابق يوحنا المعمِّد.

ماذا أدعوك وبأي نوع أكرِّمك، وبأي شبه أشبِّهك يا مستحق

كلّ كرامة.

أنت هو حلاوة الثَّمرات، أنت هو حركة الأغصان، أنت هو زهرة الأشجار النَّابتة في أرض السَّوسن".

هذا هو اللَّحن الوحيد الذي احتفظ به التَّاريخ، ليُقال في عيد معموديَّة المسيح له المجد بيد يوحنا المعمدان(٢٨).

وهذا القصور هو ما حدا بالبابا كيرلُّس الرَّابع (١٨٥٤-١٨٦١م) إلى استعارة لحن من الكنيسة البيزنطيَّة، ليُقال في عيد الغطاس ضمن اثني عشر لحناً رغب في إدماجها في الطَّقس القبطي. أمَّا اللَّحن الذي استعاره من الكنيسة البيزنطيَّة، فهو طروباريَّة تُقال عندهم باللَّحن الأوَّل في عيد الغطاس، وبدايته هي: ... Ἐν Ἰορδάνῃ βαπτιζομένου σου Κύριε

أمَّا كلماته فهي: "باعتمادك يارب في نهر الأردن، ظهرَت السَّجدة للثَّالوث، لأنَّ صوت الآب تقدَّم لك بالشَّهادة مسمِّياً إيَّاك ابناً محبوباً، والرُّوح بهيئة حمامه، يؤيِّد حقيقة الكلمة. فيا من ظهرتَ وأنرتَ العالم، أيها المسيح الإله، المجد لك".

والآن عودة إلى "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار

٢٨- قرأتُ في مخطوطاتنا القبطيَّة عن لحن المعموديَّة أو "الليلويا المعموديَّة"، ولقد سألتُ المتنيِّح الدُّكتور راغب مفتاح (١٨٩٨-٢٠٠١م) عنه، فأفاد بأنَّ هذا اللَّحن البديع قد ضاع، ولم تلحقه أجهزة التَّسجيل. وهو ما كان قد أكَّده لي من قَبل أحد الآباء الكهنة القدامى في كنيسة بإحدى مراكز محافظة الغربيَّة، وكان قد استلم ألحان القُدَّاس الغريغوري كاملة من المعلِّم ميخائيل جرجس مرتِّل الكاتدرائيَّة المرقسيَّة. وقد رغب هذا المعلِّم الجليل أن يسلِّم لهذا الأب الكاهن لحن المعموديَّة، إذ لم يكن يحفظه غيره. ولكن الأب الكاهن أرجأ استلام اللَّحن لوقت آخر، إذ كان قد أجهد في استلام ألحان القُدَّاس الغريغوري. ولم يأت هذا الوقت الآخر، وضاع لحن المعموديَّة.

البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م".

يقول مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس)[٢٩]:

"... ثمَّ يبدأون بالقُدَّاس إلى وقت الإبركسيس يقولون **Ouran ǹϣouϣou** . وبعده أجيوس الثَّلاثة كما شُرح أولاً[٣٠]. وبعد ذلك يقولون بالنَّاقوس:

أرباع النَّاقوس المصاحبة للثَّلاثة تقديسات

ياربي يسوع المسيح الذي اعتمد في الأردن، طهِّر نفوسنا من دنس الخطيئة[٣١].	**Πϭ̅ς̅ Ι̅Η̅ς̅ Πχ̅ς̅ : Φηèⲧⲁϥϭⲓⲱⲙⲥ ϧⲉⲛ ⲡⲓⲓⲟⲣⲇⲁⲛⲏⲥ : ⲉⲕèⲧⲟⲩⲃⲟ ǹⲛⲉⲛⲯⲩⲭⲏ : èⲃⲟⲗ ϩⲁ ǹⲑⲱⲗⲉⲃ ǹⲧⲉ ǹⲫⲛⲟⲃⲓ.**
الشَّاروبيم ...	**Ⲛⲓⲭⲉⲣⲟⲩⲃⲓⲙ..**

إلى نهايته يقول الكاهن أوشيَّة الإنجيل ويُطرح المزمور، ويُرد سنجاري كامل أو ملخَّص. وبعد قراءة الإنجيل عربياً يُرد بهذا[٣٢]:

٢٩- ويتفق معه "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م".

٣٠- أي: الأوَّل "يا من وُلد من العذراء ارحمنا"، والثَّانية والثَّالثة: "يا من اعتمد في الأردن ارحمنا".

٣١- هذا الرُّبع المذكور قد أغفله كتاب "خدمة الشمَّاس والألحان" في كلّ طبعاته حتى الآن. ولعل السَّبب في ذلك هو أنَّ هذا الرُّبع قد ورد في كتاب 'اللقَّان والسَّجدة' متبوعاً بكلمات: "الليلويا الليلويا الليلويا"، ربما كخطأ غير مقصود، فأنتجت هذه الإضافة لبساً في فهم المقصود منه.

٣٢- هذا هو الرُّبع الثَّامن من ذكصولوجيَّة عيد الغطاس الثَّانية السَّابق ذكرها.

مرد إنجيل قُدَّاس عيد الغطاس المجيد

هذا هـــو حمـــل الله،	Ⲫⲁⲓ ⲡⲉ ⲡⲓϩⲓⲏⲃ ⲛ̀ⲧⲉ Ⲫϯ :
حامل خطيَّـــة العـــالم،	ⲫⲏⲉⲧⲱ̀ⲗⲓ ⲙ̀ⲫⲛⲟⲃⲓ ⲙ̀ⲡⲓⲕⲟⲥⲙⲟⲥ :
الذي جاء بقرن خلاص،	ⲫⲏⲉⲧⲁϥⲓ̀ⲛⲓ ⲛ̀ⲟⲩⲧⲁⲡ ⲛ̀ⲥⲱϯ :
ليخلِّص شعبه.	ⲉⲑⲣⲉϥⲛⲟϩⲉⲙ ⲙ̀ⲡⲉϥⲗⲁⲟⲥ.

ووقت الإبروسفارين يقولون بالنَّاقوس(٣٣):

الأسبَسموس الآدام(٣٤)

ها قد شهد ...	Ϩⲏⲡⲡⲉ ⲁϥⲉⲣⲙⲉⲑⲣⲉ :..

ويكمِّلون كالعادة المرسومة".

وقت التَّوزيع

ووقت التَّوزيع الليلويا Ⲥⲙⲟⲩ ⲉ̀Ⲫϯ (٣٥) بلحن الفرح. وبعـــدها Ⲁϥⲉⲣⲙⲉⲑⲣⲉ (٣٦) وبعـــدها Ⲭⲉ ϥ̀ⲥⲙⲁⲣⲱⲟⲩⲧ وبعـــدها تُقـــال Ⲟⲩⲣⲁⲛ ⲛ̀ϣⲟⲩϣⲟⲩ ...(٣٧). ووقت التَّسريح يقولـــون الليلويـــا(٣٨)

٣٣- هو الرُّبع الأوَّل من الذُّكصولوجيَّة الثَّانية ليوحنا المعمدان، مع الرُّبع الثَّالـــث من الذُّكصولوجيَّة الثَّانية لعيد الغطاس، في جملة إخباريَّة في صيغة المتكلِّم، وهو: "ها قد شهد يوحنا الصَّابغ أني عمدتُ الرَّب في ميـــاه الأردن. وسمعـــتُ صـــوت الآب صارخاً إن هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررتُ"".

٣٤- وهو الأسبَسموس الذي ذكرته كلُّ المخطوطات.

انظر: الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ١١٧

٣٥- وهو المزمور المائة والخمسون.

٣٦- أي: ذُكصولوجيَّة يوحنا المعمدان الثَّانية.

٣٧- أورد "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لســـنة ١٩١٠م" كلمات هذا اللَّحن كاملة، كما تجدها في كتاب خدمة الشمَّاس والألحـــان،

المختصَّة بالمعموديَّة والغطاس. وينصرفون بسلام.

خامساً: طقس أيام ما بعد عيد الغطاس

يشير شمس الرِّئاسة ابن كبر (+ ١٣٢٤م) قس كنيسة العذراء المعلَّقة في القرن الرَّابع عشر إلى أنَّ الاحتفال بطقس الفرح لعيد الغطاس ينتهي بنهاية يوم العيد، فيقول: "وآخر يومه انتهاء لحن الفرح واستمرار الألحان المعتادة".

ومن الملاحظ هنا، أنَّ ابن كبر لم يشر إلى عيد عُرس قانا الجليل كأحد الأعياد السَّيديَّة. ولا يستغرب القارئ من ذلك، فالطَّقس في الكنيسة دائم التَّطوُّر، محتفظاً دائماً بالأصول الأولى لا يتزحزح عنها. وعلى سبيل المثال لهذا التَّطوُّر، فإنَّ ابن كبر يجعل من عيد التَّجلي أحد السَّبعة أعياد الأولى في الكنيسة، بينما يؤخِّر عيدي البشارة والختان. ويجعل من يوم الجُمعة العظيمة أحد الأعياد السَّيديَّة، فيقول في ذلك:

"والمستقر في البيعة القبطيَّة أنَّ الأعياد السَّيديَّة أربعة عشر، أولها الميلاد ثمَّ العماد، ثمَّ التَّجلي، ثمَّ الشَّعانين المعروف بالزَّيتونة، ثمَّ القيامة المقدَّسة، ثمَّ الصُّعود، ثمَّ البندقسطي. والأعياد السَّبعة التي تليها وتضاهيها البشارة والختان ودخول السِّيِّد المسيح الهيكل، ودخوله أرض مصر مع أُمِّه

"اسم فخر هو اسمك يا نسيب عمانوئيل ...".

وهنا يضيف "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و "مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و "مخطوط السِّريان لسنة ١٦٩٨م"، و "مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م" ما يلي: "وإذا عوزوا يقولون لحن الميلاد Πιϫινⲙⲓⲥⲓ وإن اختاروا يقولون (أيضاً) لحن الرُّوح القُدُس Πιπνⲁ ".

٣٨- يذكر "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م" ما يلي: "ووقت التَّسريح يقولون Ϫⲗ ⲡⲓⲥⲟⲛ ⲁⲙⲟⲩ المختصَّة بالمعموديَّة والغطاس ...".

ويوسف الخطيب، ويوم الخميس الكبير الذي هو العهد الجديد، والجُمعة الكبيرة، والأحد الثَّاني من حد القيامة وهو الأحد الأوَّل من الخمسين المُسمى حد الحدود ... الخ".

وفي موضع آخر من الباب التَّاسع عشر يقول عن عيد التَّجلي: "والتَّجلي في الثَّالث عشر من شهر مسرى إذا اتفق في يوم الأربعاء والجُمعة لا يحل صومه إذ لم يرد فيه نصٌّ".

وبالمثل أيضاً يقول فيما يختص بعيد البشارة:

"إنَّ ألحانه تكون بلحن العادة (أي اللَّحن السَّنوي) لا بالألحان المحزنة الصوميَّة (كذا). ولا تحل الكنيسة القبطيَّة فيه صوماً، ولا تغيِّر مأكول الأربعين (أي الصَّوم الأربعيني) بشيء آخر. **وكذلك أيضاً عيد الختان، إن اتفق يوم الأربعاء أو الجُمعة، لا يحل صومهما، ولكنَّه مع ذلك يُصلَّى بألحان الفرح، لأنه يتفق بين عيدي الميلاد والغطاس**. وكلٌّ من عيدي الصَّليب، فإنهما لا يحلان صوماً إن اتفق ووقعا فيه، وإنما يزمر بألحانه المختصَّة به"[٣٩].

ويلاحظ القارئ العزيز أنَّ ابن كبر يتحدَّث عن طقس الكنيسة البطريركيَّة، مقر البابا البطريرك، وهي كنيسة العذراء المعلَّقة بمصر القديمة. وإن ما نراه من تطوُّر طقسي في الكنيسة اليَوم عمَّا ذكره ابن كبر، هو تعبير عن حياة الكنيسة ونموِّها، طالما كان هذا النُّمو محافظاً على الأصول الأولى وامتداداً لها.

٣٩- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، البَاب ١٩

أمَّا اليَوم فيدوم طقس الفرح في الكنيسة القبطيَّة بعيد الغطاس ثلاثة أيام، حيث يكون اليَوم الثَّالث هو عيد عُرس قانا الجليل، تذكاراً للآية التي صنعها الرَّب، فحوَّل فيها الماء خمراً مختاراً.

ولقد حدثت هذه الأعجوبة الأولى في حياة الرَّب على الأرض بعد ثلاثة أيام من لقائه بالرُّسُل القدِّيسين بعد معموديَّته، وقوله لهم: «سترون السَّماء مفتوحة، وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن البشر». وقول نثنائيل له: «ربي، أنت هو ابن الله، أنت هو ملك إسرائيل» (يوحنا ١:٤٩-٥١).

وقد رأى آباء الكنيسة في هذه الأعجوبة التي حدثت في اليَوم الثَّالث بعد هذا الاعتراف، إشارة إلى السِّر الفصحي، كما يقول القدِّيس كيرلس الكبير. ففي هذا اليَوم الثَّالث جرت أحداث القيامة، وبلغ يسوع إلى كمال مجده البنوي، حين جلس عن يمين الآب، ومن ثمَّ أصبح إرسال الرُّوح القُدُس ممكناً لتبدأ الخليقة الجديدة الإسخاتولوجيَّة.

أعجوبة قانا الجليل هي صورة عن التَّحوُّل الرُّوحي لنصبح نحن أيضاً خليقة جديدة في المسيح.

وفي ذلك يقول العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م):

[إنَّ مجيء المسيح هو أساس تحوُّل العهد القديم من ماء إلى خمر][٤٠].

ونجد صدى هذا الفكر اللاهوتي في اللِّيتورجيَّا الأسبانيَّة، حيث نقرأ النَّص التَّالي: "في هذا السِّر يعلِّمنا السيِّد أنَّ الإيمان بالحقيقة (أي العهد

40- Origéne, *In Joannem* 13, 60 ; PG 14, D517.

الموسوي) يجب أن يتحوَّل إلى خمر الحكمة ذي المذاق الرُّوحي الخالص".

وإلى جانب أنَّ عُرس قانا الجليل هو رمزٌ لكمال تعاليم الإنجيل، فهو صورة للإفخارستيَّا. فإنَّ عُرس قانا يتضمَّن تلميحاً في نظرة يوحنا الإنجيلي إلى العشاء السِّري، وهو ما نجد صداه عند القـدِّيس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠م) أُسقُف ليون[٤١]، وعند مـار أفـرآم السِّـرياني (٣٠٦-٣٧٣م)، والقدِّيس ساويرس الأنطاكي (٤٦٥-٥٣٨م).

وتحويل الماء إلى خمر في آخر العشاء بعد أن فرغت الخمر، يرمز إلى عطية الرُّوح التي جاءت في آخر الكُل، وافتتحت الزَّمن الإسـخاتولوجي الذي تعيشه الكنيسة منذ الآن وإلى انقضاء الدَّهر.

أمَّا في الكنيسة البيزنطيَّة، فيدوم طقس الفرح بعيد الغطـاس كـلَّ الأسبوع التَّالي للعيد.

ويقول مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس)[٤٢]:

ويستمر لحن الفرح يُخدم إلى الثَّالث عشر من طوبه. وفي كلِّ يـوم بعد رفع البُّخور عشيَّة وباكر يُقرأ هذا القانون إلى أوَّل الصَّوم (الكـبير) خلا صوم نينوى.

فلنشـــكر الله الآب	Ⲙⲁⲣⲉⲛϣⲉⲡ̀ϩⲙⲟⲧ ⲛ̀ⲧⲟⲧϥ
ضـابط الكُـــل،	ⲙ̀Ⲫϯ Ⲫ̇ⲓⲱⲧ ⲡⲓⲡⲁⲛⲧⲟⲕⲣⲁⲧⲱⲣ:
الكـائن إلى الـدُّهور،	ⲫⲏⲉⲧϣⲟⲡ ϣⲁ ⲛⲓⲉ̀ⲱⲛ:
خالق الكُـل، الـذي	ⲡⲓⲣⲉϥⲥⲱⲛⲧ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓⲉ̀ⲡ̀ⲧⲏⲣϥ:
تفضَّـل فخلقـنا	ⲫⲏⲉⲧⲁϥⲉⲣⲕⲁⲧⲁⲝⲓⲟⲓⲛ

41- *Adversus Haereses* III ; PG 7, AB 883.

٤٢- ويتفق معه "مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م".

ⲁϥⲑⲁⲙⲓⲟⲛ ⲕⲁⲧⲁ ⲧⲉϥϩⲓⲕⲱⲛ.

حسب صورته.

Ⲇⲟⲝⲁ..

المجد ...

Ⲙⲁⲣⲉⲛϯⲱ̀ⲟⲩ ⲙ̀Ⲡⲭ̅ⲥ̅ Ⲉⲙⲙⲁⲛⲟⲩⲏⲗ: ⲉ̀ⲧⲉ ⲫⲁⲓ ⲡⲉ ϫⲉ Ⲫ︦ϯ︦ ⲛⲉⲙⲁⲛ: ⲡⲉϥϣⲏⲣⲓ ⲙ̀ⲙⲏⲓ ⲛ̀ⲟⲩⲱⲧ: ⲫⲏⲉ̀ⲧⲁⲥⲙⲁⲥϥ ⲛ̀ϫⲉ ϯⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲥ: ϧⲉⲛ Ⲃⲏⲑⲗⲉⲉⲙ ⲛ̀ⲧⲉ ϯⲓⲟⲩⲇⲉⲁ̀.

فلنمجِّد المسيح عمانوئيل، الذي هو الله معنا، ابنه الحقيقي الواحد، الذي ولدته العذراء في بيت لحم اليهوديَّة.

Ϫⲉ ⲟⲩⲱ̀ⲟⲩ ϧⲉⲛ ⲛⲏⲉⲧϭⲟⲥⲓ ⲙ̀Ⲫ︦ϯ︦: ⲛⲉⲙ ⲟⲩϩⲓⲣⲏⲛⲏ ϩⲓϫⲉⲛ ⲡⲓⲕⲁϩⲓ: ⲛⲉⲙ ⲟⲩϯⲙⲁϯ ϧⲉⲛ ⲛⲓⲣⲱⲙⲓ: ⲓⲥϫⲉⲛ ϯⲛⲟⲩ ⲛⲉⲙ ϣⲁ ⲉ̀ⲛⲉϩ.

المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السَّلام، وفي النَّاس المسرة، من الآن وإلى الأبد.

Ⲁϥϭⲓⲱⲙⲥ ϧⲉⲛ ⲡⲓⲒⲟⲣⲇⲁⲛⲏⲥ: ⲁϥⲧⲟⲩⲃⲟⲛ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϧⲉⲛ ⲛⲉⲛⲛⲟⲃⲓ.

اعتمد في الأردن، وطهَّرنا من خطايانا.

Ⲕⲉⲛⲩⲛ..

الآن ...

Ⲙⲁⲣⲉⲛϩⲱⲥ ⲉ̀ⲡⲉⲛⲥⲱⲧⲏⲣ: ⲛⲉⲙ ϯⲡⲣⲟⲛⲓⲁ̀ ⲛ̀ⲧⲉ ⲧⲉϥⲙⲉⲑⲛⲟⲩϯ: ⲫⲏⲉ̀ⲧⲁϥⲉⲣⲛⲏⲥⲧⲉⲩⲓⲛ ⲉ̀ϩⲣⲏⲓ ⲉ̀ϫⲱⲛ: ⲛ̀ⲙ̅ ⲛ̀ⲉ̀ϩⲟⲟⲩ ⲛⲉⲙ ⲙ̅ ⲛ̀ⲉ̀ϫⲱⲣϩ.

فلنسبِّح مخلّصنا، ورعاية لاهوته. الذي صام عنَّا أربعين يوماً وأربعين ليلة.

Ⲡⲁⲗⲓⲛ ⲁⲩⲁϣϥ ⲉ̀ⲡⲓ⳧ ⲉⲑⲃⲏⲧⲉⲛ : ⲉⲑⲃⲉ ⲛⲉⲛⲁ̀ⲛⲟⲙⲓⲁ̀ : ⲛⲉⲙ ⲉⲑⲃⲉ ⲛⲉⲛⲛⲟⲃⲓ: ⲡⲓ⳧ ⲡⲉ ⲡⲉⲛⲟⲩϫⲁⲓ : ⲡⲓ⳧ ⲡⲉ ⲡⲉⲛⲭ̀ⲗⲟⲙ : ⲡⲓ⳧ ⲫⲏⲉ̀ⲧⲁϥϣⲱⲡⲓ ⲛ̀ⲟⲩⲥⲱϯ ⲛ̀ⲧⲉ ϩⲁⲛⲛⲟⲃⲓ.

وأيضاً صُلب على الصَّليب لأجلنا، من أجل آثامنا، ومن أجل خطايانا. الصَّليب هو خلاصنا، الصَّليب هو إكليلنا، الصَّليب صار خلاصاً من الخطايا.

Ⲡⲓⲭ̅ⲥ̅ Ⲁϥⲧⲱⲛϥ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϧⲉⲛ ⲛⲏⲉⲑⲙⲱⲟⲩⲧ : ⲁϥϯ ⲙ̀ⲫⲛⲟϩⲉⲙ ⲛ̀ⲛⲏⲉ̀ⲧⲉ ⲛⲟⲩⲛ ⲙ̀ⲯⲩⲭⲏ.

المسيح قام من بين الأموات، ومنح الخلاص لنفوسنا.

Ⲕⲉⲛⲩⲛ..

الآن ...

Ⲙⲁⲣⲉⲛⲉⲣⲡ̀ⲣⲟⲥⲕⲩⲛⲓⲛ ⲛ̀ϯⲧ̀ⲣⲓⲁⲥ ⲛ̀ⲣⲉϥⲧⲁⲛϧⲟ : ⲉⲥⲟⲓ ⲛ̀ⲟⲙⲟⲟⲩⲥⲓⲟⲥ ⲉⲑⲙⲏⲛ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϣⲁ ⲉ̀ⲛⲉϩ.

فلنسجد للثّالوث المحيي، المساوي الدَّائم إلى الأبد.

Ⲡⲓⲱ̀ⲟⲩ ⲙ̀Ⲫⲓⲱⲧ ⲛⲉⲙ ⲡ̀ϣⲏⲣⲓ ⲛⲉⲙ ⲡⲓⲡ̅ⲛ̅ⲁ̅ ⲉⲑ̅ⲩ̅ ⲛ̀ⲁⲅⲓⲟⲥ ⲙ̀ⲡⲁⲣⲁⲕⲗⲏⲧⲟⲛ : ⲫⲏⲉ̀ⲧⲁϥⲁⲓⲧⲉⲛ ⲛ̀ⲣⲉⲙϩⲉ ⲉ̀ⲃⲟⲗϩⲁ ϯⲙⲉⲧⲃⲱⲕ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓϫⲁϫⲓ : ϩⲓⲧⲉⲛ ⲡⲓⲧⲟⲩⲃⲟ ⲛⲉⲙ ⲡⲓϫⲱⲕⲉⲙ : ⲛⲉⲙ ⲡⲓⲱⲙⲥ ⲛⲉⲙ ⲛⲓⲃⲁⲡⲧⲓⲥⲙⲁ : ⲛⲉⲙ ϧⲉⲛ ⲡⲓⲗⲩⲙⲏⲛ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓ⳧ :

المجد للآب والابن والرُّوح القُدُس، القدُّوس المعزي، الذي صيَّرنا أحراراً من عبوديَّة العدو بواسطة التَّطهير والاغتسال، والتَّغطيس والمعموديَّة. وبميناء الصَّليب نرشم أجسادنا.

	ⲙⲁⲣⲉⲛϯⲙⲏⲓⲛⲓⲉ̀ⲛⲉⲛⲥⲱⲙⲁ.
صارخين قائلين ...	Ⲉⲛⲱϣ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ⲉⲛϫⲱ ⲙ̀ⲙⲟⲥ..

هذا ما تذكره مخطوطات ترتيب البيعة قيد الدِّراسة.

أمَّا الأسبَسموس الواطس لعيد الغطاس كما ورد في كتاب "خدمة الشمَّاس والألحان"، فهو الرُّبع السَّابع من الذُّكصولوجيَّة الثَّانية لعيد الغطاس: "تهلَّل مثل الحملان أيها الأردن وبريَّته، فقد أتى إليك الحَمَل حامل خطيئة العالم"، ولم يرد في أي من مخطوطات البيعة السَّابق ذكرها.

لقد صارت الذُّكصولوجيَّة الثَّانية لعيد الغطاس، هي المصدر الأساسي الذي استقى منه المصنِّفون أرباع النَّاقوس ومرد الإبركسيس، والرُّبع الأوَّل من لحن يوحنا المعمدان **Ⲟⲩⲣⲁⲛ ⲛ̀ϣⲟⲩϣⲟⲩ** (أوران إنشوشو)، والأسبَسموسات الواطس والآدام، ومردَّات الأناجيل.

وفي الختام، إنَّ معموديَّة المسيح له المجد، لم تكن من أجل تجديد الإنسان فقط، بل وأيضاً كلّ الخليقة. وهناك طروباريَّة بيزنطيَّة تقول: "اطربي يا كلّ خليقة عند رؤيتك ظهور الله القدُّوس. رنِّموا يا ملائكة، وافرح أيها البحر، واجذلي أيتها البحيرات والينابيع. وأنتِ أيتها الأنهار أطلقي أناشيدك السِّرِّيَّة، لأنَّ المسيح يقف هناك ويُقدِّسك"[٤٣]. وإنَّ النُّصوص اللِّيتورجيَّة لهذا العيد في الكنيسة القبطيَّة، تدعم هذه الرؤية الكونيَّة، ولاسيَّما الإبصاليَّات المختصَّة بالعيد.

٤٣- اللِّيتورجيَّا البيزنطيَّة. قارن مع رومية ٨: ٢٢، ٢٣

البَاب الرَّابع

لقّان عيد الغطاس المجيد

الفَصل الأوَّل
لقّان عيد الغطاس المجيد
في الكنائس الشَّرقيَّة المختلفة

تمهيد

تتحدَّث كثيرٌ من الوثائق القديمة في الشَّرق، عن عـــادة تبريـــك المـــاء لاستخدامات المؤمنين، كقوَّة حافظة لهم في بيوتهم وأعمالهم، وواسطة شفاء لأمراضهم الجسديَّة والنَّفسيَّة، ولاسيَّما في يوم عيد الغطاس. لأننا نعـــرف أنَّ الشَّرقيِّين كانوا يحفظون عادة منح المعموديَّة للموعوظين في هذا اليَوم.

وقد نقلت إلينا كلُّ كُتُب الطَّقس في الكنيسة الشَّـــرقيَّة، صـــيغاً لتبريك مياه الإبيفانيا. أمَّا الهدف من هذه المراسيم كلِّها، فهو هدفٌ واحد، وهو تذكار معموديَّة الرَّب، وتقديس مياه الأردن. وتحوي هذه المراسيم نفس الصَّلاة المقدَّسة، التي يسهل علينا التَّعرُّف عليها بمقارنة الوثائق القديمة في الطُّقوس المختلفة.

ويتم تبريك مياه اللقَّان في ليلة الإبيفانيا قبل بداية اللِّيتورجيَّـــا في بعض الطُّقوس الشَّرقيَّة كما في الطَّقس القبطي، أو بعد انتهاء الصَّلوات اللِّيتورجيَّة عند الفسقيَّة المقدَّسة الموضوعة في الفناء الخارجي للكنيسة ἐν τῇ φίαλῃ τοῦ μεσιαύλου τῆς ἐκκλησίας كما في الطَّقس البيزنطي.

تبريك المياه في الطَّقس السِّرياني

أقدم شهادة واضحة في هذا الطَّقس لتبريك الماء في عيد الإبيفانيـــا، هي عظة للقدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) ألقاها في أنطاكية عن

المعموديَّة يوم ٦ يناير سنة ٣٨٧م، فيقول(١):

> [في هذه المناسبة المقدَّسة يتجمَّع المسيحيُّون نحو منتصف اللَّيل، حاملين معهم مياهاً في أوعية ملأوها ماءً لتوِّهم من أماكن تجمعهم Ὑδρευσάμενοι' ويحتفظون بهذا الماء بعناية على مدى السَّنة التَّالية كلِّها، لأنَ المياه تتقدَّس في ذلك اليَوم].

وهنا لا يتحدَّث ذهبي الفم عن ماء المعموديَّة، بل عن ماء عيد الغطاس، ذلك لأنَّ الصَّلوات التي تُمارس على هذه المياه المباركة في كُتُب الطَّقس الشَّرقيَّة، لا تشير في إشارة منها إلى ماء المعموديَّة.

ومنذ القرن الخامس الميلادي يُقرِّر بطرس القصَّار(٢) Pierre le foulon بطريرك أنطاكية (+ ٤٨٨م)، أنَّ صلوات تبريك مياه عيد الإبيفانيا، لا تكون بعد منتصف اللَّيل – وهو ما ذكره من قبل القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧_٤٠٧م) - بل تكون في العشيَّة مساءً(٣).

ويحتفظ التَّقليد السِّرياني بمعطيات دقيقة لهذه الصَّلاة، والتي تبدأ بعبارة: Μέγας εἶ Κύριε καὶ θαυματὰ τὰ ἔργα σου أي: "عظيمٌ

1- PG 49, Col. 366

٢- بطرس القصَّار هو بطريرك أنطاكي شهير، ارتقى منصبه بمساعدة الإمبراطور زينون، بعد أن سانده في منشور "الهينوتيكون" Henoticon الذي أصدره. وقد صار بطريركاً لأنطاكية سنة ٤٨٢م بعد فترة صراعات بخصوص المنصب، بدأت منذ سنة ٤٧٠م. وهو الذي أدخل على الثّلاثة تقديسات عبارة: "يا من صُلب عنَّا ارحمنا". وطبقاً لرواية ثيؤدوريت (٣٩٣_ ٤٦٦م) فهو الذي أدخل أيضاً ترديد قانون إيمان نيقية في الصَّلوات الإفخارستيَّة، وفي صلوات تبريك الميرون. كما أدخل أيضاً تذكار والدة الإله في كلِّ خدمة كنسيَّة.

Cf. ODCC, 2nd edition, p. 1072.

3- Théodore, Le lecteur, *Hist. eccles.*, 1. II, fragm. XLVIII

أنت ياربُّ، وعجيبةٌ هي أعمالك ...''[٤].

وهي تحوي تسبيحاً وشكراً موجَّهاً إلى أقنوم الابن، وتسبيحاً لصفاته الإلهيَّة وقُدرته، ولاسيَّما أفعال الخلق، والشُّكر على كلِّ عطايا التَّجسُّد، فتقول مثلاً: ''لا نخفي إحسانك، لأنك أتيت وخلَّصتنا ... لأنك وأنت لم تزل إلهاً، ظهرتَ على الأرض واشتركتَ في المشي مع النَّاس''.

وفيها أيضاً ذكرٌ لمعموديَّة الأردن. إذ تقول: ''أنت قدَّست مجاري الأردن إذ أنزلت عليها روحك القدُّوس من السَّماء''، حيث ينتهز المصلِّي هذه اللَّحظة ليُصلِّي صلاة الاستدعاء، فيطلب إلى الرَّب ظهوراً جديداً لروحه القدُّوس على المياه فيقول: ''أنت الآن يا سيِّدنا محب البشر، ربّنا يسوع المسيح، هلمَّ الآن أيضاً بحلول روح قُدسك عليها، قدِّس هذا الماء''. وبعد ذلك يعود فيكرِّر مرَّة أُخرى الاستدعاء قائلاً: ''أنت الآن أيضاً يا سيِّدنا، قدِّس هذا الماء بروح قُدسك''[٥].

ثمَّ توضِّح هذه الصَّلاة في النِّهاية، المنافع التي لهذا الماء المقدَّس، والذي صار سبباً للطَّهارة والتَّقديس وحالاً للخطايا، ومقدِّساً للنَّفس والجسد، وسلاحاً ضد الشياطين، وواقياً وحارساً لكلِّ الفضائل والبيوت، لأولئك الذين يستعملونه بكلِّ نوع، برشِّه أو الاستقاء منه.

٤- وهي أيضاً في الطَّقس القبطي، نصُّ صلاة قُدَّاس ماء اللقَّان حتى نهايته، والتي تلي مباشرة قول الكاهن: ''مستحقٌ ومستوجب''. أمَّا مَقدِّمتها فهي: ''أنت هو الرَّب الإله العظيم، وعجيبةٌ هي أعمالك، وليس شيء من الكلام كافياً في التَّسبيح بعجائبك ...''.

٥- قبل هذين الاستدعائين السَّابقين، هناك أيضاً طلبة لتقديس الماء بدون ذكر مباشر للرُّوح القدُس فيها. حيث يقول الكاهن: ''قدِّس هذا الماء وامنحه نعمة الأردن''. ومعروف أنَّ كلَّ تقديس، يكون حتماً بالرُّوح القُدُس.

من هذا يتّضح لنا أنّ هذه الصّلاة هي الجزء الرّئيسي والأساسي في مراسيم وطقس هذا اليَوم، فهي الأصل الذي بُني عليه كلّ طقس التّبريك كما يشهد بذلك التّقليد السّرياني. وكان السّريان والأرمن قد استعاروا هذه الصّلاة من اليونان، كما استعارها أيضاً منهم الأقباط والأحباش متجاهلين جزءاً كبيراً من الصّيغ اللّيتورجيّة التي وردت بها، والتي أُضيفت على الإفخولوجيون اليوناني منذ القرن الثّامن الميلادي.

ويعرف السّريان أيضاً الأصول اليونانيّة لصلوات تبريك المياه عندهم، وينسبون هذا الطّقس إلى زمن القدّيس يعقوب الرّهاوي (٦٣٣-٧٠٨م) أُسقُف إديسا في نهاية القرن السّابع الميلادي. ويشهد مخطوط سرياني يعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي، بأنَ هذا الأُسقُف قد وضع ترجمة جديدة لهذا الطّقس. وكتب البطريرك الملكاني ميخائيل الكبير سنة ١١٧١م يقول: "إن طقس تبريك الماء، قد تأسّس في البداية في أنطاكية، ولكن مراسيمه لم تدوّن بتحديد، سوى في زمن يعقوب الرّهاوي، ورفيقه جرجس أُسقُف العرب".

ولقد نُشر الطّقس السّرياني الأنطاكي، وكذلك الطّقس السّرياني الكلداني، لتبريك الماء لعيد الإبيفانيا لأوّل مرّة مع ترجمة لاتينيّة له، بواسطة العالم كولونا M.A.M. Colonna في روما سنة ١٥٨٦م طبقاً لما دوّنه البطريرك ميخائيل الكبير سنة ١١٧١م. وقد تُرجم الطّقس السّرياني لتبريك الماء إلى الإنجليزيّة سنة ١٩٠١م طبقاً لمخطوطتين محفوظتين في المتحف البريطاني تعودان إلى القرن العاشر والحادي عشر(٦).

6- Bute & Dr. E.W. Budge, *The blessing of the waters on the Eve of the Epiphany*, 1901.

وطبقاً لما يذكره البطريرك ميخائيل الكبير عن طقس تبريك الماء، يتَّضح لنا أنَّ القدِّيس يعقوب الرَّهاوي (٦٣٣-٧٠٨م) ليس هو مؤلِّفه، لكنَّه قام بمراجعته فقط. فيقول البطريرك المذكور في ذلك: "إنَّ طقس تبريك الماء، لم يُذكر إطلاقاً في الماضي في كنيسة الله، **كما أنه لم يرد أيُّ ذكر عنه في كنيسة الإسكندريَّة في مصر حتى اليَوم.** وعندما بدأت ممارسته، كان الكاهن يقول صلاة واحدة فقط على المياه. وبعد ذلك أضاف القدِّيس بروكلوس Proclus أُسقُف إحدى مُدُن قبرص تلك الصَّلاة الكبيرة التي ألَّفها هو، والتي بدايتها هي: 'عظيمٌ أنت ياربُّ ...' ثمَّ أضاف الآباء أربع صلوات أُخرى، وقرَّروا ألاَّ يحدث على ذلك إضافة أو حذف"(٧).

وهذه الصَّلوات الأربع الأخيرة تختص بالطَّقس السِّرياني. وقد وضع القدِّيس يعقوب الرَّهاوي ترقيماً لها يتَّفق مع ما نُشر من الوثائق التي تحوي هذه الصَّلوات.

أمَّا تلك الصَّلاة الكبيرة المنسوبة للقدِّيس بروكلوس - بحسب رواية البطريرك ميخائيل الكبير – فالنَّص السِّرياني لها يختلف عن صلاة تكريس الماء الرَّئيسيَّة التي بدايتها: "عظيمٌ أنت ياربُّ ..." عند اليونان باستثناء جملتين فقط في البداية.

وفي الطَّقس الماروني الذي هو وليد الطَّقس السِّرياني، يتم تبريك الماء بعد صلاة نصف اللَّيل. وبعد انتهاء صلوات اللقَّان، يأخذ الكاهن ثلاث جمرات من نار المبخرة، ويرميها في ماء اللقَّان قائلاً: باسمِ الآب يتطهَّر، باسم الابن يتنقَّى، باسم الرُّوح القُدُس يتبارك. ويرش ماءً على الجماعة

7- DACL, t. 2, p. 706.

المصلّية، ثمّ يصعد إلى المذبح لإقامة الذّبيحة الإلهيّة(٨).

تبريك المياه في الطّقس الأرمني

وبموجب التّقليد الأرمني، فإنّ طقس صلوات تبريك ماء اللقّان هي من وضع القدّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م)، وأضاف إليها بعد ذلك البطريرك صفرونيوس بطريرك أورشليم أجزاء من تأليفه، وذلك في القرن السّابع الميلادي. وربما ذكرت هذه التّفاصيل السّائحة الأسبانيّة إيجيريا التي زارت أورشليم في القرن الرّابع الميلادي، لأنه مع الأسف هناك ورقة ناقصة من المخطوط المحفوظ لدينا، والذي ينقل إلينا مذكّرات هذه الرّاهبة الأسبانيّة، وهي ورقة تختص ببداية الوصف التّفصيلي لأعياد الإبيفانيا.

ولقد نشر العالم اللّيتورجي كونيبير M.F.C. Conybeare في سنة ١٩٠٥م كتابه "طقس تبرك مياه الإبيفانيا في الطّقس الأرمني"(٩)، وذكر فيه أنّ أقدم مخطوط معروف لهذا الطّقس هو إفخولوجيون يوناني محفوظ الآن في مكتبة بربريني Barberini بروما، ويعود تاريخه إلى نهاية القرن الثّامن الميلادي.

وطقس تبريك الماء عند الأرمن، قد حفظته وثائق قديمة أرمينيّة. ومنذ بداية القرن الثّامن الميلادي، أشار الكاثوليكوس الأرمني يوحنا Jean d'Odesum إلى هذه المناسبة الطّقسيّة، رابطاً إياها بعماد السيّد المسيح في مياه الأردن. ومن جهة أُخرى، فإنّ مقدّمة كتاب الطّقس الأرمني "Mashtotz" يقرّر بأنّ قانون تبريك المياه، قد وصفه القدّيس باسيليوس

٨- حياتنا اللّيتورجيّة، السّنة السّابعة، لبنان، ١٩٩٦-١٩٩٧م، ص ٧٥٨

9- M.F.C. Conybeare, *The Epiphany Rite of the blessing of the water*, dans rituale Armenorum, Oxford, 1905.

أُسقُف قيصاريَّة، في عبوره على أورشليم. أمَّا هوسرو Hosrow الذي كان في أورشليم بأمر القدِّيس اسحق[١٠]، فقد حمل هذا الطَّقس فيما بعد من أورشليم إلى أرمينيا.

لذلك فإنه من المحتمل، أنَّ تبريك المياه في عيد الإبيفانيا، قد مارسته كنيسة أورشليم في البداية، ومنها انتشر في كلِّ الشَّرق. ويسجِّل لنا أنطونين بلاسنُس Antonin Plaisance أقدم شرح لتبرك المياه في هذه المناسبة، حين زار الأراضي المقدَّسة نحو سنة ٥٧٠م، فيقول:

"حضرتُ عيد الإبيفانيا في الأردن، حيث تتم الأمور العجيبة في تلك اللَّيلة، في ذات المكان الذي تعمَّد فيه الرَّب. ففي ليلة عيد الظُّهور الإلهي، يقيمون سهرة كبيرة يحضرها عدد كبير جداً من الشَّعب. وعند صياح الدِّيك الرَّابع أو الخامس، يرفعون صلوات باكر. وبعد ذلك ومع شروق الشَّمس، يقومون بالخدمات الإلهيَّة. وينزل الكاهن بصُحبة الشَّمامسة في النَّهر. وفي السَّاعة التي يبدأ فيها تبريك المياه، يرجع الأردن بهدير إلى ما وراء الكاهن، ويقف الماء حتى يتم العماد. وكلُّ الرِّجال الإسكندرانيِّين الذي لديهم مراكب، والذين يحملون معهم آنية مليئة بالأطياب والبلسان، ينزلون بأوعيتهم في النَّهر في نفس السَّاعة التي يبارك فيها الكاهن الجُرن قبل أن يبدأ العماد، ويأخذون من الماء المبارَك عليه، ويستعملونه للرَّش على مراكبهم قبل أن يبحروا ذاهبين. وبعد الانتهاء من العماد، ينزل الجميع في النَّهر للبَّركة، وهم لابسين أرديتهم وأنواع أُخرى

١٠- هو المعروف باسم اسحق الكبير، وقد عاش في القرن الخامس الميلادي، وتُكرِّمه الكنيسة الأرمينيَّة لترجماته للطُّقوس اليونانيَّة إلى اللُّغة الأرمينيَّة.
DACL, t. 2, p. 705.

يحفظونها لديهم. وبعد انتهاء العماد يعود الماء إلى مكانه"[١١].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ النُّبوّات في أعياد الكنيسة الأرمينيّة لا تُقرأ، بل ترتَّل ترتيلاً، وتختلف الألحان بين سفر وآخر[١٢].

تبريك المياه في الطّقس البيزنطي

يحوي الإفخولوجيون اليوناني القديم هذا الطّقس تحت العنوان التّالي: ἁγιασμός τῶν ἁγίων θεοφανίων ، أي: "تقديس أعياد الظّهور المقدَّسة".

وتُقدِّم لنا المخطوطات اليونانيَّة المتأخِّرة، والتي تعود إلى ما بعد القرن الثّامن الميلادي، كلَّ العناصر اللِّيتورجيَّة التي يستخدمها الطّقس اليوناني الحالي في هذه المناسبة[١٣].

يبدأ تبريك مياه اللقّان في الطّقس البيزنطي بترتيل طروباريّات مناسبة لهذا الطّقس، من بينها الطُّروباريَّة التي بدايتها φωνή Κυρίου ἐπι τῶν ὑδάτων أي: «صوتُ الرَّب على المياه ...»، وهي مستوحاة من المزمور الثّامن والعشرين.

أمَّا القراءات التي تصاحب هذا الطّقس، فتتغيَّر طبقاً للمخطوطات المختلفة، ولكنَّنا نتقابل في معظمها مع فصل إشعياء النَّبي الذي يقول: «تستقون مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص ...» (١٢:٣)، وقد وُجدت

11- DACL, t. 2, *op. cit.*, p. 701.

١٢- حياتنا الليتورجيَّة، السَّنة السابعة، لبنان، ١٩٩٦-١٩٩٧م، ص ٨٠٨

13- Cf. Bute et Budge, E.W., *The blessing of the waters on the Eve of the Epiphany*, (Textes latin, russe, syriaque, copte et grec avec traduction), London, 1901.

الكلمات الأولى لهذا الفصل الكتابي، محفورة على الأواني التي كان يُحفظ فيها الماء المُصلَّى عليه في عيد الإبيفانيا(١٤).

ويسبق صلاة تكريس مياه لقَّان الغطاس "عظيمٌ أنت يارب، وعجيبة هي أعمالك ..." صلاتان أُخريان في الطَّقس البيزنطي كمقدِّمة لها معنونان في المخطوطات القديمة بالعنوانَين التَّاليين:

العنوان الأوَّل: Πρόλογος λεγόμενος πρὸ του Μέγας εἶ Κύριε أي: "مقدِّمة تقال قبل عظيمٌ أنت يارب".

العنوان الثَّاني: ἕτερος πρόλογος أي: "مقدِّمة أُخرى".

ويختار الكاهن واحدة منهما ليُصلِّيها قبل أن يبدأ الصَّلاة الرَّئيسيَّة: "عظيمٌ أنت يارب ...". أمَّا المخطوطات الحديثة نوعاً، وفي الإفخولوجيون اليوناني الحالي، فقد ضُمَّت هاتان الصَّلاتان تحت عنوان واحد هو "قصيدة poéme لصفرونيوس بطريرك أورشليم"(١٥). وقد صار صفرونيوس بطريركاً لأورشليم من سنة ٦٣٤م إلى سنة ٦٣٨م. ولا توجد حتى الآن شهادات قديمة يمكن الاعتماد عليها، تنسب له هاتين الصَّلاتين، ولاسيَّما الصَّلاة الأولى منهما. أمَّا الصَّلاة الثَّانية، فمن الأوفق لنا أن

14- Cf. DACL, t. 1, forme 116.

١٥- صفرونيوس بطريرك أورشليم، هو راهب مصري الأصل، وُلد سنة ٥٨٠م. ولمَّا بلغ من العمر ٢٠ سنة، انتقل إلى قُرب الأردن. ثمَّ رحل إلى أورشليم في سنة ٦١٩م. ومنذ سنة ٦٣٣م فصاعداً صار الخصم الأوَّل للمونوثيليَّة monothelitism (أي عقيدة المشيئة الواحدة). ودافع عنه المقوقس Cyrus بطريرك الإسكندريَّة الملكاني. وقد كتب صفرونيوس سيرة حياته مطوَّلة. ولازال بعضاً من عظاته محفوظ حتى اليَوم، إلى جانب أشعار كثيرة له. وقبل نياحته شهد احتلال أورشليم تحت خلافة الخليفة عُمر بن الخطاب سنة ٦٣٧م. وتعيِّد له الكنيسة البيزنطيَّة في ١١ مارس من كلِّ عام.

ننسبها إلى زمن لاحق قليلاً للبطريرك صفرونيوس، أي أنّ تأليفها كان نحو سنة ٦٥٠م.

وتنسب بعض المخطوطات اليونانيَّة هذه الصَّلاة الثّانية إلى القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م)، وهو ما يشهد له أيضاً التَّقليد الأرمني الذي يعود بتاريخ هذه الصَّلاة إلى سنة ٤٤٠م، فالكنيسة الأرمينيَّة تعرف أيضاً في ليتورجيَّتها هذه الصَّلاة الثّانية.

وعلى الرَّغم من هذه الصَّلاة الثّانية، وما نالته من أبحاث ودراسات، والتي هي في حقيقتها لحنٌ أكثر من كونها صلاة أو طلبة، لا يجب أن تطغى على المكانة الفائقة والمتميِّزة التي تحتلها الصَّلاة الرَّئيسيَّة لتكريس الماء في هذا اليوم والتي بدايتها: Μέγας εἶ Κύριε "عظيمٌ أنت ياربُّ ..."، وهي الصَّلاة التي حُفظت لنا في الطُّقوس القبطيَّة والإثيوبيَّة والسِّريانيَّة والأرمينيَّة.

كما يشير يوحنا الصَّائم بطريرك القسطنطينيَّة (+ ٥٩٠م) إلى طقس تبريك مياه الإبيفانيا، ويقول بأنَّ التَّائبين الذين كانوا تحت قانون توبة، كانوا يشربون من ماء لقّان عيد الإبيفانيا في أعياد ميلاد المسيح والإبيفانيا والفصح، بديلاً عن التَّناول من جسد الرَّب ودمه في زمن توبتهم(١٦).

وعن نسبة هذا الطَّقس إلى القدِّيس باسيليوس الكبير، فإنَّ إفخولوجيون يوناني قديم يعود إلى القرن السَّابع الميلادي، ويحوي هذا الطَّقس، يحمل العنوان التَّالي: Ποίημα Βασιλείου أي: "أعمال باسيليوس". ويضيف الإفخولوجيون المذكور، بأنَّ هذا الطَّقس قد

16- DACL, t. 2, *op. cit.*, p. 701.

دُوِّن طبقاً لمجمع نيقية(١٧).

كما نُسبت للقدِّيس باسيليوس الكبير صيغة صلاة طقسيَّة في مخطوط يوناني آخر يعود إلى القرن الحادي عشر أو الثَّاني عشر للميلاد، وينسب السِّريان هذه الصَّلاة الطَّقسيَّة إلى طقس تبريك الماء طبقاً لتقليد أرمني قديم.

أمَّا التَّرجمة الإنجليزيَّة لهذا الطَّقس بموجب إفخولوجيون فينيسيا الذي يعود إلى القرن التَّاسع الميلادي، فهي نفس الطَّقس الذي أشار إليه الكاثوليكوس يوحنا Jean d'Odesum ، حيث يحوي المزمور رقم (٢٥) مع الأنتيفونا المختصَّة به، ثمَّ قراءات من إنجيل القدِّيس متى، ثمَّ صلوات تشتمل على لحن المعموديَّة، ثمَّ صلاة التَّكريس الرَّئيسيَّة "عظيمٌ أنت يارب ..."، ثمَّ طلبة ختاميَّة oraison وفي النِّهاية سكب الميرون المقدَّس على الماء.

تبريك المياه في الطَّقس القبطي

أمَّا الأقباط فلا توجد لديهم أيُّ وثائق قديمة تشهد بأنهم مارسوا طقس تبريك الماء في عيد الغطاس حتى نهاية القرن السَّابع الميلادي. وهو ما عرفناه من القدِّيس يعقوب الرَّهاوي الذي قضى في الإسكندريَّة عدَّة سنوات. وإنه من العسير حتى اليَوم أن نحدِّد الزَّمن أو التَّاريخ الذي مارس فيه الأقباط هذا الطَّقس.

وجدير بالذِّكر، أنَّ كتاب الطَّقس القبطي الذي طبعه روفائيل الطُّوخي (١٧٠٣-١٧٨٧م) في روما سنة ١٧٦١م/ ١٧٦٢م باللُّغتين القبطيَّة والعربيَّة، والذي حوى فيه طقس تبريك الماء، اعتمد فيه على مخطوطات

17- M.F.C. Conybeare, *op. cit.*, p. 705.

متأخِّرة غير قديمة.

ويحتفظ المتحف البريطاني في لندن بمخطوط قبطي قـديم باللُّغـة القبطيَّة البحيريَّة تحت رقم (Cod. Or. 5043.1) يحوي طقس تبريك الماء في الكنيسة القبطيَّة.

وتُعد التَّرجمة الإنجليزيَّة التي قام بها الدكتور بودج E.A.T.W. Budge لطقس تبريك الماء في الكنيسة القبطيَّة – معتمداً على نص الطُّوخي – من أهم المراجع التي تحدَّثت عن هذا الطَّقس(١٨).

لقد استعار الأقباط صلاة تكريس الماء الرَّئيسيَّة والتي بدايتها: Μέγας εἶ Κύριε "عظيمٌ أنت يارب ..." من الكنيسة اليونانيَّة، وليس من الكنيسة السِّريانيَّة. لأنَّ عدداً كبيراً من المصطلحات اليونانيَّة في هذه الصَّلاة القبطيَّة، مستعارة من صيغة الصَّلاة البيزنطيَّة.

ولقد نشر ديمتريفسكي نصاً يونانياً لهذه اللِّيتورجيَّة سنة ١٩٠١م، وفي نهايته يتم تبريك الماء بتغطيس الصَّليب فيه، ثمَّ يشرب الحاضرون من هذه المياه المقدَّسة.

ولقد وُضعت هذه الصَّلاة الرَّئيسيَّة في الطَّقس القبطي موائمة للسِّمة القبطيَّة في الصَّلاة اللِّيتورجيَّة، حيث تأتي بعد ترتيل "أجيوس" ثلاث مرَّات، وهو ما نقله الطَّقس الإثيوبي عن الطَّقس القبطي، إلاَّ أنه يضيف تراتيل وصلوات تمهيديَّة للتَّبريك، مختلفاً في ذلك عن الطَّقس القبطي.

18- Bute et Budge, E.W., *op. cit.*

صلاة قبطيَّة سحيقة في القدم تسبق الصَّلاة الرَّئيسيَّة لتبريك الماء

ويسبق هذه الصَّلاة الأساسيَّة في طقس تبريك الماء في عيد الإبيفانيا عدد من الفصول الكتابيَّة، وطلبة ذات مرد "ياربُّ ارحم" بدايتها: "أيها الرَّب الإله ضابط الكُل، معطي الرَّحمة كلَّ حين، نسألك يا ربُّ اسمعنا وارحمنا"(١٩). وهي صلاة مأخوذة من مراسيم طقسيَّة سحيقة في القدم، كان يمارسها المصريون في تبريك مياه النِّيل. وإن النُّصوص القبطيَّة واليونانيَّة التي نشرها هول M.H.R. Hall سنة ١٩٠٦م عن مخطوط بالمتحف البريطاني بلندن تحت رقم (١٣٨م) ويعود إلى القرن السَّادس الميلادي، تحوي هذه الطِّلبة لتبريك مياه النِّيل، ضمن نصوص أُخرى.

واستمراراً لاعتبار مصر هي جنة الرَّب، تطلق الكنيسة القبطيَّة على النِّيل اسم أحد أنهار الجنَّة التي وردت في سفر التَّكوين(٢٠)، فتُصلِّي: "نهر جيحون (أي نهر النِّيل) املأه من بركتك. بقاع مصر املأها من الدَّسم، وليكثر حرثُها، وتتبارك ثمارُها. لتفرح كلُّ بلاد مصر ...".

وهناك أيضاً وثائق fragments يونانيَّة قبطيَّة في مكتبة الفاتيكان تحت رقم (١٠٢، ١٠٥) تعودان بالتَّتابع إلى القرن الخامس والسَّادس للميلاد تحويان نفس هذه الصَّلاة لتبريك مياه النِّيل.

ولقد ذكر جيورجي A. Giorgi أيضاً وثائق أُخرى، تعود إلى القرن الخامس الميلادي توضِّح فصول قراءات من الأناجيل المقدَّسة لعيد تبريك مياه النِّيل Lexundatio Nili . كما نشر مارجوليوث M.G. Margoliouth

---

١٩- تجد نصَّ هذه الصَّلاة في الفصل التَّالي، وهو عن طقس لقَّان عيد الغطاس المجيد في الكنيسة القبطيَّة.

٢٠- تكوين ٢: ١٠-١٣

نصاً سريانياً مع ترجمة إنجليزيَّة له، يعود إلى القرنين الثّاني عشر والثّالث عشر لليتورجيَّة النِّيل Liturgy of the Nile . وهو طقس ملكاني نُشر سنة ١٨٩٦م[٢١].

ولازالت اللّيتورجيَّة القبطيَّة، تحمل حتى اليَوم، طلبة من أجل مياه النِّيل في كلِّ قدَّاس، تقول: "مياه النَّهر في هذه السَّنة باركها".

ولقد وصلتني صورة فوتوغرافية لـ ٩٢ صفحة من مخطوط قديم يوناني عربي، بدون رقم وبدون تاريخ، وخطُّه غير واضح جيداً[٢٢]. وهو يحوي العنوان التَّالي: "ترتيب صلاة لتقديس مياه النِّيل التي تكمُل في الأحد الذي للآباء القدِّيسين المتوشِّحين بالله الثلثمايه (الثّلاثمائة) وثمانيه عشر، قبل الخمسين المقدَّسة، بعد القُدَّاس".

ومن بين فقرات المخطوط التي أمكنني قراءتها:

تدسم جبال مصر، وتتمنطق الآكام ابتهاجاً. يلبسون كباش الضأن والأودية تكثر القمح. والآن يصرخون ويسبِّحون.

يجيب الشَّعب: فوق بسابق علم الله ومعرفته، يا نيل اصعد.

يقول الشمَّاس: ذُكصا كانين.

يجيب الشَّعب: فوق بسابق علم الله وأمره، يا نيل اصعد.

نهر الله امتلأ مياها. هيأت طعامهم الآن هكذا التَّهيئة.

يقول الشمَّاس: فوق يا نيل.

يجيب الشَّعب: فوق فوق يا نيل.

21- Cf. Le journal of the Royal Asiatic Society, 1896, p. 677ff. ; Burkitt, Le journal of theological stud., t. VI, 1904, p. 92.

٢٢- يتَّضح من النَّص الذي ورد به، أنه يختص بكنيسة الرُّوم الأرثوذكس في مصر. وقد أوردتُ صورة لبضعة ورقات منه في نهاية الكتاب.

... ويخرج رئيس الكهنة مع الإكليروس بالصَّليب الكريم والشَّمع والرنبيذيات! والتمياطن! والإنجيل المقدَّس ويأتون إلى لقَّان الماء وهم يُصلُّون هذه القطعة ... في اللَّحن الثامن(٢٣). تعالوا يا جميع الشُّعوب لنسجد للثَّلاثة أقانيم اللاهوتيَّة. فالابن في الآب مع الرُّوح القُدُس ...

بارك إكليل السَّنة بطيبك وبقاعك تمتلئ دسماً.

يقول الشمَّاس: بحكمة نستقيم لسماع الإنجيل المقدَّس.

يقول الكاهن: السَّلام للكل.

يقول الشَّعب: ولروحك.

الإنجيل من بشارة متى: في ذلك الزَّمان نظر يسوع إلى جمع كثير فتحنَّن عليهم وشفا أمراضهم، فلمَّا صار المساء تقدَّم إليه تلاميذه قائلين المكان قفر ... والذين أكلوا كانوا خمسة آلاف رَجُل سوى النِّساء والصِّبيان. وللوقت أمر يسوع تلاميذه أن يدخلوا إلى السَّفينة ويسبقوا إلى العبر حتى يطلق الجموع.

جميعنا نطلب متضرِّعين إليك وقائلين ياربُّ ارحم.

أيها الرَّب الضَّابط الكُل إله آبائنا يا من ... السَّماوات وأتيت لخلاص جنس البشر إليك نطلب.

أيها الغني في العطاء والمنبع لنا دائماً مواهبك الإلهيَّة. إليك نطلب ...

يا من جمعت المياه إلى مجمع واحد، ورفعت المياه إلى علو السَّماء. إليك نطلب ...

٢٣- هذا واحد من الأدلَّة التي توضِّح أنَّ المخطوط يختص بكنيسة الرُّوم الأرثوذكس في مصر. ولكن هذا لا يمنع أن يكون نصاً قديماً في كنيسة مصر الوطنية، استخدمته كنيسة الرُّوم الأرثوذكس فيها كما هو.

يا من بمحبَّته للبشريَّة التي لا توصف، أتقن كلَّ شيء من أجلنا، ويصنع لنا بأزيد ممَّا نطلب . أنت أيها الغني في العطايا، الإله الرَّحوم، تفقَّد أرض مصر، وأسكرها بجودة طلوع نهر النِّيل. إليك نطلب.

أبهج وجدِّد وجه الأرض، بكثرة تدفُّق نهر النِّيل. إليك نطلب.

أروي أثلامها، وكثِّر غلاتها. اغني أرض مصر وقُراها بنهضات أمواج نهر النِّيل. بارك إكليل السَّنة بطيبك، وليكثر القمح في أودية مصر وبقاعها. إليك نطلب.

سمِّن ودسِّم حدود قُرى مصر، ووشِّح تلالها بابتهاج بركتك. إليك نطلب ...

ارفع قرن المسيحيِّين، وأصعد لنا أنهر المياه إلى حدِّها بطيبك، وجود علينا بالرَّخاء والرُّخص لأجل فقراء شعبك، واملأ فرحاً وسروراً لقلوبنا بشفاعة الفائقة الطهَّارة سيِّدتنا والدة الإله الدَّائمة البتوليَّة مريم، والسَّابق يوحنا والإلهيَّين الكُلِّيَّين المدح الرُّسُل والقدِّيس الطُّوباني أبينا مرقس الرَّسول والمبشر وكافة قدِّيسيك، نتضرَّع إليك أيها الرَّب الكثير الرَّحمة. استمعنا نحن الخطاة إذ طلبنا إليك وارحمنا ...

وأمَّا النِّيل، فخصَّصت حدَّه بأمرك، ليسيل في الجهات القبلية الحارة جداً وبلاد الحبشة ويسقيها ... لخلاص السَّاكنين فيها وعزاهم. وهذا الآن ابتدأ صعوده. فلنبتدئ مقدِّمين لك التَّعييد طالبين وراغبين إليك أيها الرَّءوف. ليصر صعوده بسلامة على مقداره المعتاد بنعمتك الموافقة. آمين. هب أيها الصَّالح بركتك للأرض بمياه نهر النِّيل. أنمي ثمار الأرض لأجل إتمام حاجة عبيدك ...

لهذا نطلب إليك يا باري الكُل، بارك مياه نهر النِّيل هذا الماء

الموضوع أمامنا، آمين. مياه نهر النِّيل أنمها لتوليد ثمار الأرض، آمين. لأننا نوقف هذا الماء الموضوع مثل نهر النِّيل دسماً لنا، ونسأل ونضرع لصلاحك أيها الرَّب إلهنا، أرسل بركتك إلى مياه نهر النِّيل، آمين. ليكن الذين يشربون من هذا الماء، أن يصنع لهم في أجسادهم قوَّة محيية ...

نسألك أيها الكثير الرأفة والمحب الحنون والمحيي النُّفوس أن تُصعد مياه نهر النِّيل إلى قدرها المعتاد، آمين.

أيها السيِّد املأ نهر الله من مياه النِّيل، آمين ...
افتقد الأرض بنهر المياه، أروها، أغنها بكثرة مياه لا تُحصى، آمين ...
دسِّم حدود أرض مصر بمياه النَّهر، آمين.
لتبتهج الحقول ... أوديتها وتمتلئ حنطة لحاجة شعبك، آمين...

لأنَّ اسمك مباركٌ، وممجَّده هي مملكتك، ومسبَّح جداً هو عزُّك في السَّماء وعلى الأرض، الآب والابن والرُّوح القُدُس الآن وكلّ أوان ...

يقول الشمَّاس: لنحني رؤوسنا للرَّب.

يقول الكاهن: أيها الرَّب إلهنا يا من أقمت الكُل بحكمتك التي لا تُدرك. انظر إلى رعيَّتك التي اقتنيتها بدمك الكريم، وأنقذها من كلّ توعُّد، برأفتك الإلهيَّة. ومياه نهر النِّيل أصعدها كمقدارها، وأبهج وجدِّد وجه الأرض، لكيما تتدبَّر في الرَّخاء ممجِّدين اسمك الكُلي المجد، مع أبيك العديم الموت، وروحك المساوي في المرتبة، الآن ودائماً.

يقول الشمَّاس: من الرَّب نطلب.

يقول الكاهن: أيها السيِّد الرَّب إلهنا الضَّابط الكُل، يا من أظهرت قدِّيسك مرقس مشاهاً وتلميذاً لابنك الوحيد ربِّنا وإلهنا ومخلِّصنا يسوع المسيح، وأحللت عليه قوَّة روحك القدُّوس المعزي، ووهبته المسكونة كاروزاً إلهياً ومبشراً، فلذلك شتَّتَ قتام الجنون الذي للأوثان، وأنار الأقطار ... الخ.

الفَصل الثّاني

طقس صلوات لقّان عيد الغطاس المجيد

في الكنيسة القبطيَّة

دورة احتفاليَّة قبل بدء صلوات اللقَّان

سبق أن ذكرتُ في بدء تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر لعيد الغطاس المجيد، بحسب ما يذكر "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م"، والمخطوطات الأُخرى قيد الدِّراسة، أنَّ تسبحة نصف اللَّيل تبدأ من أمام باب الهيكل، حيث يقفون وبأيديهم الشُّموع موقدة، ويقولون الصَّلاة الرَّبانيَّة وصلاة الشُّكر، والثَّلاثة تقديسات. وبعدها مباشرة يرتِّلون بالنَّاقوس لحن "تين ثينو" أي: "قوموا يا بني النُّور لنسبِّح ربَّ القوَّات، لكي يُنعم علينا بخلاص نفوسنا ...".

وفي أثناء ترتيله، يمضون إلى المغطس غربي الكنيسة[1] مارين من باب الخوروس في منتصف الكنيسة، حتى يصلوا إلى المغطس فيقفون حوله كطقوسهم ويكمِّلون "تين ثينو" إلى آخرها. ثمَّ يقول أحد الكهنة أو الشَّمامسة الليلويا المعروفة بالمغطس **Ⲡⲓⲥⲟⲛ ⲁ̀ⲙⲟⲩ** ثمَّ يردون عليه

١- لم تشر كتب الطَّقس المطبوعة إلى أنَّ موضع اللقَّان يكون في غرب الكنيسة، مكتفية بعبارة: "إلى حيث يوجد اللقَّان"، وذلك بعد أن أُلغي المغطس الذي كان يوجد في غربي الكنيسة محفور في أرضيتها، واستُعيض عنه الآن بوعاء كبير. ولكن جرت العادة في كثير من كنائسنا حتى اليوم أن يجري تميم قُدَّاس الماء في الخوروس الثَّاني من الكنيسة قرب بابها الغربي، حيث الموضع التَّقليدي للقَّان أو المغطس كما نراه بوضوح حتى الآن في كنائس مصر القديمة.

Cf. Burmester, O.H.E. Khs, *The Egyptian or Coptic Church, A Detailed Description of her Liturgical Services and the Rites and Ceremonies Observed in the Administration of her sacraments*, Publications de la Société d'Archéologie Copte. Textes et Documents, X, Le Caire, 1967, p. 251.

مثل ما قال إن كانوا يحسنون ذلك، أو يردوها بالصَّغير[٢].

وبعدها يُقال الهوس الكبير الخاص بعيد الغطاس، ثمَّ تستمر تسبحة نصف اللَّيل كالعادة حول المغطس.

ما يشابه هذه الدَّورة الاحتفاليَّة في بعض الطُّقوس الأُخرى

وهذا الموكب الاحتفالي في الكنيسة في بدء صلوات اللقّان نجد له نظيراً مشابهاً في الطَّقس السِّرياني أيضاً، حيث تبدأ صلوات هذا الطَّقس في الكنيسة السِّريانيَّة بدورة احتفاليَّة في داخل الكنيسة حول الشَّعب. وهذه الدَّورة ترمز إلى ذهاب يسوع إلى الأردن ضمن قافلة التَّائبين الطَّالبين المعموديَّة، وفيها يحمل "إشبين المسيح" قنينة ماء مغطاة بمنديل. وعند انتهاء الدَّورة التي يشارك فيها مترئس الصَّلاة وجميع خُدَّام المذبح، توضع القِّنينة - والتي ترمُز إلى المسيح - في طست فيه ماء يمثِّل نهر الأردن. وعندئذ تبدأ صلوات اللقّان متناوبة مع ترانيمها. وينتهي هذا الطَّقس بدورة ثانية حول المذبح إلى حيث جرن المعموديَّة، وهناك يسكب المترئس - كبير الكهنة - قليلاً من الماء المبارك عليه، ثمَّ يعود مع مرافقيه إلى المذبح لبدء صلوات القُدَّاس الإلهي.

وهو نفس ما نجده أيضاً في الطَّقس الأرمني، حيث يتم فيه صب قليلاً من الميرون المقدَّس على الماء في هذا اليَوم. فبعد انتهاء قُدَّاس عيد الغطاس يوضع وعاء معدني كبير مملوء بالماء في الخوروس، ويدور موكب احتفالي حول الكنيسة، يحمل فيه كلُّ واحد من القساوسة شمعة وإنجيلاً، بينما يحمل كلُّ شمّاس شمعة ومجمرة، ويحمل كلُّ مساعد شمَّاس شمعة فقط. ثمَّ

٢- يتكرَّر هذا الطَّقس عينه في بداية تسبحة نصف اللَّيل لعيد القيامة المجيدة، ولكن بمفهوم ليتورجي بديع سأعرضُ له في حينه.

يأتي القائم بخدمة الاحتفال حاملاً صليباً كبيراً. وعند العودة إلى الخوروس، يُقدِّس القائم بالخدمة الماء، ويشقّه بالصَّليب على شكل صليب، ويصب عليه الميرون بنفس الطَّريقة. وبعد القُدَّاس يحمل النَّاس إلى منازلهم لرش البيوت والآبار والقنوات. وتُكرَّر هذه البركة في نفس هذا اليَوم في الهواء الطَّلق على ضفاف الأنهار والآبار الموجودة بالمنطقة[٣].

بدء صلوات اللقَّان

بعد انتهاء تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر، يتوجَّه الإكليروس والشَّمامسة إلى الهيكل ليحضروا رئيس الكهنة بالتَّراتيل والشُّموع الموقدة، وهو لابس ملابسه الكهنوتيَّة، حيث تبدأ الصَّلاة كبداية كلّ صلاة طقسيَّة في الكنيسة بصلاة الشُّكر.

وسنتتبَّع طقس صلوات اللقَّان بحسب ما يذكر "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م".

يقول مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس):

"يكشف الكاهن رأسه، وكذلك الشَّمامسة. وعند انتهاء التَّرتيل[٤] يقولون Ⲉⲗⲉⲏⲥⲟⲛ ⲏ̀ⲙⲁⲥ . إلى آخر بنيوت[٥] يقول الكاهن الشبهموت[٦]. وإذا قال الشمَّاس الطبح[٧]، يقول Ⲛ̀ⲧⲉϥⲁⲓⲧⲉⲛ[٨]

٣- ألفريد بتلر، الكنائس القبطيَّة القديمة في مصر، مرجع سابق، ص ٢٦٨
٤- أي ترتيل تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر.
٥- أي الصَّلاة الربيَّة.
٦- أي صلاة الشُّكر.
٧- أي الطلبة.
٨- أي: "ويجعلنا ...". وهو نفس ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م".

وإذا أكمل (الكاهن) الشبهموت إلى آخرهـــا، يرتِّلـــون كيرياليصـــون كالعادة(٩). ويرفع (الكاهن) البُّخور، ويشاركه الكهنة كطقوسهم. وإذا أكملوا ذلك يقول (الكاهن) أوشيَّة بخور البولس إلى آخرها، وهـــم يرتِّلون كيرياليصون

Ϧⲉⲛ ⲟⲩⲱϣⲧ ⲙ̀ⲫⲓⲱⲧ .. Ⲭⲉⲣⲉ ϯⲉⲕ̀ⲕⲗⲏⲥⲓⲁ̀ .. Ⲭⲉⲣⲉ Ⲓⲱⲁ̅ ⲡⲓⲛⲓϣϯ ⲙ̀ⲡⲣⲟⲇⲣⲟⲙⲟⲥ . Ⲭⲉⲣⲉ ⲡⲓⲟⲩⲏⲃ ⲡ̀ⲥⲩⲅⲅⲉⲛⲏⲥ ⲛ̀Ⲉⲙⲙⲁⲛⲟⲩⲏⲗ .. Ϩⲓⲧⲉⲛ ⲛⲓⲡ̀ⲣⲉⲥⲃⲓⲁ̀ ..(10)

وما يلائم كالعادة، وبعده **Ⲉⲑⲣⲉⲛϩⲱⲥ** .

ويعطي الكاهن البُّخور للكهنة خاصة. ثمَّ يبتدئون قائلين(١١):

Ⲕⲉ̅ ⲉ̀ⲗⲉⲏ̀ⲥⲟⲛ ⲕⲉ̅ Ⲉⲩⲗⲟⲅⲓⲥⲟⲛ ⲁ̀ⲙⲏⲛ ⲁ̅ⲗ̅.

حيث يوضح ذلك الأمر، حين يورد هذا المرد كاملاً هكذا:

Ⲙ̀ⲧⲉϥⲁⲓⲧⲉⲛ ⲛ̀ⲉⲙⲡ̀ϣⲁ ⲉⲑⲣⲉⲛⲟ̀ϩⲓ ⲉⲣⲁⲧⲉⲛ ⲙ̀ⲡⲁⲓⲕⲉⲉ̀ⲣⲁⲗⲓⲟⲛ ⲉⲑⲟⲩⲁⲃ ⲛ̀ⲧⲉϥ..

أي: "ويجعلنا مستحقِّين أن نقف أمام هيكلك المقدَّس، لمغفرة ...".

٩- هنا إشارة واضحة عن ترتيل لحن "كيرياليسون"، وهو الذي نســميه اليَــوم (خطأ) "كيرياليسون الصِّيامي"، بعد أن صار ترديده قاصراً على صلوات رفع بخور باكر في أيام الصَّوم المقدَّس الكبير. وقد سبق أن أشرتُ غير مرَّة إلى هذه الملاحظة.

١٠- وهي أرباع النَّاقوس السَّنويَّة.

١١- العناصر الليتورجيَّة المذكورة فيما يلي بالقبطيَّة كما في المتن، هي أقدم مــن أرباع النَّاقوس نفسها، إذ لا يخلو منها مخطوط أو كتاب طقسي. وهي مقدِّمة صلاة باكر. ولأنَّ النُّسَّاخ لم يكونوا يعرفون سبب وجودها بعد أرباع النَّاقوس، في بـــاكر، فوضعوها هنا بعد أرباع النَّاقوس أيضاً، برغم أنَّ صلوات اللقَّان تجـــري في المســـاء وليس في الصَّباح. أمَّا ترجمة العبارات القبطيَّة المذكورة بعد فهي: "يـــاربُّ ارحـــم، ياربُّ بارك. آمين. المجـــد (لـــلآب ...) ... الآن (وكـــلِّ أوان ...) ... اجعلنـــا (مستحقِّين أن نقول بشكر). أبانا (الذي في السَّموات ...). ارحمني (يـــا الله كعظـــيم رحمتك ...). المجد لإلهنا".

Ⲇⲟⲝⲁ .. ⲕⲉⲛⲓⲛ ..
Ⲁⲣⲓⲧⲉⲛ .. Ⲭⲉⲡⲉⲛⲓⲱⲧ ..
Ⲛⲁⲓⲛⲏⲓ Ⲫϯ ..
Ⲇⲟⲝⲁⲥⲓ ⲟ̀ⲑⲉⲟⲥ ⲏ̀ⲙⲱⲛ ..

يبتدئون بقراءة النُّبوَّات قبطياً وعربياً. من نبوَّة حبقوق إلى آخر نبوَّة حزقيال. ويفسرها الكاهن الخديم وهو واقف مكانه على الأردن ووجهه للشَّرق. وبعد قراءتها عربياً يرتِّلون Ⲧⲁⲓϣⲟⲩⲣⲏ (١٢). ويرفع الكـــاهن البُّخور يداً واحدة وهم يرتِّلون Ⲧⲉⲛⲟⲩⲱϣⲧ (١٣) بلحن البولس"(١٤).

البولس"(١٤).

وفي إفخولوجيون روفائيل الطُّوخي(١٥)، نقرأ التَّرتيب التَّالي: "ترتيب ما يُقرى (أي يليق قراءته) في الحادي عشر من طوبه الـــذي هـــو عيـــد الظُّهور على المياه. يبتدئ بالشُّكر وأوشيَّة البُخور، ويقول الشَّعب أبانـــا الذي في السَّموات، ومزمور الخمسين، ثمَّ تُقرى هذه النبوَّات".

وهنا تكون الصَّلاة الربيَّة والمزمـــور الخمســـين، همـــا العنصـــران اللِّيتورجيَّان اللَّذان ذكرهما إفخولوجيون الطُّوخي مـــن بـــين العناصـــر اللِّيتورجيَّة الأُخرى التي كانت تُقال قبل أن تُعرف أرباع النَّاقوس في كلِّ الجهات. وكان أوَّل ذكر لأرباع النَّاقوس عند البابا غُبريـــال الخـــامس

١٢- أي: لحن تاي شوري "هذه المجمرة الذهب ..."
١٣- أي: نسجد لك أيها المسيح ...
١٤- هو أيضاً ما يذكره "مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط ســبرباي لسنة ١٨٦٨م".
١٥- وعنوانه بالقبطيَّة والعربيَّة هو: "الجزء الثَّاني من الإفخولوجيون الذي يشتمل على الصَّلوات المقدَّسة الموجودة بفهرس هذا الكتاب"، طُبع هذا الكتـــاب بروميـــة العظمى سنة ١٤٧٨ش/ ١٧٦٢ للتَّجسُّد الإلهي.

(١٤٠٩ـ ١٤٢٧م) في كتابه "التَّرتيب الطَّقسي" الذي وضعه سنة ١٤١١م. في حين لم يرد ذكرها عند القس شمس الرِّئاسة أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م)، في كتابه "مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة".

ولكن مع ذلك، يبقى ما يذكره "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" هو الأكثر دقَّة في شرح الطَّقس القبطي، وفي توضيح الاقتضاب الذي يورده إفخولوجيون الطُّوخي.

عرض لنبوَّات قُدَّاس اللقَّان في عيد الغطاس المجيد

وهي في قُدَّاس الماء لعيد الغطاس سبع نبوَّات في الطَّقس القبطي. أمَّا الطَّقس السِّرياني الغربي أي الأنطاكي، فيعرف ثلاث نبوَّات من بين ست قراءات كتابيَّة لديه. أمَّا في الطَّقس السِّرياني الشَّرقي أي النَّسطوري، ففيه يتم ترتيل نبوَّة إشعياء النَّبي (٦١:١-٢) «إنَّ روح الرَّب عليَّ، لأنه مسحني لأبشِّر المساكين ...»، وهو ما قاله السيِّد المسيح عن نفسه في بدء كرازته[١٦].

أمَّا السَّبع نبوات بحسب الطَّقس القبطي فهي:

النُّبوَّة الأولى: صلاة حبقُّوق النَّبي (٣:٢-١٩): «يارب سمعت صوتك فجزعتُ. تأمَّلتُ أعمالك فبهتُ ... عندما يأتي الزَّمان تظهر ... خرجتَ لخلاص شعبك لتخلِّص الذين مسحتهم ... أمَّا أنا فأهلِّل بالرَّب وأفرح بالله مخلِّصي، الرَّب الله هو قوَّتي ...».

وهي نبوَّة تكثر فيها كلمات الأنهار والبحار والمياه مثل: «قال الرَّب لتنشق الأرض أنهاراً ... ركبتَ خيلك على البحر فتتعكَّر المياه الكثيرة».

١٦- انظر: لوقا ٤:١٨، ١٩

النُّبوَّات الثَّانية والثَّالثة والرَّابعة: من نبوَّة إشعياء النَّبي (٣٥:١-٢ ؛ ٤٠:١-٥ ؛ ٩:١-٢) «فلتفرح براري الأردن لأنه أعطى مجد لبنان وكرامة الكرمَل ... صوتُ صارخٍ في البريَّة، أعدُّوا طريق الرَّب، وقوِّموا سُبُل إلهنا. جميع الأودية تمتلئ وكُلُّ الجبال وكل الآكام تنخفض، ويصير المعوَج مستقيماً والوعر سهلاً، ويظهر مجد الرَّب، وكلُّ جسد يعاين خلاص الله، لأنَّ الرَّب تكلَّم ... الشَّعب الجالس في الظُّلمة أبصر نوراً عظيماً، السَّاكنون في الكورة وظلال الموت أضاء النُّور عليهم».

النُّبوَّة الخامسة: من باروخ النَّبي (٣:٣٦-٣٨ ؛ ٤:١-٤) «هذا هو إلهنا ولا نحسب معه آخر ... ظهر على الأرض واشترك في المشي مع النَّاس ... فطوبى لنا نحن آل إسرائيل، لأنه قد ظهرت لنا مواعيد الله».

النُّبوَّة السَّادسة: من حزقيال النَّبي (٣٦:٢٤-٢٩) «هذا ما يقوله الرَّب الإله إني سأنضح عليكم ماءً مختاراً فتطهروا من جميع خطاياكم ومن جميع آثامكم، وأنقيكم وأعطيكم قلباً جديداً وروحاً جديداً، وأصيِّره داخلكم، وأنزع القلب الحجري من أجسادكم وروحي أجعله فيكم، وأصنع بكم كما يُصنع بالأبناء الأحباء ... وتكونون لي شعباً وأنا أكون لكم إلهاً. وأطهِّركم من جميع آثامكم».

النُّبوَّة السَّابعة: من حزقيال النَّبي أيضاً (٤٧:١-٩) «... وإذا بمياه تخرج من تحت عتبة البيت نحو المشرق، لأنَّ وجه البيت نحو المشرق ... وإذا بنهر لم أستطع عبوره، لأنَّ المياه طمت مياه سباحة نهرٌ لا يُعبر ... ويكون أنَّ كلَّ نفس حيَّة تدب حيثما يأتي النَّهر، أن تحيا ... ويحيا كلُّ ما يأتي النَّهر إليه».

وهي ذات النُّبوَّة التي تتكرَّر في لقّان خميس العهد[١٧].

وهذه النُّبوَّات السَّبع السَّابق ذكرها للقّان عيد الغطاس في الكنيسة القبطيَّة، وردت هكذا عند ابن كبر (+ ١٣٢٤م)، إلاّ أنه يذكر نبوَّة لإرميا النَّبي، وهي النُّبوَّة الخامسة السَّابق ذكرها لباروخ النَّبي، وفي ذلك يقول ابن كبر: "وفصوله (أي فصول عيد الغطاس) المختصَّة بالمغطس مدوَّنة في كتابه، وهي من نبوَّة حبقوق، ومن نبوَّة إشعياء، ومن نبوَّة إرميا". بدون أن يورد شواهد هذه النُّبوَّات التي ذكرها[١٨].

أمَّا إفخولوجيون الطُّوخي المطبوع في روما في أوائل القرن الثَّامن عشر فيذكر كلَّ النُّبوَّات السَّابق ذكرها، ولكنَّه يضيف نبوَّة رابعة لإشعياء النَّبي بالإضافة إلى الثَّلاث نبوات السَّابق ذكرها له، وفيما يلي نصُّها: «هذا ما يقوله الرَّب العلي الكائن في الأعالي إلى الأبد، القدُّوس في القدِّيسين. اسمه الرَّب العالي، المستريح في القدِّيسين، المعطي طول الأناة للصَّغيري القلوب الواهب الحياة للمنسحقي القلوب. لا أنتقم منكم إلى الأبد، ولا أغضب عليكم إلى التَّمام، لأنَّ روحٌ ينبثق مني، وكلُّ نسمة أنا صنعتها».

يقول مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس)[١٩]:

"ثمَّ يقرأ البولس قبطياً، وفي ضمن ذلك يعطي الكاهن البُخور

١٧- لدى الأقباط ثلاثة لقّانات في السَّنة اللِّيتورجيَّة، في يوم عيد الغطاس، وفي يوم الخميس الكبير، وفي يوم عيد الرُّسل. ولكن الكنيسة اليونانيَّة تمارس اللقّان مرَّة واحدة في السَّنة في يوم عيد الغطاس.

١٨- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، البَاب ١٩

١٩- ويتفق معه "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

للكهنة، ثمَّ يمسح الشَّعب بالبخور ويعود إلى مكانه، ويعطي البُخور للرَّب عن اعتراف الشَّعب[٢٠]. ثمَّ يعطي البُخور للكهنة. ثمَّ يفسر البولس عربياً. وبعده يقولون أجيوس الأولى Ο ويقولـون **Οⲩⲣⲁⲛ ⲛ̀ϣⲟⲩϣⲟⲩ** والثَّانية والثَّالثة **ⲉⲕⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲩ** وبعد **Ο ⲉⲛ ⲓⲟⲣⲇⲁⲛⲏ ⲃⲁⲡⲧⲓⲥⲧⲏⲥ** ذُكصابتري يُقال بالنَّاقوس:

ياربي يسـوع المسـيح الذي اعتمـد في الأردن، طهِّر نفوسنا مـن دنـس الخطيئة[٢١].	**Пⲁⲟ̅ⲥ̅ Ⲓⲏ̅ⲥ̅ Пⲭ̅ⲥ̅ ⁝ Фⲏⲉ̀ⲧⲁϥϭⲓⲱⲙⲥ ϧⲉⲛ ⲡⲓⲓⲟⲣⲇⲁⲛⲏⲥ ⁝ ⲉⲕⲉ̀ⲧⲟⲩⲃⲟ ⲛ̀ⲛⲉⲛⲯⲩⲭⲏ ⁝ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϩⲁ ⲡ̀ⲑⲱⲗⲉⲃ ⲛ̀ⲧⲉ ⲫ̀ⲛⲟⲃⲓ.**
الشَّاروبيم ...	**Ⲙⲓⲭⲉⲣⲟⲩⲃⲓⲙ..**

وبعد ذلك يقول الكاهن أوشيَّة الإنجيل ويرفع البُّخور يداً واحدة".

فصل البولس في قُدَّاس لقَّان عيد الغطاس المجيد

بعد أن يُرتِّل الشَّمامسة لحن **Ⲧⲁⲓ ϣⲟⲩⲣⲏ** (تاي شوري)، تُعمـل دورة سرّ البولس كاملة كما في أيِّ قُدَّاس إفخارستي، حيـث يطـوف الكاهن البيعة كلَّها ويبارك الشَّعب، بينما يقرأ أحد الشَّمامسـة فصـل البولس، وهو من الرِّسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (١٠:١-١٣) «ولستُ أشاء يا إخوتي أن تكونوا غير عارفين أن آباءنا كلُّهـم كـانوا تحـت

٢٠- هذه العبارة تعود بنا إلى طقس القرن الثَّاني عشر الميلادي في الكنيسة القبطيَّة.

٢١- هذا الرُّبع المذكور قد أغفله كتاب "خدمة الشمَّاس والألحـان" في كـلّ طبعاته حتى الآن. ولعل السَّبب في ذلك هو أنَّ هذا الرُّبع قد ورد في كتاب اللقَّـان والسجدة، متبوعاً بكلمات: "الليلويا الليلويا الليلويا"، ربما كخطأ غـير مقصـود، فأنتجت هذه الإضافة لبساً في فهم المقصود منه.

السَّحابة، وكلُّهم عبروا في البحر، وكلُّهم بموسى اصطبغوا في السَّحابة وفي البحر، وكلُّهم أكلوا هذا الطَّعام الرُّوحاني نفسه، وكلُّهم شربوا هذا الشَّراب الرُّوحاني عينه، لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحيَّة تابعة لهم، والصَّخرة كانت المسيح ...».

وهذا هو نفس فصل البولس الذي يذكره ابن كبر (+ ١٣٢٤م) في القرن الرَّابع عشر الميلادي[٢٢] كما كان يقرأ في كنيسة السيِّدة العذراء المعلَّقة بمصر القديمة، وهي الكاتدرائيَّة البطريركيَّة في ذلك الوقت. وما يذكره أيضاً إفخولوجيون الطُّوخي في القرن الثَّامن عشر.

لحن يوحنا المعمدان

ثمَّ يُقال لحن يوحنا المعمدان **Oⲩⲣⲁⲛ ⲛ̀ϣⲟⲩϣⲟⲩ** (أوران إنشوشو) أي: "اسم فخر هو اسمك يا نسيب عمانوئيل ..."، وهو اللَّحن الوحيد لهذا المناسبة الكنسيَّة. وهو يُقال في التَّوزيع في برامون الغطاس أيضاً، وفي التَّمجيد بعد عشيَّة العيد، وفي اللقَّان هنا، وبعد الإبركسيس والسِّنكسار في قُدَّاس العيد.

الثَّلاثة تقديسات

ثمَّ تقال الثَّلاثة تقديسات. وكما يذكر "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م"، ومعه "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، أنَّ الأولى يُقال فيها: "يا من وُلد من العذراء ارحمنا". أمَّا الثَّانية والثَّالثة

٢٢- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، البَاب ١٩

فيقال فيهما: ὁ ἐν Ιορδανῆ βαπτισθείς (أو إن يورذاني فابتيســتيس) أي: "يا من اعتمد في الأردن"(٢٣).

ويعقب هذه الثَّلاثة تقديسات أرباعاً تقال بالنَّاقوس أولها الرُّبع الذي نصه: "ياربي يسوع المسيح الذي اعتمد في نهر الأردن، طهِّر نفوسنا من دنس الخطيئة". وهي تقال على طريقة أسبَسموس ميغالو.

وقد درجت عادة الكنائس اليَوم أنَّ هذه الأرباع التي تقال بالنَّاقوس أصبحت تُقال قبل الثَّلاثة تقديسات وليس بعدها. وفي حين يتغيَّر الرُّبــع الأوَّل من هذه الأرباع طبقاً للمناسبة الكنسيَّة، فإنه يتبعــه دائمــاً - في كافة المناسبات الكنسيَّة وبدون استثناء - ربعان أوَّلهما الرُّبــع الــذي بدايته Ⲡⲓⲭⲉⲣⲟⲩⲃⲓⲙ (ني شيروبيم)، والرُّبع الذي يليه. أمَّا نصُّ هــذين الرُّبعين فهو: "الشَّاروبيم والسِّــيرافيم، الملائكــة ورؤســاء الملائكــة، والعساكر والسَّلاطين والكراسي والرَّبوبيَّات والقوَّات. صارخين قائلين: المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السَّلام وفي النَّاس المســرَّة". وهــذان الرُّبعان يمثِّلان عنصراً ليتورجياً أساسياً في الأعياد السَّــيديَّة في الكنيســة القبطيَّة **بدون استثناء**.

ولقد شرحتُ بتفصيل وافر في كتاب " صوم نينوى والصَّوم المقدَّس الكبير" أنَّ الأرباع التي تُقال بطريقة أسبَسموس ميغالو مقترنــة بلحــن الثَّلاثة تقديسات، يلزم أن تكون مستقلَّة عنه تماماً، أي عن مرد الثَّلاثــة تقديسات، وليس بعد الرُّبع الأوَّل منها كما يــذكر كتــاب "خدمــة الشمَّاس والألحان". ولقد شرحتُ سبب هذا اللَّبس الذي حدث.

٢٣- وهو ما أغفله أيضاً كتاب "خدمة الشمَّاس والألحان"، ولم يرد ذكره في كتاب اللقَّان والسَّجدة، برغم أنه مذكور بوضوح في مخطوطات ترتيب البيعة قيد الدِّراسة.

يقول مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس)[٢٤]:

"ويُطرح المزمور، ويُرد إمَّا سنجاري وإمَّا سنوي[٢٥]. وبعده اسطاسيتا[٢٦]. ويُقبِّل الكهنة الإنجيل. والكاهن الخديم يقرأه قبطياً على الأردن، ويفسِّره الشمَّاس الخديم عربياً. وبعد ذلك يرفع الكاهن الصَّليب. ويقولون كيرياليصون بالكبير بالنَّاقوس عشر مرَّات. وثمَّ في الكهنة من يقول **Ⲫϯ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲛ** ويجاوبوه كيرياليصون[٢٧]. وعند انتهائها يردون الإنجيل بلحن الفرح قائلين: **Ϫⲉ ⲫⲁⲓ ⲡⲉⲡⲁϣⲏⲣⲓ..** **Ⲁⲓⲛⲁⲩ ⲉ̀ⲡⲓⲡⲛⲁ** وما يلائم وبعده **Ϫⲉ ϥ̀ⲥⲙⲁⲣⲱⲟⲩⲧ**".

٢٤- ويتَّفق معه "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م".

٢٥- وهو نفس ما يذكره "مخطوط السِّريان لسنة ١٦٩٨م"، و"مخطوط البطريركيَّة بالإسكندريَّة لسنة ١٧١٦م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م". أمَّا "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، فيذكر: "ويُطرح المزمور ويُرد سنجاري ملخَّص".

٢٦- أي: قفوا ...

٢٧- عبارة: "وثمَّ في الكهنة من يقول **Ⲫϯ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲛ** ويجاوبوه كيرياليصون" لم يوردها "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م". ومن الواضح تماماً أن "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" قد أضاف هذه العبارة لأنها أتت قاطعة لتسلسل سياق النَّص. وهو نفس ما ورد في "مخطوط السِّريان لسنة ١٦٩٨م"، و"مخطوط البطريركيَّة بالإسكندريَّة لسنة ١٧١٦م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

ويذكر "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م" ما يلي: "ويقرأ الكاهن الخديم الإنجيل قبطياً ويفسِّره الشمَّاس الخديم. وبعده يرفع الكاهن الصَّليب ويقولون كيرياليصون بالكبير بالنَّواقيس عشرة دفوع، وبعدهم يرشم الكاهن الماء بعلامة الصَّليب ثلاثة دفوع، ويرد الإنجيل بهذا ...".

انظر: الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ١١٠

مزمور الإنجيل

تذكر المخطوطات قيد الدِّراسة أنّ المزمور يُطرح إمَّا سنجاري وإمَّا سنوي. أمَّا كتاب "اللقّان والسَّجدة" فيذكر أنّ المزمور يُطرح دمجاً أو سنوياً. وتعبير مخطوطات ترتيب البيعة هو الأكثر دقّة، لأن الدَّمج هو السَّنوي، إلاَّ إن كان الدَّمج يعني قراءة المزمور بدون أي لحن!.

فالمزمور يُطرح عادة بخمس طرائق هي:

الطَّريقة الأولى: هي اللَّحن المختصر، أو الدَّمج، أو السَّنوي، وهي تُقال في أيِّ وقت يشاء المرتِّل.

الطَّريقة الثَّانية: هي اللَّحن المطوَّل على وزن مزمور Ϫⲉ ⲁϥⲥⲁϫⲓ وهو المزمور الذي يُقال في عيد تذكار صعود جسد السيِّدة العذراء إلى السَّماء. وهذه الطَّريقة تُقال في أعياد العذراء وأيضاً في أعياد الشُّهداء والقدِّيسين، وفي برامون عيدي الميلاد والغطاس. وفي أيِّ وقت يشاء المرتِّل.

الطَّريقة الثَّالثة: هي اللَّحن السِّنجاري، نسبة إلى بلدة سنجار التي نشأ فيها هذا اللَّحن، وهي تُقال في الأعياد السَّيديَّة، وعيدَي الصَّليب.

الطَّريقة الرَّابعة: هي اللَّحن الفرايحي، وهي تُقال في الأعياد السَّيديَّة، وعيدي الصَّليب.

الطَّريقة الخامسة: هي اللَّحن الكيهكي للمزمور. وهي تقال في شهر كيهك فقط.

أمَّا نصُّ مزمور الإنجيل فهو: «أبصرَ البحر فهرب، والأردن رجع إلى خلف. مالك أيها البحر قد هربت، وأنت أيها الأردن قد رجعت إلى خلف. الليلويا» (مزمور ١١٣:٣-٥). وهو نفس المزمور الذي ورد ذكره

عند ابن كبر.

فصل الإنجيل

وهو من بشارة القدّيس متى الإنجيلي: «... حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه ...» (متى ٣:١-١٧). وهو نفس فصل الإنجيل الذي ورد عند ابن كبر في القرن الرّابع عشر.

طلبة "اللّهم ارحمنا"

يقول الكاهن طلبة ⲪⲚⲞⲨϮ ⲚⲀⲒ ⲚⲀⲚ أي: "اللّهم ارحمنا". ويذكر "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدّار البطريركيّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" في عبارة قطعت سياق النّص، أنّ هذه الطّلبة كان يقولها بعض الكهنة دون بعضهم الآخر[٢٨]، أي أنها إحدى الممارسات التي عُرفت في إحدى جهات مصر. و لم يُشر إليها "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدّار البطريركيّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م" كما سبق أن ذكرتُ، ولكنّها انتشرت الآن في كل الكنائس بعد تدوينها في الكتاب المطبوع.

ويقول الكاهن هذه الطّلبة وهو يحمل الصّليب كما تقول كلّ المخطوطات والكُتُب الطّقسيّة. وجرت العادة الآن أن يوضع على الصّليب شمعة أو ثلاث شمعات، كممارسة طقسيّة في إحدي الجهات، ثم انتشرت في كلّ الأرجاء. ولقد شرحتُ بالتّفصيل المراحل الطّقسيّة التي عبرت عليها الرُّشومات المصاحبة لهذه الطّلبة، وذلك في كتاب "صلوات رفع البُخور

٢٨- وهو ما يؤكّده أيضاً "مخطوط السّريان لسنة ١٦٩٨م"، و"مخطوط البطريركيّة بالإسكندريّة لسنة ١٧١٦م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".
انظر: الأنبا صموئيل، مرجع سابق، ص ١١٤

في عشيَّة وباكر".

وبعد هذه الطِّلبة يقول الشَّعب: "كيرياليسون" باللَّحن الكبير عشر مرَّات بالنَّاقوس(٢٩).

مرد الإنجيل

ثمَّ يُقال مرد الإنجيل بلحن الفرح، وهو الرُّبعان الثَّاني والثَّالث من ذُكصولوجيَّة يوحنا المعمدان الثَّانية(٣٠) والتي هي بدورها مأخوذة من الذُّكصولوجيَّة الثَّانية لعيد الغطاس.

وهذا الرُّبعان يَردان على لسان القدِّيس يوحنا المعمدان، حيث يقول: "رأيتُ الرُّوح القُدُس نازلاً من السَّماء، وسمعتُ صوت الآب قائلاً: هذا هو ابني حبيبي الذي به سُرَّت نفسي، وصنع مشيئتي، فاسمعوا له لأنه هو المحيي".

أمَّا إفخولوجيون روفائيل الطُّوخي، فيورد لمرد الإنجيل رُبعاً يسبق هذين الرُّبعين المذكورَين، ونصُّه هو:

ثلاثين سنة أكملها	Ⲙⲁⲡ ⲛ̀ⲣⲟⲙⲡⲓ ⲁϥϫⲱⲕⲱⲟⲩ ⲉ̀ⲃⲟⲗ
يسوع، إذ اعتمد من يد	ⲛ̀ϫⲉ Ⲓⲏ̅ⲥ̅ . ⲉⲧⲁϥϭⲓⲱⲙⲥ ϧⲉⲛ
يوحنا، في نهر	ⲡⲓⲓⲟⲣⲇⲁⲛⲏⲥ. ⲉ̀ⲃⲟⲗ ϧⲉⲛ ⲧ̀ϫⲓϫ ⲛ̀
الأردن، هذا الذي شهد	Ⲓⲱⲁⲛⲛⲏⲥ. Ⲫⲁⲓ ⲉ̀ⲧⲁϥⲉⲣⲙⲉⲑⲣⲉ

٢٩- لم يورد إفخولوجيون الطُّوخي هذه الطِّلبة، ولا مرد الشَّعب عليها "كيرياليسون" عشر مرَّات. ويلزم أن يعرف القارئ أنَّ إفخولوجيون الطُّوخي ينقل من مخطوطاتنا القبطيَّة، ولاسيَّما تلك المحفوظة في مكتبة الفاتيكان بروما.

٣٠- وهو ما يذكره أيضاً "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م".

قائلاً:	ⲉϥϫⲱⲙⲙⲟⲥ.

وهو في الحقيقة رُبعٌ يوافقه تماماً بداية الرُّبع التَّالي له.

يقول مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس)[٣١]:

"ثمَّ يقول الكاهن السَّبع أواشي الكبار ويشاركه الكهنة كحسب طقوسهم، كلٌّ واحد أوشيَّة. وإن كان هو وحده فليقرأهم جميعهم. إلى آخرهم، يقولون كيرياليصون. يقول الكاهن الطِّلبة المدوَّنة في كتاب المغطس، ثلاث قطع قبطياً ثمَّ الباقي عربياً. وكلٌّ قطعة يردُّون عليه كيرياليصون. وإذا انتهت قراءة الطِّلبات، يرفع الكاهن الصَّليب، ويرفعون أيديهم، ويطلبون من الرَّب الرَّحمة والغفران. ويقولون كيرياليصون مائة مرَّة بالصَّغير. وإذا انتهى ذلك، يرشم الكاهن الأردن بالصَّليب ثلاث مرَّات. ثمَّ يقول الثَّلاث أواشي الكبار؛ السَّلامة والبابا والجماعة. إلى الآخر يقولون الأمانة. إلى آخرها يرتِّلون بالنَّاقوس:

ها قد شهد يوحنا المعمدان أني عمدت الرَّب في مياه الأردن.	Ⲏⲡⲡⲉ ⲁϥⲉⲣⲙⲉⲑⲣⲉ ⲛ̀ϫⲉ Ⲓⲱ̅ⲁ̅ Ⲡⲓⲃⲁⲡⲧⲓⲥⲧⲏⲥ ϫⲉ ⲁⲓϯⲱⲙⲥ Ⲡ̅ⲟ̅ⲥ̅ ϧⲉⲛ ⲛⲓⲙⲱⲟⲩ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓⲓⲟⲣⲇⲁⲛⲏⲥ.
وسمعت صوت الآب يصرخ قائلاً: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت.	Ⲟⲩⲟϩ ⲁⲓⲥⲱⲧⲉⲙ ⲉ̀ⲧ̀ⲥⲙⲏ ⁘ ⲛ̀ⲧⲉ ⲫ̀ⲓⲱⲧ ⲉⲥⲱϣ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ⁘ ϫⲉ ⲫⲁⲓ ⲡⲉ ⲡⲁϣⲏⲣⲓ ⲡⲁⲙⲉⲛⲣⲓⲧ ⁘ ⲉⲧⲁⲓϯⲙⲁϯ ⲛ̀ϧⲏⲧϥ.

٣١- ويوافقه "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط السِّريان لسنة ١٦٩٨م"، و"مخطوط البطريركيَّة بالإسكندريَّة لسنة ١٧١٦م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

قدوسٌ ...	Ⲭⲉ ⲭⲟⲩⲁⲃ..
للعذراء ...	Ϩⲓⲧⲉⲛ ⲛⲓⲡ̀ⲣⲉⲥⲃⲓⲁ..
ليوحنا ...	Ϩⲓⲧⲉⲛ ⲛⲓ..
نسجد ...	Ⲧⲉⲛⲟⲩⲱϣⲧ..

يقول الشمَّاس: إبروسفارين...".

الأواشي السَّبع الكبار

تُقال أواشي المرضى، المسافرين، أهوية السَّماء، الملك، المتنيِّحين، الصَّعائد والقرابين، والموعوظين[٣٢].

طلبة "فلنقل كلُّنا بانشراح"

يقول رئيس الكهنة[٣٣] طلبة بدايتها: "فلنقل كلُّنا بانشراح كثير، ونسأل الرَّب قائلين ..."، حيث يجاوب الشَّعب في نهاية كلِّ رُبع منها قائلين: "ياربُّ ارحم". وهي ثمانية طلبات تُختم كلٌّ منها بعبارة: "نسألك ياربُّ اسمعنا وارحمنا".

وفي هذه الطِّلبات، يخاطب الكاهن الله الآب معطي الرَّحمة، ومجدِّد النِّعمة كلَّ حين، قائلاً: ياربُّ خلِّص شعبك، بارك ميراثك، تعهَّد شعبك بالرَّحمة والتَّحنُّن، ولتسبق وتدركنا رأفتك عاجلاً، ومراحمك الكثيرة بقوَّة صليبك المحيي المقدَّس ... الخ.

٣٢- لم يورد إفخولوجيون الطُّوخي هذه الأواشي السبَّع.
٣٣- يذكر إفخولوجيون الطُّوخي أنّ الشمَّاس هو الذي يقول هذه الطِّلبات.

وفيما يلي نص هذه الصَّلاة القبطيَّة السَّحيقة في القدم.

– فلنقُل كلُّنا بانشراح كثير، ونسأل الرَّب قائلين: يارب ارحم.

– أيها الرَّب الإله ضابط الكُل، معطي الرَّحمة كلَّ حين. نسألك يارب اسمعنا وارحمنا. (يارب ارحم)(٣٤).

– يا من يعطي مواهبه بغنى، ويُحدر الرَّحمة والنِّعمة كلَّ حين. نسألك يارب اسمعنا وارحمنا. (يارب ارحم).

– يا من جعل ممشاه على السَّحاب، وجمع المياه بيده العزيزة. نسألك يارب اسمعنا وارحمنا. (يارب ارحم).

– يا من وزن الجبال بيده، وقاس السَّماء بشبره، والأرض كلَّها بقبضته. نسألك يارب اسمعنا وارحمنا. (يارب ارحم).

– يارب خلِّص شعبك، بارك ميراثك. تعهَّد شعبك بالرَّحمة والتَّحنُّن. نسألك يارب اسمعنا وارحمنا. (يارب ارحم).

– يارب بارك ثمرات الأرض، أصعدها كحدِّها ومقدارها(٣٥). نسألك يارب اسمعنا وارحمنا. (يارب ارحم).

– ارفع شأن المسيحيِّين. نهر جيحون(٣٦) املأه من بركتك(٣٧). بارك إكليل السَّنة بصلاحك. نسألك يارب اسمعنا وارحمنا. (يارب ارحم).

٣٤- جدير بالذِّكر أنَّ المخطوطات تبدِّل بين هذين الرُّبعين الأوليين، فبعضها يجعل ترتيب الرُّبعين كما في المتن، والبعض الآخر يجعل الرُّبع الثَّاني هو الرُّبع الأوَّل، ويليه الرُّبع الأوَّل، كما في إفخولوجيون الطُّوخي.

٣٥- يضيف إفخولوجيون الطُّوخي: "وباركها بالبركات السَّماويَّة"

ⲟⲩⲟϩ ⲥⲙⲟⲩ ⲉⲣⲱⲟⲩ ϧⲉⲛ ⲡⲓⲥⲙⲟⲩ ⲛ̀ⲉⲡⲟⲩⲣⲁⲛⲓⲟⲛ.

٣٦- يذكر إفخولوجيون الطُّوخي بين قوسين: (أي النِّيل).

٣٧- يذكر إفخولوجيون الطُّوخي: "نهر جيحون املأه من ماء البركة".

Ⲫⲓⲁⲣⲟ Ⲅⲉⲱⲛ ⲙⲁϩϥ ⲙ̀ⲙⲱⲟⲩ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓⲥⲙⲟⲩ.

– لتسبق وتدركنا رأفاتك عاجلاً ومراحمك الكثيرة بقوَّة صليبك المقدَّس المحيي[٣٨]. نسألك يارب اسمعنا وارحمنا. (يارب ارحم).

– بطلبات والدة الإله القدِّيسة مريم، ورؤساء الملائكة الأربعة الأطهار ميخائيل وغبريال وروفائيل وسوريال[٣٩]. والأربعة حيوانات غير المتجسِّدة، والأربعة والعشرين قسيساً، والقدِّيس يوحنا المعمِّد، وسادتي الآباء الرُّسُل، وكلّ مصاف قدِّيسيك.

– فلنقل كلُّنا بصوت واحد (يارب ارحم).

وبعدها يرفع الكاهن الصَّليب، وبه ثلاث شمعات مضاءة[٤٠]، بينما يقول الشَّعب: "كيرياليسون" مائة مرَّة باللَّحن القصير[٤١].

الأواشي الثَّلاث الكبار، والأمانة

ثمَّ تُقال الأواشي الثَّلاث الكبار، السَّلامة، الآباء، والاجتماعات. ثمَّ يُقال قانون الإيمان، ويعقبه مباشرة الأسبَسموس الآدام للعيد السَّابق ذكره. ولا وجود هنا لصلاة صُلح تسبق الأنافورا، فصلوات الصُّلح في

٣٨- لم يورد إفخولوجيون الطُّوخي كلمة "المحيي".

٣٩- يذكر إفخولوجيون الطُّوخي: "والثَّلاثة رؤساء الملائكة القدِّيسين ميخائيل وغبريال ورافائيل".

٤٠- هذه الثَّلاث شمعات المضاءة لم يذكرها "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م"، ولكن كتاب "اللقَّان والسَّجدة" يذكرها.

٤١- لم يورد إفخولوجيون الطُّوخي هذه المائة كيرياليسون.
ويذكر كتاب "اللقَّان والسَّجدة" المطبوع أنه في أثناء ترتيل مرد الإنجيل السَّابق ذكره، يرشم الكاهن ماء اللقَّان بالصَّليب ثلاثة رشومات. أمَّا "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م" فيجعل هذا الرَّشم الأوَّل بعد ترديد كيرياليصون مائة مرَّة.

كلّ الأنافورات ليست من صُلبها(٤٢).

وبعد الأسبَسموس يقول الشمَّاس مباشرة: **Ⲡⲣⲟⲥϥⲉⲣⲓⲛ** (بروسفارين)، أي: ''قدِّموا على الرَّسم، قفوا برعدة، وإلى الشَّرق انظروا. ننصت''.

يقول الشَّعب مرد: ''رحمة السَّلام، ذبيحة التَّسبيح''. ويسبقه حالياً وبصفة دائمة الأسبَسموس الآدام السَّنوي: ''بشفاعات والدة الإله القدِّيس مريم، ياربُّ أنعم لنا بمغفرة خطايانا''.

قُدَّاس الماء

المقدِّمة(٤٣) Preface

يقول الكاهن وهو يرشم الماء بالصَّليب رشماً واحداً: ''محبَّة الله الآب، ونعمة الابن الوحيد ربِّنا وإلهنا ومخلِّصنا يسوع المسيح، وشركة وموهبة الرُّوح القُدُس تكون مع جميعكم''(٤٤).

٤٢- يذكر إفخولوجيون الطُّوخي ما يلي: ''يقول الكاهن صلاة المرضى ونيسلسل والثَّلاث صلوات الكبار والأمانة''. وواضح هنا أنه يسبق الأواشي الثَّلاث الكبار أوشيَّة المرضى، ونيسلسل، إذ لا وجود للسَّبع أواشي الكبار في إفخولوجيون الطُّوخي، وهو ما سبق ذكره.

٤٣- هذه العناوين الجانبيَّة هو للتَّوضيح، وليست من صُلب النَّص اللِّيتورجي. والمقدِّمة تعني حرفياً: ''الأساس أو الشَّيء الذي تتعلَّق به كلُّ الأشياء الأُخرى''.

٤٤- إنَّ الكاهن يقول هنا: ''موهبة δωρεά الرُّوح القُدُس'' بصيغة المفرد، وهي تأتي كذلك في مقدِّمة كثير من اللِّيتورجيَّات، أي في صيغة المفرد وليس في صيغة الجمع، أي δωρεά (ذوري آ) أي: ''موهبة'' أو ''عطيَّة''، وليس Χαρίσματα (خاريسماتا) أي: ''مواهب''.

فيقول الشَّعب: ومع روحك.

يقول الكاهن وهو يرشم الماء بالصَّليب رشماً ثانياً: ارفعوا قلوبكم.

فيقول الشَّعب: هي عند الرَّب.

يقول الكاهن وهو يرشم الماء بالصَّليب رشماً ثالثاً: فلنشكر الرَّب[٤٥].

فيقول الشَّعب: مستحقٌ ومستوجبٌ.

يقول الكاهن:

ولا ينبغي أن يُظن أنه يمكن لهاتين اللَّفظتين أن تتبادلا المكان كأن يحل أيهما مكان الأُخرى. فكلٌ منهما تشير إلى حقائق مختلفة. فقد وردت اللَّفظة الثَّانية Χαρίσματα عدَّة مرَّات في كتاب العهد الجديد بمعنى "مواهب الرُّوح القُدُس"، أو "المواهب الروحيَّة" (انظر: ١كورنثوس ٤:١٢). فالكاهن هنا لا يمنح المصلِّين مواهب من الرُّوح القُدُس، بل يمنح الرُّوح القُدُس نفسه بوصفه "موهبة". ولعلَّ لفظة "شركة" تؤكِّد لنا هذا المعنى. فالرُّوح القُدُس الذي نأخذه نحن بالموهبة، هو منذ الأزل في المسيح وحده بالطَّبيعة، لأنَّ الابن واحد مع الرُّوح القُدُس منذ الأزل. فالرُّوح القُدُس هو روح المسيح. والقدِّيس أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) ينفي عن الابن احتمال قبوله للرُّوح القُدُس لنفسه وهو في مياه الأردن ليعتمد. ولكن الرُّوح القُدُس حلَّ على جسد المسيح بكلِّ ملئه، لكي نأخذ نحن من هذا الملء إذا اتحدنا بذاك الجسد. فالابن عندما تقبَّل الرُّوح القُدُس، نكون نحن الذين تقبَّلنا به الرُّوح (القدِّيس أثناسيوس، ضد الأريوسيِّين ١:٤٧، ٤٨). وعندما ننال شركة الرُّوح، تكون لنا محبَّة الآب، ونعمة الابن. فهكذا يبدأ القُدَّاس بدخول مباشر في شركة مع الثَّالوث. ولا يغيب عنَّا أنَّ الشَّعب باجتماعه معاً وصلاته معاً يعود فيجيب على الكاهن بأنَّ شركة الثَّالوث هذه لتكن مع روحك أيضاً.

٤٥- حتى الآن رُشِمَ الماء بالصَّليب ستَّة رشومات، وهذه الرُّشومات الثَّلاثة الأخيرة يذكرها أيضاً "مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٩١٠م"، و "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م".

أمَّا إفخولوجيون الطُّوخي، فيذكر هذه الثَّلاثة رشومات كأوَّل رشومات على الماء، وهي عند قول الكاهن: محبَّة الله الآب ... الخ.

التّذكار[٤٦] Anamnesis

"أنت هو الإله العظيم الرَّب، وعجيبة هي أعمالك[٤٧]. وليس شيء من الكلام كافياً في التَّسبيح بعجائبك. لأنك بقوَّتك كوَّنت سائر الأشياء ممَّا لم يكن[٤٨]. ضبطتَّ كلَّ الخليقة بعزَّتك، ودبَّرت العالم بعنايتك[٤٩].

أنت أبدعت الخليقة من الأربعة عناصر[٥٠]، وكلَّلت دور السَّنة بأزمنة أربعة[٥١]. أنت الذي ترتعد منك القوَّات العقليَّة. أنت الذي

٤٦- التّذكار هو استعادة الأحداث الخلاصيَّة التي بواسطتها أعاد الرَّب البشريَّة إلى ما كانت عليه، حيث تبدأ هذه الأحداث الخلاصيَّة دائماً بالخلق، ثمّ بالتَّجسُّد أي ظهور الله بين النَّاس لكي ينقض أعمال إبليس، ويحطِّم سطوته ويُعيد للإنسان حياة الشَّركة معه – أي مع الله – حيث يبدأ زمن الخلاص مجدِّداً الخليقة التي سقطت.

٤٧- هذه الصَّلاة هي نفسها الصَّلاة التي تُقال في الكنيسة اليونانيَّة والتي بدايتها:
Μέγας εἶ Κύριε, καὶ θαυμαστὰ τὰ ἔργα σου, κ.τ.λ.
ولكنَّها في الكنيسة البيزنطيَّة قُدَّاس المعموديَّة، أمَّا في الكنيسة القبطيَّة فهي قُدَّاس ماء اللقَّان في عيد الغطاس.
CF. Burmester, O.H.E. Khs, *The Egyptian or Coptic Church...*, p. 253

٤٨- "ممَّا لم يكن"، أي من العدم. وجاءت هكذا في نصِّ الصَّلاة في الكنيسة اليونانيَّة "لأنك أنت الذي بمشيئتك أبرزت جميع الأشياء من العدم إلى الوجود".

٤٩- تتكرَّر هذه الفقرة الأولى من هذه الصَّلاة ثلاث مرَّات في الطَّقس البيزنطي.
Burmester, O.H.E. Khs, *The Egyptian or Coptic Church...*, p. 253.

٥٠- هذه الأربعة عناصر حسب المفهوم القديم هي: الماء والهواء والنَّار والتُّراب.

٥١- من هذه العبارة يتَّضح لنا أنَّ هذه اللّيتورجيَّة ليست من أصل مصري أو قبطي، لأنَّ الأقباط قسَّموا السَّنة إلى ثلاثة أزمنة فقط وليس إلى أربعة. الزَّمن الأوَّل هو زمن فيضان النِّيل، وهو أكثر قليلاً من أربعة شهور (من ١٢ بؤونه إلى ٩ بابه). والزَّمن الثَّاني هو زمن الزِّراعة، ويمتد إلى ثلاثة شهور (من ١٠ بابه إلى ١٠ طوبه). والزَّمن الثَّالث هو زمن الإثمار، وهو أربعة شهور (من ١١ طوبه إلى ١١ بؤونه). أمَّا الأربعة أزمنة التي تذكرها اللّيتورجيَّة فهي الصَّيف والشتاء والخريف والرَّبيع. وهو تقسيم أكثر حداثة للسَّنة من التَّقسيم المصري القديم لها.

تسبِّحك الشَّمس. أنت الذي يمجِّدك القمر. أنت الذي تعليك[٥٢] النُّجوم. أنت الذي يطيعك النُّور. أنت الذي تخافك وترتعد منك[٥٣] الأعماق. أنت الذي تتعبَّد لك البِّحار"[٥٤].

يقول الشمَّاس: أيها الجلوس قفوا[٥٥].

يقول الكاهن: "أنت الذي بسطت السَّماء مثل القُبَّة[٥٦]. أنت الذي ثبَّتَّ الأرض على المياه. أنت الذي حصَّنت البحر بالرَّمل. أنت الذي أفضت الهواء لنستنشق النَفَس".

يقول الشمَّاس: إلى الشَّرق انظروا.

٥٢- جاءت كلمة "تعليك" في الصَّلاة اليونانيَّة "تخضع لك".

٥٣- لم يذكر إفخولوجيون الطُّوخي عبارة: "وترتعد منك".

٥٤- "الينابيع" بدلاً من "البحار" في النَّص اليوناني لهذه الصَّلاة. وهو نفس ما يذكره إفخولوجيون الطُّوخي، حيث يذكر ⲚⲒⲘⲞⲨⲘⲒ.

٥٥- مردَّات الشمَّاس التي تتخلَّل مقدِّمة اللِّيتورجيَّا لا توجد في النَّص اليوناني في الكنيسة البيزنطيَّة. وإنَّ مردَّات الشَّماس: "أيها الجلوس قفوا"، و"وإلى الشَّرق انظروا" هي إحدى السِّمات التي تميِّز اللِّيتورجيَّة القبطيَّة دون سواها من اللِّيتورجيَّات الأُخرى.

٥٦- الكلمة اليونانيَّة καμάρα (كامارا) - وهي نفسها الكلمة القبطيَّة - تعني "القُبَّة"، وهي الكلمة الموجودة في التَّرجمة السَّبعينيَّة هكذا: ὁ στήσας ὡς καμάραν τὸν οὐρανόν أي: «الباسط السَّموات كقبَّة» (إشعياء ٤٠:٢٢). وجاءت في التَّرجمة العبريَّة «الذي ينشر السَّموات كسرادق».

وأمَّا النَّص اليوناني لهذه الصَّلاة كما ورد في طقس الكنيسة البيزنطيَّة، فجاءت هذه الكلمة δέρρις (ذريس) وهي الكلمة المستخدمة في السَّبعينيَّة في (مزمور ١٠٣:٢)، وتُرجمت في العبريَّة "شُقَّة" «الباسط السَّموات كشُقَّة». والشُقَّة هي غطاء الخيمة. أمَّا النَّص اليوناني لهذه العبارة في القُدَّاس البيزنطي فهو: "أنت بسطتَّ السَّماء كالخيمة - κτείνων τὸν οὐρανὸν ὡσεὶ δέρριν ".

وفي إفخولوجيون الطُّوخي يرد النَّص التَّالي: "أنت الذي مددت السَّماء مثل الخيمة".

Ⲛ̀ⲑⲟⲕ ⲡⲉ ⲉⲧⲁⲕϭⲱⲗⲕ ⲛ̀ⲧⲫⲉ ⲙ̀ⲫⲣⲏϯ ⲛ̀ⲟⲩⲕⲁⲙⲁⲣⲁ.

يقول الكاهن: ''تخدمك القوّات الملائكيّة، وتسجد لـك صـفوف الملائكة[٥٧]. أنت الذي ينطق بمجدك السِّيرافيم ذو السِّتة أجنحة، ويطـير ويقف أمامك الشّاروبيم الكثيرو الأعين[٥٨]، يسترون وجوههم بأجنحتهم لأجل مجدك غير المقترَب منه، ويسبِّحون قائلين''[٥٩].

يقول الشّعب: قدوسٌ قدوسٌ قـدوسٌ ربُّ الصّـباؤوت، السّـماء

٥٧- وردت في إفخولوجيون الطُّوخي: ''صفوف رؤساء الملائكة''.
Ⲛⲓⲭⲟⲣⲟⲥ ⲛ̀ⲁⲣⲭⲁⲅⲅⲉⲗⲟⲥ.

٥٨- النّص القبطي في كلٍّ من كتاب اللقّان والسّجدة، وإفخولوجيون الطُّـوخي، نصٌّ صحيح. أمّا التّرجمة العربيّة المذكورة في المتن طبقاً لكتاب اللقّـان والسّـجدة فتحتاج إلى التّصحيح التّالي: ''أنت الذي ينطق بمجدك السِّيرافيم ذو السِّتة أجنحـة، يطيرون ويقفون أمامك. والشّاروبيم الكثيرو الأعين يسترون وجوههم بأجنحتهم من أجل مجدك غير المقترَب منه، ويسبِّحون قائلين''.

٥٩- هذا النّص اليوناني لهذه الصّلاة التي تبدأ بعبارة ''عظيمٌ أنت ياربُّ وعجيبـة هي أعمالك''، هو شبيه بنصٍّ ليتورجيّة اللقّان في الطّقس السِّرياني والذي يبدأ بنفس العبارة السّابقة. أمّا النّص الذي ورد لهذه الصّلاة في الطّقس السِّرياني القديم بحسـب ليتورجيّة القدّيس يعقوب فهو:

''... أنت الذي تسبِّحك سماوات السّموات وكلُّ قوّاتها، الشّمس والقمر وكـلُّ مجموعات النُّجوم[١]، الأرض والبحر وكلُّ ما فيها[٢]، أورشليم السّـمائيّة كنيسـة الأبكار المكتوبين في السّموات[٣]، الملائكة ورؤساء الملائكة، والكراسي والأربـات والرِّئاسات والقوّات والسِّيادات المخوفة[٤]، الشّـاروبيم ذو الأعـين الكـثيرة[٥]، والسِّيرافيم ذو السِّتة أجنحة، بجناحين يغطُّون وجههم، وباثنين أرجلهم، ويطـيرون باثنين[٦]، وهم يصيحون الواحد للآخر بتسبيحات إلهيّة لا تنقطـع، مـن فـم لا يسكت[٧]، بتسبحة الغلبة لمجدك العجيب، يصـيحون بصـوت عـال ويمجِّـدون ويصرخون قائلين''.

(١) مزمور ١٤٨:٣، ٤ (٢) مزمور ٦٩:٣٤ (٣) عبرانيين ١٢:٢٢، ٢٣ (٤) أفسس ١:٢١
(٥) حزقيال ١٠:١٢ (٦) إشعياء ٦:٢، ٣ (٧) رؤيا ٤:٨

والأرض مملوءتان من مجدك الأقدس[٦٠].

يقول الكاهن هو يرشم الماء ثلاثة رشومات[٦١]: "قدوسٌ قدوسٌ قدوسٌ أنت أيها الرَّب، وقدوسٌ في كلِّ شيء[٦٢]. أنت الإله الكائن غير المحدود، وغير المبتدئ، وغير الموصوف.

أتيتَ على الأرض وأخذتَ شكل العبد، وصرتَ في شبه النَّاس. و لم تتحمَّل يا سيِّدنا من أجل رأفات رحمتك أن تنظر جنس البشر وقد قوي عليه إبليس، فأتيت وخلَّصتنا. نعترف بالنِّعمة، ونبشِّر بالرَّحمة، ولا نخفي إحسانك لأنك أتيت وخلَّصتنا".

يقول الشَّعب: كرحمتك ياربُّ وليس كخطايانا.

يقول الكاهن: "ولادات الطَّبيعة باركتها[٦٣]، وطهَّرت[٦٤] البطن

٦٠- لاحظ انطباق هذا المرد الذي يردِّده الشَّعب أشد الانطباق على ما سبق أن ذكره الكاهن. فامتلاء السَّماء من مجد الرَّب، هو علَّة تسبيح القوَّات الملائكيَّة، وامتلاء الأرض أيضاً من مجده، هو سبب تسبيح كلِّ الخليقة له، الشَّمس والقمر والنُّجوم والنُّور والأعماق والبحار.

٦١- هذه هي المرَّة الثَّالثة التي يرشم بها الكاهن الماء، ويكون عدد الرُّشومات حتى الآن تسعة رشومات.

٦٢- عبارة: "وقدوسٌ في كلِّ شيء" لا توجد في صلاة الكنيسة اليونانيَّة.
Burmester, O.H.E. Khs, *The Egyptian or Coptic Church*..., p. 254.

٦٣- في الصَّلاة اليونانيَّة في الكنيسة البيزنطيَّة، جاءت هذه الكلمة ἠλευθερώσας أي: "حرَّرتها". والكلمة اليونانيَّة من الفعل ἐλευθερόω أي: يحرِّر أو يرسل إلى الحريَّة. أمَّا النَّص فقد ورد هكذا: "أنت الذي حرَّرت أولاد طبيعتنا".

٦٤- المترجم القبطي يستخدم غالباً فعل "التَّطهير" ليعبِّر به عن فعل "التَّقديس". أمَّا النَّص اليوناني لهذه الصَّلاة فيعني: "قدَّست البطن البتولي".

البتولي بميلادك. سبَّحتك سائر الخليقة لَمَّا أظهرتها[٦٥]، لأنك وأنت لم تزل إلهاً ظهرت على الأرض، واشتركت في المشي مع النَّاس.

يقول الكاهن: "قدِّس هذا الماء وامنحه نعمة الأردن". حيث يرشم الكاهن الماء بالصَّليب ثلاثة رشومات، وهي المرَّة الرَّابعة من رشومات الماء في هذا القُدَّاس. فيجيب الشَّعب ثلاث مرَّات "آمين"[٦٦].

أنت أيضاً قدَّست مجاري الأردن إذ أرسلت عليها روحك القدُّوس

٦٥- النَّص اليوناني لهذه العبارة يعني: "سبَّحتك سائر الخليقة لَمَّا أظهرت ذاتك". ويتَّفق معه في ذلك إفخولوجيون روفائيل الطُّوخي.

والاختلاف هنا في حرف قبطي واحد لنفس الكلمة. ففي كتاب اللقّان والسَّجدة وردت كلمة ⲉⲧⲁⲕⲟⲩⲟⲛϩⲥ أي: "أظهرتها"، أمَّا إفخولوجيون الطُّوخي فوردت كلمة ⲉⲧⲁⲕⲟⲩⲟⲛϩⲕ أي: "ظهرت أنتَ". ويُظن أنه خطأ من النَّاسخ.

٦٦- هذا الرَّشم للماء بالصَّليب ثلاث مرَّات، مع قول الكاهن: "قدِّس هذا الماء وامنحه نعمة الأردن"، والذي يعترض سياق الصَّلاة يرد فقط في الطَّقس القبطي لهذه اللِّيتورجيَّة. وهو بمثابة الاستدعاء الأوَّل لتقديس المياه. ولم يرد ذكر عبارة "قدِّس هذا الماء وامنحه نعمة الأردن" في إفخولوجيون الطُّوخي في هذا الجزء من اللِّيتورجيَّا، ولكن الإفخولوجيون المذكور يقول ما يلي: "ههنا ترشم الماء بالصَّليب وقُل: أنتَ قدَّستَ مجاري الأردن ... الخ".

أمَّا القُدَّاس اليوناني فيتابع الصَّلاة والتي وردت بنصِّها في القُدَّاس القبطي أيضاً، ولكن بدون هذا الرَّشم الاعتراضي للماء.

وصلاة الاستدعاء الأولى هذه، جاءت سابقة على التِّذكار الذي يرد في الفقرة التَّالية مباشرة، والذي بدايته: "أنت أيضاً قدَّست مجاري الأردن ...". ومن المعروف في عناصر أيِّ ليتورجيَّة، أنَّ الاستدعاء يلي التِّذكار دائماً ولا يسبقه.

وكانت عادة الكنائس قديماً، الاحتفاظ بكميَّة من مياه نهر الأردن، تُضاف على مياه اللقَّان أثناء قُدَّاس الماء الذي يُصلَّى في هذا العيد. وهنا نلاحظ أنَّ السيِّد المسيح لم يأت ليتطهَّر في مياه الأردن، إذ أنه بلا خطيئة، بل ليجعل من الماء بعد الصَّلاة عليه، وسيلة تطهير وتقديس للمؤمنين به.

من السَّماء(٦٧)، وسحقت رؤوس التِّنين المختفي فيها(٦٨)".

٦٧- الرُّوح القُدُس الذي نزل بهيئة حمامة لا يعبِّر إطلاقاً بهذه الحمامة عن شكله أو صورته، لأنه في يوم الخمسين ظهر على هيئة ألسنة ناريَّة. فظهور الرُّوح القُدُس بهذه الهيئة – أي كحمامة – هو تعبير إلهي على أنَّ الماء هنا يحوي عنصر الحياة الإلهيَّة. وتردِّد الكنائس السِّريانيَّة كثيراً، فكرة أنَّ الرَّب لكونه إلهاً هو نارٌ غير ماديَّة يمنح عنصر الماء أن يصير "مياهاً من نار". وتؤيِّد اللِّيتورجيَّة البيزنطيَّة هذه الفكرة فتقول في إحدى صلواتها: "إنَّ اللُّجج تحرق الخطيئة. وفي معموديَّتك ياربُّ تسقي النَّارُ جنسَ الآنام".

٦٨- هذه العبارة الأخيرة وردت في الطَّقس البيزنطي هكذا: "... وسحقت رؤوس التَّنانين المعششة (أو المختفية) فيها".

فكما كان الرُّوح القُدُس يرف على وجه المياه حين قال الله لتكن حياة فكانت وظهرت الخليقة، فهكذا الآن أيضاً، وبعد أن فسدت هذه الخليقة وسقطت من معيَّة الله وحضرته، يُرسل الله روحه القدُّوس على المياه مرَّة أُخرى، أي مياه الخليقة، لكي يسحق الشيطان أي التِّنين المختفي فيها، ليعيد خلقتها بالخلاص. فهنا ينزل المسيح في "مياه" الألم وظلال الموت، فيشرق عليها النُّور، وينتصر المسيح على قوى الشَّر الممثَّلة بتنين أو شخص في أعماق المياه. ولا يخفى أنَّ اللاَّهوت الشَّرقي لا يجزئ الأفعال الخلاصيَّة التي أكملها الابن بتجسُّده. فكلُّ حدث في حد ذاته، هو تكميل وتحقيقٌ للفداء.

فالماء بوصفه العنصر الأولي و"العمق الذي لا يُسبر غوره" يبقى هو مركز وجود هذه القوَّة المضادة ومسكنها. وهكذا يمثل الماء، الموت. ومعموديَّة يسوع في الأردن هي بداية نزوله إلى الجحيم وصراعه مع الموت. فالأردن يمثل المياه كلّها، وتطهير الأردن هو انتصار كوني.

Cf. Lemarié, J., *La manifestation du seigneur*, Les Orndi 23, Paris, 1957, p. 305.

ويعقِّب العالم اللِّيتورجي أنطون بومشتارك A. Baumestark على هذا النَّص اللِّيتورجي بقوله: "هذا النَّص يشير بوضوح إلى عقيدة أنَّ عُمق المياه مأهولٌ بقوَّات شيطانيَّة، قد هزمها المسيح بمعموديَّته. فالمتقدِّم للمعموديَّة، يُعدُّ بدهنه بالزَّيت ليواجه بانتصار، حرب قوَّات الظَّلام هذه". (A. Baumstark, *op. cit.*, p. 138)

ولكن لا وجود لما ذكره بومشتارك في كتابات آباء الكنيسة. فالنَّص السَّابق ذكره والمختص بتقديس مياه المعموديَّة في الكنيسة اليونانيَّة، هو نصٌ يتعلَّق بالصِّراع الذي

الاستدعاء(٦٩) **Epiclesis**

يقول الكاهن: "أنت الآن يا سيِّدنا، يا محب البشر، ربَّنا يسوع المسيح(٧٠). هلمَّ الآن أيضاً بحلول روح قدسك عليها(٧١).

قدِّس هذا الماء(٧٢). آمين.

ليكن ينبوع البركة(٧٣).آمين.

موهبة طاهرة(٧٤).آمين.

ينتظر المعمَّد، والذي هو على وشك أن يبدأ في طقس جحد الشيطان. وطبقاً للقدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧م) فإنَّ مياه المعموديَّة يُصلَّى عليها صلاة طرد الشيطان وإقصائه عنها، قبل نزول المعمَّد إليها.

٦٩- الاستدعاء أي استدعاء الرُّوح القُدُس لكي يُقدِّس المياه. وهنا ينبغي أن نعرف أنَّ الرُّوح القُدُس يهب للمياه ما كان الاستدعاء لأجله.

٧٠- عبارة "ربّنا يسوع المسيح" تختص بالقُدَّاس القبطي للمياه، وغير موجودة في القُدَّاس البيزنطي لها. وقد وردت في إفخولوجيون الطُّوخي: "الرَّب يسوع المسيح".

٧١- كلمة "عليها" أي على المياه. وهذه الكلمة لم ترد في القُدَّاس البيزنطي، و لم ترد أيضاً في إفخولوجيون الطُّوخي.

٧٢- هذا هو الاستدعاء الثَّاني بحسب كتاب "اللقَّان والسَّجدة". وهناك استدعاء ثالث سيرد بعد قليل. وإنما هذا هو الاستدعاء الوحيد في الطَّقس البيزنطي.

وفي الطَّقس القبطي يرشم الكاهن الماء بالصَّليب عند تمام كلّ جملة من الجمل التَّالية، حيث يجاوبه الشَّعب قائلاً: "آمين"، وهي أحد عشر رشماً.

وهنا يذكر إفخولوجيون الطُّوخي ما يلي: "ارشم الماء وقل: قدِّس هذا الماء وامنحه نعمة الأردن".

أمَّا الطَّقس اليوناني فليس لديه مردَّات للشَّعب، ولا رشومات للماء في هذا الجزء من اللِّيتورجيَّا. ولكن عبارة "قدِّس هذا الماء" تتكرَّر فيه ثلاث مرَّات.

Burmester, O.H.E. Khs, *The Egyptian or Coptic Church*..., p. 255.

٧٣- بدلاً من عبارة "ليكن ينبوع البركة"، يرد في القُدَّاس البيزنطي العبارة التَّالية: "وامنحه نعمة الفداء، وبركة الأردن. اجعله ينبوعاً لعدم الفساد".

٧٤- هذه ترجمة غير صحيحة للنَّص القبطي **Ⲟⲩⲇⲱⲣⲟⲛ ⲛ̀ⲧⲉ ⲟⲩⲧⲟⲩⲃⲟ** أي: "موهبة للطَّهارة"، أو "موهبة للتَّقديس" كما وردت في إفخولوجيون الطُّوخي،

حالاً من الخطايا. آمين.
طارداً للأمراض. آمين.
مخيفاً للشياطين. آمين.
لا يقترب إليه شيء من القوَّات المضادة. آمين.
مملوءًا من كلِّ القوَّات الملائكيَّة(٧٥).آمين.
ليكون لكلِّ من يستقي أو يأخذ منه، طهارة للنَّفس والرُّوح والجسد(٧٦).آمين.
شفاءً من الأوجاع، وتقديساً للبيوت. آمين.
نافعاً لكلِّ فائدة".آمين.

وفي القُدَّاس البيزنطي أيضاً.

٧٥- عند هذا الحد من اللِّيتورجيَّا، يتَّفق التَّقليدان القبطي والبيزنطي، باستثناء ما سبق ذكره من ملاحظات.

أمَّا بعد ذلك، فيفترق النَّصَّان اللِّيتورجيَّان القبطي والبيزنطي، كون النَّص البيزنطي مختصاً بقُدَّاس المعموديَّة، إذ يضيف الاستدعاء أفعالاً لا يذكرها النَّص القبطي. فيقول:

"ليهرب منه الذين يتآمرون على خليقتك، لأننا يارب قد دعونا اسمك العجيب المجيد الذي يخيف معاندينا".

وهنا يرسم الكاهن على الماء – بتغطيس أصابع يده اليُمنى فيه – شكل صليب ثلاث مرَّات، وينفخ فيه ثلاث مرَّات أيضاً وهو يقول في كل مرَّة:

"لتنسحق تحت رسم علامة صليبك جميع القوَّات المضادة.

... لكن أنت يا سيِّد الكُل، **أظهر هذا الماء** ماء الفداء، ماء التَّقديس، تطهيراً للجسد والرُّوح، حالاً للعقالات، مغفرة للزَّلات، استنارة للنُّفوس، حميماً لإعادة الولادة، تجديداً للرُّوح، نعمة للتَّبني، سربالاً لعدم الفساد، ينبوعاً للحياة ... الخ".

٧٦- هذه التَّرجمة العربيَّة غير متوافقه بدقَّة مع النَّص القبطي للِّيتورجيَّا الذي يقول: "... للنَّفس والجسد والرُّوح".

ⲛ̀ⲧⲉϥϣⲱⲡⲓ ⲛⲱⲟⲩ ⲛ̀ⲟⲩⲧⲟⲩⲃⲟ ⲛ̀ⲧⲉ ϯⲯⲩⲭⲏ ⲛⲉⲙ ⲡⲓⲥⲱⲙⲁ ⲛⲉⲙ ⲡⲓⲡ̄ⲛ̄ⲁ̄.

''أنت أيها الرَّب يسوع المسيح الذي جدَّدت طبيعتنا الـتي بليت بالخطيئة مرَّة أُخرى بالماء والرُّوح.

أنت الذي أغرقت الخطيئة بالماء الذي ارتفع في عهد نوح.

أنت الذي عتقت جنس العبرانيِّين من عبوديَّة فرعون بموسى والبحر.

أنت الذي فرَّقت إسرائيل من ضلالة بليعال بالنَّار والماء في عهد إيليا.

أنت الآن أيضاً يا سيِّدنا قدِّس هذا الماء بروح قُدسك(٧٧)، وامنح الذين يستعملونه بكلِّ نوع أو الذين يلمسونه أو الذين يشربون منه، أو الذين يغتسلون منه، أن يكون لهم طُهراً وبركة ونقاوة وخلاصاً.

لكي من جهة العناصر والملائكة والنَّاس معاً، ومن جهة الذين يُرون والذين لا يُرون، يتمجَّد اسمك أيها الآب والابن والرُّوح القُدُس. الآن وكلّ أوان وإلى أبد الدُّهور كلِّها. آمين''(٧٨).

يقول الشَّعب: أبانا الذي في السَّموات.

يقول الكاهن: الثَّلاثة تحاليل والبركة(٧٩).

٧٧- هنا يرشم الكاهن الماء بالصَّليب ثلاثة رشومات، ليكون مجموع الرُّشومات على الماء حتى الآن ٢٦ رشماً.
وهذا هو الاستدعاء الثَّالث في القُدَّاس القبطي لتقديس ماء لقّان عيد الغطاس.
أمَّا الاستدعاء الأوَّل فهو: ''قدِّس هذا الماء وامنحه نعمة الأردن''. بدون ذكر واضح لطلب حلول الرُّوح القُدُس، ولكن التَّقديس لا يتم قطعاً إلاَّ به.
وأمَّا الاستدعاء الثَّاني فهو: ''أنت الآن يا سيِّدنا محب البشر ... هلمَّ الآن بحلول روح قُدسك، قدِّس هذا الماء''. وهو الاستدعاء الوحيد في القُدَّاس البيزنطي.
٧٨- هذا الختام ورد في إفخولوجيون الطُّوخي هكذا: ''... فليتمجَّد اسمك القدُّوس أيها المسيح إلهنا مع أبيك الصَّالح غير الدَّنس، والرُّوح القُدُس. الآن ودائماً''.
٧٩- لم يرد ذكر كلمة ''والبركة'' في إفخولوجيون الطُّوخي.
Burmester, O.H.E. Khs, *The Egyptian or Coptic Church*..., p. 255.

ثمَّ يرفع رئيس الكهنة – أو الكاهن الخديم – يده بالصَّليب ويصرخ: "القُدسات للقدِّيسين"(٨٠).

يقول الشمَّاس: خلصتَ حقاً(٨١) ومع روحك.

يرشم الكاهن الماء بالصَّليب ثلاثة رشومات(٨٢) وهو يقول: "مباركٌ الرَّب يسوع المسيح ابن الله، وقدوسٌ الرُّوح القُدُس. آمين"(٨٣).

يجيب الشَّعب(٨٤): واحدٌ هو الآب القدُّوس، واحـــدٌ هـــو الابـــن

٨٠- هذا النِّداء الشَّهير "القُدسات للقدِّيسين" يؤكِّد أننا أمام سرٌّ عظيم. فالماء في اللقَّان الآن ليس ماءً ساذجاً، بل "قُدسات" لا تُعطي إلاَّ للقدِّيسين.
ولم ترد عبارة "القُدسات للقدِّيسين" في إفخولوجيون روفائيل الطُّوخي، وكذلك لم ترد في المخطوطين رقمي (٣١١، ٣٥٩) اللذين يحويان هـــذه الخدمـــة بـــالمتحف القبطي بمصر القديمة، وهما يعودان إلى القرن الرَّابع عشر الميلادي.
Burmester, O.H.E. Khs, *The Egyptian or Coptic Church*..., p. 255.
٨١- أوردتُ شرحاً وافياً لمعنى نداء الشمَّاس: "سوتيس" أي "خلصت"، وذلك في كتاب "القُدَّاس الإلهي سرّ ملكوت الله".
وهذا النِّداء في إفخولوجيون الطُّوخي هو: بخوف الله أصغوا.
Ⲙⲉⲧⲁ ⲫⲟⲃⲟⲩ Ⲑⲉⲟⲩ ⲡ̀ⲣⲟⲥⲭⲱⲙⲉⲛ
٨٢- هذه هي آخر ثلاثة رشومات للماء، لكي يصبح عدد الرُّشومات كلّها ٢٩ رشماً.

٨٣- لم ترد هذه العبارة في إفخولوجيون الطُّوخي، ولكنها وردت في مخطـــوطي المتحف القبطي السَّابق الإشارة إليهما.
Burmester, O.H.E. Khs, *The Egyptian or Coptic Church*..., p. 256.
أمَّا إفخولوجيون الطُّوخي فيقول: "ويرشم الكاهن المـــاء قـــائلاً: واحـــدٌ الآب القدُّوس، واحدٌ الابن القدُّوس، واحدٌ الرُّوح القُدُس".
٨٤- يذكر إفخولوجيون الطُّوخي أنَّ الكاهن هو الذي يقول: واحدٌ هـــو الآب القدُّوس ... الخ (*Ibid.*, p. 256).

القدُّوس، واحدٌ هو الرُّوح القُدُس. آمين. حقاً أؤمن[٨٥].

وهكذا ينتهي قُدَّاس اللقان.

يقول مخطوط ترتيب البيعة رقم (١١٧ طقس)[٨٦]:

"... ويكمل الخدمة من كتاب المغطس. إلى آخرها يقولون الليلويا **Cmoy ècΦ†** ثمَّ يبتدئوا يغطسون، والكاهن جالس يرشم واحداً واحداً. وبعد **Cmoy ècΦ†** يرتِّلون الإبصاليَّة بطريقة الفرح، وهي مدوَّنة في كتاب المغطس. وبعدها **Ꞷ πεnoc Ιhc Πχc** . وإذا انتهى حميم الشَّعب كلّهم، يختمون التَّرتيل. ويقرأ الكاهن أوشيَّة الشُّكر المدوَّنة في كتاب المغطس، وبعدها يقرأ البركة. ويتوجَّهون مع السَّلامة إلى داخل الخوروس لعمل صلاة باكر".

مسح الجبهة بماء اللقَّان المقدَّس

ولقد جرت العادة اليَوم أن يبلِّل الكاهن الشَّريك لفافة بماء اللقَّان ويمسح بها رئيس الكهنة ثلاثة رشومات على جبهته، ثمَّ يأخذ رئيس الكهنة اللِّفافة أو المنديل من الكاهن الشَّريك ليرشمه بها على جبهته، وكذلك باقي الكهنة والشَّمامسة والشَّعب ثلاثة رشومات على اسم الثَّالوث. والبعض يغطسون[٨٧].

وفي أثناء ذلك يُرتِّل الشَّعب المزمور المائة والخمسين **Cmoy ècΦ†** «سبِّحوا الله في جميع قديسيه ...».

٨٥- عبارة "حقاً أؤمن" لم ترد في إفخولوجيون الطُّوخي.

٨٦- ويتفق معه "مخطوط ترتيب البيعة رقم (٧٣ طقس) بالدَّار البطريركيَّة بالقاهرة لسنة ١٤٤٤م"، و"مخطوط البراموس لسنة ١٥١٤م"، و"مخطوط سبرباي لسنة ١٨٦٨م".

٨٧- خولاجي سنة ١٩٠٢م ص ١٣

وبعد المزمور الخمسين تُقال الإبصاليَّة الواطس الآتية:

"الله الممجَّد في مشورة القدِّيسين، الجالس على الشَّاروبيم أتى وظهر لنا. فلمَّا رآه يوحنا آتياً إلى الأردن ليعتمد منه، قال للشَّعب: هوذا حمل الله حامل خطيئة العالم. هذا الذي قلتُ أنا من أجله أنه يأتي بعدي، وهو يعمِّدكم بالرُّوح القُدُس. وأنا عاينتُ وشهدتُ أنَّ هذا هو ابن الله. وكان يوحنا يعلِّم الشَّعب قائلاً: إني لستُ أنا المسيح، بل هو الذي يأتي بعدي، الذي لستُ بمستحق أن أحمل حذاء رجليه، هو يعمِّدكم بالرُّوح القُدُس والنَّار. اشفع فينا أيها السَّابق الصَّابع يوحنا المعمدان ليغفر لنا خطايانا".

ثمَّ يقول الكاهن صلاة شُكر بعد اللقَّان، وهي[٨٨]:

"نشكرك أيها الرَّب الإله، لأنك جعلتنا مستحقين أن نكمِّل **هذا السِّر المقدَّس**. نسأل ونطلب منك يا محب البشر، أنعم علينا بطهارة نفوسنا، ونقاوة الجسد، لنكون أنقياء من كلِّ عيب قبيح، وأضئ نفوسنا وعقولنا. **ولتكشف لنا معرفة هذا السِّر**. ومن الأمثلة تهدينا للاستزادة من العلو[٨٩]، لأنه يليق بك المجد أيها المسيح إلهنا مع أبيك الصَّالح والرُّوح القُدُس[٩٠]، الآن وكلِّ أوان وإلى أبد الدُّهور آمين"[٩١].

٨٨- هذه الصَّلاة عنوانها في إفخولوجيون الطُّوخي هكذا: "صلوة شكر في الآخر أي بعد أخذ البركة".

٨٩- بحسب إفخولوجيون الطُّوخي: "وأهدنا من المثالات إلى العاليات جداً"

٩٠- يضيف إفخولوجيون الطُّوخي: "المحيي المساوي معك".

٩١- في إفخولوجيون الطُّوخي: "الآن ودائماً".

الملاحق

الملحق رقم (١)

شرح لمعنى تعبير "أظهر هذا الماء" في القُدَّاس البيزنطي

بعد استدعاء الرُّوح القُدُس في قول الكاهن: "أنت الآن يا سيِّدنا محب البشر ... هلمَّ الآن بحلول روح قُدسك، قدِّس هذا الماء ...". وهو الاستدعاء الوحيد في التَّقليد البيزنطي كما سبق أن ذكرتُ غير مرَّة، يقول الكاهن: "... لكن أنت يا سيِّد الكُل **أظهر هذا الماء** ماء الفداء، ماء التَّقديس، تطهيراً للجسد والرُّوح، حالاً للعقالات، مغفرة للزَّلات، استنارة للنُّفوس، حميماً لإعادة الولادة، تجديداً للرُّوح، نعمة للتَّبني، سربالاً لعدم الفساد، ينبوعاً للحياة ... الخ".

فهذه الصِّيغة التَّقديسيَّة أي "أظهر هذا الماء" تشبه تماماً ما ورد في قُدَّاس القدِّيس باسيليوس البيزنطي لتقديس الخُبز والخمر، حيث يقول الكاهن: "وأظهر هذا الخُبز كالجسد الكريم نفسه"، وهو ما يقابله في قُدَّاس القدِّيس باسيليوس القبطي في صيغة: "وهذا الخُبز يجعله جسداً مقدَّساً له"، أو ما يقابل هذه الصِّيغة في باقي القُدَّاسات الأُخرى.

فطلب حلول الرُّوح القُدُس هنا، ليس لكي يحوِّل الماء إلى طبيعة غير طبيعته، ولا ليحوِّل الخُبز أو الخمر إلى طبيعة أُخرى غير طبيعتهما. فالتَّقديس، سواء كان تقديساً للماء في قُدَّاس اللقَّان، أو للخُبز والخمر في سرّ الشُّكر، لا يمكن أن يكون تحويلاً مادياً خاضعاً للفحص والاختبار. فالاستدعاء أو التَّقديس ليس لكي تُستبدل المادة الطَّبيعيَّة بمادة تفوق الطَّبيعة، بل لكي تتقدَّس المادة، وتصير وسيلة للشَّركة مع الله، بسرٍّ لا يُعبَّر عنه. ولا عجب في ذلك بعد أن أخذ الله لنفسه جسداً كأجسادنا

لكي يوحِّدنا به من خلال هذا الجسد الذَّاتي الذي اتحد بلاهوته.

فالماء يتقدَّس، لأنه يكون حضوراً للمسيح والرُّوح القُدُس، وكذلك الخُبز والخمر في سرِّ الشُّكر، لأهما يكونان بالحقيقة جسد المسيح ودمه، وحضوره الحي بيننا وفينا. فليس في الكنيسة الأرثوذكسيَّة عبادة للقرابين المقدَّسة ذاهًا، أو من أجل ذاهًا. فالماء يُقدَّس حتى تصبح له قوَّة الغفـــران والفداء والخلاص. أي حتى يكون ما هو مقصودٌ لكلِّ مـــادة أن تكـــون واسطة شركة مع الله واتحاد به.



الملحق رقم (٢)

جانب من الصَّلوات اللّيتورجيَّة للعيد في الكنيسة الأنطاكيَّة

يوجد لدى الطَّقس السِّرياني في إيبارشيَّة العراق السِّريانيَّة التي تتبع الكنيسة الأنطاكيَّة، ألحاناً مبدعة في هذه المناسبة المقدَّسة، أُوردُ فيما يلي النَّذر اليسير منها.

فيقول الطَّقس الأنطاكي بلحن "المسيح اعتمد" ما يلي:
"رأتكَ المياه فارتعدت، والأعماق خافت وارتعشت تهيُّباً من جلالك، ورشت الغمام ماء على النَّهر كي يتبارك من غسلك المقدَّس".

وفي "معنيث"، يقول الطقس السِّرياني:
"لقد اعتمد يسوع الإله الكلمة مخلِّصنا، لا لحاجته إلى العماد، بل لأجل تطهيرنا. فلنصغ ونسمع قول يوحنا: أنا محتاجٌ أن أعتمد منك وأتطهَّر، وأنت يا سيِّدي تأتي إليَّ. فعندما نرى إخلاءه من أجلنا، يجب ألاَّ نضل، ولا نظن أنَّ ذلك نقصٌ في الألوهة. فذاك الذي هو قادرٌ أن يظهر المعمَّد، كيف يمكن أن يُحصى في عداد بقيَّة المتطهِّرين؟ فمن أجل هذا، ينبغي أن نقدِّم لتنازله مجداً لا يُقاس، ونهتف جميعاً: المجد لك يا سيِّد الجميع يا كثير الرَّحمة".

وفي إحدى صلوات عيد الدِّنح في الكنيسة السِّريانيَّة نقرأ:
"يا أبناء النُّور، يا من تنوَّرتم بسرِّ المعموديَّة، ولبستم الشَّمس الأزليَّة، افرحوا بالمعموديَّة التي نلتموها، واسلكوا في نور الإيمان والحب والرَّجاء الحقيقي".

الملحق رقم (٣)

جانب من الصَّلوات اللِّيتورجيَّة للعيد في الكنيسة البيزنطيَّة

ولدى الكنيسة البيزنطيَّة أيضاً طروباريَّات وقنداقات وأوديَّات، تُقال في هذه المناسبة الكنسيَّة.

ففي برامون عيد الغطاس، هناك طروباريَّة تقال باللَّحن الرَّابع تقول: "إنَّ نهر الأردن قد انكفأ راجعاً قديماً، بوشاح أليشع عند صعود إيليا، وانشق الماء إلى هذه الجهة وإلى تلك، فحصلت من المادة الرَّطبة طريقاً يابسة. فكان ذلك رسماً للمعموديَّة حقاً التي بها نجوز سبيل العُمر الزَّائل، المسيح ظهر في الأردن ليُقدِّس المياه".

وفي الأوديَّة الثَّالثة باللَّحن الثَّاني في عيد الظُّهور الإلهي، نقرأ: "عندما أنرت البرايا بأسرها بظهورك أيها المسيح الإله، حينئذ هرب بحر الكُفر المالح، والأردن الجاري أسفل انكفأ راجعاً، رافعاً إيَّانا إلى السَّموات، فوطِّدنا في سمو وصاياك الإلهيَّة بشفاعة والدة الإله وخلِّصنا".



الملحق رقم (٤)

صفحات من مخطوط يوناني عربي قديم لتبريك مياه النِّيل

[illegible]

رئيس الكهنة مع

الاكليروس بالطيب

الكرنوا والشمع

[illegible]

[illegible] والانجيل

المقدس ويأتوا

لخلقان الماء

وهم يصلوا هذه

القطعة [illegible]

في اللحن

الثامن

تعالوا يا جميع

الشعوب

لنسجد للثالوث

استيحن اني
بارك
اكليل
السنة
بطيبك
وتفاعلك
تمتلي
دسما
يقول الشماس
نحجه نستقيم
لسماع الانجيل
المقدس يقول
الكاهن السلام للكل
يقول الشعب وروحك
الانجيل بشارة متى

المراجع

المراجع العربيَّة:

- أحمد أمين، فجر الإسلام، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، القـــاهرة، سنة ١٩٩٦م.

- أرسانيوس عطا الله المحرَّقي (القُمُّص)، الأبصلموديَّة الكيهكيَّة حســـب ترتيب آباء الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة بالدَّير المحرَّق، سنة ١٩٥٦م.

- أقلاديوس يوحنا لبيب (بك)، الأبصـــلموديَّة الكيهكيَّـــة، القـــاهرة، ١٦٢٧ش/ ١٩١١م.

- أقلاديوس يوحنا لبيب (بك)، قاموس اللُّغة القبطيَّة المصـــريَّة، الجـــزء الأوَّل، ١٦١١ش/ ١٨٩٥م.

- الخولاجي المقدَّس، القدَّاسات الثَّلاثة الـــتي للقدِّيســـين باســـيليوس وغريغوريوس وكيرلس، سنة ١٩٠٢م.

- ألفريد بتلر (الدُّكتور)، الكنائس القبطيَّة القديمة في مصر، الجزء الثَّاني، ترجمة إبراهيم سلامة، القاهرة، ١٩٩٣م

- إلياس (أرشيمندريت)، العبادة المسيحيَّة، طرابلس، ١٩٦٥م.

- حنانيا كسَّاب (أرشيمندريت)، مجموعة الشَّرع الكنسي، منشـــورات النُّور، ١٩٧٥م.

- روفائيل الطُّوخي (الأنبا)، الجزء الثَّاني من الإفخولوجيون الذي يشتمل على الصَّلوات المقدَّسة الموجودة بفهرس هذا الكتاب"، طُبع هـــذا الكتـــاب برومية العظمى سنة ١٤٧٨ش/ ١٧٦٢ للتَّجسُّد الإلهي.

- ساويرس بن المقفع (الأنبا) أُسقُف الأشمونين، تاريخ بطاركة الكنيسة المصريَّة المعروف بسير البيعة المقدَّسة، المجلد الثَّاني، الجزء الثَّالث. قام على نشره يسَّى عبد المسيح أمين مكتبة المتحف القبطي سابقاً، وعزيز ســـوريال عطيَّـــة

أستاذ تاريخ العُصور الوُسطى بجامعة الإسكندريَّة سابقاً، وأزولـــد بورمستــر مدرِّس أوَّل اللُّغات القديمة بجامعة الإسكندريَّة سابقاً، القاهرة ١٩٥٩م.

- سكرتارية المجمع المقدَّس، القرارات المجمعيَّة في عهد صـــاحب القدَّاســة والغبطة البابا شنوده الثَّالث، من سنة ١٩٧١ حتى سنة ٢٠٠١م، نوفمبر ٢٠٠١م.

- سكرتارية المجمع المقدَّس، القرارات المجمعيَّة في عهد صـــاحب القداســة والغبطة البابا شنوده الثَّالث الـــ (١١٧)، القاهرة، الطَّبعة الأولى، نوفمبر ١٩٩٦م.

- سليم سليمان الفيومي، مختصر تاريخ الأُمَّة القبطيَّة، القاهرة، ١٩١٤م.

- شمس الرِّئاسة أبو البَّركات (القس) المعروف بابن كبر، كتاب مصباح الظُّلمة في إيضاح الخدمة، الجزء الأوَّل، مكتبة الكاروز، القـــاهرة، ١٩٧١م، تحقيق الأب سمير خليل اليسوعي.

- صليب سوريال (القُمُّص)، دراسات في كتاب المجموع الصَّفوي لابن العسال، القاهرة، مايو ١٩٩٢م.

- صموئيل (الأنبا) أُسقُف شبين القناطر وتوابعها، ترتيب البيعـــة عـــن مخطوطات البطريركيَّة بمصر والإسكندرية ومخطوطات الأديرة والكنائس، الجزء الثَّاني، كيهك، طوبة، أمشير، القاهرة، ٢٠٠٠م.

- علي إبراهيم حسين (الدُّكتور)، مصر في العُصور الوُسطى، عن وطنيَّة الكنيسة القبطيَّة وتاريخها،

- غُبريال الخامس (الأنبا)، التَّرتيب الطَّقسي، حقَّقه ونشره الأب ألفونس عبد الله الفرنسيسكاني، ضمن مطبوعات المركز الفرنسيســـكاني للدِّراســـات المسيحيَّة الشَّرقيَّة، سلسلة دراسات شرقيَّة مسيحيَّة، القاهرة ١٩٦٤م.

- فردريك و. فارار، حياة المسيح، تعريب الدُّكتور جـــورج يوســـف عقداوي، المنصورة، ١٩٤٩م.

- مجلَّة النُّور، العددان ٩، ١٠ تشرين ثاني وكانون ثاني سنة ١٩٧١م.

- مجلَّة حياتنا اللِّيتورجيَّة، السَّنة الثَّانية، ١٩٩١م، العدد ١٤

- مجلَّة حياتنا اللِّيتورجيَّة، العدد ١٣، السنة الثانية، ١٩٩٠م.

- مجلَّة حياتنا اللِّيتورجيَّة، العدد ١٤، سنة ١٩٩١م.

- مجلَّة حياتنا اللِّيتورجيَّة، دراسات، السَّنة السَّابعة، ١٩٩٦- ١٩٩٧م، لبنان، ١٩٩٧م.

- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر.

- وليم سليمان قلادة (الدُّكتور)، الدِّسقوليَّة - تعاليم الرُّسُل، الطَّبعة الأولى، القاهرة، سنة ١٩٧٩م.

- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، كتاب الجوهرة النَّفيسة في علوم الكنيسة، حقَّقه ونقله إلى اللاتينيَّة الأب فيكتور منصور مستريح الفرنسيسي، مؤلَّفات المركز الفرنسيسكاني للدِّراسات الشَّرقيَّة المسيحيَّة، القاهرة، ١٩٦٦م.

- يوحنا سلامة (القُمُّص)، اللآلئ النَّفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، الجزء الأوَّل، الطَّبعة الثَّالثة، مصر، ١٩٦٥م.

-ألكسندر شميمان (الأب)، بالماء والرُّوح، منشورات النُّور، بيروت، ١٩٨٨م.

المراجع الأجنبيَّة:

- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, English Edition By F.L. Cross, London, 1958.

- Burkitt, Le journal of theological stud., t. VI, 1904.

- Burmester, O.H.E. KHS, *The Canons of Cyril III Ibn Laklak 75th Patriarch of Alexandria A.D. 1235- 1250*, dans Bulletin de la société d'archéologie copte (BSAC), t. 12, 1947.

- Burmester, O.H.E. Khs, *The Egyptian or Coptic Church, A Detailed Description of her Liturgical Services and the Rites and Ceremonies Observed in the Administration of her sacraments*, Publications de la Société d'Archéologie Copte. Textes et Documents, X, Le Caire, 1967.

- Burmester, O.H.E. KHS, *The Greek Kirugmata, Versicles and Responses and Hymns in the Coptic Liturgy*, Roma 1936.

- Bute et Budge, E.W., *The blessing of the waters on the Eve of the Epiphany, (Textes latin, russe, syriaque, copte et grec avec traduction)*, London, 1901.

- Cross, F.L., & Livingstone, E.A., The Oxford Dictionary of The Christian Church (ODCC), (2nd edition), 1988.

- Davis, J.G., A Dictionary of Liturgy and Worship, SCM Press LTD, 1972.

- Etherie, *Journal de voyage*, sources chrétiennes, n. 21, Paris, 1948.

- Le journal of the Royal Asiatic Society, 1896.

- Lemarié, J., *La manifestation du seigneur*, Les Orndi 23, Paris, 1957.

- Leon le grand, *sermons*, sources chrétiennes, no. 22, cerf. Paris, 1964.

- Otto Menardus, *A Comparative Study on the Sources of the Synaxarium of the Coptic Church*, dans Bulletin de La Société d'Archéologie Copte (BSAC), t. 17, Le Caire, 1964.

- P. de Puniet, *Bénédictions de l'eau*, dans dictionnaire d'archéologie chrétienne et de liturgie (DACL), Tome 2, Paris, 1925.

- Seybold, *Severus Ben El-Moqaffa, Historia Patriachorum Alexandrinorum*, 1,1, Corpus scriptorum christianorum orientalium (CSCO), vol. 52, Scriptorum Arabici, Tomus 8, Louvain, 1962.



الدُّرَّة الطَّقسيَّة للكنيسة القبطيَّة
بين الكنائس الشَّرقيَّة

للرَّاهب القس أثناسيوس المقاري
www.athanase. net
E-mail: father@athanase.net

◆ السِّلسِلة الأولى: مصادر طقوس الكنيسة

الرَّقم	اسم الكتاب	تاريخ النَّشر
١/١	الدِّيداخي أي تعليم الرُّسل (طبعة ثانية)	يناير ٢٠٠٦م
١/٢	التَّقليد الرَّسولي (طبعة ثانية)	ديسمبر ٢٠٠٦م
١/٣	المراسيم الرَّسوليَّة - دراسة موجزة — نص الكتاب الثَّامن	أكتوبر ٢٠٠٤م
١/٦	فهرس كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة - الكتابات اليونانيَّة	يناير ٢٠٠٣م
١/٧	فهرس كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة - الكتابات القبطيَّة	يوليو ٢٠٠٦م
١/١٠	قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة (طبعة ثانية)	ديسمبر ٢٠٠٦م
١/١١	قوانين هيبوليتس القبطيَّة	أكتوبر ٢٠٠٤م
١/١٤	قوانين بطاركة الكنيسة القبطيَّة في العُصور الوُسطى	يوليو ٢٠١٠م

◆ السِّلسِلة الثَّانية: مقدِّمات في طقوس الكنيسة

الرَّقم	اسم الكتاب	تاريخ النَّشر
٢/١	الكنائس الشَّرقيَّة وأوطانها- الجزء الأوَّل: رؤية عامة—كنيسة المشرق الآشوريَّة (طبعة ثانية)	أكتوبر ٢٠٠٦م
٢/٢	الكنائس الشَّرقيَّة وأوطانها - الجزء الثَّاني: كنيسة مصر	يناير ٢٠٠٧م
٢/٣	الكنائس الشَّرقيَّة وأوطانها - الجزء الثَّالث: الكنائس الشَّرقيَّة القديمة (طبعة ثانية)	أكتوبر ٢٠٠٦م
٢/٤	الكنائس الشَّرقيَّة وأوطانها - الجزء الرَّابع: الكنائس البيزنطيَّة	يناير ٢٠٠٥م
٢/٥	الكنيسة، مبناها ومعناها (طبعة ثانية)	مايو ٢٠٠٨م
٢/٦	مُعجَم المصطَّلحات الكنسيَّة، الجزء الأوَّل (طبعة ثالثة)	مارس ٢٠١١م
٢/٧	مُعجَم المصطَّلحات الكنسيَّة، الجزء الثَّاني (طبعة ثانية)	سبتمبر ٢٠٠٥م
٢/٨	مُعجَم المصطَّلحات الكنسيَّة، الجزء الثَّالث (طبعة ثانية)	سبتمبر ٢٠٠٨م
٢/٩	الملامح الوثائقيَّة والِّليتورجيَّة لكنيسة الإسكندريَّة في الثَّلاثة قرون الأولى	أكتوبر ٢٠١١م

◆ السّلسّلة الثّالثة: طقوس أسرار وصلوات الكنيسة

الرّقم	اسم الكتاب	تاريخ النّشر
٣/١	معموديّة الماء والرّوح (طبعة ثانية)	سبتمبر ٢٠٠٩م
٣/٢	سرّ الرّوح القُدُس والميرون المقدّس	مارس ٢٠٠٧م
٣/٣	تسبحة نصف اللّيل والسّحَر (طبعة ثانية)	نوفمبر ٢٠١١م
٣/٤	صلوات رفع البُخور في عشيّة وباكر (طبعة ثانية)	نوفمبر ٢٠١١م
٣/٥	القُدّاس الإلهي سرّ ملكوت الله، الجزء الأوّل (طبعة ثانية)	مايو ٢٠١١م
٣/٦	القُدّاس الإلهي سرّ ملكوت الله، الجزء الثّاني (طبعة ثانية)	مايو ٢٠١١م
٣/٧	الدّبلة والإكليل (طبعة ثانية)	نوفمبر ٢٠٠٩م
٣/٨	الأجبية أي صلوات السّواعي (طبعة ثانية)	أكتوبر ٢٠١٠م
٣/٩	التّاريخ الطّقسي لسرّ التّوبة والاعتراف	أكتوبر ٢٠٠٧م
٣/١٠	الكهنوت المقدّس والرّتب الكنسيّة — الجزء الأوّل	يوليو ٢٠١١م
٣/١١	الكهنوت المقدّس والرّتب الكنسيّة — الجزء الثّاني	يوليو ٢٠١١م

◆ السّلسّلة الرّابعة: طقوس أصوام وأعياد الكنيسة

الرّقم	اسم الكتاب	تاريخ النّشر
٤/١	الزّمن الطّقسي بين عيدي النّيروز والصّليب	يوليو ٢٠٠٩م
٤/٣	الميلاد البتولي والظّهور الإلهي	يناير ٢٠١١م
٤/٤	صوم نينوى والصّوم المقدّس الكبير	يناير ٢٠٠٩م
٤/٥	البَصخة المقدّسة — الجزء الأوّل	يناير ٢٠١٠م
٤/٦	البَصخة المقدّسة — الجزء الثّاني	يناير ٢٠١٠م



يُطلب من

مكتبة مجلّة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا - القاهرة ت/ ٢٥٧٧٠٦١٤

والمكتبات المسيحيَّة والكنسيَّة

كما يُطلب من

الأستاذ المحاسب **مينا سمير أنطون** ت/ ٠١٠١١١٦٦١٨

E-mail: minasas2001@yahoo.com